التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة القصص و سورة العنكبوت

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (سابقاً)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف



المجلد الثالث والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القصص وسورة العنكبوت)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والعشرون - سورة القصص وسورة العنكبوت/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٦٨٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٨٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٤٨٩٧

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٤٨٩٧

ردمك: ٢-٨٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

الدرر السنية
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القصص وسورة العنكبوت)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤَسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

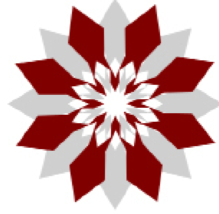
الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

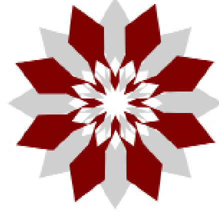
المجلد الثالث والعشرون

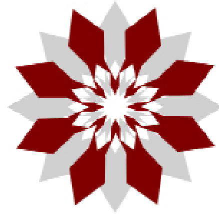
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ القَصَصِ







سورةُ القَصَصِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (القَصَصِ)[1].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ القَصَصِ مَكِّيَّةٌ[2]، وحُكِيَ الاتِّفاقُ على ذلك[3].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بـ(سورة القَصَص)؛ لوُقوعِ لَفظِ القَصَصِ فيها عندَ قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] أي: قَصَّ موسى على الرَّجُلِ الصَّالحِ ما لَقِيَه في مِصرَ قبلَ خروجِه منها، ولا يُعرَفُ لهذه السُّورةِ اسمٌ آخَرُ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦١).

قال ابنُ عاشور: (فلمَّا حُكِيَ في السُّورةِ ما قَصَّه موسى كانت هاتِه السُّورةُ ذاتَ قَصَصٍ لحكايةِ قَصَصٍ، فكان القَصَصُ متوَغِّلًا فيها. وجاء لفظُ القصَصِ في سورة «يوسُفَ»، ولكِنَّ سورة «يوسُفَ» نزَلَتْ بعدَ هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦١).

وقد ورَدَتْ بعضُ الآثارِ فيها تسميةُ هذه السُّورةِ بهذا الاسمِ؛ منها ما أخرجه النَّحَّاسُ (ص: ٦١٢)، وابنُ الضُّرَيْسِ، وابنُ مَرْدَوَيْهِ -كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٨٩)-، عن ابن عبَّاسٍ رَضِي الله عنهما.

وكذلك ما أخرجه ابنُ مَرْدَوَيْهِ -كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٨٩)- عن عبد الله بنِ الزُّبَيرِ رضِيَ الله عنهما.

(٢) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً نزلت بالجُحْفةِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص: ٨٥]. وقيل: مكِّيَّةٌ إلا الآياتِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] إلى قَولِه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١).

(٣) ممَّن نقل الاتِّفاقَ على ذلك: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصدِ هذه السُّورةِ:

١- بيانُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى في إهلاكِ الظَّالِمينَ والمغرورين، حتَّى ولو سانَدَتْهم جميعُ قُوى الأرضِ[١].

٢- تَثبيتُ المؤمِنينَ، وتَقويةُ عزائِمِهم، وتَبشيرُهم بأنَّ العاقِبةَ لهم[٢].

٣- التَّواضُعُ لله، المُستَلزِمُ لرَدِّ الأمرِ كُلِّه إليه[٣].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ موضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ، والتَّعريضُ بأنَّ بُلَغاءَ المُشرِكينَ عاجِزونَ عن الإتيانِ بسورةٍ مِثلِه.

٢- ذِكرُ طُغيانِ فِرعَونَ وإفسادِه، ووعْدُ اللهِ بإنقاذِ المُضطهَدِينَ، وعُقوبةِ المفسِدينَ.

٣- ذِكرُ ميلادِ موسى عليه السَّلامُ، ورعايةِ اللهِ له وحِفظِه، وإيتائِه الحُكْمَ والعِلمَ.

٤- حديثُ القِبطيِّ والإسرائيليِّ، وهِجرةُ موسى عليه السَّلامُ مِن مِصرَ إلى مَدْينَ، وسَقْيُه للمَرأتينِ، وزواجُه مِن ابنةِ الرَّجُلِ الصَّالح مُقابلَ العَمَلِ لديه، ثمَّ خروجُه مِن مَدْينَ، وظُهورُ آثارِ النُبُوَّةِ، وتأييدُ الله له بالمُعجِزاتِ، وبَعْثُه وأخيه

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٣).

هارونَ عليه السَّلامُ إلى فِرعَونَ.

٥- تسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابَه مِن قَومِه، وبيانُ ما يدُلُّ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يستطيعُ أن يَهديَ مَن يحِبُّه، وأنَّ الهدايةَ بيدِ الله وحْدَه، وحكايةُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ مع الرَّدِّ عليها، وحكايةُ جانبٍ مِن المصيرِ السَّيِّئِ الَّذي ينتظرُهم يومَ القيامةِ.

٦- قِصَّةُ قارونَ، وبَغيُه على قَومِ موسى عليه السَّلامُ، واغترارُه بمالِه، وعاقِبةُ البَغيِ والتَّكَبُّرِ.

٧- خُتِمت السُّورةُ بالأمرِ بإخلاصِ العبادةِ لله، والنَّهيِ عن الإشراكِ به.



الآيات (١-٦)

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِيَعٗا﴾: أي: فِرَقًا وأصنافًا، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعفةٍ[١].

﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾: أي: يَتركُهنَّ أحياءً فلا يقتُلهنَّ، مِن الحياةِ، وهي خِلافُ الموتِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

تبدأُ السُّورةُ ببَعضِ الحُروفِ المقَطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ، وتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثون بها.

تلك الآياتُ العظيمةُ آياتُ القُرآنِ الواضحِ الجليِّ، المظهرِ الحقَّ مِن الباطلِ.

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى ما سيَقُصُّه على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩).

فيقول: نحن نقُصُّ عليك -يا محمَّدُ- في هذا القُرآنِ مِن خبَرِ موسى وفِرعَونَ بالحَقِّ الَّذي لا شَكَّ فيه لِقَومٍ يُؤمِنون.

إنَّ فِرعَونَ طغى وتكبَّرَ في أرضِ مِصرَ، وجعل أهلَ مملكتِه فِرَقًا وأصنافًا مختلفةً، يستعبِدُ بني إسرائيل ويُهينُهم ويُذِلُّهم؛ بذبحِ أبنائِهم الذُّكورِ، وتَرْكِ إناثِهم أحياءً، إنَّه كان مِن المُفسِدين.

ونريدُ أن نُنعِمَ على بني إسرائيلَ المُستضعَفينَ في الأرضِ، فنُهلِكَ أعداءَهم، ونجعَلَهم أئمَّةً متَّبَعينَ، ونجعَلَهم الوارثينَ لِفرعَونَ وآلِه مِن بعدِ إهلاكِهم، ونمكِّنَ لبني إسرائيلَ في أرضِ مِصرَ، ونُرِيَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما ما كانوا يخافونَه مِن زوالِ مُلكِهم على أيدي بني إسرائيلَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طسٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: تلك الآياتُ العَظيمةُ العاليةُ آياتُ القُرآنِ الواضحِ الجليِّ، المظهِرِ الحقَّ مِن الباطلِ، ولكلِّ أمرٍ يحتاجُ إليه العبادُ؛ مِن معرفةِ ربِّهم، وحقوقِه، وأوليائِه وأعدائِه، ووقائعِه وأيامِه، إلى غيرِ ذلك، الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، ومنها أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

نُبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ، وأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ(١).

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾.

أي: نقرأُ ونقُصُّ عليك -يا محمَّدُ- في هذا القُرآنِ مِن(٢) خبَرِ موسى وفِرعَونَ بالصِّدقِ الَّذي لا شَكَّ فيه، لِقَومٍ يُؤمِنونَ بهذا القُرآنِ، فهُم به يهتَدونَ ويعتَبِرونَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف: ٣].

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ ﴾.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ طغَى وتجبَّر وتكبَّر في الأرضِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧، ٨).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿ تِلْكَ ﴾ أي: هذه ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: الواضحِ الجَليِّ، الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، وعِلْمِ ما قد كان وما هو كائنٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

(٢) قال الألوسي: (الظَّاهِرُ أنَّ ﴿ مِن ﴾ تبعيضيَّةٌ، وجوَّز بعضُهم كونَها بيانيَّةً، وكَوْنَها صِلةً على رأيِ الأخفَشِ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩، ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

قال الماوَرْديُّ: (وهذه الأرضُ أرضُ مِصرَ؛ لأنَّ فِرعَونَ مَلَكَ مِصرَ، ولم يَملِكِ الأرضَ =

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

أي: وجعَلَ فِرعَونُ أهلَ مملكتِه أقسامًا وأصنافًا متفَرِّقةً(١).

= كُلَّها، ومِصرُ تُسمَّى الأرضَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٧٧).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن تجعَلَ المرادَ بالأرضِ جميعَ الأرضِ، يعني: المشهورَ المعروفَ منها، فإطلاقُ الأرضِ كإطلاقِ الاستِغراقِ العُرفيِّ...، فالمعنى: أرضُ مملكتِه، وكان عُلُوِّه أقوى مِن عُلوِّ ملوكِ الأرضِ وسادةِ الأقوام). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).

وقال الماوَرْدي: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: ببَغْيِه في استِعبادِ بني إسرائيلَ وقتْلِ أولادِهم، قاله قَتادةُ. الثَّاني: بكُفرِه وادِّعاءِ الرُّبوبيَّة. الثَّالثُ: بمُلكِه وسُلطانِه... وفي عُلوِّه وجهانِ؛ أحدُهما: هو لِظُهورِه في غلَبتِه. الثَّاني: كِبْرُه وتَجَبُّرُه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٩).

وقال الواحديُّ: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾... قال المفسِّرون: استكبرَ وتجبَّر وبغى، وتعظَّمَ وطغى. كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (١٧/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا وأصنافًا في أنواعِ الخدمةِ والتَّسخيرِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣).

وقيل: جعَلَهم شِيعًا، أي: فِرَقًا على أهواءٍ مختلفةٍ، وألقَى بيْنَهم التَّشاحنَ، وأغرَى بينَ القبطِ وبني إسرائيلَ، وشتَّت كلمتَهم؛ لِيَتمكَّنَ مِن التسلُّطِ عليهم. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٥). =

﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: يستعبدُ فِرعَونُ منهم بني إسرائيلَ[١]، ويُهينُهم ويُذِلُّهم[٢].

﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾.

أي: يأمُرُ بذَبحِ أبناءِ بني إسرائيلَ الذُّكورِ[٣]، ....

= وقيل: المُرادُ بالشِّيَع ما فسَّره بقولِه: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: يستخدمُهم ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨).

(١) قال ابن عاشور: (الطَّائفةُ المُستضعَفةُ هي طائفةُ بني إسرائيلَ، وضميرُ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ عائدٌ إلى ﴿أَهۡلَهَا﴾ لا إلى ﴿شِيَعٗا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

قيل: إنَّه كان يَستعمِلُهم في أخَسِّ الأعمالِ، ويُسَخِّرُهم في الأعمالِ الشاقَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

(٣) واختُلِف في السَّببِ الَّذي مِن أجْلِه أمَر فرعونُ بتذبيحِ أبنائِهم:

فقيل: خوفًا مِن أن يَكثُروا فيَغمُروا بلادَه، فيَصيرَ النُّفوذُ والمُلكُ إليهم. وممَّن قال بذلك: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩).

ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٤).

وقيل: لأنَّ المنجِّمينَ في ذلك العصرِ أخبَروه أنَّه يَذهَبُ مُلْكُه على يدِ مولودٍ مِن بني إسرائيلَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

وضعَّف الرازيُّ إسنادَ مِثلِ هذا الخبرِ إلى المنجِّمينَ والكهَنةِ، وذكر أنَّ الأَولى بالقَبولِ أن يكونَ بعضُ الأنبياءِ قبْلَ موسى هم الَّذين بشَّروا بهذا، فوصَل إلى مَسامعِ فِرعونَ ما بشَّروا به. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨).

قال ابن كثير: (وكانت القِبْطُ قد تَلَقَّوْا هذا [أي: ذهابَ ملكِ فرعونَ وهلاكَه على يدِ هذا المولودِ] مِن بَني إسرائيلَ فيما كانوا يَدرُسونَه مِن قولِ إبراهيمَ الخليلِ، حينَ وَرَد الدِّيارَ المِصريَّةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢١). =

ويَترُكُ إناثَهم أحياءً[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ كان مِن المفسِدينَ في الأرضِ، بالكُفرِ والعِصيانِ، والتجبُّرِ وعَمَلِ السُّوءِ؛ ومِن ذلك سَعيُه بالتَّفريقِ بينَ الخَلقِ[٢].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

= وقال ابن عثيمين: (ولا يَبعُدُ أن يكونَ الأمْرانِ جميعًا قد صارَا عِلَّةً لهذا الفعلِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٣).

وقال الواحدي: (قوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، والمرادُ بذلك: أنَّه يأمرُ بالذبحِ فيُمتثَلُ أمرُه). ((البسيط)) (٣/ ٩٣).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩، ٧٠).

قيل: هذا بيانٌ لمجمَلِ قولِه تعالى: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾. وممَّن نصَّ على ذلك: الواحديُّ، والبقاعي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٠).

والمقصدُ مِن استحياءِ النساءِ: قيل: يَتركونَهُنَّ أحياءً للخدمةِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والنسفي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٥١)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٦).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ إهانةً لهم واحتقارًا، وخوفًا مِن أن يوجَدَ منهم الغلامُ الَّذي كان قد تَخوَّفَ هو وأهلُ مملكتِه مِن أن يوجَدَ منهم غلامٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

وقيل: يَستَحْيُونَ النِّساءَ للاسترقاقِ والاستِخدامِ. واختاره الماوَرْديُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).

وقيل: هذا الاستِحْياءُ للإناثِ كان المقصدُ منه خبيثًا، وهو أن يَعتَدوا على أعراضِهِنَّ ولا يجِدْنَ بُدًّا مِن الإجابةِ بحُكمِ الأسرِ والاسترِقاقِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ونريدُ أن نتفضَّلَ ونُنعِمَ على بني إسرائيلَ الَّذين استضعَفَهم فِرعَونُ في الأرضِ، فنُهلِكَ أعداءَهم، ونُزيلَ السُّوءَ عنهم(١).

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾.

أي: ونجعَلَ بني إسرائيلَ أئمَّةً(٢) متَّبَعينَ، يُقتدَى بهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٠).

(٢) قيل: أئمَّةً: أي: في الدِّين، وقادةً في الخير. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلٌ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٣).

وقيل: المعنى: وُلاةً ومُلوكًا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: قادةً في الخيرِ ودعاةً إليه، وولاةً على الناسِ وملوكًا فيهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣).

قال ابن عاشور: (فأمَّا جَعْلُهم أئمَّةً فذلك بأن أخرَجَهم مِن ذُلِّ العبوديَّة، وجعَلَهم أُمَّةً حُرَّةً مالكةً أمرَ نفْسِها، لها شريعةٌ عادلةٌ، وقانونُ مُعامَلاتِها، وقوَّةٌ تَدفَعُ بها أعداءَها، ومملكةٌ خالصةٌ لها، وحضارةٌ كاملةٌ تَفوقُ حضارةَ جيرتِها، بحيث تَصيرُ قُدوةً للأُمَمِ في شؤونِ الكمالِ وطلَبِ الهَناءِ، فهذا معنَى جَعْلِهم أئمَّةً، أي: يَقتدي بهم غيرُهم، ويَدْعون النَّاسَ إلى الخيرِ، وناهيك بما بلغه مُلكُ بني إسرائيلَ في عهدِ سُليمانَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

أي: ونجعَلَ بني إسرائيلَ وارِثينَ لملكِ فِرعَونَ وأرضِه مِن بعدِ إهلاكِنا له[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ونُوطِّئَ لبني إسرائيلَ في الأرضِ، ونجعَلَهم مُقتَدِرينَ على التَّصرُّفِ والاستقرارِ فيها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣). =

﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾.

أي: ونريدُ أن نُريَ فِرعَونَ وهامانَ[1] وجُنودَهما ما كانوا يخافونَه مِن زَوالِ مُلكِهم على أيدي بني إسرائيلَ[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ مَن علا في الأرضِ، وطَلَبَ العُلُوَّ على الخلْقِ؛ فهو شبيهٌ بفِرعَونَ ووارثُه، وبئسَ الرَّجُلُ مَن كان فِرعَونُ إمامَه[3]!

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تمهيدُ القِصَّةِ بعُلُوِّ فِرعَونَ وفسادِ أعمالِه يشيرُ إلى أنَّ ذلك هو سببُ الانتقامِ منه، والأخْذِ بنصرِ المستضعَفينَ؛ لِيَحذرَ الجبابرةُ سوءَ عاقبةِ ظُلمِهم، ولِيَرجوَ الصابرون على الظُّلمِ أنْ تكونَ العاقبةُ لهم[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أنَّ العُلُوَّ في

= قيل: الأرضُ هنا هي أرضُ مِصرَ والشَّام. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، وأبو السعود. يُنظر: المصادر السابقة.

(١) قال ابن عطية: (وهامانُ هو وزيرُ فِرعونَ، وأكبرُ رجالِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦). وممَّن ذكر أنَّه كان وزيرَ فِرعَونَ: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

الأرضِ، والعُتُوَّ على الخلْقِ، والسَّعْيَ بيْنَهم بالتَّفريقِ: يُعَدُّ مِن الإفسادِ، وذلك من قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ويَتَّضِحُ مِن الآيةِ أنَّه مَن كان على نقيضِ ذلك؛ مِن التَّواضُعِ للحقِّ والخلْقِ، وجَمْعِ شمْلِ الأُمَّةِ، وقَصْرِ عُدوانِه عنها: يكونُ مِن المصلِحِينَ، وكما قيلَ: «وبضِدِّها تتميَّزُ الأشياءُ»(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أنَّ الأُمَّةَ المُستضعَفةَ -ولو بلغتْ في الضَّعْفِ ما بلغَتْ- لا ينبغي لها أنْ يستوليَ عليها الكَسلُ عن طَلَبِ حقِّها، ولا الإياسُ مِن ارتقائِها إلى أعلَى الأمورِ، خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذَ اللهُ أُمَّةَ بني إسرائيلَ -الأُمَّةَ الضَّعيفةَ- مِن أسْرِ فِرعَونَ ومَلَئِه، ومَكَّنَهم في الأرضِ، ومَلَّكَهم بلادَهم(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ إظهارُ أنَّ العُلُوَّ الحقَّ للهِ تعالى وللمؤمِنينَ، وأنَّ عُلُوَّ فِرعَونَ لم يُغْنِ عنه شَيئًا في دفْعِ عواقِبِ الجَبروتِ والفسادِ؛ لِيَكونَ ذلك عِبرةً لجبابرةِ المُشرِكين مِن أهلِ مكَّةَ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ هذا القرآنَ مكتوبٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، ومعلومٌ أنَّ كتابةَ القرآنِ مُتحقِّقةٌ في ثلاثةِ أماكنَ: في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي صُحُفِ الملائكةِ، وفي المصاحفِ الَّتي بينَ أيدينا(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أنَّ آياتِ اللهِ تعالى وعِبَرَه وأيَّامَه في الأمم السَّابقةِ إنَّما يَستفيدُ بها ويَستنيرُ المؤمِنون، فعلى حَسَبِ إيمانِ العبدِ تكونُ عِبرَتُه، وإنَّ اللهَ تعالى إنَّما يَسوقُ القَصَصَ لأجْلِهم، وأمَّا غيرُهم فلا يَعبأُ اللهُ بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدًى[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا ﴾ أنَّ بني إسرائيلَ هم مِن أهلِ مصرَ، مع أنَّهم في الأصلِ مِن أهلِ الشَّام، فيتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ مَن سَكَنَ أرضًا وأقامَ فيها -وإنْ لم يكُنْ مِن أهلِها في الأصلِ- نُسِبَ إليها، وصار مِن أهلِها[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أنَّ تفريقَ الأُمَّةِ سببٌ لفَشَلِها وذُلِّها، وفِرعَون هو أوَّلُ مَن جَعَل أهلَ الأرضِ شِيَعًا؛ حتى يَسُودَ عليهم[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، وقولِه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤]، وقولِه: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠]؛ دَلالةٌ على أنَّ الأفعالَ قد تكونُ قبيحةً مذمومةً قبْلَ مجيءِ الرَّسولِ إلى النَّاسِ، فقد أخبرَ سُبحانَه عن فِرعَونَ أنَّه ظالمٌ وطاغٍ ومُفسدٌ هو وقَومُه -وهذه أسماءُ ذَمِّ الأفعالِ-؛ والذَّمُّ إنَّما يكونُ في الأفعالِ السَّيِّئةِ القبيحةِ؛ إلَّا أنَّهم لا يَستحِقُّونَ العذابَ إلَّا بعدَ مجيءِ الرَّسولِ إليهم؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[(٤)] [الإسراء: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧).

٦- النَّاسُ أربَعةُ أقسامٍ:

القِسْمُ الأوَّلُ: يُريدونَ العُلُوَّ على النَّاسِ والفسادَ في الأرضِ، وهو مَعصيةُ اللهِ، وهؤلاء الملوكُ والرُّؤساءُ المُفسِدونَ؛ كفِرعَونَ وحِزبِه. وهؤلاء هم شِرارُ الخَلقِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ ...))، ثمَّ قال: ((الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ))[١]. فبطَرُ الحَقِّ: دَفْعُه وجَحْدُه. وغَمْطُ النَّاسِ: احتِقارُهم وازدِراؤُهم، وهذا حالُ مَن يريدُ العلُوَّ والفَسادَ.

والقِسْمُ الثَّاني: الَّذين يريدونَ الفَسادَ بلا علُوٍّ؛ كالسُّرَّاقِ، والمجرِمينَ من سَفِلةِ النَّاسِ.

والقِسمُ الثَّالثُ: يريدونَ العُلُوَّ بلا فسادٍ؛ كالَّذين عندَهم دِينٌ يُريدون أن يَعلُوا به على غيرِهم مِنَ النَّاسِ.

وأمَّا القِسمُ الرَّابعُ: فهُم أهلُ الجنَّةِ الَّذين لا يريدونَ علوًّا في الأرضِ ولا فَسادًا، مع أنَّهم قد يكونونَ أعلَى مِن غَيرِهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] [المنافقون: ٨].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وكم ممَّن يريدُ العُلوَّ ولا

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٩٢).

يَزيدُه ذلك إلَّا سُفولًا؟! وكم ممَّن جُعِلَ مِن الأعلَينَ، وهو لا يريدُ العلُوَّ ولا الفَسادَ؟! وذلك لأنَّ إرادةَ العُلوِّ على الخَلقِ ظُلْمٌ؛ لأنَّ النَّاسَ مِن جنسٍ واحدٍ؛ فإرادةُ الإنسانِ أن يكونَ هو الأعلَى، ونظيرُه تحتَه: ظُلْمٌ، ومع أنَّه ظُلمٌ فالنَّاسُ يُبغِضونَ مَن يكون كذلك ويُعادونَه؛ لأنَّ العادِلَ منهم لا يحِبُّ أن يكونَ مَقهورًا لِنَظيرِه، وغيرُ العادِلِ منهم يُؤْثِرُ أن يكونَ هو القاهِرَ، ثمَّ إنَّه مع هذا لا بُدَّ له -في العَقلِ والدِّينِ- مِن أن يكونَ بَعضُهم فوقَ بَعضٍ، كما أنَّ الجَسَدَ لا يَصلُحُ إلَّا برأسٍ؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فجاءت الشَّريعةُ بصَرفِ السُّلطانِ والمالِ في سَبيلِ اللهِ. فإذا كان المقصودُ بالسُّلطانِ والمالِ هو التقَرُّبَ إلى اللهِ، وإنفاقَ ذلك في سَبيلِه؛ كان ذلك صلاحًا للدِّينِ والدُّنيا، وإن انفرَدَ السُّلطانُ عن الدِّينِ، أو الدِّينُ عن السُّلطانِ؛ فسَدَت أحوالُ النَّاسِ(١).

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أرادَ فرعونُ بحَوْلِه وقوَّتِه أنْ ينجوَ مِن موسَى، فما نَفَعه ذلك مع قَدَرِ الملِكِ العظيمِ الَّذي لا يُخالَفُ أمرُه القَدَريُّ، بل نَفَذ حُكمُه، وجرَى قَلَمُه في القِدَمِ بأنْ يكونَ إهلاكُ فِرعونَ على يَدَيه، بل يكونُ هذا الغلامُ الَّذي احترَزْتَ مِن وُجودِه، وقتلْتَ بسببِه ألوفًا مِنَ الوِلْدانِ إنَّما مَنْشَؤُه ومَرْباهُ على فِراشِكَ وفي دارِك، وغذاؤُه مِن طعامِكَ وشرابِكَ، وأنت تُرَبِّيه وتُدلِّلُه وتَتَفَدَّاه، ثمَّ يكونُ حَتْفُك وهلاكُكَ وهلاكُ جنودِك على يدَيه؛ لِتَعلَمَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٩٣).

أنَّ ربَّ السَّمواتِ العُلا هو القادرُ الغالبُ العظيمُ، العزيزُ القويُّ الشَّديدُ المِحالِ، الَّذي ما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ[1].

٩- أنَّ مَنِ استُضعِفَ لقيامِه بالحقِّ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ العاقبةُ له؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وإنْ كان في سياقِ بني إسرائيلَ، فغيرُهم داخلٌ في العمومِ اللَّفظيِّ إذا قُلْنا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ في أيِّ مكانٍ وزمانٍ، أو العمومِ المعنويِّ وذلك بقياسِ غيرِهم عليهم.

فإن قيل: إنَّ هناك أُناسًا استُضعِفوا بالحقِّ، وقُتِلوا، أو طُرِدوا، أو ما أشبَهَ ذلك؛ فأين العاقبةُ الَّتي تزعمون؟!

فالجوابُ: أنَّ العاقبةَ لا تكونُ للشَّخصِ الجسديِّ فقط! بل تكونُ أيضًا لِلشَّخصِ المعنويِّ؛ فمقالتُه هذه لا بُدَّ أنْ تُنْصَرَ، فالنَّصرُ لقائلِ الحقِّ في حياتِه، أو لمقالتِه بعدَ وفاتِه[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الإشارةُ إلى حكمةِ قولِه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] في جانبِ بني إسرائيلَ، و قولِه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] في جانبِ فِرعَونَ؛ إذْ كانوا فَرِحينَ باستخدامِ بني إسرائيلَ، وتدبيرِ قطْعِ نسْلِهم[3]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أنَّ المسلمينَ إذا استَولَوا على بلادِ الكفَّارِ مَلَكوها، والوارثُ يَملِكُ ما وَرِثَ، فهُمُ الَّذين يَجعلُهم اللهُ الوارثينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢١)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٤، ٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

ولهذا قال أهلُ العلمِ: «إنَّ الأراضيَ تُمْلَكُ»[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ تمكينَ الإنسانِ في الأرضِ هو مِن نعمةِ اللهِ عليه؛ لأنَّ هذا مِن جملةِ ما أُنعِمَ به على بني إسرائيلَ: أنْ مَكَّنَهم في الأرضِ[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ أنَّ الحَذَرَ لا يُنجي مِن القَدَرِ[(٣)].

١٤- هنا إشكالٌ، وهو: كيف أَراهم اللهُ تعالى ما كانوا يَحذَرونَ مع أنَّهم هلَكوا؟

والجوابُ: أنَّهم أدركوا ذلك في آخرِ لحظاتِ حياتِهم، وقبْلَ خروجِ الرُّوحِ، وذلك ظاهرٌ في قولِ فِرعَونَ عندَما أدركَه الغرقُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

وقال بعضُهم في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾: ليس المرادُ الهلاكَ، بل المرادُ: بما كانوا يَحذرون مُنازعةَ آلِ فِرعَونَ؛ فإنَّ بني إسرائيلَ لَمَّا بُعِث موسى استَقْوَوْا، وقِصَّةُ السَّحَرةِ واضحةٌ في هذا، لَمَّا اجتَمَعوا واجتمَعَ النَّاسُ في يوم عيدِهم، وفي الضُّحى في رابعةِ النَّهارِ، وصارت الهزيمةُ على آلِ فِرعَونَ، هزيمةً حِسِّيَّةً ومعنويَّةً: هُزِموا حِسًّا بأنَّ عصا موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جعلَتْ تَلْقَفُ ما يَأْفِكون، وهُزِموا معنًى بأنَّ السَّحرةَ أنفُسَهم آمَنوا، وصرَّحوا للمَلأِ بأنَّ فِرعَونَ هو الَّذي أكرَهَهم على السِّحرِ، وبَيَّنوا أنَّ الرَّبَّ الحقيقيَّ هو ربُّ موسى وهارُونَ سُبحانَه وتعالى، فهذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

هزيمةٌ معنويَّةٌ، بالإضافةِ إلى الهزيمةِ الحِسِّيَّةِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ المُشارُ إليه ما هو مَقروءٌ يومَ نُزولِ هذه الآيةِ مِن القُرآنِ؛ تَنويهًا بشأْنِ القرآنِ، وأنَّه شأنٌ عظيمٌ[(٢)].

- وفي الإشارةِ إليه بالبُعدِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ بيانُ عِظَمِ القرآنِ وعُلُوِّه[(٣)].

- وحَذْفُ مُتَعَلَّقِ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يُستفادُ منه عمومُ إبانةِ القرآنِ لكلِّ شيءٍ[(٤)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ هذه الجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، ومهَّدَ لـ ﴿نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ بقولِه: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾؛ للتَّشويقِ لهذا النَّبأِ؛ لِمَا فيه مِن شتَّى العِبَرِ بعَظيمِ تَصرُّفِ اللهِ في خلْقِه[(٥)].

- وفي قولِه: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ جُعِلَت التِّلاوةُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه الَّذي يَتلقَّى ذلك المَتلُوَّ. وعُبِّرَ عن هذا الخبرِ بالنَّبأِ؛ لإفادةِ أنَّه خبرٌ ذو شأْنٍ وأهمِّيَّةٍ[(٦)].

- قولُه: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تَخصيصُ المؤمنينَ بذلكَ مع عُمومِ الدَّعوةِ والبَيانِ للكلِّ؛ لأنَّهم المُنتفِعونَ به[(٧)]. والمُرادُ بـ (قومٍ يُؤمِنون) قومٌ الإيمانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٣، ٦٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير أبي =

شأنُهم وسَجيَّتُهم. وللإشارةِ إلى معنى تَمكُّنِ الإيمانِ مِن نُفوسِهم أُجْرِيَ وَصفُ الإيمانِ على كلمةِ (قَوم)؛ لِيُفيدَ أنَّ كَوْنَهم مُؤمِنينَ هو مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم. وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم مَوجودٌ في الحالِ، ومُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ. وفي هذا إعراضٌ عن العَبْءِ بالمُشركين في سَوقِ هذه القصَّةِ بما يُقصَدُ فيها مِن العِبرةِ والموعظةِ؛ فإنَّهم لم يَنتفِعوا بذلك، وإنَّما انتفَعَ بها مَنْ آمَنَ ومَنْ سيُؤمِنُ بعدَ سماعِها[1].

- واللَّامُ في ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: نَتلو عليك لأجْلِ قومٍ يُؤمِنون؛ فكانت الغايةُ مِن تِلاوةِ النَّبأِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هي أنْ يَنتفِعَ بذلك قومٌ يُؤمِنون؛ فالنَّبيُّ يُبلِّغُ ذلك للمؤمِنين[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ابتُدِئَت القصَّةُ بذِكْرِ أسبابِها؛ لتكونَ عِبرةً للمُؤمِنينَ يَتَّخِذون منها سُننًا يَعلَمون بها عِلَلَ الأشياءِ ومَعلولاتِها، ويَسيرون في شُؤونِهم على طَرائقِها؛ فلولا تجبُّرُ فِرعونَ -وهو مِن قَبيحِ الخِلالِ- ما حلَّ به وبقَومِه الاستئصالُ، ولَمَا خرَجَ بنو إسرائيلَ مِن ذُلِّ العُبوديَّةِ. وهذا مِصداقُ المثَلِ: مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ، وقولِه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وصُوِّرَت عَظَمةُ فِرعونَ في الدُّنيا بقولِه: ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لِتكونَ العِبرةُ بهَلاكِه بعدَ ذلك العُلوِّ أكبَرَ العِبرَ[3].

= حيان)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٦).

- قولُه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ، وهي جاريةٌ مجرَى التَّفسيرِ؛ كالتَّفسيرِ للمُجمَلِ الموعودِ، كأنَّ قائلًا قال: وكيف كان نَبَؤُهما؟ فقال:...، وهذه الجُملةُ وما عُطِفَ عليها بيانٌ لجُملةِ ﴿ نَتْلُوا ﴾ [القصص: ٣]، أو بيانٌ لـ﴿ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ﴾ [القصص: ٣]؛ فقُدِّمَ له الإجمالُ؛ للدَّلالةِ على أنَّه نبأٌ له شأنٌ عظيمٌ، وخَطرٌ بما فيه مِن شَتَّى العِبَرِ[١].

- وتَصديرُ الجُملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ؛ للاهتِمامِ بالخَبرِ، وللاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمُونِ ما بعدَه، أي: إنَّه تَجبَّر وطغَا في أرضِ مِصرَ، وجاوَزَ الحُدودَ المَعهودةَ في الظُّلم والعُدوانِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ احتِباكٌ[٣]؛ فقد ذَكَر العُلُوَّ أوَّلًا دليلًا على السُّفولِ ثانيًا؛ والافتِراقَ ثانيًا دليلًا على الاجتماعِ أوَّلًا[٤].

- ومِن البَلاغةِ اختيارُ قولِه: ﴿ شِيَعًا ﴾ هنا؛ لِيَدُلَّ على أنَّه جعَلَ أهلَ بلادِ القِبطِ فِرَقًا ذاتَ نَزعاتٍ تَتشيَّعُ كلُّ فِرقةٍ إليه، وتُعادي الفِرقةَ الأخرى؛ لِيَتِمَّ له ضَربُ بعضِهم ببعضٍ، وقد أغْرى بيْنَهم العداوةَ؛ لِيأمَنَ تألُّبَهم عليه، كما

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٦).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِنَ الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِنَ الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٠).

يُقال: فرِّقْ تَحكُمْ، وهي سِياسةٌ لا تَليقُ إلَّا بالمكرِ بالضِّدِّ والعَدوِّ، ولا تَليقُ بسِياسةِ وَليِّ أمْرِ الأُمَّةِ الواحِدةِ[1]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- جُملةُ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أُبدِلَتْ مِن جُملةِ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ بَدلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّه ما فعَلَ ذلك بهم إلَّا لأنَّه عَدَّهم ضُعفاءَ، أي: أذِلَّةً، فكان يَسومُهم العذابَ، ويُسخِّرُهم للأعمالِ الشَّاقَّةِ[2].

- قَولُه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ صِفةُ الكِبْرِ هي أمُّ المفاسدِ وجِماعُها؛ ولذلك قُدِّمتْ على ما يُذكَرُ بعدَها، ثمَّ أُعقِبَت بأنَّه كان مِن المُفسِدين[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ إذ ليس في ذلك إلَّا مُجرَّدُ الفَسادِ. وقولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الكامِلينَ في الفَسادِ، والمعدودينَ في زُمْرَتِهم، وهو دالٌّ على شِدَّةِ تَمكُّنِ الإفسادِ مِن خُلقِه ممَّا لو قيل: كان فاسدًا، ولفِعلِ الكونِ إفادةُ تمكُّنِ خَبرِ الفِعلِ مِن اسمِه؛ فحصَلَ تأكيدٌ لمَعنى تَمكُّنِ الإفسادِ مِن فِرعونَ؛ ذلك أنَّ فِعلَه هذا اشتَمَلَ على مَفاسدَ عظيمةٍ[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

- عُطِفَت جُملةُ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ ...﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٧، ٦٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ لمُناسَبةِ ما في تلك الجُملةِ مِن نَبأ تَذبيحِ الأبناءِ، واستِحياءِ النِّساءِ؛ فذلك مِن عُلوِّ فِرعونَ في الأرضِ، وهو بَيانٌ لـ﴿نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾؛ فإنَّ إرادةَ اللهِ الخيرَ بالَّذين استَضْعَفهم فِرعونُ مِن تَمام نَبأِ مُوسى وفِرعونَ، وهو مَوقِعُ عِبرةٍ عظيمةٍ مِن عِبَرِ هذه القصَّة. وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ في حِكايةِ إرادةٍ مَضَتْ؛ لاستِحضارِ ذلك الوقتِ كأنَّه في الحالِ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ فِرعونَ يَطْغى عليهم، واللهُ يُريدُ في ذلك الوقتِ إبطالَ عمَلِه، وجَعْلَهم أمَّةً عَظيمةً[١].

- ونُكتةُ إظهارِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ دونَ إيرادِ ضَميرِ الطَّائفةِ؛ للتَّنبيهِ على ما في الصِّلةِ مِن التَّعليلِ؛ فإنَّ اللهَ رَحيمٌ بعِبادِه، ويَنصُرُ المُستضعفينَ المظلومينَ الَّذين لا يَسْتطيعون حِيلةً ولا يَهتَدون سَبيلًا[٢]. وأيضًا لإبانةِ قَدْرِ النِّعمةِ في المِنَّةِ بذِكْرِ حالتِهم السَّابقةِ المُبايِنةِ لها[٣].

- وخُصَّ بالذِّكرِ مِن المَنِّ أربعةُ أشياءَ، عُطِفَت على فِعلِ ﴿نَّمُنَّ﴾ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ وهي: جَعلُهم أئمَّةً، وجَعلُهم الوارثينَ، والتَّمكينُ لهم في الأرضِ، وأنْ يكونَ زوالُ مُلكِ فِرعونَ على أيديهم، في نِعَمٍ أُخرَى جمَّةٍ، ذُكِرَ كثيرٌ منها في سُورةِ البقرةِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المفيدُ أنَّهم أهلُ الإرثِ الخاصِّ، وهو إرثُ السُّلطةِ في الأرضِ بعدَ مَن كان قبْلَهم مِن أهْلِ السُّلطانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لجَميعِ ما كان مُنتظِمًا في سلْكِ مُلكِ فِرعونَ وقومِه وِراثةً مَعهودةً فيما بيْنَهم، كما يُنبئُ عنه تَعريفُ ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾. وتأخيرُ ذِكْرِ وِراثتِهم له عن ذِكْرِ جَعلِهم أئمَّةً -مع تَقدُّمِها عليه زَمانًا-؛ لانحِطاطِ رُتبتِها عن الإمامةِ، ولئلَّا يَنفصِلَ عنه ما بعْدَه مع كَونِه مِن رَوادفِه، أي: قولُه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ فيه احتباكٌ[2]، حيثُ ذَكَرَ الاستِضعافَ أوَّلًا دليلًا على القوَّةِ ثانيًا، وإراءةَ المحذورِ ثانيًا دليلًا على إرادةِ المحبوبِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنه ذَكَرَ المُسَلِّي والمُرجِّي ترغيبًا في الصبرِ وانتظارِ الفرجِ[3].

- وخُصَّ هامانُ بالذِّكْرِ -وهو وزيرُ فِرعونَ وأحدُ رِجالِه-؛ لِنَباهتِه في قَومِه ومَحلِّه مِن الكُفرِ[4].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٢) تقدم تعريفه قريبًا.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٦).

الآيات (٧-١٣)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْيَمِّ﴾: أي: البَحرِ، ويُطلَقُ اليَمُّ على ما كان ماؤه مِلحًا، وعلى النَّهرِ الكبيرِ العَذبِ الماءِ، والمرادُ هنا نهرُ النِّيلُ[١].

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾: يُقالُ: قَرَّتْ عينُه تَقَرُّ: سُرَّتْ، وقيل لِمَن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عينٍ، وأصلُه مِن القُرِّ، أي: البَرد، فقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ اللهُ عينَه، أي: أنامَها[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((الغريبين =

﴿رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾: أي: شَدَدْنا عليه وثبَّتْناه، وألهَمْناها الصَّبرَ، وأصلُ (ربط): يدُلُّ على شدٍّ وثباتٍ[١].

﴿قُصِّيهِ﴾: أي: تتَبَّعي أثَرَه، والقَصُّ: تتبُّعُ الأثَرِ، وأصلُ (قصص): يدُلُّ على تتبُّعِ الشَّيءِ[٢].

﴿عَن جُنُبٍ﴾: أي: عن بُعدٍ، وأصلُ (جنب): يدُلُّ على بُعدٍ[٣].

﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾: أي: يَضُمُّونَه إليهم، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفصِّلًا الحديثَ عن موسَى عليه السلامُ: وأوحَيْنا إلى أمِّ موسى أن أرضِعي موسى، فإذا خِفْتِ عليه مِن فِرعَونَ وجُندِه فضَعِيه في تابوتٍ

= في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

وألْقيه في نهرِ النِّيلِ، ولا تخافي على موسى مِن الغَرَقِ، ولا تحزني على فِراقِه؛ إنَّا رادُّوه إليكِ، وجاعِلوه من رسُلِ اللهِ.

فأخَذ آلُ فِرعَونَ موسى؛ لِيَكونَ عدوًّا لهم وحَزَنًا بزَوالِ مُلكِهم على يديه، إنَّ فِرعَون وهامانَ وجنودَهما كانوا عصاةً آثمينَ.

وقالت امرأةُ فِرعَونَ: هذا الطِّفلُ سرورٌ لي ولك يا فِرعَونُ، لا تقتُلوه؛ لعلَّه ينفَعُنا أو نجعَلُه لنا ولدًا، وهم لا يَعلَمونَ أنَّ هلاكَهم سيَكونُ على يدَيْ هذا الطِّفلِ!

وأصبَحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغًا مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن أمرِ موسى! وقد قارَبَتْ أن تُظهِرَ للنَّاسِ ما تكتُمُه في قَلبِها مِن شأنِ موسى، لولا أن ثبَّتْنا قَلْبَها لِتَكونَ مِن المؤمنينَ بوعدِ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما فعَلَتْه أمُّ موسى بعدَ ذلك، فيقولُ: وقالت لأختِ موسى: اذهَبي فتتَبَّعي أثَرَ موسى؛ لِتَعلمي خبَرَه. فذهَبَتْ أختُه فرَأَتْه مِن بعيدٍ، وهم لا يَعلمونَ أنَّها أختُ موسى، وأنَّها تُراقِبُه.

ثمَّ يخبِرُ تعالى عن مَظهرٍ مِن مظاهرِ حكمتِه وقدرتِه وتدبيرِه لِكَيْ يعودَ موسَى عليه السَّلامُ إلى أمِّه، فيقولُ: ومنَعْنا موسى مِن الرَّضاعِ مِن أيِّ مُرضِعٍ غيرِ أُمِّه، فقالت أختُ موسى لآلِ فِرعَونَ: هل أدُلُّكم على أهلِ بَيتٍ يَضُمُّون هذا الطِّفلَ، ويقومون بحَضانتِه وإرضاعِه، وهم مُخلِصون في ذلك، مُشفِقون عليه؟

فردَدْنا موسى إلى أمِّه لِكَيْ تُسَرَّ به، ولا تحزَنَ على فِراقِه، ولِتَعلَمَ أنَّ ما وعَدَها اللهُ به مِن ردِّ موسى إليها حَقٌّ، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ ﴾.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾.

أي: وأوحَيْنا[1] إلى أمِّ موسى أن أرضِعي موسى ما دُمتِ آمِنةً عليه[2].

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾.

أي: فإذا خِفْتِ على موسى مِن فِرعَونَ وجُندِه، فاطرَحيه في نهرِ النِّيلِ بعدَ وَضعِه في التَّابوتِ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩].

﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾.

أي: ولا تخافي على موسى مِن الهَلاكِ من الغَرَقِ أو غيرِه، ولا تحزني على

(١) قال السمعاني: (أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ معنى قولِه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ هو إلهامُها، وألقَى هذا المعنى في قَلبِها. وقال بعضُهم: رَأَتْ ذلك رُؤْيا. وقال بعضُهم: هو الوَحْيُ حقيقةً، وأتاها المَلَكُ بهذا مِن الله، إلَّا أنَّها لم تكُنْ نبيَّةً). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٢).

وقال ابنُ عطية: (أجمَعَ الكُلُّ على أنها لم تكُنْ نبيَّةً). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

قال السمعاني: (اليمُّ: البَحرُ، والمرادُ منه هاهنا على قَولِ جميعِ المفسِّرينَ هو النِّيلُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣).

فِراقِه[١].

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الخَوفُ عمَّا يَلْحَقُ المتوقَّعَ، والحزنُ عمَّا يَلْحَقُ الواقعَ؛ عَلَّلَ نَهْيَه عن الأمْرَينِ بقَولِه[٢]:

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: إنَّا رادُّو ابنِك موسى إليكِ، وجاعِلوه مِن رُسلِ اللهِ إلى عِبادِه[٣].

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

أي: فأخَذ آلُ فِرعَونَ موسى؛ لِيَكونَ[٤] عدوًّا لهم في دينِهم، وحَزَنًا يَحزُنُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٤) اختلف المفسِّرون في اللَّامِ مِن قَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ﴾؛ فقيل: هي لامُ العاقبةِ والصَّيرورةِ، أي: أخَذوه فكان عاقبةُ أمرِهم أنْ صار موسى عدوًّا لهم وحَزَنًا. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن العربي، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).
قال ابن تيميَّة: (لام العاقبةِ إنَّما تجيءُ في حقِّ مَن لا يكونُ عالمًا بعواقبِ الأمورِ ومصايرِها، =

بزَوالِ مُلكِهم، وهَلاكِهم على يديه[١].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما كانوا عُصاةً آثِمينَ[٢].

= فيفعلُ الفعلَ الَّذي له عاقبةٌ لا يَعلَمُها؛ كآلِ فِرعونَ، فأمَّا مَن يكونُ عالمًا بعواقبِ الأفعالِ ومصايرِها فلا يُتصَوَّرُ منه أن يَفعلَ فِعلًا له عاقبةٌ لا يَعلَمُ عاقبتَه، وإذا عَلِم أنَّ فِعلَه له عاقبةٌ فلا يقصدُ بفعلِه ما يعلمُ أنَّه لا يكونُ؛ فإنَّ ذلك تَمَنٍّ وليس بإرادةٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨٧).

وقال أيضًا: (لام الصَّيرورةِ إمَّا أن تكونَ لِمَن لا يُريدُ الغايةَ، وذلك إنَّما يكونُ لجهلِ الفاعلِ بالغايةِ؛ كقولِه: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾. وإمَّا لعجزِه عن دفْعِها، وإنْ كان كارهًا لها). ((بيان تلبيس الجهمية)) (١/ ٢١٧).

وقيل: اللَّامُ هنا للتَّعليلِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ القيم، وابن كثير، ورجَّحه الشنقيطيُّ وردَّ القولَ الآخَر. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

قال ابن كثير: (قال محمَّدُ بنُ إسحاقَ وغيرُه: «اللَّامُ» هنا لامُ العاقبةِ، لا لامُ التَّعليلِ؛ لأنَّهم لم يُريدوا بالتقاطِه ذلك. ولا شكَّ أنَّ ظاهرَ اللَّفظِ يقتضي ما قالوه، ولكنْ إذا نُظِرَ إلى معنى السياقِ فإنَّه تبقى اللَّامُ للتَّعليلِ؛ لأنَّ معناه: أنَّ الله تعالى قيَّضَهم لالتقاطِه؛ لِيَجعَلَه لهم عدوًّا وحَزَنًا، فيَكونَ أبلَغَ في إبطالِ حَذَرِهم منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٩، ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥).

قيل: هذه الجملةُ تعليلٌ للجملةِ السَّابقةِ، أي: يكونُ موسى عدوًّا وحَزَنًا لهم؛ لأنَّهم كانوا خاطِئينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤).

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾.

أي: وقالت امرأةُ فِرعَونَ: هذا الطِّفلُ سُرورٌ لي ولك يا فِرعَونُ[(١)].

﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

أي: لا تَقتُلوه؛ لعلَّه ينفَعُنا فننَالَ منه خيرًا، أو نجعَلَه لنا ولدًا فنتبَنَّاه[(٢)]!

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: وفِرعَونُ وآلُه لا يَعلَمونَ ما هو كائِنٌ مِن أنَّ هلاكَهم على يَدَيْ هذا الطِّفلِ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٧، ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

قيل: المرادُ: نجعَلُه مِن الخَدَمِ الَّذين يَسْعَون في نفعِنا وخِدمتِنا، أو نرقِّيه لمنزلةٍ أعلى فنجعَلُه ولدًا نُكرِمُه ونُجِلُّه. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩).

قال الرسعني: (قال المفسِّرونَ: كان فرعونُ لا يُولَدُ له إلَّا البناتُ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٢).

وقال ابن عثيمين: (قد يدُلُّ تبنِّيها لموسى على أنَّها كانت عاقرًا لا تلِدُ، وقد لا يدُلُّ على ذلك؛ فالمرأةُ قد تتَّخِذُ الولدَ زيادةً على ما عندَها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠).

وظاهرُ هذه الجملةِ أنَّها مِن كلامِ الله تعالى. وممَّن نصَّ على ذلك: القرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين ونسبه الواحدي لأكثرِ المفسرين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير =

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾.

أي: وأصبحَ[1] قلبُ أمِّ موسى فارغًا مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن أمرِ موسى، فلا تفكِّرُ فيما سِواه، ولا تَحمِلُ همًّا غيرَه[2].

= السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣٨).

وقيل: هذا مِن تمامِ كلامِ المرأةِ، والمعنى: وبنو إسرائيلَ لا يَدْرون أنَّا التقَطْناه. واستبَعْده الشوكانيُّ جدًّا. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٥).

(١) قال القرطبيُّ: (في قولِه تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ وجهان؛ أحدُهما: أنَّها ألقَتْه ليلًا فأصبَح فؤادُها في النَّهارِ فارغًا. الثَّاني: ألقَتْه نهارًا، ومعنى: ﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ أي: صار). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٢، ٤٣).

وممَّن قال بهذا المعنى لفراغِ فؤادِها: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٦).

قال الرسعني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وجمهورُ المفسِّرينَ: أصبَح قلبُها فارِغًا مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن ذِكرِ موسى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ إضافةً إلى ابنِ عبَّاسٍ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقتادةُ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، ومطَرٌ الوَرَّاقُ، وأبو عبيدةَ، والحسنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣).

وقيل في معنى فراغِ فؤادِها غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٨-١٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦).

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾.

أي: قاربَتْ أمُّ موسَى أن تُظهِرَ للنَّاسِ ما تكتُمُه في قَلْبِها مِن شأنِ موسَى[١].

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: كادت أمُّ موسى أن تُظهِرَ ما تُخفيه لولا أن ثبَّتْنا قَلْبَها؛ لِتَكونَ مِنَ المُؤمِنينَ بوَعدِ اللهِ، الموقِنينَ به[٢].

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).
قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ الهاءُ ترجعُ إلى موسى. واختُلف متى أرادت هذا على ثلاثةِ أقوال:
أحدُها: أنَّه حين فارَقَتْه كادت تقولُ: يا بُنَيَّاه. وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ. قال قتادةُ: وذلك مِن شدَّةِ وجْدِها.
والثَّاني: حين حُملت لِرَضاعِه كادت تقولُ: هو ابني. قاله السُّدِّيُّ.
والثَّالثُ: أنَّه لَمَّا كَبِر وسَمِعَت النَّاسَ يقولون: موسى بنُ فِرعون، كادت تقولُ: لا، بل هو ابني. قاله ابنُ السَّائبِ.
وقيل: الهاءُ ترجعُ إلى الوحي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).
قولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: المرادُ: لِتَكونَ مِن المؤمنينَ المُوقِنينَ بما وعَدَها اللهُ به مِن شأنِ موسى. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٥-٤٦).

أي: وقالت أمُّ موسى لأختِ موسى: اذهَبي فتَتبَّعي أثَرَ موسى، وابحَثي عنه؛ لِتعلَمي خبَرَه[١].

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾.

أي: فذهبَتْ تَتبَعُ أثَرَه، فرَأَتْه مِن بعيدٍ، وكأنَّها لا تَقصِدُه[٢].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: وقَومُ فِرعَونَ لا يعلَمونَ أنَّها أختُ موسى، وأنَّها تُراقِبُه[٣].

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ومَنَعْنا موسى مِن قَبْلُ[٤] مَنْعًا قَدَريًّا أن يَقبَلَ الرَّضاعَ مِن أيِّ مُرضِعٍ غيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٢).

قال البقاعي: (ليس لهم شعورٌ؛ لا بنَظَرِها، ولا بأنَّها أختُه، بل هم في صِفةِ الغَفلةِ الَّتي هي في غايةِ البُعدِ عن رُتبةِ الإلهيَّة). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٥٠).

(٤) قال الشوكاني: (ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبْلِ أنْ نَرُدَّه إلى أُمِّه، أو مِن قبلِ أنْ تأتيَه أُمُّه، أو مِن قبلِ قَصِّها لأثَرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦).
=

أمِّه[1].

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

أي: فقالت أختُ موسى لآلِ فِرعَونَ: هل أدُلُّكم على أهلِ بَيتٍ يَضُمُّونَ هذا الطِّفلَ، ويَضْمَنونَ لكم القيامَ بحَضانتِه ومَصالِحِه وإرضاعِه، وهم مُخلِصون في ذلك، مُشفِقون عليه، لا يُقَصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه[2]؟

= وممَّن اختار الأوَّلَ: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّي، وابنُ الجوزي، والرسعني، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: من قَبلِ مَجيءِ أمِّه: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ قَصِّها أثرَه: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥١٦).

وقيل: المرادُ: مِن قَبلِ التِقاطِ آلِ فِرعَونَ له. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٤).

قال ابن عاشور: (وهو إيذانٌ بأنَّ ذلك التَّحريمَ ممَّا تعلَّقَ به عِلمُ الله وإرادتُه في الأزَلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٤).

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

أي: فرَدَدْنا موسى إلى أمِّه؛ لكيْ تُسَرَّ به وتفرَحَ، ولا تحزَنَ على فِراقِه[1]!

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: ولِتَعلَمَ أمُّ موسى عِلمًا هو عينُ اليقينِ أنَّ ما وعَدَها اللهُ مِن ردِّ موسى إليها، وجَعْلِه رَسولًا: صِدقٌ ثابِتٌ لا بدَّ مِن وُقوعِه[2].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَهم[3] لا يَعلَمونَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ كائنٌ، ولا يُصَدِّقونَ به، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٧-٥٩).

(٣) قيل: المرادُ: أكثَرُ المشركين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٠).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ آلِ فِرعَون. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ أهلِ مِصرَ. وممَّن قال بذلك: مقاتِلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٩).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٩).

قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيل: لا يَعلمونَ ما يُرادُ بهم. وقيل: لا يَعلمون مِثلَ عِلمِها. وقيل: لا يَعلمون أنَّ وعدَ الله حقٌّ. وقيل: لا يعلمونَ أنَّ اللهَ وعَدَها بأنْ يَرُدَّه إليها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) =

يَعلَمونَ حِكَمَه العَظيمةَ في أفعالِه وقَدَرِه سُبحانَه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ دَليلٌ على أنَّه ينبغي أنْ تُستعمَلَ الأساليبُ التي تُحَقِّقُ المقصودَ؛ فإنَّ هذا القولَ منها -سواءٌ كانت تتوقَّعُ ذلك أو لا تتوقَّعُه- لا بُدَّ أنْ يكونَ سببًا في مُوافقةِ فِرعَونَ لِمَا بَلَغَه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أنَّ العبدَ -ولو عَرَفَ أنَّ القضاءَ والقَدَرَ ووَعْدَ اللهِ نافِذٌ لا بُدَّ منه- فإنَّه لا يُهمِلُ فِعلَ الأسبابِ الَّتي أُمِرَ بها، ولا يكونُ ذلك منافيًا لإيمانِه بخَبَرِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ قد وَعَدَ أُمَّ موسى أنْ يَرُدَّه عليها، ومع ذلك اجتهدتْ على رَدِّه، وأرسلتْ أختَه لِتَقُصَّه وتطلُبَه(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ...﴾ تعليمُ أنَّ اللهَ بالِغٌ أمْرَه بتهيئةِ الأسبابِ المُفضيةِ إليه، ولو شاء اللهُ لأهْلَكَ فِرعَونَ ومَن معه بحادثٍ سماويٍّ، ولَمَا قَدَّرَ لإهلاكِهم هذه الصُّورةَ المرَتَّبةَ، ولأَنْجى موسى وبني إسرائيلَ إنجاءً أسرَعَ، ولكِنَّه أراد أنْ يَحصُلَ ذلك بمشاهَدةِ تنقُّلاتِ الأحوالِ، ابتِداءً مِن إلقاءِ موسى في اليَمِّ، إلى أنْ رَدَّه إلى أُمِّهِ؛ فتكونَ في ذلك

= (٤/ ١٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٩، ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

عِبرةٌ للمُشركين الَّذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ولِيَتوسَّموا مِن بَوارقِ ظهورِ النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وانتقالِ أحوالِ دعوتِه في مَدارجِ القوَّة: أنَّ ما وَعَدَهم به واقِعٌ بأَخَرةٍ[١]، فاللهُ تعالى إذا أراد أمرًا هَيَّأَ أسبابَه، وأتى بها شَيئًا فشَيئًا بالتَّدريجِ؛ لا دَفْعةً واحدةً[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّ اللهَ يُقدِّرُ على عبْدِه بعضَ المَشاقِّ لِيُنيلَه سرورًا أعظَمَ مِن ذلك، أو يَدفعَ عنه شرًّا أكثرَ منه، كما قَدَّرَ على أُمِّ موسى ذلك الحُزنَ الشَّديدَ، والهمَّ البليغَ، الَّذي هو وسيلةٌ إلى أنْ يَصِلَ إليها ابنُها على وجهٍ تَطمئِنُّ به نفْسُها، وتَقَرُّ به عينُها، وتَزدادُ به غِبْطةً وسرورًا[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ سؤالٌ؛ إن قيل: ما فائدةُ وحْيِ اللهِ تعالى إلى أُمِّ موسى بإرضاعِه؛ مع أنها تُرضِعُه طبعًا وإنْ لم تُؤْمَرْ بذلك؟!

الجوابُ: أَمَرها بإرْضاعِه لِيألَفَ لبنَها؛ فلا يَقْبَلَ ثديَ غيرِها بعدَ وقوعِه في يدِ فِرعَونَ، فلو لم يأمُرْها به؛ رُبَّما كانت تُسترضَعُ له مُرضِعةٌ فيَفوتُ المقصودُ[٤].

وأيضًا: أمَرَها اللهُ بإرضاعِه لِتَقْوى بِنْيَتُه بِلِبانِ أُمِّه؛ فإنَّه أسعَدُ بالطِّفلِ في أوَّلِ عُمُرِه مِن لِبانِ غيرِها، ولِيَكونَ له مِنَ الرَّضاعةِ الأخيرةِ قبْلَ إلقائِه في اليَمِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧).

قُوتٌ يَشُدُّ بِنْيَتَه فيما بيْنَ قَذْفِه في اليَمِّ وبيْن التِقاطِ آلِ فِرعونَ إيَّاهُ وإيصالِه إلى بيتِ فِرعونَ وابتِغاءِ المَراضِعِ ودَلالةِ أُختِه إيَّاهم على أُمِّه إلى أن أُحضِرَتْ لإرضاعِه[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أنَّ الخَوْفَ الطَّبيعيَّ مِن الخلْقِ لا يُنافي الإيمانَ، ولا يُزيلُه، كما جرى لأمِّ موسى ولموسى مِن تلك المخاوفِ[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ هذا مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرةِ الله عزَّ وجَلَّ، وأنَّ اللهَ إذا حَمى أحدًا، فإنَّ الأسبابَ المؤدِّيةَ إلى الهلاكِ لا تؤثِّرُ؛ لأنَّ قُدرةَ اللهِ فوقَ الأسبابِ، فإن إلقاءَه في البحرِ معناه استعجالُ الهلاكِ له، وكذلك أن يعيشَ بينَ أحضانِ فِرعَونَ، الَّذي كان يَتتبعُ أولادَ بني إسرائيلَ، فيقتلُ أبناءَهم، فهذا مِن آياتِ الله عزَّ وجلَّ، وكذلك فإنَّ النَّارَ مُحرِقةٌ بلا شَكٍّ، ولكن صارتْ على إبراهيمَ بَردًا وسَلامًا[3].

٦- إن قيل: ما وجْهُ الجمعِ بيْنَ إثباتِ الخَوفِ في قولِه: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، ثمَّ نفْيِه بقولِه: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾؟

والجوابُ: أنَّ المعنَى: فإذا خِفتِ عليه القتلَ، فألْقيه في اليَمِّ، ولا تخافي عليه الغرَقَ، فاندفَعَ ما يُتوَهَّمُ مِن تناقضٍ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّه ينبغي طَمْأنةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧، ٤٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٨٥).

المحزونِ ببِشارتِه بمُستقبَلِه[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ أنَّ أتْباعَ الرَّجُلِ وحاشيتَه هم مِن آلِه[(٢)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ تعليلٌ لقضاءِ الله سُبحانَه بالتِقاطِه وتقديرِه له -على أحدِ القولَينِ في اللَّامِ-؛ فإنَّ التقاطَهم له إنَّما كان بقضائِه وقدرِه، فهو سُبحانَه قدَّر ذلك وقضَى به؛ لِيَكونَ لهم عدوًّا وحزنًا، وذَكَرَ سُبحانَه فِعْلَهم دونَ قضائِه؛ لأنَّه أبلَغُ في كَونِه حَزَنًا لهم وحسرةً عليهم؛ فإنَّ مَنِ اختارَ أخْذَ ما يكونُ هلاكُه على يديه إذا أُصيبَ به كان أعظَمَ لحُزْنِه وغَمِّه وحسرتِه مِن ألَّا يكونَ فيه صُنْعٌ ولا اختيارٌ، فإنَّه سُبحانَه أراد أنْ يُظهِرَ لِفرعَونَ وقَومِه ولغيرِهم مِن خلْقِه كمالَ قدرتِه وعِلْمِه وحكمتِه الباهرةِ، وأنَّ هذا الَّذي يُذَبِّحُ فِرعَونُ الأبناءَ في طلبِه هو الَّذي يَتولَّى تربيتَه في حِجْرِه وبيتِه باختيارِه وإرادتِه، ويكونُ في قبضتِه وتحتَ تصَرُّفِه! فذِكْرُ فِعْلِهم به في هذا أبلَغُ وأعجبُ مِن أنْ يَذْكُرَ القضاءَ والقَدَرَ، وقد أعلَمَنا سُبحانَه أنَّ أفعالَ عبادِه كلَّها واقعةٌ بقضائِه وقدَرِه[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أنَّ الإنسانَ قد يسعى لِمَا فيه حتْفُه؛ لأنَّ هؤلاء سَعَوا فيما فيه حتْفُهم؛ فقد التَقَطوا هذا الطِّفلَ الَّذي سيكونُ عدوًّا لهم وحَزَنًا[(٤)].

١١- إنَّ إصابةَ قومِ فِرعَونَ بَغتةً مِن قِبَلِ مَن أَمَّلوا منه النَّفعَ: أشدُّ عِبرةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥).
(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦).

للمعتبِرِ، وأوقعُ حسرةً على المستبصِرِ، وأدَلُّ على أنَّ انتقامَ اللهِ يكونُ أعظَمَ مِن انتقامِ العدُوِّ، كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مع قولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[(١)].

١٢- وجودُ الصَّالِحينَ مِن بيْنِ المفسِدينَ يُخَفِّفُ مِن لَأْواءِ فسادِ المفسِدينَ؛ فإنَّ وجودَ امرأةِ فِرعَونَ كان سببًا في صَدِّ فِرعَونَ عن قتْلِ الطِّفلِ، فقالتِ امرأتُه: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[(٢)].

١٣- أنَّ الإنسانَ يكونُ على حالٍ، فإذا نَزَلَ به البلاءُ تَغيَّرَ حالُه؛ فهذه أُمُّ موسى كانت في البدايةِ مُطمئنَّةً، ولذلك وضعتْه في التَّابوتِ، ثمَّ وضعَتْه في اليَمِّ، وهذا يدُلُّ على أعلى درجاتِ الطُّمأنينةِ، ولكنَّها أصبحتْ بعدَما فارقَتْه كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، فقد صار قلْبُها الآنَ فارغًا، وأصبحتْ قَلِقةً، كأنَّه ليس في الدُّنيا سِوى ابنِها! فالواقعُ أنَّ الإنسانَ له حالٌ قبْلَ نزولِ البلاءِ، وله حالٌ بعدَ نزولِه؛ ولهذا لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَرِّضَ نفْسَه للبلاءِ[(٣)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ دليلٌ على أنَّ ما تقتضيه الطَّبيعةُ البشريَّةُ لا يُؤاخَذُ به المرءُ، ووجْهُ ذلك: أنَّ فؤادَ أُمِّ موسى كان ينبغي ألَّا يكونَ فارغًا مِن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومِن الدَّارِ الآخرةِ! لكنَّه أصبحَ فارغًا، ليس فيه شيءٌ أبدًا لِذِكْرِه سِوى ذِكْرِ موسى، وهذا مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ؛ لأنَّ الأمورَ العظيمةَ التي تَنزِلُ بالمرءِ تُنسيه كلَّ شيءٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨).

١٥- أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، وأنَّ مِن أعظمِ ما يَزيدُ به الإيمانُ، ويَتِمُّ به اليقينُ: الصَّبرَ عندَ المُزعِجاتِ، والتَّثبيتَ مِن اللهِ عند المُقلِقاتِ، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لِيَزدادَ إيمانُها بذلك، ويَطمئِنَّ قلبُها[1].

١٦- في قَوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ استمرارَ الجزَعِ مع العبدِ دليلٌ على ضَعفِ إيمانِه[2].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ مِن أعظمِ نِعَمِ اللهِ على عبْدِه، وأعظَمِ معونةٍ للعبدِ على أمورِه: تثبيتَ اللهِ إيَّاه، ورَبْطَ جأْشِه وقلْبِه عندَ المَخاوفِ، وعندَ الأمورِ المُذهِلةِ؛ فإنَّه بذلك يَتمكَّنُ مِن القَولِ الصَّوابِ، والفعلِ الصَّوابِ، بخلافِ مَن استمرَّ قلَقُه ورَوعُه وانزعاجُه؛ فإنَّه يضيعُ فِكرُه، ويَذهَلُ عقلُه، فلا يَنتفِعُ بنفْسِه في تلك الحالِ[3].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ دليلٌ على أنَّ المرءَ مُفتقِرٌ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى في كلِّ أحوالِه؛ ولا سيَّما عندَ نزولِ الحوادثِ، ولولا معونةُ اللهِ ما فَعَلَ الإنسانُ شيئًا، فلا صَبرَ على بلاءٍ، ولا شَكرَ عندَ الرخاءِ[4].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قَولِه: ﴿لِتَكُونَ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٨).

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دليلٌ على إثباتِ العِلَلِ والأسبابِ(١).

٢٠- قولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لا يخفَى ما يسبقُ إلى الذِّهنِ مِن أنَّ المرأةَ ليست مِن الرِّجالِ، وهو تعالى لم يقُلْ: (مِن المؤمناتِ).

الجواب: هو إطباقُ أهلِ اللِّسانِ العربيِّ على تغليبِ الذَّكرِ على الأُنثَى في الجَمعِ(٢).

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ التَّحريمُ هنا هو التَّحريمُ الكَونيُّ، ويقابلُه التَّحريمُ الدِّينيُّ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾(٣) [المائدة: ٣].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٍ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ جوازُ أخذِ الأُجرةِ على الكَفالةِ والرَّضاعِ، والدَّلالةِ على مَن يَفعلُ ذلك(٤).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ جوازُ خروجِ المرأةِ في حوائجِها، وتكليمِها للرِّجالِ مِن غيرِ محذورٍ، كما جرى لأختِ موسى هنا، وابنتَيْ صاحبِ مَدْيَنَ، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾(٥) [القصص: ٢٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ إيماءٌ إلى تذكيرِ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأنَّ نصْرَهم حاصلٌ بعدَ حينٍ، ووعيدٌ للمُشركينَ بأنَّ وعيدَهم لا مَفرَّ لهم منه[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَدَدْنَهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أنَّ اللهَ مِن رحمتِه بعبدِه الضعيفِ الذي يريدُ إكرامَه، أنَّه يُريه مِن آياتِه، ويُشهِدُه مِن بيِّناتِه ما يَزيدُ به إيمانُه، كما رَدَّ اللهُ موسى على أُمِّه؛ لِتَعلَمَ أنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [القصص: ٥]؛ إذ الكلُّ مِن أجزاءِ النَّبأ. وتَتضمَّنُ هذه الجُملةُ تَفصيلًا لمُجمَلِ قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [القصص: ٥]؛ فإنَّ الإرادةَ لَمَّا تعلَّقَت بإنقاذِ بني إسرائيلَ مِن الذُّلِّ، خلَقَ اللهُ المُنقذَ لهم[٣].

- وقولُه: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الأمْرُ بإرضاعِه يُؤذِنُ بجُمَلٍ طُويَتْ؛ وهي أنَّ اللهَ لَمَّا أراد ذلك قدَّرَ أنْ يكونَ مظهرُ ما أرادهُ هو الجنينَ الَّذي في بطْنِ أُمِّ مُوسى، ووَضَعَتْه أُمُّه، وخافَتِ اعتِداءَ أنصارِ فِرعونَ على وَليدِها، وتحيَّرَت في أمْرِها، فأُلْهِمَت أو أُرِيَتْ ما قَصَّه اللهُ هنا وفي مواضعَ أُخرى[٤].

- قَولُه: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لقائلٍ أنْ يقولَ: ما الفرقُ بيْن الخَوفِ والحُزنِ حتَّى عُطِفَ أحدُهما على الآخَرِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

والجوابُ: أن هذا مِن بابِ الإطنابِ، بلْ هو قِسمٌ نادرٌ مِن أجمَلِ أقسامِه؛ وهو أنْ يُذكَرَ الشَّيءُ فيُؤتَى فيه بمَعانٍ مُتداخِلةٍ، إلَّا أنَّ كلَّ معنًى مُختَصٌّ بخَصِيصةٍ ليست للآخَرِ؛ فالخوفُ هو غمٌّ يُصِيبُ الإنسانَ لأمْرٍ يُتوقَّعُ نُزولُه في المُستقبَلِ، أمَّا الحُزنُ فهو غَمٌّ يُصِيبُه لأمْرٍ وقَعَ فِعلًا ومَضى؛ فنُهِيَتْ عنهما جميعًا[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ للنَّهْيَينِ -النَّهيِ عن الخَوفِ، والنَّهيِ عن الحُزنِ-؛ لأنَّ ضَمانَ رَدِّه إليها يَقْتضي أنَّه لا يَهلِكُ، وأنَّها لا تَشتاقُ إليه بطولِ المَغيبِ. وأمَّا قولُه: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فإدْخالٌ للمَسرَّةِ عليها[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ، وتَصديرُها بحَرفِ التَّحقيقِ (إنَّ)؛ للاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمونِها، أي: إنَّا فاعِلونَ لِرَدِّه وجَعلِه مِن المُرسَلينَ لا مَحالةَ[٣].

- وأيضًا هذه الآيةُ مِن مُعجزاتِ الإيجازِ؛ لاشْتمالِها على خَبرَيْنِ، وأمْرَينِ، ونَهيَينِ، وبِشارتيْنِ، في أسهَلِ نَظْمٍ، وأسلَسِ لَفظٍ، وأوجَزِ عِبارةٍ؛ فالخبَرانِ هما: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وقولُه: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾؛ لأنَّه يُشعِرُ بأنَّها ستَخافُ عليه. والأمْرانِ هما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و(ألْقِيه). والنَّهيانِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾. والبِشارتانِ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٤، ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٨٦). =

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ فَصيحةٌ مُفصِحةٌ عن عَطْفِه على جُملةٍ مُترتِّبةٍ على ما قبْلَها مِن الأمْرِ بالإلقاءِ؛ قد حُذِفَت تَعويلًا على دَلالةِ الحالِ، وإيذانًا بكَمالِ سُرعةِ الامتثالِ، أي: فألْقَتْهُ في اليَمِّ بعْدَما جَعلَتْهُ في التَّابوتِ حسبَما أُمِرَت، فالْتقَطَه آلُ فِرعونَ[١].

- قولُه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ جُعِلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نَفْسَ الحَزنِ؛ إيذانًا بقُوَّةِ سَببيَّتِه لِحُزْنِهم[٢]. ولَمَّا كانت عاقبةُ أمْرِه إهلاكَهم، وكان العاقلُ -لا سيَّما المُتحذلِقُ- لا ينبغي له أنْ يُقْدِمَ على شَيءٍ حتى يَعلَمَ عاقبتَه -فكيف إذا كان يدَّعي أنَّه إلهٌ-؛ عَبَّرَ سُبحانَه بلامِ العاقبةِ الَّتي معناها التَّعليلُ تهكُّمًا بفِرعَونَ[٣].

- ويحتملُ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ أنْ يكونَ في الكَلامِ حذْفٌ، أي: فكان لهم عدُوًّا وحَزنًا، أي: لأنَّهم كانوا خاطِئينَ، لم يَرجِعوا إلى دِينِه، وتَعمَّدوا الجرائمَ والكُفرَ باللهِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ اعتراضيَّةٌ

= قال الماوَرْدي: (وحكَى الأصمعيُّ قال: سمِعتُ جاريةً أعرابيةً تُنشِدُ:...، قال: فقلتُ: قاتلَكِ اللهُ! ما أفصحَكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ...﴾ الآيةَ، فجمَع في آيةٍ واحدةٍ بيْنَ أمْرَينِ، ونَهيَينِ، وخبَرَينِ، وبِشارتَينِ؟!). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣، ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧).

واقعةٌ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، مُؤكِّدةٌ لمَعنى خَطئِهم. أو لبَيانِ المُوجِبِ لِمَا ابْتُلوا به[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أُضِيفَ الجُندُ هنا وفيما قبْلُ إلى فِرعونَ وهامانَ، وإنْ كان هامانُ لا جُنودَ له؛ لأنَّ أمْرَ الجُنودِ لا يَستقيمُ إلَّا بالمِلكِ والوَزيرِ؛ إذ بالوزيرِ تُحصَّلُ الأموالُ، وبالمَلِكِ وقَهرِه يُتوصَّلُ إلى تَحصيلِها، ولا يكونُ قِوامُ الجُندِ إلَّا بالأموالِ[٢].

- وما أحسَنَ نَظْمَ هذا الكَلامِ عندَ المُرتاضِ بعِلمِ مَحاسنِ النَّظمِ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٤] وقولَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [النمل: ٥] تَفصيلٌ لقولِه: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [النمل: ٣]، وما أجمَلَ ثمَّ فصَّلَ وخَصَّ بلفظِ الإنباءِ إلَّا لاشتمالِ هذا المُنبَّأِ به على أمْرٍ له شأْنٌ، وليس ذلك إلَّا لبَيانِ أنَّ ما قدَّرَه اللهُ كائنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ الحَذرَ لا يُغْني عن القدَرِ، وإذا جاء القَضاءُ عَمِيَ البصرُ؛ فإنَّ فِرعونَ وقومَه لَمَّا قُضِيَ هلاكُهم على يَدِ الكليمِ عليه السَّلامُ واجْتَهدوا في الدَّفعِ، فَعَلوا ما لا طائلَ تحتَه، بلْ عَكَسوا؛ حيث أُفنِيَ البريءُ مِن قَتْلِ الأبناءِ، ورُبِّيَ مَن عليه دمارُه، فسُلِبَت عُقولُهم، فالْتَقَطوه لِيَكونَ لهم عدُوًّا وحَزنًا وهم لا يَشعُرون؛ فحسُنَ لذلك أنْ يؤكِّدَ بقولِه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [النمل: ٨] على التَّفصيلِ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ ذلك الجَمَّ الغفيرَ بعدَ ذلك التَّحذيرِ زَلُّوا عن دَفعِ التَّقديرِ؛ فاللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧، ٢٨٨).

وَحَزَنًا﴾ [النمل: ٨] مُجْرًى على حَقيقتِه. وتَمامُ تَقريرِه أن يُقالَ: إنَّا أَرَدْنا أنْ نَمُنَّ على المُستضعَفينَ، وأنْ نَجعَلَهم الوارثينَ، وأنْ نُرِيَ فِرعونَ وهامانَ وجُنودَهما ما كانوا يَحذَرون؛ فدبَّرْنا ما دَبَّرْنا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [النمل: ٧]، فامتثَلَتْ أمْرَنا وألْقَتْه في اليَمِّ، وألقاهُ اليمُّ بالسَّاحلِ، فقَضَينا على آلِ فِرعونَ الْتقاطَه؛ لِيَظهَرَ مِن لَطيفِ تَقديرِنا عَداوتُه وسَببُ حُزنِه، وهم لا يَشعُرون بذلك. فما أحسَنَ نَظْمَ هذا الكلامِ، وما أظْهَرَه مِن سُلطانٍ على القَولِ بالقضاءِ والقدَرِ(١)!

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ (قُرَّةُ العينِ) كِنايةٌ عن السُّرورِ، وهي كِنايةٌ ناشِئةٌ عن ضِدِّها، وهو سُخنةُ العينِ التي هي أثَرُ البُكاءِ اللَّازمِ للأسفِ والحزنِ؛ فلمَّا كُنِيَ عن الحزنِ بسُخنةِ العينِ في قولِهم في الدُّعاءِ بالسُّوءِ: أسخَنَ اللهُ عينَه، أتْبَعوا ذلك بأنْ كَنَوْا عن السُّرورِ بضِدِّ هذه الكِنايةِ، فقالوا: قُرَّةُ عينٍ، وأقرَّ اللهُ عَينَه، فحَكَى القرآنُ ما في لُغةِ امرأةِ فِرعونَ مِن دَلالةٍ على معنى المَسَرَّةِ الحاصلةِ للنَّفْسِ ببَليغِ ما كَنَى به العربُ عن ذلك، وهو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾. ومِن لَطائفِه في الآيةِ: أنَّ المَسرَّةَ المَعْنيَّةَ هي مَسرَّةٌ حاصلةٌ مِن مَرأى مَحاسنِ الطِّفلِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾(٢) [طه: ٣٩].

- وابتَدَأتْ بنفْسِها في ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي﴾ قبْلَ ذِكرِ فِرعونَ؛ إدلالًا عليه لمِكانَتِها عندَه، أرادتْ أنْ تَبتدِرَه بذلك حتَّى لا يَصدُرَ عنه الأمرُ بقتْلِ الطِّفلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٧٩).

- وضَميرُ الجمْعِ في قولِها: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ يَجوزُ أنْ يُرادَ به فِرعونُ؛ نَزَّلَتْه مَنزلةَ الجَماعةِ على وَجهِ التَّعظيم. ويجوزُ أنْ يُرادَ به خِطابُ فِرعونَ داخلًا فيه أهلُ دَولتِه، وهذا أحسَنُ؛ لأنَّ فيه تمْهيدًا لإجابةِ سُؤلِها حينَ أسْنَدَت مُعظمَ القتلِ لأهلِ الدَّولةِ، وجعَلَت لفِرعونَ منه حظَّ الواحدِ مِن الجماعةِ؛ فكأنَّها تُعرِّضُ بأنَّ ذلك يَنْبغي ألَّا يكونَ عن رأْيه، فتُهَوِّن عليه عُدولَه في هذا الطِّفلِ عمَّا تقرَّرَ مِن قتْلِ الأطفالِ. وقِيل: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ الْتفاتٌ عن خِطاب فِرعونَ إلى خِطابِ المُوكَّلينَ بقَتْلِ أطفالِ بني إسرائيلَ؛ فمَوقِعُ جُملةِ ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ مَوقعُ التَّمهيدِ والمُقدِّمةِ للعَرْضِ، ومَوقِعُ جُملةِ ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ مَوقعُ التَّفريعِ عن المُقدِّمةِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، أي: لم تُعْطَفْ[1].

- قولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾؛ فاتِّصالُها بها كاتِّصالِ جُملةِ ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ بها، ولكنَّ نظْمَ الكلام قَضَى بهذا التَّرتيبِ البليغ بأنْ جُعِلَ الوازعُ الطَّبيعيُّ عن القَتْلِ -وهو وازعُ المحبَّةِ- هو المُقدِّمةَ؛ لأنَّه أشدُّ تعلُّقًا بالنَّفْسِ؛ فهو يُشبِهُ المعلومَ البديهيَّ. وجُعِلَ الوازعُ العَقليُّ بعدَ النَّهي عِلَّةً؛ لاحتِياجِه إلى الفِكرِ، فتَكونُ مُهلةُ التَّفكيرِ بعدَ سَماعِ النَّهيِ المُمهِّدِ بالوازعِ الطَّبيعيِّ، فلا يُخْشى جِماحُ السَّامعِ مِن النَّهيِ ورَفْضُه إيَّاه[2].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ، واختِيرَ ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ هنا؛ لأنَّه مِن العلْمِ الخَفيِّ، أي: لا يَعلَمون هذا الأمرَ الخَفيَّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٨٠).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

- جُملةُ ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ تكونُ -على تَفسيرِ أنَّ فؤادَها فارِغٌ مِن الخَوفِ والحزنِ، فأصبحَت واثقةً بحُسنِ عاقبتِه- استئنافًا بَيانيًّا لِمَا اقتضاهُ فِعلُ (أصبَحَ) مِن أنَّها كانتْ على حالةٍ غيرِ حالةِ فَراغٍ، فبُيِّنَتْ بأنَّها كادَتْ أنْ تُظهِرَ أمْرَ ابنِها مِن شِدَّةِ الاضْطِرابِ؛ فإنَّ الاضطرابَ يَنُمُّ بها. وعلى تَفسيرِ أنَّ فُؤادَها فارِغًا مِن كلِّ شَيءٍ إلَّا ذِكْرَ مُوسى؛ تكونُ جُملةُ ﴿إِن كَادَتْ﴾ بمَنزلةِ عطْفِ البَيانِ على معنى ﴿فَٰرِغًا﴾، وهي دَليلٌ على الاستِثناءِ المحذوفِ[١].

- قولُه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ الرَّبطُ على القَلبِ: كِنايةٌ عن قَرارِه واطمئنانِه؛ شُبِّه بما يُربَطُ مَخافةَ الانفلاتِ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ فيه التَّعبيرُ عنها بأُخُوَّته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دونَ أنْ يُقالَ: (لِبنتِها)؛ للتَّصريحِ بمَدارِ المحبَّةِ المُوجِبةِ للامتِثالِ بالأمْرِ[٣].

- قولُه: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ بصُرَ بالشَّيءِ: صار ذا بصَرٍ به، أي: باصِرًا له؛ فهو يُفيدُ قوَّةَ الإبصارِ، أي: قوَّةَ استعمالِ حاسَّةِ البصرِ، وهو التَّحديقُ إلى المُبصَرِ، فـ (بَصُرَ) أشدُّ من (أبصَرَ)؛ فالباءُ الدَّاخلةُ على مَفعولِه باءُ السَّببيَّةِ؛ للدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥).

شِدَّةِ العِنايةِ برُؤيةِ المَرئيِّ حتَّى كأنَّه صار باصِرًا بسَببِه. ويجوزُ جَعْلُ الباءِ زائدةً لتأكيدِ الفِعلِ، فتُفيدُ زِيادةَ مُبالَغةٍ في مَعنى الفِعلِ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَالَتْ﴾ فَصيحةٌ تُؤذِنُ بجُملةٍ مُقدَّرةٍ، أي: فأظْهَرَت أُختُه نفْسَها، كأنَّها مرَّت بهم عن غيرِ قَصْدٍ[٢].

- وقد عرَضَت سَعْيَها في ذلك بطَريقِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في العرْضِ فقالتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾؛ تلطُّفًا مع آلِ فِرعونَ، وإبعادًا للظِّنَّةِ عن نفْسِها[٣].

- والعُدولُ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الاسميَّةِ في قولِه: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾؛ لقَصدِ تأْكيدِ أنَّ النُّصحَ مِن سَجاياهم، وممَّا ثبَتَ لهم؛ فلذلك لم يُقَلْ: (ويَنصَحون له) كما قِيل: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾؛ لأنَّ الكَفالةَ أمْرٌ سَهلٌ، بخِلافِ النُّصحِ والعِنايةِ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في الكَلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: فمَرَّتْ بهم إلى أُمِّه، فكلَّمُوها في إرضاعِه، أو فجاءتْ بأُمِّه إليهم، فكَلَّمُوها في شأْنِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فأرضَعَتْه، فالْتقَمَ ثَدْيَها...»[١].

- وقولُه: ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ فيه تأكيدُ حَرفِ (كي) بمُرادِفِه -وهو لامُ التَّعليلِ-؛ للتَّنصيصِ مِن أوَّلِ وَهلةٍ على أنَّه مَعطوفٌ على الفِعلِ المُثبَتِ ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾، لا على الفِعلِ المَنْفيِّ ﴿وَلَا تَحۡزَنَ﴾[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

الآيات (١٤-١٧)

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: الأَشُدُّ: استحكامُ قوَّةِ شبابِه وسِنِّه، قيل: هو جمعُ شَدٍّ، وقيل: جمعُ شِدَّةٍ، وقيل: هو جمعٌ لا واحدَ له، وقد اختُلف في وقتِ بُلوغِ الأشُدِّ، وأصلُ (بلغ): وصولٌ إلى شَيءٍ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[(١)].

﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: أي: تمَّ خَلْقُه، واعتدلَ، واستَحْكَم شبابُه واستقرَّ، فلم تكُنْ فيه زيادةٌ، وقيل: بلَغ أربعينَ سنةً، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئينِ[(٢)].

﴿شِيعَتِهِۦ﴾: أي: أصحابِه وأتباعِه، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعَفةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و (٣/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧).

﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾: أي: طلَبَ غَوْثَه ونَصْرَه، وأصلُ (غوث): يدُلُّ على النُّصرةِ عندَ الشِّدَّةِ[1].

﴿فَوَكَزَهُ﴾: أي: دفَعَه وضرَبَه بجُمْعِ كَفِّه في صَدرِه[2].

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُساعِدًا ومُعِينًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا آخَرَ من حياةِ موسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: ولَمَّا بلَغَ موسى عليه السَّلامُ مُنتهى قوَّتِه، واكتمَلَ خَلْقُه واستحكَمَ؛ آتَيْناه حُكمًا ومَعرِفةً قبْلَ النُّبوَّةِ، وكذلك نجزي كُلَّ مَن أحسَنَ عمَلَه.

ودخل موسى المدينةَ في وقتٍ لا يشعُرُ فيه أحدٌ بدُخولِه، فوجَد فيها رجُلينِ يتقاتلانِ؛ أحدُهما مِن شيعتِه بني إسرائيلَ، والآخرُ قِبطيٌّ مِن قَومِ فِرعَونَ، فطلَب الرَّجلُ الإسرائيليُّ مِن موسى أن يُعينَه ويَنصُرَه على خَصمِه القِبطيِّ، فضرَبَ موسى القِبطيَّ بجُمْعِ كَفِّه فقتَلَه بتلك الضَّربةِ!

قال موسى: هذا القَتلُ مِن إغواءِ الشَّيطانِ لي ووسوَستِه؛ إنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ يسعى في إضلالِ الإنسانِ، ظاهِرُ العداوةِ والإضلالِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١).

قال موسى: ربِّ إنِّي ظَلمتُ نفْسي، فاغفِرْ لي ذنْبي، فغفَرَ اللهُ له ذَنْبَه؛ لأنَّه هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

قال موسى: ربِّ بسبَبِ إنعامِك علَيَّ فلن أكونَ مُعِينًا للمجرمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أي: ولَمَّا بلغَ موسى عليه السَّلامُ مُنتهى شِدَّتِه وقوَّتِه، وتناهى شبابُه، واكتَمَل خَلْقُه واستحكَمَ؛ آتَيْناه حُكمًا(١) ....

(١) قال الماوَرْدي: (في الحُكم أربعةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّه العقلُ، قاله عِكْرِمةُ. الثَّاني: النُّبوَّةُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: القوَّةُ، قاله مجاهدٌ. الرَّابعُ: الفقهُ، قاله ابنُ إسحاقَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالحُكم هنا: الفَهمُ في الدِّينِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠١).

وقيل: المرادُ به: الحِكمةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطية، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

وقيل: المرادُ به: الفِقهُ والعقلُ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والسمعاني، والبَغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٦).

وقيل: المرادُ به: النُّبوَّةُ. وممَّن قال بذلك: النسفيُّ. ينظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣).

ممَّن اختار أنَّ إيتاءَه الحُكمَ والعِلمَ كان قبلَ النُّبوَّةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والعليمي، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢).

وعِلمًا قبْلَ النُّبوَّةِ(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: وكما جازَيْنا موسى بإيتائِه الحُكْمَ والعِلمَ بسَبَبِ إحسانِه، نُثِيبُ أيضًا كُلَّ مَن أحسَنَ عمَلَه في عبادةِ اللهِ، أو في إحسانِه للخَلقِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بتهيُّئِه لنُبوَّتِه؛ أخبَرَ بما هو سَبَبٌ لِهجرتِه إلى مَدْيَنَ، وتوالي الأحداثِ الجِسامِ عليه(٣):

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

أي: ودخَل موسى مدينةً في مِصرَ في وقتٍ لا يَشعُرُ فيه أهلُها بدُخولِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠ - ١٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

أي: فوجَدَ موسى في المدينةِ رجُلين يتضارَبانِ ويتنازَعانِ؛ أحدُهما مِن بني إسرائيلَ، والآخَرُ قِبطيٌّ مِن قَومِ فِرعَونَ[١].

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

أي: فطلَبَ الرَّجلُ الإسرائيليُّ مِن موسى أن يُعينَه ويَنصُرَه على خَصمِه الرَّجلِ القِبطيِّ[٢].

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾.

أي: فضرَبَ موسى القِبطيَّ بجُمْعِ كَفِّه (بقبضةِ يدِه)[٣].

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

أي: فقتَلَه بتلك الضَّربةِ[٤].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

= (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٦٩-٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٨).

قال السعدي: (استغاثتُه لموسى دليلٌ على أنَّه بلغ موسى عليه السَّلامُ مَبلغًا يُخافُ منه، ويُرجَى من بيتِ المملكةِ والسُّلطانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

أي: قال موسى: هذا القَتلُ قد وقَع بسبَبِ إغواءِ الشَّيطانِ لي، وتَزيينِه ووَسوستِه[(١)].

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ عدُوٌّ يسعَى في إضلالِ بني آدَمَ عن الحَقِّ، ظاهِرُ العداوةِ والإضلالِ لهم[(٢)].

وفي حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((... فيأتونَ موسى فيقولونَ: يا موسى، أنتَ رسولُ اللهِ، فَضَّلَك اللهُ برسالتِه وبكَلامِه على النَّاسِ، اشفَعْ لنا إلى ربِّك، ألَا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ فيقولُ: إنَّ ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غضَبًا لم يَغضَبْ قَبْلَه مِثْلَه، ولن يغضَبَ بعْدَه مِثلَه، وإنِّي قد قتلتُ نفْسًا لم أُومَرْ بقَتلِها، نفْسي نفْسي نفْسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى عيسى...))[(٣)].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٧١٢) واللفظ له، ومسلم (١٩٤).

قال الشوكاني: (موسى عليه السَّلامُ ما زال نادمًا على ذلك، خائفًا من العقوبةِ بسببِه، حتى إنَّه يومَ القيامةِ عندَ طلَبِ النَّاسِ الشَّفاعةَ منه يقولُ: «إنِّي قتلتُ نفسًا لم أُومَرْ بقَتلِها»، كما ثبَت ذلك في حديثِ الشَّفاعةِ الصَّحيحِ... ولا شَكَّ أنَّهم معصومون مِن الكبائرِ، والقَتلُ الواقعُ منه لم يكُنْ عن عَمدٍ، فليس بكبيرةٍ؛ لأنَّ الوَكْزةَ في الغالبِ لا تَقتُلُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩).
ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٠).

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي ظَلمتُ نفْسي بقَتلِ نَفْسٍ لم تأمُرْني بقَتلِها، فاستُرْ ذَنْبي، ولا تؤاخِذْني به[١].

﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: فغَفَر اللهُ لموسى ذنْبَه، ولم يُعاقِبْه عليه؛ لأنَّ اللهَ هو الغفورُ لِذُنوبِ عبادِه، الرَّحيمُ بهم[٢].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾.

أي: قال موسى: ربِّ بسبَبِ إنعامِك علَيَّ[٣] فأُعاهِدُك ألَّا أكونَ مُعينًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

قال الألوسي: (ترتيبُ «غفَرَ» على ما قبْلَه بالفاءِ يُشعِرُ بأنَّ المرادَ: غفَرَ له لاستِغفارِه. وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ...﴾ إلخ كالتَّعليلِ للعِلِّيَّةِ، أي: إنَّه تعالى هو المبالِغُ في مغفرةِ ذنوبِ عبادِه ورحمتِهم؛ ولذا كان استغفارُه سببًا للمغفرةِ له). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤).

(٣) قيل: المرادُ بالإنعامِ هنا: العفوُ عن قتلِ تلك النَّفْسِ، والمغفرةُ وعدَمُ المُعاقَبةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

وقيل: المرادُ بالإنعامِ هنا: المعرفةُ والحِكمةُ والتَّوحيدُ. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢).

وقيل: الجاهُ والعِزُّ والمَنَعةُ. وممَّن قال بذلك: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥).

قال الشوكاني: (والمرادُ بما أنعَمَ به عليه: هو ما آتاه مِن الحُكمِ والعِلمِ، أو بالمغفرةِ، أو الجميعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩).

للمجرمين[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ إثباتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

قال الألوسي: (والمجرمين جمعُ مُجرِمٍ، والمرادُ به: مَن أوقَعَ غيرَه في الجُرم، أو مَنْ أدَّتْ مُعاونَتُه إلى جُرمٍ؛ كالإسرائيليِّ الَّذي خاصمَه القِبطيُّ فأدَّتْ مُعاوَنتُه إلى جُرمٍ في نظَرِ موسى عليه السَّلامُ... وجُوِّزَ أن يُرادَ بذلك الكفَّارُ، وعنى بهم مَنِ استغاثه ونحوَه؛ بناءً على أنَّه لم يكُنْ أسلَمَ. وقيل: أراد بالمجرمين فِرعونَ وقَومَه، والمعنى: أُقسِمُ بإنعامِك علَيَّ لَأَتُوبَنَّ فلن أكونَ مُعينًا للكفَّارِ بأنْ أصحَبَهم وأُكثِّرَ سَوادَهم، وقد كان عليه السَّلامُ يَصحَبُ فِرعونَ ويَركبُ برُكوبِه؛ كالولدِ مع الوالدِ، وكان يُسمَّى ابنَ فِرعونَ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: المشركين الكافرين: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

قال الواحدي: (﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] قال ابنُ عبَّاسٍ: عَوْنًا للكافرين. وهذا يدُلُّ على أنَّ الإسرائيليَّ الذي أعانه موسى كان كافرًا، وهو قولُ مُقاتلٍ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٩٣).

وممَّن اختار أنَّ الإسرائيليَّ الَّذي نصَرَه موسى عليه السَّلامُ كان كافرًا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

قيل: وإنَّما ذكَر تعالى أنَّه مِن شِيعَتِه؛ لأنَّه كان إسرائيليًّا، ولم يُرِدِ الموافقةَ في الدِّينِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢).

العَداوةِ والوَلايةِ، وهو أصلٌ في الدِّينِ؛ فإنَّ وَلايةَ المؤمِنينَ مِن واجبِ المؤمنِ، والبراءةَ مِن الكُفَّارِ مِن واجبِ المؤمنِ؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤]، فهذا أمرٌ لا بُدَّ منه، فلا بُدَّ أنْ يَتبرَّأَ الإنسانُ مِن كلِّ كافرٍ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ندَمُ موسى عليه السَّلامُ حمَلَه على الخُضوعِ لربِّه، والاستغفارِ عن ذَنْبٍ باءَ به عندَه تعالى، فغفَرَ اللهُ خطأه ذلك. قال قَتادةُ: (عرَفَ -واللهِ- المَخرَجَ فاستغفَرَ)[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فيه فضلُ الاعترافِ بالذُّنوبِ، لعَلَّامِ الغُيوبِ، وهو استِكانةٌ موجِبةٌ لعطفِه ولُطفِه، بغَفْرِ الذُّنوبِ وسَترِ العُيوبِ، وهذا دأبُ المُصْطَفَيْنَ مِن عِبادِ اللهِ؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. وعلَّمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ الله عنه دعاءً يدعو به في صلاتِه، قال: ((قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظلَمتُ نفْسي ظُلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، فاغفِرْ لي مغفرةً مِن عِندِك، وارحَمْني؛ إنَّك أنت الغفورُ الرَّحيمُ))[٣]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٠).

(٣) رواه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

العبدَ إذا اعترَفَ بذَنْبِه، ثمَّ تاب؛ تاب اللهُ عليه))[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ هذا وعدٌ مِن موسى عليه السَّلامُ؛ بسبَبِ مِنَّةِ الله عليه: ألَّا يُعِينَ مُجرِمًا، كما فعَلَ في قَتلِ القِبطيِّ، وهذا يُفيدُ أنَّ النِّعَمَ تقتضي مِن العبدِ فِعْلَ الخيرِ، وترْكَ الشَّرِّ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال الحسَنُ: (مَن أحسنَ عبادةَ الله فِي شَبيبتِه، لقَّاه الله الحِكمةَ عند كِبَرِ سِنِّه)[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ جوازُ دفْعِ الصائلِ ولو أدَّى إلى قتْلِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ﴾ جوازُ الاستغاثةِ بالمخلوقِ فيما يَقدِرُ عليه، أمَّا ما لا يَقدِرُ عليه فلا يجوزُ؛ وعليه فلا تجوزُ الاستغاثةُ بالأمواتِ[٥].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ إنَّما أغاثه؛ لأنَّ نَصرَ المظلومِ دِينٌ في المِلَلِ كُلِّها، وفَرضٌ في جميعِ الشَّرائِعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٧).

والحديث رواه البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٢).

(٦) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٩٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أنَّ المعاصيَ مِن أوامرِ الشَّيطانِ وأعمالِه(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا كان الشيطانُ عدوًّا للإنسانِ، وكانت له مَسالكُ إلى النُّفوسِ؛ استدلَّ موسى عليه السَّلامُ بفِعلِه المؤدِّي إلى قتْلِ نَفْسٍ أنَّه فِعلٌ ناشِئٌ عن وَسوسةِ الشَّيطانِ، ولولاها لكان عَمَلُه جاريًا على الأحوالِ المأذونةِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الأصلَ في النَّفْسِ الإنسانيَّةِ هو الخيرُ، وأنَّه الفِطرةُ، وأنَّ الانحرافَ عنها يحتاجُ إلى سَبَبٍ غيرِ فِطريٍّ، وهو تخلُّلُ نَزْغِ الشَّيطانِ في النَّفْسِ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أنَّ قتْلَ الكافرِ الذي له عَهدٌ بعَقدٍ أو عُرْفٍ: لا يجوزُ؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ عَدَّ قَتْلَه القِبطيَّ الكافرَ ذنْبًا، واستغفرَ اللهَ منه(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ إثباتُ أنَّ الرُّسلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ قد يُخطِئون، لكنْ لا يقعُ منهم فَسادُ الأخلاقِ وشُربُ الخمورِ وما أشبهَ ذلك، أمَّا الغَيرةُ والحَميَّةُ فهذا قد يقَعُ منهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٤).

الأنبياءُ معصومون مِنَ الوُقوعِ في الكبائرِ، ومِن فِعلِ الصَّغائرِ الَّتي فيها نقصٌ أو شَيْنٌ أو خِسَّةٌ، وقد نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ. أمَّا ما عدا ذلك مِنَ الصَّغائرِ فمَذهَبُ مُعظَم الفُقهاءِ والمُحَدِّثينَ والمتكلِّمينَ مِنَ السَّلفِ والخلَفِ على جوازِ وُقوعِها منهم، فإنْ وقَع منهم شَيءٌ من ذلك فإنَّهم يَتدارَكونه بصِدقِ الإنابةِ إلى الله حتَّى يَبْلُغوا بذلك درجةً أعلى مِن درجةِ مَن لم =

٩- قد أخبَر سُبحانَه أنَّ الصِّدِّيقينَ المتَّقينَ لهم أعمالٌ سيِّئةٌ يُكَفِّرُها، ولا رَيْبَ أنَّها ظُلْمٌ للنَّفْسِ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]، وقال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقال آدمُ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال يونسُ عليه السَّلامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١٠-١١]. فظُلْمُ النَّفْسِ لا يُنافي الصِّدِّيقيَّةَ والولايةَ، ولا يُخرِجُ العبدَ عن كَونِه مِنَ المتَّقينَ، بل يجتمِعُ فيه الأمْرانِ: يكونُ وليًّا لله صِدِّيقًا مُتَّقيًا، وهو مُسيءٌ ظالمٌ لنفْسِه. ونُكتةُ المسألةِ أنَّ الاصطِفاءَ والولايةَ والصِّدِّيقيَّةَ وكَوْنَ الرَّجُلِ مِنَ الأبرارِ ومِنَ المُتَّقينَ ونحو ذلك كلُّها مراتبُ تَقْبَلُ التَّجزُّؤَ والانقِسامَ، والكمالَ والنُّقْصانَ، كما هو ثابتٌ باتِّفاقِ المسلمينَ في أصلِ الإيمانِ[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ جوازُ التَّوسُّلِ إلى اللهِ سُبحانه وتعالى بحالِ الدَّاعي[2]، فالطَّالبُ السَّائلُ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلَبِ، وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخبَرِ؛ إمَّا بوصفِ حالِه، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ، وإمَّا بوصفِ الحالَينِ. وقولُه: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ فيه وصْفُ حالِ النَّفْسِ، والطَّلَبُ[3].

= يقَعْ منه ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٠٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣، ٢٢٥).

١١- ينبغي على العَبدِ إضافةُ السَّيِّئاتِ إلى نفْسِه، مع عِلْمِه بأنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ موجودٍ مِن الأعيانِ والصِّفاتِ، والحَركاتِ والسَّكَناتِ، كما قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، وقال آدمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال الخليلُ عليه السَّلامُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقيل لخاتَمِ الرُّسلِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وأمثالُ هذا كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ إثباتُ أنَّ الدُّعاءَ سببٌ، خِلافًا لِمَن أنكَرَ سَببيَّتَه[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ مُعاوَنةُ الظَّلَمةِ والفَسَقةِ[(٣)]، وعلى أنَّ مُظاهَرةَ المجرِمِ تُنافي الشُّكرَ، فهي مُحرَّمةٌ؛ لأنَّها إجرامٌ حقيقةً، بل تكونُ مُساعَدةُ المجرِمِ بمنعِ إجرامِه؛ ولذلك قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا. فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالِمًا، كيفَ أنصُرُه؟ قال: تَحْجُزُه -أو تَمنَعُه- مِنَ الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلك نصْرُه))[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٩).
والحديث أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

هذا اعتِراضٌ بيْنَ أجزاءِ القصَّةِ المُرتَّبةِ على حسَبِ ظُهورِها في الخارجِ. وهذا الاعتِراضُ نشَأَ عن جُملةِ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]؛ فإنَّ وعْدَ اللهِ لها قد حُكِيَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فلمَّا انتهَى إلى حِكايةِ رَدِّه إلى أُمِّه بقولِه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣] إلى آخِرِه، كَمَّلَ ما فيه وفاءُ وَعْدِ اللهِ إيَّاها بهذا الاستِطرادِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ وإنَّما أُوتِيَ الحُكْمَ -أي: النُّبوَّةَ، على أحدِ الأقوالِ- بعدَ خُروجِه مِن أرضِ مَدْيَنَ[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ (يُوسفَ) إلَّا قولَه: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ ووجهُ ذلك أنَّ الأَشُدَّ كَمالُ القوَّةِ، وأنَّ الاستواءَ كَمالُ البِنْيةِ؛ ولهذا أُريدَ لمُوسى الوصْفُ بالاستواءِ، ولم يُوصَفْ يُوسفُ إلَّا ببُلوغِ الأَشُدِّ خاصَّةً؛ لأنَّ مُوسى كان رجُلًا طُوالًا، كما في الحَديثِ: ((كأنَّه من رِجالِ شَنُوءةَ))[(٢)]؛ فكان كاملَ الأعضاءِ، ولذلك كان وَكْزُه القِبطيَّ قاضيًا على المَوكوزِ[(٣)]. وقيل غيرُ ذلك[(٤)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ طُويَت أخبارٌ كَثيرةٌ تُنْبِئُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.
وطُوال: معناه: طويل، وهما لغتان. وشَنُوءة: حيٌّ مِنَ اليَمنِ، مَعروفون بالطُّولِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٢٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٤).

عنها القصَّةُ؛ وذلك أنَّ مُوسى يَفَعَ وشَبَّ في قَصرِ فِرعونَ، فكان مَعدودًا مِن أهلِ بيتِ فِرعونَ. وجُملةُ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] عطْفَ جُزءِ القصَّةِ على جُزءٍ آخَرَ منها[١].

- قولُه: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ المقصودُ من ذِكْرِ هذا الوقتِ الإشارةُ إلى أنَّ قتْلَه القِبطيَّ لم يَشعُرْ به أحدٌ؛ تَمهيدًا لقولِه بعدُ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] الآياتِ، ومُقدِّمةً لِذكْرِ خُروجِه مِن أرضِ مِصرَ[٢].

- والإشارتانِ في قولِه: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ في قولِه: ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾[٣].

- جُملةُ ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ كأنَّ سائلًا سأَلَ: ماذا كان مِن أمْرِ مُوسى حينَ فُوجِئَ بمَوتِ القِبطيِّ؟ وحِكايةُ ذلك للتَّنبيهِ على أنَّ مُوسى لم يَخطُرْ ببالِه حينَئذٍ إلَّا النَّظرُ في العاقبةِ الدِّينيَّةِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تَعليلٌ لكَونِ شِدَّةِ غَضبِه من عَمَلِ الشَّيطانِ؛ إذ لولا الخاطرُ الشَّيطانيُّ لَاقتصَرَ على زَجْرِ القِبطيِّ، أو كَفِّه عن الَّذي من شِيعَتِه[٥].

- ومُتعلِّقُ ﴿عَدُوٌّ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المقامِ، أي: عدُوٌّ لآدَمَ وذُرِّيَّةِ آدَمَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ رُتِّبَ على الإخبارِ عنه بالعَداوةِ وَصْفُه بالإضلالِ؛ لأنَّ العَدُوَّ يَعمَلُ لإلحاقِ الضُّرِّ بعَدُوِّه[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- تَوسيطُ الفِعلِ ﴿قَالَ﴾ بينَ كلامَيْ موسى عليه السَّلامُ؛ لإبانةِ ما بيْنَهما مِن المُخالَفةِ مِن حَيثُ إنَّه مُناجاةٌ ودُعاءٌ، بخِلافِ الأوَّلِ[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ للتَّعقيبِ، أي: استجابَ استغفارَه، فعجَّلَ له بالمغفرةِ[3].

- وجُملةُ ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وجُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ١٧]؛ كان اعتراضُها إعلامًا لأهْلِ القرآنِ بكرامةِ مُوسى عليه السَّلامُ عندَ ربِّه[4].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾؛ علَّلَ المغفرةَ له بأنَّه شَديدُ الغُفرانِ، ورحيمٌ بعِبادِه، مع تأْكيدِ ذلك بصِيغةِ القصْرِ (تَعريفِ المُبتدَأ والخَبرِ)؛ إيماءً إلى أنَّ ما جاء به هو مِن ظُلمِ نفْسِه[5].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ إعادةُ الفِعلِ (قال) أفاد تأكيدًا لفِعلِ ﴿قَالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦، ٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩١، ٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٢).

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ [القصص: ١٦]؛ أُعِيدَ القولُ للتَّنبيهِ على اتِّصالِ كلامِ مُوسى؛ حيث وقَعَ الفصْلُ بيْنَه بجُملتَيْ ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] [القصص: ١٦].

- قولُه: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ قَسَمًا جوابُه مَحذوفٌ، تَقديرُه: أُقسِمُ بإنعامِك علَيَّ بالمغفرةِ لَأَتُوبَنَّ، فلنْ أكونَ ظَهيرًا للمُجرِمينَ، وأنْ يكونَ استِعطافًا؛ كأنَّه قال: ربِّ اعْصِمني بحَقِّ ما أنعَمْتَ علَيَّ مِن المغفرةِ، فلنْ أكونَ -إنْ عصَمْتني- ظهيرًا للمُجرِمين. ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ؛ فحينَئذٍ لا يكونُ قَسَمًا، ولا استِعطافًا؛ فالمعنى: بسَببِ ما أنعمْتَ علَيَّ مِن القوَّةِ أشكُرُك، فلنْ أستعمِلَ القوَّةَ إلَّا في مُظاهَرةِ أوليائِك[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

الآيات (١٨-٢١)

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى
إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ
(١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ
إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَرَقَّبُ﴾: أي: ينتظرُ سوءًا يَنالُه منهم، أو ينتظرُ الأخبارَ، والترقُّبُ: انتظارُ المكروهِ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شَيءٍ[١].

﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾: أي: يستغيثُ به، ويطلُبُ ما يُزيلُ ما يَصرُخُ بسببِه مِن الضرِّ، وأصلُ (صرخ): يدُلُّ على صَوتٍ رفيعٍ[٢].

﴿لَغَوِيٌّ﴾: أي: لَمُضِلٌّ، والغَوِيُّ: الشَّديدُ الغَوايةِ، وهي الضَّلالُ، وسُوءُ النَّظَرِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تذكرة الاريب)) لابن الجوزي (٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

﴿يَبْطِشَ﴾: البَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): أَخْذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[١].

﴿جَبَّارًا﴾: الجبارُ: القاتلُ ظُلمًا بغيرِ حقٍّ، والَّذي لا يَتواضعُ لأمرِ اللهِ، ويُقالُ لِمَن يَجبُرُ نقيصتَه بادِّعاءِ منزلةٍ مِنَ التَّعالي لا يَستحِقُّها، وأصلُ الجَبْرِ: إصلاحُ الشَّيءِ بضربٍ مِن القهرِ، وقد يقالُ الجبرُ تارةً في الإصلاحِ المجرَّدِ، وتارةً في القهرِ المجرَّدِ، وأصلُ (جبر): جنسٌ مِن العظمةِ والعُلُوِّ والاستقامةِ[٢].

﴿ٱلْمَلَأَ﴾: أي: أشرافَ النَّاسِ ووجوهَهم ورؤساءَهم، ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، كأنَّه ملأَ عينَه مِن رؤيتِه، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكمالِ في الشَّيءِ[٣].

﴿يَأْتَمِرُونَ﴾: أي: يَتشاورونَ، ويأمُرُ بَعضُهم بَعضًا، يُقالُ: ائتمَرَ القَومُ في كذا وتآمَروا: إذا شاوَرَ بعضُهم بعضًا، وأصلُه مِن الأمرِ الَّذي هو ضِدُّ النَّهيِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا ما كان مِن أمرِ موسى عليه السَّلامُ: فأصبَحَ موسى في المدينةِ الَّتي قَتَل فيها القِبطيَّ خائِفًا يُراقِبُ ما يتحدَّثُ به النَّاسُ في شأنِه، فإذا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٣١٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

بالرَّجُلِ الإسرائيليِّ الَّذي طلب منه النُّصرةَ على القِبطيِّ بالأمسِ يَصرُخُ طالِبًا منه أن يَنصُرَه على قِبطيٍّ آخَرَ! فقال موسى للإسرائيليِّ الَّذي استغاث به: إنَّك لَظاهِرُ الغَوايةِ، كثيرُ الاقتتالِ لِمَن لا تُطيقُ دَفعَ شَرِّه!

فلمَّا أراد موسى أن يأخُذَ القِبطيَّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيليِّ ويَضربَه، قال: يا موسى، أتُريدُ أن تقتُلَني اليَومَ كما قتلْتَ القِبطيَّ بالأمسِ؟! ما تريدُ إلَّا أن تكونَ قاهِرًا متكَبِّرًا في الأرضِ، وما تريدُ أن تكونَ مِن المُصلِحينَ.

وجاء رجُلٌ مِن آخِرِ المدينةِ مُسرِعًا إلى موسى، قال له ناصِحًا: يا موسى، إنَّ أشرافَ قَومِ فِرعَونَ يَتشاوَرونَ في قَتلِك، فاخرُجْ مِن هذه المدينةِ، إنِّي لك مِن النَّاصِحينَ.

فخرَج موسى مِنَ المدينةِ خائفًا يَتلفَّتُ خَشيةَ أن يلحَقوا به فيَقتُلوه، وقال داعيًا ربَّه: رَبِّ نجِّني مِن قَومِ فِرعَونَ الظَّالمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه القَتلَ، وأتبَعَه ما هو الأهَمُّ مِن أمْرِه بالنَّظَرِ إلى الآخرةِ؛ ذَكَر ما تسبَّبَ عنه مِن أحوالِ الدُّنيا، فقال[(١)]:

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾.

أي: فأصبَحَ موسى في المدينةِ -التي قُتِلَ فيها القِبطيُّ- خائِفًا أن يُؤخَذَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩).

بجنايتِه، يُراقِبُ الأخبارَ، وينتَظِرُ ما يتحدَّثُ به النَّاسُ في شأنِه[١]!

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾.

أي: فتفاجَأ موسى بالرَّجُلِ الإسرائيليِّ الَّذي طلَبَ منه النُّصرةَ على الفِرعَونيِّ بالأمسِ يَصرُخُ ويَصيحُ به اليَومَ، طالِبًا أن يَنصُرَه على فِرعَونيٍّ آخَرَ[٢]!

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: قال موسى للإسرائيليِّ الَّذي استغاث به: إنَّك ظاهِرُ الغَوايةِ، كَثيرُ المُخاصَمةِ والمُنازَعةِ لِمَن لا تُطيقُ دَفْعَ شَرِّه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٠).

قال ابن كثير: (يخبرُ تعالى أنَّ موسَى أصبَح بمدينةِ مصرَ خائفًا أي: من فرعونَ وملئِه، أن يعلموا أنَّ هذا القتيلَ الذي رُفِع إليه أمرُه إنَّما قتَله موسى في نصرةِ رجلٍ من بني إسرائيلَ، فتقوَى ظنونُهم أنَّ موسى منهم، ويترتَّبُ على ذلك أمرٌ عظيمٌ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٤٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: يَنتظِرُ الأخبارَ، ويُراقِبُ ما يُقالُ في شأنِه، وما يَتحدَّثُ به النَّاسُ ممَّا هم صانِعون في أمرِه وأمرِ قتيلِه: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: يَنتظِرُ سُوءًا يَنالُه منهم بسببِ قتلِه القِبطيَّ. وممَّن اختاره في الجملةِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾.

أي: فلمَّا أراد موسى أن يأخُذَ القِبطيَّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيليِّ بعُنفٍ وشِدَّةٍ، ويَضرِبَه[1].

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾.

أي: قال[2]: ....

= (١٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

قال السمعاني: (قولُه: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ الأكثرونَ أنَّ هذا قاله موسَى للإسرائيليِّ... ويُقالُ: إنَّ هذا قالَه للقبطيِّ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٩).

وممَّن نصَّ على أنَّ الخِطابَ هنا للاسرائيليِّ: ابنُ جرير، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

(٢) قيل: القائِلُ هو الإسرائيليُّ. وممَّن قال بذلك: مقاتِلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والواحديُّ -وحكَى فيه الإجماعَ-، وابنُ الجوزي، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، وقَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٥٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٠١). =

يا موسى، أتُريدُ أن تقتُلَني اليومَ كما قتَلْتَ القِبطيَّ بالأمسِ[١]؟!

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ما تُريدُ -يا موسى- بقَتلِك النَّاسَ ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ إلَّا أن تكونَ قاهِرًا غالِبًا، تأخُذُ النَّاسَ بالشِّدَّةِ والقوَّةِ، فلا يكونُ فوقَك أحَدٌ[٢]!

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

= قال ابنُ الجوزي: (هذا قَولُ الإسرائيليِّ مِن غيرِ خِلافٍ عَلِمناه بيْنَ المفسِّرين، قالوا: لَمَّا رأى الإسرائيليُّ غَضَبَ موسى عليه حينَ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ورآه قد هَمَّ أن يبطِشَ بالفِرعَونيِّ، ظنَّ أنه يُريدُه، فخاف على نفْسِه فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي﴾؟!). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨).

قال جمهورُ المفسِّرينَ -كما نسَبه إليهم الشوكاني-: ولم يَكُنْ قد عَلِم أحدٌ مِن أصحابِ فرعونَ أنَّ موسَى هو الَّذي قَتَل القِبطيَّ بالأمسِ حتَّى أفشَى عليه الإسرائيليُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

وقيل: القائِلُ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسًۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾ هو القِبطيُّ. وممَّن استظهر هذا القَولَ: الرازيُّ، والشوكانيُّ، وقال به السعديُّ، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٤، ٨٥).

قال الشوكاني: (وهذا هو الظَّاهِرُ، وقد سبَقَ ذِكرُ القِبطيِّ قبلَ هذا بلا فَصلٍ؛ لأنَّه هو المرادُ بقولِه: ﴿عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، ولا مُوجِبَ لمُخالفةِ الظَّاهِرِ حتَّى يَلزَمَ منه أنَّ المؤمنَ بموسى المُستغيثَ به المَرَّةَ الأُولى والمرَّةَ الأُخرى هو الَّذي أفشى عليه. وأيضًا أنَّ قولَه: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يَليقُ صُدورُ مِثلِه إلَّا مِن كافرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٥).

أي: وما تريدُ أن تكونَ ممَّن يعملُ في الأرضِ بما فيه صلاحُ أهلِها مِنْ طاعةِ اللَّهِ، وما هكذا يكونُ الإصلاحُ[1].

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾.

أي: وجاء رجُلٌ مِن آخِرِ المدينةِ وأبعَدِها يمشي مُسرِعًا إلى موسى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٤).
وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى: ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أيْ: مِنَ الَّذينَ يُصلِحونَ بيْنَ النَّاسِ بالقولِ والفعلِ، فتدفَع التَّخاصُمَ بالَّتي هي أحسَنُّ: القرطبيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).
وممن اختار أنَّ معنى: ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي: المطيعين لله: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢).
وقال ابنُ جرير: (ما تريدُ أنْ تكونَ مِمَّنْ يعملُ في الأرضِ بما فيه صلاحُ أهلِها، مِنْ طاعةِ اللَّهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٧، ٨٨).
قال ابنُ عاشور: (الظَّاهرُ أنَّ ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ هو ناحيةُ قُصورِ فِرعونَ وقومِه؛ فإنَّ عادةَ الملوكِ السُّكنَى في أطْرافِ المُدُنِ؛ توَقِّيًا مِن الثَّوراتِ والغاراتِ؛ لِتكونَ مَساكنُهم أسعَدَ بخُروجِهم عندَ الخوفِ. وقد قِيل: الأطرافُ منازِلُ الأشرافِ... وبهذا يَظهَرُ وجْهُ ذِكْرِ المكانِ الَّذي جاء منه الرَّجلُ، وأنَّ الرَّجلَ كان يَعرفُ مُوسى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٥).
وقال ابنُ عثيمين: (قد يكونُ هذا الإسراعُ... حتى يَسبِقَ مَن أُرسِلَ إلى موسى لِيَقْتُلَه، وقد =

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾.

أي: قال ناصِحًا لموسى: يا موسَى، إنَّ الأشرافَ والرُّؤساءَ مِن قَومِ فِرعَونَ يَتشاوَرونَ في قَتلِك، ويأمُرُ بَعضُهم بَعضًا بذلك[١].

﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾.

أي: فاخرُجْ مِن هذه المدينةِ، إنِّي مِن النَّاصِحينَ لك في أمرِك بالخُروجِ منها[٢].

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

أي: فخرَجَ موسى مِنَ المدينةِ وهو خائِفٌ مِن قَومِ فِرعَونَ، يتلفَّتُ ويَنظُرُ: هل يَلحَقونَ به ويدركونَه[٣]؟!

= يكونُ خَوفًا مِن تنفيذِ ما ائتَمَروا عليه في شأنِه، والأخيرُ هو الأفضَلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال القِنَّوْجي: (﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يتشاورونَ في قتلِك ويتآمَرونَ بسببِك، وإنَّما سُمِّي التَّشاوُرُ ائتمارًا؛ لأنَّ كلًّا مِن المتشاورين يأمرُ الآخَرَ ويأتمرُ به). ((تفسير القنوجي)) (١٠/ ١٠٢).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤).

قال الواحديُّ: (معنَى الائتمارِ في كلامِ العربِ: المُشاوَرةُ، وهو يعودُ إلى أن يأمُرَ بعضُهم بعضًا). ((البسيط)) (١٧/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: قال موسى داعيًا رَبَّه، وهو هارِبٌ مِن مدينةِ فِرعَونَ: رَبِّ خَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ، وإرادةِ قَتلي على ما وقَع منِّي مِن قتلٍ بالخَطأِ[1]!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- النَّميمةُ مَفسَدةٌ محرَّمةٌ، لكنَّها جائزةٌ أو مأمورٌ بها إذا اشتملَتْ على مصلحةٍ للمَنْمومِ إليه، مثالُه: إذا نُقِل إلى مسلم أنَّ فلانًا عزَم على قتلِه في ليلةِ كذا وكذا، أو على أخذِ مالِه في يوم كذا وكذا، أو على التعرُّضِ لأهلِه في وقت كذا وكذا، فهذا جائزٌ، بل واجبٌ؛ لأنَّه توسُّلٌ إلى دفعِ هذه المفاسدِ عن المسلم، وإنْ شئتَ قلْتَ: لأنَّه سبَبٌ إلى تحصيلِ مصالح أضْدادِ هذه المفاسدِ. ويدُلُّ على ذلك كلِّه قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآيةَ[2]، فإخبارُ الرَّجُلِ غيرَه بما قيلَ فيه على وجهِ التَّحذيرِ له مِن شَرٍّ يقعُ فيه: لا يكونُ ذلك نميمةً، بل قد يكونُ واجبًا، كما أخبَرَ ذلك الرَّجلُ موسى ناصِحًا له ومُحذِّرًا[3].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ

= (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((قواعد الأحكام في مصالح الأنام)) للعز بن عبد السلام (١/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣).

﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ المُسارَعةُ إلى النُّصحِ في الدِّماءِ، وكذلك المُسارَعةُ في كلِّ أمرٍ دِينيٍّ يُخافُ فَوْتُه. وقد تجبُ المُسارَعةُ؛ كالمُسارَعةِ في النُّهوضِ إلى القتال، وكما لو رأَيْنا مَن يَقتُلُ مسلِمًا لو تَبَطَّأْنا عليه لَقَتَلَه، فالمُسارَعةُ إلى تخليصِه واجبةٌ؛ إذْ ليستِ الأناةُ محمودةً في كلِّ شَيءٍ، بل لها مَواطِنُ تُحمَدُ فيها، ومَواطِنُ تُذَمُّ فيها، وكذلك المُسارَعةُ واللِّينُ والغِلظةُ وغيرُها[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ مَن قتَل النُّفوسَ بغيرِ حقٍّ، وزَعَمَ أنَّه يريدُ الإصلاحَ في الأرضِ، وتَهييبَ أهلِ المعاصي، فإنَّه كاذبٌ في ذلك، وهو مُفسِدٌ، كما حكى اللهُ قولَ القِبطيِّ -على أحدِ القولين-: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على وجهِ التَّقريرِ له، لا الإنكارِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ وصفه بالرُّجوليَّةِ؛ لأنَّه خالَف الطَّريقَ، فسلَك طريقًا أقرَبَ مِن طريقِ الَّذين بُعِثوا وراءَه، فسبَق إلى موسَى[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أنَّه إذا خاف الإنسانُ القَتلَ والتَّلَفَ في الإقامةِ، فإنَّه لا يُلقي بيدِه إلى التَّهلُكةِ، ولا يَستَسلِمُ لذلك، بل يذهَبُ عنه، كما فَعَلَ موسى عليه السَّلامُ[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أنَّه عندَ تزاحُمِ المفسدتَينِ -إذا كان لا بُدَّ

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

مِن ارتكابِ إحداهما- أنَّه تُرتكَبُ الأخَفُّ منهما والأسلَمُ، كما أنَّ موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لَمَّا دار الأمرُ بيْنَ بقائِه في مِصرَ ولكنَّه يُقتلُ، أو يذهَبُ إلى بعضِ البُلْدانِ البعيدةِ الَّتي لا يَعرِفُ الطَّريقَ إليها، وليس معه دليلٌ يدُلُّه غير ربِّه -ولكنَّ ذلك يكونُ أقرَبَ للسَّلامةِ مِن بقائِه- اختار موسى ما هو أقرَبُ لسلامته[١].

٥- قال موسى عليه السلامُ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصَفَهم بالظُّلْم؛ لأنَّهم مُشرِكون، ولأنَّهم رامُوا قتْلَه قِصاصًا عن قتْلِ خطَأٍ، وذلك ظُلْمٌ؛ لأنَّ الخطَأَ في القتْلِ لا يَقْتضي الجزاءَ بالقتْلِ في نَظَرِ العقلِ والنَّقلِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ الاستِصراخُ: المُبالَغةُ في الصُّراخِ، أي: النِّداءِ، وهو المُعبَّرُ عنه في القصَّةِ الماضيةِ بالاستِغاثةِ؛ فخُولِفَ بيْنَ العِبارتينِ للتَّفنُّنِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

- أشارَ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ...﴾ إلى المبادَرةِ إلى إصراخِه، قيل: أثبَتَ الحرْفَ الَّذي أصلُه المصدرُ؛ تأكيدًا لمعنى الإرادةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٤).

فقال: ﴿أَنۡ أَرَادَ﴾[1]. وقيل: إنَّما زادَ (أنْ) للإشعارِ بأنَّ مُوسى عليه السَّلامُ لم تكُنْ مُسارعتُه الى قَتْلِ الثاني كما كانتْ مُسارعتُه إلى قَتْلِ الأوَّلِ، بل كان عِندَه إبطاءٌ في بَسْطِ يَدِه إليه؛ فعبَّرَ القرآنُ عن ذلك الإبطاءِ بزِيادةِ (أنْ)[2].

- والتَّنوينُ في ﴿عَدُوٌّ﴾ للتَّفخيمِ، أي: عَدوٌّ عظيمُ العَداوةِ، ولإرادةِ ذلك لم يُضِفْهُ[3].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسٗا بِٱلۡأَمۡسِ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفي سُورةِ (يس) في قصَّةٍ أُخرَى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]؛ فقَدَّمَ في الأُولى ﴿رَجُلٞ﴾ على ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفي الثَّانيةِ أخَّرَها؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قِصَّةَ سُورةِ (القصصِ) فيها اهتمامٌ بالخبرِ الَّذي جاء به ذلك الرَّجلُ؛ فقُدِّمَ ذِكْرُه على ذِكْرِ المكانِ، فكَوْنُه جاء مِنَ الأقصَى أو مِن الأدنَى لا يُؤَثِّرُ، أمَّا في قصَّةِ الرُّسُلِ الثَّلاثةِ في سُورةِ (يس) ففيها اهتمامٌ بكونِ هذا الرَّجلِ بعيدًا عن الرُّسلِ، وما جاء إلَّا لِيُؤكِّدَ صِحَّةَ ما جاؤوا به قبْلَه؛ فلَمَّا كان الأمرُ في سُورةِ (القَصصِ) مُهِمًّا يَحتاجُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩، ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢٠/ ٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

إلى مَزيدِ عزْمٍ، وعِظَمِ قوَّةٍ؛ قَدَّمَ فاعلَ المَجِيءِ على مُتعلَّقِه، بخلافِ ما في سورةِ (يس).

- وقيل: الفائدةُ في تَقديمِ ذِكْرِ الرَّجلِ في (القَصصِ) وتأْخيرِه في (يس): أنَّ ذِكْرَ الأوصافِ قبْلَ ذِكْرِ الموصوفِ أبلَغُ في المدْحِ مِن تَقديمِ ذِكْرِه على وَصْفِه؛ فإنَّ النَّاسَ يقولونَ: الرَّئيسُ الأجَلُّ فُلانٌ؛ فالَّذي زِيدَ في مَدْحِه -وهو صاحبُ (يس)- أمَرَ بالمعروفِ، وأعانَ الرُّسلَ، وصبَرَ على القتْلِ، والآخَرُ إنَّما حذَّرَ مُوسَى مِن القتْلِ، فسَلِمَ مُوسَى بقَبولِه مَشورتَه؛ فالأوَّلُ هو الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المُنكَرِ، والثَّاني هو ناصحُ الآمرِ بالمعروفِ؛ فاستحَقَّ الأوَّلُ الزِّيادةَ. وذُكِرَ (أقصى المدينةِ)؛ لأنَّ الرَّجلينِ جاءَا مِن بُعدٍ في الأمرِ بالمعروفِ، ولم يَتقاعَدا لبُعدِ الطَّريقِ[(١)].

- ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ قيل: ضُمِّن معنى (يَهُمُّون)؛ فعُدِّي بالباءِ، فكأنَّه قيل: يأتمرونَ ويَهمُّون بقتلِك[(٢)].

- قولُه: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ مُتعلَّقُ الخُروجِ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المقامِ عليه، أي: فاخرُجْ مِن المدينةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ تَعليلٌ لأمْرِه بالخُروجِ. وتَقديمُ المجرورِ ﴿لَكَ﴾؛ لرِعايةِ الفاصلةِ[(٤)].

---

(١) هذه الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هُبَيْرَةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٢-٢٥)

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ
مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ
تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى
ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ
ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تِلْقَآءَ﴾: أي: تُجاهَ ونَحوَ، والتِّلْقاءُ: جِهةُ اللَّقاءِ والمُقابَلةِ، وأصلُ (لقي): يدُلُّ على توافي شَيئَينِ[1].

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووسَطَه، وأصلُ السَّواءِ: الوَسَطُ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ وامتدادِه[2].

﴿وَرَدَ﴾: أي: بلَغَ ووصَلَ، والوُرودُ: قَصْدُ الماءِ، ثمَّ يُستعمَلُ في غيرِه، وأصلُ (ورد): يدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٧).

﴿أُمَّةً﴾: أي: جماعةً، والأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يَجمَعُهم أمرٌ ما؛ إمَّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وأصلُ (أمم): الأصلُ والمرجِعُ، والجماعةُ والدِّينُ(١).

﴿تَذُودَانِ﴾: أي: تَكُفَّانِ، وتَحبِسانِ غَنَمَهما، والذَّوْدُ أكثرُ ما تُستعمَلُ في الغَنَمِ والإبلِ، وأصلُه يدُلُّ على تنحيةِ الشَّيءِ عن الشَّيءِ(٢).

﴿خَطْبُكُمَا﴾: أي: أمْرُكما وشأنُكما، والخطبُ: الأمرُ يقعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِمَا يقعُ فيه مِن التَّخاطُبِ والمراجعةِ، وأصلُ (خطب): يدُلُّ على الكلامِ بينَ اثنينِ(٣).

﴿يُصْدِرَ﴾: أي: يرجِعَ ويَفرُغَ، وأصلُ (صدر): يدُلُّ على خِلافِ الوِرْدِ(٤).

﴿ٱلرِّعَآءُ﴾: جمعُ راعٍ، وأصلُ (رعي): يدُلُّ على مُراقَبةٍ وحِفظٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَمَّا خرجَ موسى مِن مِصرَ وتوجَّهَ إلى مَدْيَنَ، قال: عسى أن يُرشِدَني ربِّي إلى الطَّريقِ الموصِلِ إلى مَدْيَنَ.

ولَمَّا وصَلَ ماءَ مَدْيَنَ وجَدَ على الماءِ جماعةً كثيرةً مِن النَّاسِ يَسْقونَ مواشِيَهم، ووجَدَ مِن دُونِهمُ امرأتَينِ تَمنعانِ غَنَمَهما؛ لئلَّا تختَلِطَ بأغنامِ النَّاسِ.

قال موسى للمرأتَينِ: ما شأنُكما؟! قالَتا: لا نَسْقي غنَمَنا إلَّا بعد أن يَصرِفَ الرُّعاةُ مواشيَهم، وأبونا شيخٌ كبيرٌ لا يستطيعُ سَقْيَ الغَنَمِ بنَفْسِه.

فسقَى موسى لهما غنَمَهما بلا أُجرةٍ، ثمَّ انصرَفَ إلى الظِّلِّ، فقال: ربِّ إنِّي مُحتاجٌ إلى أيِّ شَيءٍ أنزَلْتَه إلَيَّ مِن أيِّ خيرٍ كان.

فجاءت إحدى المرأتينِ إلى موسى تمشي مُستَحِيةً، قالت لموسى عليه السَّلامُ: إنَّ أبي يدعوك لِيُكافِئَك على سَقْيِك لنا الغَنَمَ.

فلمَّا جاء موسى إلى أبيها وقَصَّ عليه خبَرَه مع فِرعَونَ وقَومِه، قال له الأبُ: لا تخَفْ؛ فقد نجَوتَ مِن هؤلاء القَومِ الظَّالمينَ؛ إذ لا حُكمَ لهم بأرضِنا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾.

أي: ولَمَّا خرَج موسى مِن مِصرَ، وقَصَد جهةَ مَدْيَنَ بلا دليلٍ يَهديه، وخَشِيَ أن يَضِلَّ الطَّريقَ؛ قال: عسى[١] أن يُبيِّنَ لي ربِّي الطَّريقَ المُوصِلَ بسُهولةٍ ويُسرٍ إلى مَدْيَنَ[٢].

(١) قال البقاعي: (﴿عَسَىٰ﴾ أي: خليقٌ وجديرٌ وحقيقٌ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢، ٢٠٣)، =

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾.

أي: ولَمَّا بلَغَ موسى ماءَ مَدْيَنَ وجَدَ على الماءِ جماعةً كثيرةً مِن النَّاسِ يَسقُونَ مَواشِيَهم[1].

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِ﴾.

أي: ووجَدَ مِن دونِ[2] ....

= ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ موسى أراد بدُعائِه الهدايةَ إلى الطَّريقِ الحِسِّيةِ المُوصِلةِ إلى مَدْيَنَ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، والسُّدِّيُّ، وقتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٦٠، ٢٩٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٥).

وقيل: أراد موسى سَبيلَ الهدى إلى الحَقِّ. وممَّن استَحْسَنَه ومال إليه: ابنُ عطيَّة، واستظهَرَه ابنُ جُزَي، واختاره ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال الثعلبي: (﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ وهو بئرٌ كانت لهم). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(٢) قال الشوكاني: (﴿مِن دُونِهِمُ﴾ أي: مِن دونِ النَّاسِ الَّذينَ يَسْقونَ ما بيْنَهم وبينَ الجِهةِ الَّتي جاءَ منها. وقيلَ: معناه: في مَوضعٍ أسفلَ مِنهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩١). =

تلك الجَماعةِ امرأتينِ تَحبِسانِ غَنَمَهما عن النَّاسِ[(١)].

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾.

أي: قال موسى للمَرأتينِ: ما شأنُكما تكُفَّانِ غنَمَكما، ولا تَسقيانِ مع النَّاسِ[(٢)]؟!

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾.

أي: قالَتا لموسى: عادَتُنا أنَّنا لا نَسْقي أغنامَنا إلَّا بعدَ أن يَصرِفَ الرُّعاةُ مواشِيَهم[(٣)].

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

= وممَّن اختار أنَّ المرادَ: في مَوضعٍ أسفَلَ مِن موضعِ الجماعةِ، ومكانٍ أسفَلَ مِن مكانِهم: الزمخشريُّ، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، والبقاعي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿مِن دُونِهِمُ﴾ أي: مِن سِواهم: الواحديُّ، والسمعاني، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٧، ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال الماوَرْديُّ: (وفي امتناعِهما مِن السَّقيِ حتَّى يُصدِرَ الرِّعاءُ وجهانِ؛ أحدُهما: تَصَوُّنًا عن الاختلاطِ بالرِّجالِ. الثَّاني: لِضَعفِهما عن المزاحمةِ بماشيتِهما). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

أي: وأبونا كبيرٌ في السِّنِّ، يَضعُفُ عن سَقيِ الغَنَمِ بنَفْسِه[١].

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

أي: فسقَى موسى للمَرأتَينِ غَنَمَهما بلا أُجرةٍ؛ رأْفةً ورحمةً بهما[٢].

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال القرطبي: (أكثَرُ النَّاسِ على أنَّهما ابنتا شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، وهو ظاهِرُ القرآن). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧٠).

وممَّن قال بأنَّه ليس بشُعَيبِ النَّبيِّ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦١-٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤).

قال السعدي: (وهذا الرَّجلُ أبو المرأتين؛ صاحِبُ مَدْينَ: ليس بشُعَيبِ النَّبيِّ المعروفِ، كما اشتَهَر عند كثيرٍ مِن النَّاسِ؛ فإنَّ هذا قَولٌ لم يَدُلَّ عليه دليلٌ، وغايةُ ما يكونُ أنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ قد كانت بلَدُه مَدْيَنَ، وهذه القضيَّةُ جَرَت في مَدْيَنَ، فأين الملازَمةُ بيْنَ الأمْرَين؟! وأيضًا فإنَّه غيرُ معلومٍ أنَّ موسى أدرك زمانَ شُعَيبٍ، فكيف بشَخصِه؟! ولو كان ذلك الرَّجلُ شُعَيبًا لذكَرَه اللهُ تعالى، ولَسَمَّتْه المرأتانِ. وأيضًا فإنَّ شُعَيبًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد أهلك اللهُ قَومَه بتكذيبِهم إيَّاه، ولم يَبْقَ إلَّا مَن آمَنَ به، وقد أعاذ اللهُ المؤمنينَ أن يَرضَوا لِبنْتَي نبيِّهم بمنَعِهما عن الماءِ، وصَدِّ ماشيتِهما حتَّى يأتيَهما رجُلٌ غريبٌ فيُحسِنَ إليهما، ويَسقيَ ماشيتَهما! وما كان شُعيبٌ لِيَرضى أن يرعَى موسى عندَه ويكونَ خادِمًا له، وهو أفضَلُ منه وأعلى درَجةً. واللهُ أعلم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

أي: ثمَّ انصرَفَ موسى إلى ظِلٍّ هناك(١).

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أي: فقال: ربِّ، إنِّي مُحتاجٌ إلى أيِّ شَيءٍ أنزَلْتَه إلَيَّ مِن أيِّ خيرٍ كان(٢).

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥)﴾.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

أي: فجاءت إحدى المرأتَينِ إلى موسى، وهي تَمشي مُسْتحِيةً مُستَتِرةً، غيرَ مُتَبخترةٍ ولا مُبْدِيةٍ زينةً(٣).

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

أي: قالت لِموسى عليه السَّلامُ: إنَّ أبي يَدْعوك لِيُكافِئَك؛ جزاءً على سَقْيِك أغنامَنا(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٢).

وحكى السمعانيُّ والقرطبيُّ إجماعَ المفسِّرينَ على أنَّ موسى عليه السَّلامُ طلَبَ مِن الله الطَّعامَ لجُوعِه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٨)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (٨/ ٥٥١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فلمَّا جاء موسى إلى أبيها وحدَّثَه بأخبارِه وأنبائِه مع فِرعَونَ وقَومِه، وسببِ خُروجِه مِن مِصرَ؛ قال له الأبُ: لا تخَفْ؛ فقد نجَوْتَ مِن فِرعَونَ وقَومِه الظَّالمينَ؛ إذْ لا سُلطانَ لهم بأرضِنا[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ النَّاظِرَ في العِلمِ عندَ الحاجةِ إلى التَّكلُّمِ فيه، إذا لم يَترجَّحْ عندَه أحدُ القَولَينِ فإنَّه يَستهدي ربَّه، ويَسألُه أنْ يَهديَه الصَّوابَ من القَولَينِ، بعدَ أنْ يَقصِدَ بقلبِه الحقَّ ويبحَثَ عنه؛ فإنَّ اللهَ لا يُخَيِّبُ مَن هذه حالُه، كما خَرَجَ موسى تِلْقاءَ مَدْيَنَ، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ في القِصَّةِ ترغيبٌ في الخيرِ، وحَثٌّ على المعاونةِ على البِرِّ، وبَعْثٌ على بَذْلِ المعروفِ مع الجُهدِ[3].

٣- أنَّه لا ينبغي أنْ يُحكَمَ على الأمورِ إلَّا بعدَ معرفةِ الأسبابِ؛ فإنَّ موسى لم يَحكُمْ على المرأتينِ بأيِّ حُكمٍ إلَّا بعدَ أنْ سألَهما، قال: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾، يعني:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٤، ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٧).

لِماذا تَذُودانِ غنَمَكما عن السَّقيِ[1]؟

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أنَّ الرَّحمةَ بالخلْقِ، وإحسانَ المرءِ إلى مَن يَعرِفُ ومَن لا يعرِفُ: مِن أخلاقِ الأنبياءِ[2]، ومِنَ الإحسانِ سقْيُ الماشيةِ الماءَ، وإعانةُ العاجِزِ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ دليلٌ على أنَّ شكوى الضُّرِّ إلى اللهِ مُباحةٌ، وسُؤالَه الغَوثَ جائزٌ، وليس على مَن أصابه ذلك أنْ ينتظِرَ إتيانَه مِن اللهِ قبْلَ المسألةِ؛ اعتمادًا على أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَعلَمُ حالَه فيأتيه برِزقِه؛ لأنَّه -وإنْ كان كذلك- فلم يَحْظُرِ المسألةَ، بل نَدَبَ إليها، وعَمِلَ بها نبيُّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما ترى، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4] [غافر: ٦٠].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ بيانُ كمالِ خُلُقِ هاتينِ المرأتينِ؛ حيثُ جاءت إحداهما تمشي غيرَ مُسرِعةٍ ولا مُهَرْوِلةٍ، بل تمشي بهُدوءٍ، وهذا دليلٌ على كمالِ أدَبِها، وكذلك كونُها على استحياءٍ فيه أيضًا مِن كمالِ الأدبِ[5]، وعن عمرَ رضي الله عنه قال: (جاءَت تمشي على استحياءٍ، قائلةً بثوبِها على وجهِها، ليست بسَلْفَعٍ[6]، خرَّاجةٍ ولَّاجةٍ)[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠١).

(٦) السلفع: هي الجريئةُ على الرِّجالِ. ينظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٠).

(٧) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٨/ ٢١٩)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٩/ ٢٩٦٥). =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أنَّ الحياءَ -خصوصًا مِن الكرامِ- هو مِن الأخلاقِ الممدوحةِ[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أنَّ المكافأةَ على الإحسانِ لم تَزَلْ دأبَ الأُممِ السَّابقينَ[(٢)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ كمالُ الأدبِ في الأساليبِ، وإزالةُ الوحشةِ عنِ المخاطَبِ، لا سيَّما في المكانِ الذي تعتريه الوَحشةُ. وكما ينبغي أن يكونَ ذلك في اللَّفظِ، ينبغي أن يكونَ ذلك في حالِ المرءِ، بحيثُ يقابِلُ غَيرَه بالبِشرِ والسَّماحةِ وانطلاقِ الوَجهِ؛ ولهذا كان من أوصافِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه كان دائِمَ البِشرِ، كثيرَ التبَسُّمِ. وضِدُّه العُبوسُ والتَّقطيبُ وعدمُ الانشراحِ؛ فإنَّ هذا يوجِبُ لِغَيرِك أن يَنفِرَ منك[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أَسْنَدَتِ الدَّعوةَ إلى أبيها، وعلَّلَتْها بالجزاءِ؛ لئلَّا يُوهِمَ كلامُها رِيبةً، وفيه مِن الدَّلالةِ على كَمالِ العقلِ والحياءِ والعِفَّةِ ما لا يَخْفَى[(٤)]، وفيه مِن كمالِ الذَّكاءِ؛ لأنَّ نِسبةَ الدَّعوةِ إلى الأبِ أقرَبُ إلى إجابةِ موسى للدَّعوةِ؛ حيثُ يكونُ الدَّاعي له رجُلًا[(٥)]، ....

= وصحح إسناده ابن كثير في ((تفسيره)) (٦/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠١).

وأيضًا فإنَّما بيَّنَت له الغرَضَ مِن دَعوتِه؛ مُبادرةً بالإكرامِ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أنَّ قَصَّ الأخبارِ لا يُعَدُّ شِكايةً؛ فلو قصَصْتَ على إنسانٍ ما جرى عليك مِن المصائِبِ، لا يُعتبَرُ ذلك مِن الشِّكايةِ إليه؛ ولهذا يقالُ: هذا إخبارٌ؛ فالمريضُ يقولُ -مثلًا- لِمَن سألَه عن حالِه: إنِّي مريضٌ، فهذا إخبارٌ لا شكوى. والفرقُ بيْنَهما أنَّ الشَّكوى تتضمَّنُ طَلَبَ إزالةِ الشَّيءِ، والتَّضَجُّرَ منه، وأمَّا الخبرُ فإنَّه مجرَّدٌ عن ذلك؛ فهو مجرَّدُ إخبارٍ عن أمرٍ وَقَع(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البِشارةُ بالأمنِ، وتسكينُ الخائفِ، وقد قالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وبِشارةُ الخائفِ وتطمينُه ضربٌ مِنَ الإحسانِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يُستفادُ مِن سؤالِ موسى عليه الصَّلاة والسَّلامُ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ جوازُ مكالَمةِ الأجنبيَّةِ فيما يَعُنُّ(٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ مُباشَرةُ المرأةِ الأعمالَ، والسَّعيُ في طُرُقِ المعيشةِ، ومُعالجتُها أمورَ مالِها، وظُهورُها في مجامِعِ النَّاسِ إذا كانت تَستُرُ ما يَجِبُ سَترُه(٥)، معَ عدمِ مزاحمةِ الرِّجالِ، وأن يكونَ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

للحاجةِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، قَولُه: ﴿فَقَالَ رَبِّ﴾ فيه أنَّه ينبغي تقديمُ الدُّعاءِ بذِكْرِ الرَّبِّ، والدُّعاءُ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ هو أكثرُ ما يُتقبَّلُ به الدُّعاءُ[٢]. ويَكثُرُ في القرآنِ مجيءُ النِّداءِ باسم الرَّبِّ المُقتضِي للقيام بأمورِ العِبادِ وإصلاحِها؛ فكأنَّ العبدَ مُتعلِّقٌ بمَن شأنُه التَّربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، قائلًا: يا مَن هو المُصلِحُ لِشُؤوننا على الإطلاقِ أتِمَّ لنا ذلك بكذا، وهو مُقتضى ما يَدعو به، وإنَّما أتَّى «اللَّهُمَّ» في مَواضِعَ قليلةٍ، ولِمَعانٍ اقتَضَتْها الأحوالُ[٣]، فيُصَدَّرُ الدُّعاءُ المُتضَمِّنُ لِلثَّناءِ والطَّلبِ بلَفْظةِ «اللَّهُمَّ»، وأمَّا الدُّعاءُ المُجَرَّدُ فيُصَدَّرُ بلَفظِ الرَّبِّ، وسِرُّ ذلك أنَّ اللهَ تعالى يُسألُ برُبوبيَّتِه المُتضَمِّنةِ قُدرتَه وإحسانَه وتربيتَه عبْدَه وإصلاحَ أمْرِه، ويُثنَى عليه بإلهيَّتِه المُتضَمِّنةِ إثباتَ ما يجِبُ له مِنَ الصِّفاتِ العُلى، والأسماءِ الحُسْنى. وتدبَّرْ طريقةَ القُرآنِ، تَجِدْها كما ذكرتُ لك[٤].

٤- مِن أنواع التَّوسُّلِ الجائزةِ الشَّرعيَّةِ: التَّوسُّلُ إلى اللهِ تبارك وتعالى بذِكْرِ حالِ الدَّاعي، وأنَّه مُحتاجٌ ومُضْطَرٌّ إلى اللهِ، وهو ممَّا يُستجلَبُ به رحمةُ اللهِ -عزَّ وجلَّ- وفَضْلُه وإحسانُه، وهو مِن جُملةِ التَّوسُّلِ المَشروعِ في الدُّعاءِ، كما في قَولِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فهنا سأل اللهَ تبارك وتعالى بوَصفِ حالِه، وأنَّه مُحتاجٌ مُفتَقِرٌ إلى اللهِ تبارك وتعالى[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب) (٥/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٩٣، ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٦٦) و(١٢/ ١٨٣، ١٨٤).

وهو مُتضَمِّنٌ لِسُؤالِ اللهِ إنزالَ الخَيرِ إليه[(١)]؛ فدلَّ على جوازِ الاقتِصارِ في الدُّعاءِ على ذِكْرِ حالِ الدَّاعي بدونِ طَلَبٍ[(٢)].

٥- في قَولِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (وكان قد بلَغ به الجُوعُ ما بلغ، وإنَّه لأَكْرَمُ الخَلقِ يَومَئذٍ على اللهِ). وفي هذا مُعتبَرٌ وحاكِمٌ بهَوانِ الدُّنيا على اللهِ تعالى[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ عُلُوُّ اللهِ؛ فإنَّه لا يكونُ إنزالُه للشَّيءِ إلَّا إذا كان عاليًا؛ فهو سُبحانه وتعالى عالٍ بذاتِه وصفاتِه، فعُلُوُّه نَوعانِ: عُلُوُّ ذاتٍ، وعُلُوُّ صِفةٍ[(٤)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أنَّ العبدَ إذا فَعَلَ العملَ للهِ تعالى، ثمَّ حَصَلَ له مكافأةٌ عليه مِن غيرِ قصْدٍ بالقَصدِ الأولِ؛ أنَّه لا يُلامُ على ذلك، كما قَبِلَ موسى مجازاةَ صاحِبِ مَدْيَنَ عن معروفِه الَّذي لم يَبْتَغِ له، ولم يَستشرِفْ بقَلبِه عِوَضًا[(٥)].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فيه استِخدامُ الوالدِ لأولادِه[(٦)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ سؤالٌ: كيف ساغ لموسى -عليه السلامُ- أنْ يَعملَ بقولِ امرأةٍ؛ وأنْ

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٦) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٨٣).

يمشيَ معها وهي أجنبيَّةٌ؛ فإنَّ ذلك يُورِثُ التُّهمةَ العظيمةَ؟!

الجوابُ: أنَّ الخبرَ يُعمَلُ فيه بقولِ امرأةٍ، فإنَّ الخبرَ يُعملُ فيه بقولِ الواحدِ -حرًّا كان أو عبدًا؛ ذكرًا كان أو أنثى-، وما كانت مُخبِرةً إلَّا عن أبيها، وأمَّا المشْيُ مع المرأةِ مع الاحتياطِ والتَّورُّعِ فلا بأسَ به(١).

١٠- قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ﴾ مِن عَجيبِ صُنعِ اللهِ: أنَّ هذا الكلامَ جاء مُطابِقًا لسُؤالِ موسى؛ فموسى قد دعا ربَّه عندَما خَرَجَ خائفًا مِنَ المدينةِ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، فجاء الجوابُ هنا مِن هذا الرَّجُلِ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ فقولُه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إجابةٌ لِقَولِه: ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقولُه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إجابةٌ لِقَولِه: ﴿نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهكذا تكونُ إجابةُ اللهِ تعالى للمُضْطَرِ مُطابِقةً تمامًا لسُؤالِه؛ إذْ لا سُلطانَ لِفرعَونَ على مَدْيَنَ، وهذا هو الظَّاهِرُ(٢).

١١- قال: ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقُلْ: (نجوتَ مِن الظالم) فدلَّ على أنَّ جنودَ الظَّالمِ ظَلَمةٌ، فالطَّاعةُ فيما فيه ظُلْمٌ محرمةٌ، وهي طاعةٌ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ عَطْفٌ على جُمَلٍ مَحذوفةٍ؛ إذِ التَّقديرُ: ولَمَّا خرَجَ مِن المدينةِ هائمًا على وَجْهِه، فاتَّفقَ أنْ كان مَسيرُه في طَريقٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

يُؤدِّي إلى أرضِ مَدْيَنَ، حينَئذٍ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾

- تُرِكَ المفعولُ غيرَ مَذكورٍ في قولِه: ﴿يَسْقُونَ﴾ و﴿تَذُودَانِ﴾؛ لأنَّ الغرَضَ هو الفِعلُ لا المفعولُ؛ ألَا تَرى أنَّه إنَّما رحِمَهما لأنَّهما كانتَا على الذِّيادِ، وهم على السَّقيِ، ولم يَرْحَمْهما؛ لأنَّ مَذُودَهما غنَمٌ ومَسْقِيَّهم إبلٌ مَثلًا، وكذلك قولُهما: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ المقصودُ فيه السَّقيُ لا المَسقيُّ. وهذا مِن تَنزيلِ الفِعلِ المُتعدِّي مَنزلةَ اللَّازمِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

- قَولُه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ اقترانُ فِعلِ (سقى) بالفاءِ يُؤْذِنُ بأنَّه بادَرَ فسَقى لهنَّ، وذلك بفَورِ وُرودِه[3]. وحُذِفَ مَفعولُه أيضًا؛ لِمَا أنَّ الغرَضَ هو بَيانُ السَّقيِ لا ما يُسْقَى[4].

- والتَّولِّي: الرُّجوعُ على طريقِه، وذلك يُفيدُ أنَّه كان جالسًا مِن قبْلُ في ظِلٍّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨).

فرجَع إليه. ويَظهَرُ أنَّ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ مُرادِفُ (ولَّى)، ولكنَّ زِيادةَ المَبْنى مِن شأْنِها أنْ تَقتضِيَ زِيادةَ المعنى، فيكون (تولَّى) أشَدَّ مِن (ولَّى)[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أعقَبَ إيواءَه إلى الظِّلِّ بمُناجاته ربَّه، إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾؛ لَمَّا استراح مِن مَشقَّةِ الـمَـتْحِ -أي: استخراجِ الدَّلوِ مِن البِئرِ وجَذبِها- والسَّقيِ لِماشيةِ المَرأتينِ، والاقتِحامِ بها في عَددِ الرِّعاءِ العَديدِ، ووَجَد بَرْدَ الظِّلِّ؛ تَذكَّرَ بهذه النِّعمةِ نِعَمًا سابقةً أسْداها اللهُ إليه؛ مِن نَجاتِه مِن القَتْلِ، وإيتائِه الحِكمةَ والعِلْمَ، وتَخليصِه مِن تَبِعةِ قتْلِ القِبطيِّ، وإيصالِه إلى أرضٍ مَعمورةٍ بأُمَّةٍ عظيمةٍ بعدَ أنْ قَطَعَ فَيافِيَ ومَفازاتٍ؛ تَذكَّرَ جميعَ ذلك وهو في نِعمةِ بَرْدِ الظِّلِّ، والرَّاحةِ من التَّعبِ، فجاء بجُملةٍ جامعةٍ للشُّكرِ والثَّناءِ والدُّعاءِ، وهي: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾؛ فقولُه: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ شُكرٌ على نِعَمٍ سلَفَت، وثَناءٌ على اللهِ بأنَّه مُعطِي الخيرِ. والخيرُ: ما فيه نفْعٌ ومُلاءمةٌ لِمَن يَتعلَّقُ هو به؛ فمنه خيرُ الدُّنيا، ومنه خيرُ الآخرةِ الَّذي قد يُرى في صُورةِ مَشَقَّةٍ؛ فإنَّ العِبرةَ بالعواقبِ، وقد أراد النَّوعينِ، كما يَرمُزُ إلى ذلك التَّعبيرُ عن إيتائِه الخيرَ بفِعلِ ﴿أَنزَلۡتَ﴾ المُشعِرِ برِفعةِ المُعطِي، فأوَّلُ ذلك إيتاءُ الحِكمةِ والعِلْمِ[٢].

- قولُه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾، أي: إنِّي لأيِّ شَيءٍ أنزَلْتَ إلَيَّ: قليلٍ أو كثيرٍ، غَثٍّ أو سَمينٍ، لَـ﴿فَقِيرٞ﴾؛ فـ(ما) مَوصوفةٌ، والتَّنكيرُ للشُّيوعِ. ويَحتمِلُ أنْ يُريدَ: أي: إنِّي فقيرٌ مِنَ الدُّنيا؛ لِأجْلِ ما أنزَلْتَ إلَيَّ من خيرِ الدِّينِ، والغرَضُ منه إظهارُ التَّبجُّحِ والشُّكرِ على ذلك؛ فـ(ما) على هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠٢).

التَّأويلِ مَوصولةٌ، و(مِن) بَيانٌ، والتَّنكيرُ في (خيرٍ) للنَّوعِ والتَّعظيمِ. وفائدةُ الماضي في (مَا أَنْزَلْتَ) على التَّأويلِ الأوَّلِ للاستِعطافِ، أي: ربِّ إنِّي سائلٌ الآنَ ما كُنتُ أعْهَدُه في الأيَّامِ الماضيةِ ممَّا أسُدُّ به جَوعَتي مِن قليلٍ أو كثيرٍ، غثٍّ أو سَمينٍ؛ لأنِّي مُحتاجٌ إليه[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في الكلامِ حَذفٌ، والتَّقديرُ: فذهَبَتا إلى أبيهما مِن غيرِ إبطاءٍ في السَّقيِ، وقَصَّتا عليه أمْرَ الَّذي سقَى لهما، فأمَرَ إحداهما أنْ تَدعُوَه له، فجاءَتْه إحداهما[2].

- وأشْعَرَت فاءُ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ باستِجابةِ اللهِ له بأنْ ألْهَمَ أباهما أنْ يُرسِلَ وراءَه؛ لِيُنزِلَه عندَه، ويُزوِّجَه بِنتَه، فذلك يَضمَنُ له أُنسًا في دارِ غُربةٍ، ومَأوًى وعَشيرًا صالحًا. وتُؤذِنُ الفاءُ أيضًا بأنَّ شُعيبًا -على قولٍ في التَّفسيرِ- لم يَتريَّثْ في الإرسالِ وراءَه، فأرسَلَ إحدى البِنتَينِ اللَّتينِ سَقَى لهما، فجاءَتْه وهو لم يَزُلْ عن مكانِه في الظِّلِّ[3].

- وذكَرَ ﴿تَمْشِى﴾؛ لِيَبْنِيَ عليه قولَه: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، وإلَّا فإنَّ فِعلَ (جاءَتْه) مُغْنٍ عن ذِكرِ ﴿تَمْشِى﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ولَمَّا كان الحياءُ كأنَّه مَرْكِبٌ لها؛ وهي متمكِّنةٌ منه مالِكةٌ لزِمامه؛ عَبَّرَ بأداةِ الاستِعلاءِ؛ فقال: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: حياءٍ موجودٍ منها؛ لأنها كُلِّفَتِ الإتيانَ إلى رجُلٍ أجنبيٍّ تُكَلِّمُه وتُماشيه[١].

- قولُه: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ الاستحياءُ مُبالَغةٌ في الحياءِ، مِثلُ الاستجابة. وتَنكيرُ ﴿ٱسْتِحْيَآءٍ﴾؛ للتَّفخيم[٢].

- قولُه: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ مَجيئِها إيَّاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا قالتْ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فقيلَ: قالتْ:...[٣].

- وتأكيدُ الجُملةِ في قولِه: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ حِكايةٌ لِمَا في كَلامِها مِن تَحقيقِ الخبرِ؛ للاهتِمام به، وإدخالِ المَسرَّةِ على المُخبَرِ به[٤].

- قَولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَمَّا كان مِن المعلوم أنَّه لا عِيشةَ لخائفٍ؛ فكان أهَمُّ ما إلى الإنسانِ الأمانَ؛ قدَّمَ له التَّأمينَ، يعني: تقديمَ قولِه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ قبْلَ قولِه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

- وجُملةُ ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الخَوفِ[٦].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).

الآيات (٢٦-٢٨)

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ
عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾: الاستِئجارُ: طَلَبُ الشَّيءِ بالأُجرةِ، وأصلُ (أجر) هنا: يدُلُّ على الكِراءِ على العَمَلِ[1].

﴿حِجَجٍ﴾: أي: سِنينَ، جمعُ حِجَّةٍ، وأصلُ (حج): يدُلُّ على قَصدٍ، لَمَّا كان الحَجُّ في السَّنةِ لا يكونُ إلَّا مرَّةً واحدةً، فكأنَّ العامَ سُمِّيَ بما فيه مِن الحَجِّ حِجَّةً[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما أشارَتْ به إحدَى الفتاتينِ على أبيها: قالت إحدى المرأتَينِ: يا أبتِ استأجِرْ هذا الرَّجُلَ؛ لِرَعيِ غَنَمِنا وسَقْيِها، إنَّ خيرَ مَن تستأجِرُه القويُّ الأمينُ. قال الأبُ لموسى: إنِّي أريدُ أنْ أُزَوِّجَك إحدى ابنَتَيَّ هاتينِ على أن ترعَى لي الغنَمَ ثمانيَ سِنينَ، فإنْ أتممْتَ المدَّةَ إلى عشْرِ سِنينَ فذلك تفضُّلٌ وإحسانٌ منك، وما أُريدُ أن أُكَلِّفَك ما يَشُقُّ عليك، ستَجِدُني إن شاء الله من

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٨).

الصَّالحينَ.

قال موسى له: ذلك الذي اتَّفَقْنا عليه واجِبٌ بيْني وبيْنَك، على كُلِّ واحدٍ مِنَّا الوفاءُ لصاحِبِه بما أوجَبَ له على نفْسِه، أيَّ الأجلينِ -الثَّماني أو العَشر سِنينَ- قضَيْتُ، فليس لك أن تَظلِمَني وتُطالِبَني بأكثَرَ مِن ذلك، واللهُ على ما قُلْنا حفيظٌ وشاهِدٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾.

أي: قالت إحدَى المرأتينِ اللَّتينِ سقَى لهما موسى عليه السَّلامُ: يا أبتِ استأجِرْ هذا الرَّجُلَ؛ لِرَعيِ غَنَمِنا وسَقْيِها[1].

﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾.

أي: إنَّ خيرَ مَن تَستأجِرُه القَويُّ على عَمَلِه، الأمينُ الَّذي لا يَخونُ ما ائتُمِنَ عليه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال ابن الجوزي: (وإنَّما سمَّته قويًّا، لرفعِه الحجَرَ على رأسِ البئرِ. وقيل: لأنَّه استقَى بدَلْوٍ لا يُقِلُّها إلَّا العددُ الكثيرُ مِن الرِّجالِ، وسمَّتْه أمينًا؛ لأنَّه أمَرَها أن تمشيَ خلفَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٩).

وقيل: الأمانةُ والقوةُ أُخِذَتا مِن سَقْيِه، فأمَّا القوَّةُ فعُرِفتْ مِن نزعِه الدَّلْوَ، وأمَّا الأمانةُ فلِكَونِه =

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ ﴾.

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾.

أي: قال أبو المرأتَينِ لِموسى: إنِّي أُريدُ أن أزَوِّجَك إحدى ابنتَيَّ هاتينِ على أن ترعى لي الغَنَمَ ثمانيَ سِنينَ[1].

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾.

أي: فإنْ أتممْتَ رِعْيَ أغنامي عَشْرَ سِنينَ، فهذه الزِّيادةُ تفَضُّلٌ وإحسانٌ منك، وليسَت بواجبةٍ عليك[2].

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾.

أي: وما أُريدُ أن أكَلِّفَك ما يَشُقُّ عليك[3].

= يَسْقي سقيًا كاملًا، فيدَعُ الغنَمَ حتَّى تَروَى، ولأنَّه لم يأخذْ شيئًا منها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٩، ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٣).

قال السَّعدي: (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ فأُحَتِّمَ عَشرَ السِّنينَ، أو ما أُريدُ أن أستأجِرَك لأُكَلِّفَك أعمالًا شاقَّةً، وإنَّما استأجِرُك لعمَلٍ سَهلٍ يسيرٍ لا مشَقَّةَ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: ستَجِدُني إن شاء اللهُ مِنَ الصَّالحينَ في حُسنِ المعاملةِ والصُّحبةِ، ولِينِ الجانبِ، والوفاءِ بالمعاهدةِ[١].

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾.

أي: قال موسى لأبي المرأتينِ: ذلك الذي قُلْتَه وشارَطْتَني عليه قد رَضِيتُ به، وتمَّ فيما بيْني وبيْنَك، لا يَخرُجُ كِلانا عنه؛ لا أنا عمَّا شَرَطْتَ علَيَّ، ولا أنت عمَّا شرَطْتَ على نفْسِك، وعلى كلِّ واحدٍ مِنَّا الوفاءُ لصاحِبِه[٢].

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾.

أيْ: أيَّ أجَلٍ مِن الأجَلَينِ قَضَيتُ -أطولَهما الذي هو العَشرُ، أو أقصَرَهما الَّذي هو الثَّمانِي- فليس لك أن تَظلِمَني وتعتدِيَ علَيَّ، فتُطالِبَني بأكثَرَ من ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).
قال الزمخشري: (المرادُ باشتراطِ مَشيئةِ الله فيما وعَدَ مِن الصَّلاحِ: الاتِّكالُ على توفيقِه فيه ومعونتِه، لا أنَّه يَستعمِلُ الصَّلاحَ إنْ شاء الله، وإنْ شاء استعمَلَ خِلافَه!). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على ما قُلْنا وتعاقَدْنا عليه حَفيظٌ وشاهدٌ علينا، مُراقِبٌ لنا؛ فليس لأيٍّ مِنَّا الخروجُ عن شَيءٍ ممَّا اتفَقْنا عليه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ مشورةُ الأدنَى للأعلَى؛ لِقَولِها: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾؛ لأنَّ الأمرَ هنا ليس للإلزامِ، ولكنْ للمَشورةِ والعَرْضِ؛ فقد يكونُ الأدنَى أعلَى مِن الأعلَى في بعضِ الأمورِ، كما أنَّ المفضولَ قد يكونُ أفضلَ مِن الفاضلِ في بعضِ الأمورِ(٢)، ويُستفادُ بيانُ أنَّ مَشورةَ الإنسانِ على أبيه لا تُعَدُّ مِنَ التَّنقُّصِ له(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ تَلَطُّفُ هذه المرأةِ في مُخاطبةِ أبيها؛ لِقَولِها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، ولهذا قالوا: لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُناديَ والدَه باسمِه، كأنْ يقولَ مثلًا: يا عبدَ الرَّحمنِ! يا عبدَ العزيزِ! وما أشبَهَ ذلك، حتى إنَّ بعضَهم يقولُ: إذا نادى أباه باسمِه يُعَزَّرُ؛ لأنه نوعٌ مِن الاحتقارِ له، وأمَّا الخبرُ عنه باسمِه فلا بأسَ، مِثْلَ أنْ يقولَ: قال فُلانٌ، فلا حَرَجَ؛ ولهذا كثيرًا ما نَسمَعُ في الأحاديثِ أنَّ ابنَ عُمَرَ يقولُ: «قال عُمَرُ» وما أشبَهَ ذلك، وهذا لا بأسَ به، بخِلافِ النداءِ؛ فالنِّداءُ له حالٌ، والخبرُ له حالٌ أخرى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الاستثناءُ في غيرِ الدُّعاءِ[١]، وقد قال إسماعيلُ لأبيه إبراهيمَ عليهما السَّلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال موسى للخَضِرِ عليهما السَّلامُ: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ [الكهف: ٦٩]. والاستِثناءُ في غيرِ الدُّعاءِ توحيدٌ وتفويضٌ إلى اللهِ، وبَراءةٌ مِنَ الحَوْلِ والقوَّةِ[٢].

٤- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للمَرءِ أنْ يَعزِمَ على فِعلِ الشَّيءِ إلَّا مَقرونًا بالمشيئةِ، بل إنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى نهى نبيَّه أن يَعزِمَ على فِعلِ الشَّيءِ بدونِ قَرْنِه بالمشيئةِ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣] [الكهف: ٢٣، ٢٤].

٥- أنَّ مِن مكارِمِ الأخلاقِ أنْ يُحسِنَ المرءُ خُلُقَه لأجيرِه وخادِمِه، ولا يَشُقَّ عليه بالعَمَلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فصاحِبُ مَدْيَنَ قد رَغَّب موسى عليه السَّلامُ في سهولةِ العملِ، وفي حُسنِ المعامَلةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الرَّجُلَ الصَّالحَ ينبغي له أن يُحسِنَ خُلُقَه مهما أمْكَنَه، وأنَّ الَّذي يُطلَبُ منه أبلَغُ مِن غيرِه[٤].

---

(١) عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إذا دعا أحدُكم فلْيَعْزِمِ المسألةَ، ولا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إنْ شِئتَ فأَعْطِني؛ فإنَّه لا مُسْتَكْرِهَ له)). رواه البخاري (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَقُولَنَّ أحدُكم: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمْني إنْ شِئتَ، لِيَعْزِمِ المسألةَ؛ فإنَّه لا مُكْرِهَ له)). رواه البخاري (٦٣٣٩) واللفظ له ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥، ٦١٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- العِبرةُ مِن سِياقةِ هذا الجُزءِ مِن القِصَّةِ المُفتتَحِ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٢] إلى قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] هو ما تضمَّنَتْه مِن فضائِلِ الأعمالِ، ومناقِبِ أهلِ الكمالِ، وكيف هيَّأَ اللهُ تعالى موسى لِتَلَقِّي الرِّسالةِ بأنْ قَلَّبَه في أطوارِ الفَضائِلِ، وما تتضَمَّنُه مِن خِصالِ المروءةِ والفُتوَّةِ التي استكَنَّتْ في نفْسِه؛ مِن فِعلِ المعروفِ، وإغاثةِ الملهوفِ، والرَّأفةِ بالضَّعيفِ، والزُّهدِ، والقَناعةِ، وشُكرِ رَبِّه على ما أسدى إليه، ومِن العَفافِ، والرَّغبةِ في عِشرةِ الصَّالحينَ، والعملِ لهم، والوَفاءِ بالعَقدِ، والثَّباتِ على العَهدِ، حتَّى كان خاتِمةَ ذلك تشريفُه بالرِّسالةِ؛ لِيَعتبرَ المُشرِكون بذلك -إن كان لهم اعتِبارٌ- في مُقايَسةِ تلك الأحوالِ بأجناسِها مِن أحوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيَهتَدوا إلى أنَّ ما عَرَفوه به مِن زَكيِّ الخِصالِ قبْلَ رِسالتِه، وقَويمِ سيرتِه، وزَكاءِ سَريرتِه، وإعانتِه على نوائِبِ الحَقِّ، وتزَوُّجِه بأفضَلِ امرأةٍ مِن نِساءِ قَومِه: إنْ هي إلَّا خِصالٌ فاذَّةٌ فيه بيْنَ قَومِه، وإنْ هي إلَّا بَوارِقُ لانهطالِ سَحابِ الوَحيِ عليه. واللهُ أعلَمُ حيثُ يجعَلُ رِسالاتِه؛ ولِيأتسيَ المُسلِمونَ بالأُسوةِ الحَسَنةِ مِن أخلاقِ أهلِ النُّبوَّةِ والصَّلاحِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أنَّ هذينِ الوَصفَينِ ينبغي اعتبارُهما في كلِّ مَن يَتولَّى للإنسانِ عَمَلًا بإجارةٍ أو غَيرِها؛ فإنَّ الخَللَ لا يكونُ إلَّا بفَقْدِهما أو فَقْدِ إحداهما، وأمَّا باجتماعِهما فإنَّ العَمَلَ يتمُّ ويَكمُلُ[2]. فهذا الكلامُ كلامٌ جامِعٌ للمَقصودِ؛ لأنَّ مَنِ اجتمَعَت فيه الكفاءةُ والأمانةُ جَديرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٠، ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

بتَفويضِ الأشغالِ إليه، والتَّعويلِ في النُّهوضِ بأعبائِها عليه(١).

٣- في تقديمِ القوَّةِ على الأمانةِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ دليلٌ على أنَّها أهَمُّ مِن الأمانةِ؛ لأنَّه كم مِن إنسانٍ أمينٍ، ولا يُخشى منه الخيانةُ أبدًا، لكِنَّه ضعيفٌ لا يُنتِجُ ولا يُثمِرُ! وكم مِن إنسانٍ قويٍّ في أداءِ عمَلِه، لكِنَّه ضعيفٌ في أمانتِه! فالثَّاني أحسَنُ لإقامةِ العَمَلِ؛ ولهذا تجدُ كثيرًا مِن الناس -الَّذين لَدَيْهم قوَّةٌ وحزمٌ وتصرُّفٌ- تجدُهم يُنتِجون مِن الأعمالِ أكثرَ بكثيرٍ مِن قَومٍ ضُعَفاءَ وعِندَهم أمانةٌ(٢)!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ دليلٌ على أنَّ ظاهِرَ عَمَلِ الطَّاعةِ في الإنسانِ يُستدَلُّ به على عدالتِه وأمانتِه(٣).

٥- الزَّواجُ مِن سُنَنِ المُرسَلينَ، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾ [الرعد: ٣٨]، وكما فعَلَ صاحِبُ مَدْيَنَ مع موسى بنِ عِمْرانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ قال له: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾(٤).

٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: اعتبارُ الإيجابِ والقَبولِ في عقْدِ النِّكاحِ(٥): الإيجابِ مِن صاحِبِ مَدْيَنَ؛ لِقَولِه: ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ [القصص: ٢٧]، والقَبولِ مِن موسى، بقَولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٥٦).

(٤) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٧٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣).

﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾، ومعناه: إنِّي مُوافِقٌ وقابِلٌ(١).

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ احتجَّ بها بعضُهم على جوازِ أنْ يُكتَبَ في الصَّدَاقِ «أنكَحْتُه إيَّاها»، خلافًا لِمَنِ اختارَ «أنكحتُها إيَّاه» قائلًا: لأنَّه إنَّما يملكُ النِّكاحَ عليها لا عليه(٢)!

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اليَسارَ لا يُعتبَرُ في الكفاءةِ؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ كان حينَئذٍ فَقيرًا(٣).

٩- قال صاحِبُ مَدْيَنَ لموسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ ولم يقُلْ: (أنكَحْتُك على أن تَأْجُرَني)، وهذا يدُلُّ على أنَّ العُقودَ تنعقِدُ بما دلَّ عليها؛ لأنَّ الإرادةَ عن الشَّيءِ ليست هي الشَّيءَ؛ ولذلك فلو قال الرَّجُلُ لامرأتِه: أُريدُ أنْ أُطَلِّقَك، فلا يكونُ طلاقًا؛ لأنَّ الإرادةَ غيرُ الفِعلِ، لكِنْ هذا يدُلُّ على القَولِ الرَّاجِحِ، وهو أنَّ العُقودَ تنعَقِدُ بما دلَّ عليها، وليس لها صِيغةٌ مُعَينةٌ، حتى إنَّه رُبَّما تنعقِدُ بالفِعلِ كما في انعقادِ البَيعِ بالمُعاطاةِ(٤).

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ ...﴾ الآيةَ. فيه عَرْضُ الوليِّ ابنتَه على الرَّجلِ، وهذه سُنَّةٌ قائمةٌ؛ عرَضَ صالحُ مَدْيَنَ ابنتَه على صالحِ بني إسرائيلَ، وعرَض عمرُ بنُ الخطَّابِ ابنتَه حفصةَ على أبي بكرٍ وعثمانَ، قال ابنُ عمرَ: لَمَّا تأيَّمَتْ حفصةُ قال عمرُ لعثمانَ: إنْ شِئْتَ أنكحْتُك حفصةَ بنتَ عمرَ...

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٦).

الحديثَ[١]. فمِنَ الحسَنِ عَرْضُ الرَّجُلِ وليَّتَه على الرَّجلِ الصَّالحِ؛ اقتِداءً بالسَّلفِ الصَّالحِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ دليلٌ على أنَّ وَلِيَّ البنتِ في التَّزويجِ أبوها[٣]، فالإنكاحُ إلى الوَليِّ، لا حقَّ للمرأةِ فيه، خِلافًا لأبي حَنيفةَ في بعضِ صُوَرِه، بأنْ تكونَ بالغةً عالِمةً بمصالحِ نفْسِها؛ فإنَّها تَعقِدُ على نفْسِها بمَحضَرٍ مِن الشُّهودِ[٤]!

١٢- قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ﴾ استدَلَّ مالكٌ بهذه الآيةِ على إنكاحِ البكرِ بغيرِ استئمارٍ؛ لأنَّه لم يَذكُرْ فيها استِئْمارًا[٥]، وهو أخذٌ بظاهرِ الآيةِ[٦].

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩).

لا يصِحُّ النِّكاحُ بدونِ وليٍّ، وهو مذهبُ الجمهورِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٢٠)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٥٠)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨).

وذلك خلافًا للحنفيَّةَ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٣/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٧).

قال ابن العربي: (وقال به الشَّافعيُّ، وكثيرٌ مِنَ العلماءِ. وقال أبو حنيفةَ: إذا بلغَتِ الصَّغيرةُ فلا يُزَوِّجُها أحدٌ إلَّا برضاها؛ لأنَّها بلغَتْ حدَّ التَّكليفِ، فأمَّا إذا كانت صغيرةً فإنَّه يُزَوِّجُها بغيرِ رِضاها؛ لأنَّه لا إذْنَ لها، ولا رِضاءَ، بغيرِ خِلافٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٠٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

ثُمَّ قال: (ولِمَن يَمنَعُ ذلك أن يقولَ: إنَّ عدَمَ التَّعرُّضِ له لا يَقتضي عدَمَ وُقوعِه). ((المصدر السابق)).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أَنَّه تجوزُ الإجارةُ بالمَنفعةِ، ولو كانت المنفعةُ بُضعًا[١].

١٤- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ دلَّ على أنَّه يجوزُ أن يُشْرَطَ لِلْوَليِّ منفعةٌ وعلى أنَّ عَقدَ النِّكاحِ لا تُفسِدُه الشُّروطُ التي لا يُوجِبُها العَقدُ[٢].

١٥- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ استُدِلَّ به على صِحَّةِ الإجارةِ بالطُّعمةِ والكِسوةِ،كما جرَتْ به العادةُ[٣].

١٦- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ فيه جوازُ الإجارةِ على كلِّ عملٍ معلومٍ في نفعٍ معلومٍ أو زمنٍ مسمًّى، وأنَّ مَرَدَّ ذلك إلى العُرفِ[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإجارةَ على ما لا يمكِنُ أن يَخلُصَ مِن المجهولِ، وليس في وُسْعِ الأجيرِ والمستأجِرِ: جائزةٌ حلالٌ لا يُفسِدُها المجهولُ الَّذي لا يمكِنُ تَعريتُها منه؛ إذ لو جَهِدَ الرَّاعي أو صاحِبُ الغنَمِ أنْ يُسَمِّيَا موضِعَ المَرْعَى والمسرَحِ، ومِقدارَه، والسَّقْيَ وأورادَه؛ ما قَدَروا عليه بوجهٍ مِن الوُجوهِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ أنَّه يجوزُ أنْ يَجعلَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦١).

الإنسانُ العَمَلَ عَملينِ: عَمَلًا واجبًا، وعَمَلًا تبَرُّعًا؛ فيجوزُ للإنسانِ أنْ يَطلُبَ استئجارَ شَيءٍ ما -مثلًا- عَشْرَ سنَواتٍ بالأجْرِ، وسَنَتينِ تبَرُّعًا مِن صاحِبِها برَغبتِه ومَشيئتِه[1].

١٩- قَولُ الله تعالى حِكايةً عن صاحِبِ مَدْيَنَ مُخاطِبًا موسى عليه السَّلامُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس هذا مِن تزكيةِ النَّفْسِ المَنهيِّ عنه؛ لأنَّ المَنْهيَّ عنه ما قَصَد به قائِلُه الفَخرَ والتَّمَدُّحَ؛ فأمَّا ما كان لغَرَضٍ في الدِّينِ أو المعامَلةِ، فذلك حاصِلٌ لداعٍ حَسَنٍ، كما قال يوسُفُ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[2] [يوسف: ٥٥].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ العُقودَ ليست لها صِيَغٌ مُعيَّنةٌ، فتَنعَقِدُ بما دَلَّتْ عليها، وكذلك الفُسوخُ، وكذلك الوِلاياتُ؛ كلُّ التصَرُّفاتِ مِن عُقودٍ وفُسوخٍ ووِلاياتٍ فإنَّها تَصِحُّ بما دلَّ عليها، ولا يُشتَرطُ لها لَفظٌ مُعَيَّنٌ، بل تجري على ما يَتعارَفُه النَّاسُ بيْنَهم[3].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أنَّ العُقودَ عهودٌ في الحقيقةِ، وهو كذلك؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يَعقِدُ مع شخصٍ فقَدِ التزَمَ ألَّا يَخونَه، والتزمَ أنْ يفيَ له بمقتضى هذا العَقدِ؛ فيكونُ بذلك عهدًا[4].

٢٢- جوازُ عقْدِ الإجارةِ وغيرِها مِن العقودِ مِن دونِ إشهادٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). =

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ جوازُ تخصيصِ العمومِ لغَرَضٍ، أي: جوازُ تعليقِ الشَّيءِ العامِّ بأمرٍ خاصٍّ بغَرَضٍ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يقتضي تخصيصَ وكالةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما قالاهُ فقط، ولكِنَّ الأمرَ ليس كذلك، إنَّما خُصِّصَ هذا لغَرَضِ العنايةِ به[١].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ جوازُ إشهادِ اللهِ على العَقدِ، ولكنْ شرعًا لا يُقتصَرُ على ذلك، لكنْ باطنًا فيما بيْنَهم وبيْنَ اللهِ يُكتفى به؛ ويستفيدُ الرَّجُلُ إذا أشهدَ اللهَ أو جَعَلَه الوكيلَ الحفيظَ المراقِبَ أنْ يُذَكِّرَ بانتقامِ اللهِ منه إذا خالَفَ أو خان؛ فمَن أشهدَ اللهَ ثمَّ خان فقد استَخَفَّ به، وهي كذلك في حقِّ المخلوقينَ، فما بالُك أنْ تكونَ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ حُذِفَ ما لَقِيَه مُوسى مِن الجَزاءِ بإضافتِه وإطعامِه، وانتُقِلَ منه إلى عَرضِ

= واستُدِلَّ بالآيةِ أيضًا على عدمِ اشتراطِ الإشهادِ في النِّكاحِ؛ لأنَّه اكتفَى بشهادةِ اللهِ، ولم يُشهِدْ أحدًا مِن الخلْقِ. يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٠٩).

لكنَّ مذهبَ الجمهورِ مِنَ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ عدَمُ صحَّةِ عَقدِ النِّكاحِ بدونِ شُهودٍ. يُنظر: ((الفتاوى الهندية)) (١/ ٢٦٧)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٦٥).

أمَّا المالِكيَّةُ فيَرَوْنَ أنَّ الإشهادَ واجبٌ وهو مندوبٌ عندَ العقدِ، فإن لم يحصُلِ الإشهادُ عند العقدِ فإنَّه يكونُ واجبًا عندَ البناءِ، وإن بنى بها بدونِ إشهادٍ فُسِخَ النِّكاحُ بطلقةٍ مِن قِبَلِ الحاكِمِ. يُنظر: ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إحدَى المرأتينِ على أبيها أنْ يَستأجِرَه للعملِ في ماشِيَتِه؛ إذ لم يكُنْ لهم ببَيتِهم رجُلٌ يقومُ بذلك، وقد كبرَ أبوهما، فلمَّا رأتْ أمانتَه ووَرَعَه رأتْ أنَّه خيرُ مَن يُسْتأجَرُ للعملِ عندَهم؛ لقُوَّته على العملِ وأمانتِه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تَعليلٌ جارٍ مَجرى الدَّليلِ على أنَّه حَقيقٌ بالاستِئجارِ[٢]. وهو أيضًا كلامٌ حكيمٌ جامعٌ؛ لأنَّه إذا اجتَمَعتْ هاتانِ الخَصْلتانِ -الكِفايةُ والأمانةُ- في القائمِ بالأمرِ، فقد فرَغَ البالُ، وتمَّ المُرادُ، وقد اسْتغْنَتْ بإرسالِ هذا الكلامِ الذي سِياقُه سِياقُ المثَلِ والحِكمةِ أنْ تقولَ: استأْجِرْه لِقُوَّتِه وأمانتِه. وهو أيضًا أجمَلُ في مَدْحِ النِّساءِ للرِّجالِ مِن المدْحِ الخاصِّ، وأبْقَى للحِشْمةِ، وخُصوصًا إنْ كانتْ فَهِمَتْ أنَّ غرَضَ أبيها أنْ يُزَوِّجَها منه[٣].

- وأيضًا مَجيءُ هذا العمومِ ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ عقِبَ الحديثِ عن شخصٍ مُعيَّنٍ يُؤذِنُ بأنَّ المُتحدَّثَ عنه ممَّن يَشمَلُه ذلك العمومُ؛ فكان ذلك مُصادِفًا المَحَزَّ مِن البلاغةِ؛ إذ صار إثباتُ الأمانةِ والقوَّةِ لهذا المُتحدَّثِ عنه إثباتًا للحُكمِ بدليلٍ، فتَقديرُ معنى الكلامِ: استأْجِرْه؛ فهو قويٌّ أمينٌ، وإنَّ خيرَ مَنِ استأْجَرَ مُستأْجِرٌ القَويُّ الأمينُ؛ فكانت الجُملةُ مُشتمِلةً على خُصوصيَّةِ تَقديمِ الأهَمِّ، وعلى إيجازِ الحذْفِ، وبذلك استوَفَتْ غايةَ مُقْتضى الحالِ؛ فكانتْ بالِغةً حدَّ الإعجازِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٦).

- وجُعِلَ ﴿خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ اسمًا لـ (إنَّ)، وجُعِلَ ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ خبرًا، مع صِحَّة جَعلِ ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ هو اسم (إنَّ) -فإنَّهما مُتساويانِ في المعرفةِ- مِن حيثُ إنَّ المُرادَ بالتَّعريفِ في الموصولِ المُضافِ إليه ﴿خَيْرَ﴾، وفي المُعرَّفِ باللَّامِ هنا: العُمومُ في كِلَيهما؛ فأُوثِرَ بالتَّقديمِ في جُزأَيِ الجُملةِ ما هو أهَمُّ وأولَى بالعِنايةِ، وهو: خيرُ أجيرٍ؛ لأنَّ الجُملةَ سِيقَتْ مَساقَ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، فوَصْفُ الأجيرِ أهَمُّ في مَقامِ تَعليلِها، ونفْسُ السَّامعِ أشدُّ تَرقُّبًا لحالِه. أو هو مِن القَلْبِ للمُبالَغةِ. ولَمَّا كان مُقْتضى الحالِ -أي: شَيخوختُه وحياؤُهما- هو الَّذي أوجَبَ قَيِّمًا يَهتَمُّ بها، ومُستأْجَرًا يَستأجِرونه لها؛ كان ذلك مطلوبًا لِذَاتِه، وكانت القوَّةُ والأمانةُ تابعتينِ له تُعرَفُ بالذَّوقِ. أو يُقال: إنَّ الفاصلةَ هي التي استَدْعَت تأخيرَ ﴿ٱلْأَمِينُ﴾، و﴿ٱلْأَمِينُ﴾ اسْتَدْعى مُقارَنةَ ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ معه[1].

- ووَرَدَ الفِعلُ ﴿ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ بلَفظِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّه أمْرٌ قد جُرِّبَ وعُرِفَ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ إيجازٌ بَليغٌ؛ فحَقيقةُ: شقَقْتُ عليه، وشقَّ عليه الأمْرُ: أنَّ الأمرَ إذا تَعاظَمَك، فكأنَّه شقَّ عليك ظَنَّك باثنَينِ؛ تقولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٦).

تارةً: أُطِيقُه، وتارةً: لا أُطِيقُه، فهو مُترجِّحٌ بيْن اليأسِ والرَّجاءِ[(١)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ وقَعَتْ (ما) في ﴿أَيَّمَا﴾ صِلَةً للتَّأكيدِ؛ لِيَصيرَ الموصولُ شَبيهًا بأسماءِ الشَّرطِ؛ لأنَّ تأكيدَ (ما) في اسمِ الموصولِ مِن الإبهامِ يُكسِبُه عُمومًا، فيُشْبِهُ الشَّرطَ؛ فلذلك جُعِلَ له جوابٌ كجَوابِ الشَّرطِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أبلَغُ في إثباتِ الخِيَرةِ، وتَساوي الأجَلَينِ في القضاءِ مِن أنْ يُقالَ: (إنْ قضَيْتُ الأقصَرَ فلا عُدوانَ علَيَّ)[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠).

الآيات (٢٩-٣٥)

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
(٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن
يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ
وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي
جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ
مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ
مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ
رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا
سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانَسَ﴾: أي: أبصَرَ وأحَسَّ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ، والإحساسُ بالشَّيءِ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ(١).

﴿ٱلطُّورِ﴾: الطُّورُ اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وقيل: اسمٌ لكلِّ جبلٍ، وقيل: هو الجبلُ المنبِتُ دونَ غيرِه، وأصلُ (طور): يدُلُّ على الامتدادِ في شَيءٍ من مكانٍ أو زمانٍ(٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩).

﴿جَذۡوَةٖ﴾: أي: قِطعةٍ غَليظةٍ مِنَ الحَطَبِ فيها نارٌ لا لهبَ فيها[١].

﴿تَصۡطَلُونَ﴾: أي: تَستَدفِئونَ، والصَّلا: النَّارُ العظيمةُ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ[٢].

﴿شَٰطِيِٕ﴾: أي: جانِبِ[٣].

﴿ٱلۡبُقۡعَةِ﴾: أي: القطعةِ مِن الأرضِ المتميِّزةِ عن غيرِها، وأصلُ (بقع): مُخالَفةُ الألوانِ بعضِها بعضًا[٤].

﴿جَآنّٞ﴾: جِنسٌ من الحيَّاتِ خَفيفٌ سَريعٌ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَتْرٍ[٥].

﴿يُعَقِّبۡ﴾: أي: يَرجِعْ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٣)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((غريب =

﴿ٱسۡلُكۡ﴾: أي: أدْخِلْ، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ(١).

﴿جَيۡبِكَ﴾: أي: جَيبِ قَميصِك، وهو مَدخَلُ الرَّأسِ منه المفتوحُ إلى الصَّدرِ(٢).

﴿جَنَاحَكَ﴾: أي: يَدَك، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على المَيلِ، وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلِهما في الشِّقَّينِ(٣).

﴿ٱلرَّهۡبِ﴾: أي: الخَوفِ والرَّهبةِ، والرَّهْبةُ والرَّهْبُ: مخافةٌ مع تحرُّزٍ واضْطِرابٍ، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ(٤).

﴿فَذَٰنِكَ﴾: أي: العصا واليدُ، وذانِك: اسمُ إشارةٍ، تثنيةُ (ذاك)، وبالتَّشديدِ (ذانِّكَ) تثنيةُ (ذلك)(٥).

﴿رِدۡءٗا﴾: أي: مُعينًا، يُقالُ: فلانٌ رِدْءٌ لفُلانٍ: أي: يَنصُرُه ويَشُدُّ ظَهرَه، وأصلُه مِن قَولِهم: ردأْتُ الحائِطَ: إذا دعَمْتَه بخَشَبٍ أو نحوِه؛ لئلَّا يَسقُطَ(٦).

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩١، ٤٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٩)، =

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾: أي: سنُعينُك، ونقَوِّيك، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، والعَضُدُ: ما بيْنَ المِرفَقِ إلى الكَتِفِ، وكلُّ مُعينٍ فهو عضُدٌ، وعاضَدَني فلانٌ، أي: عاوَنَني، وشَدُّ العَضُدِ مَثَلٌ في التَّقويةِ والإعانةِ؛ وذلك أنَّ مَن قَوَّيتَ عَضُدَه فقد أعَنْتَه[١].

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّةً، وبُرهانًا، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلمَّا أنهى موسى سَنواتِ رَعْيِه للغنَم، وسار بأهلِه إلى مِصرَ؛ أبصَرَ مِن جهةِ الجبَلِ نارًا مُضيئةً، فقال لأهلِه: الزَموا مكانَكم؛ فإنِّي أبصَرْتُ نارًا، سأذهَبُ إليها؛ لعلِّي أرجِعُ إليكم مِن عندِها بخبرٍ يدُلُّنا على الطَّريقِ، أو آتي بقِطعةٍ مُشتعِلةٍ مِن النَّارِ؛ لِتَستدفِئوا بها مِن البَردِ.

فلمَّا أتَى موسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ مِن عن يمينِ موسى فى البُقعةِ المبارَكةِ مِن ناحيةِ الشَّجَرةِ، فقال له: يا موسى، إنِّي أنا اللهُ ربُّ العالَمينَ الَّذي يكَلِّمُك، واطرَحْ عَصاك. فألقى موسى عصاهُ، فلمَّا رآها تتحرَّكُ بسُرعةٍ كأنَّها حيَّةٌ، ولَّى مُسرِعًا ولم يلتَفِتْ؛ لشِدَّةِ خَوفِه، فقال اللهُ له: يا موسى، ارجِعْ ولا تخَفْ؛ إنَّك

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩) و(٤/ ٣٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥١) و(١٧/ ٣٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

مِنَ الآمِنينَ، أدخِلْ يَدَك في جَيبِك -وهو فَتحةُ الثَّوبِ مكانَ دُخولِ الرَّأسِ- تخرُجْ بَيضاءَ بياضًا عظيمًا مِن غيرِ عَيبٍ أو مَرَضٍ، واضمُمْ يَدَك إلى صَدرِك؛ فيذهَبَ ما أصابك مِن الخَوفِ، فهاتان آيتانِ مِن رَبِّك إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه؛ إنَّهم كانوا قومًا كافرينَ خارجينَ عن طاعةِ اللهِ.

قال موسى: ربِّ إنِّي قتَلْتُ مِن قَومِ فِرعَونَ نفْسًا، فأخافُ أن يقتُلوني، وأخي هارونُ هو أفصَحُ مني لِسانًا، وأحسَنُ بيانًا؛ فاجعَلْه رَسولًا معي إلى فِرعَونَ، ومُعينًا لي على دَعوتِهم؛ إنِّي أخافُ أن يكَذِّبوني.

قال اللهُ له: سنُقَوِّيك بإرسالِ أخيك معك، ونجعَلُ لكما حُجَّةً على فِرعَونَ وقَومِه، وتمتَنِعانِ منهم بسبَبِ آياتِنا؛ فلا يُصيبونَكما بضَرَرٍ، أنتما وأتباعُكما غالِبونَ لهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾.

أي: فلمَّا أنهى موسى سَنَواتِ رَعْيِه للغَنَمِ، وسار بزَوجِه إلى مِصرَ؛ أبصَرَ مِن جِهةِ الجَبَلِ نارًا مُضيئةً[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٤، ٢٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

قال السعدي: (﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ يحتمِلُ أنَّه قضَى الأجلَ الواجبَ، أو الزائدَ عليه، كما هو الظنُّ بموسى ووفائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

ممن اختار أنَّه قضَى العشرَ سنين: مقاتلُ بن سليمان، ومكي، وابنُ كثير، والشوكاني، والشنقيطي، ونسبه ابنُ عثيمين إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٣)، =

عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (سألَني يهوديٌّ مِن أهلِ الحِيرةِ: أيَّ الأجَلَينِ قضى موسى؟ قلتُ: لا أدري، حتَّى أقدَمَ على حَبرِ العَربِ فأسألَه، فقَدِمتُ فسألْتُ ابنَ عبَّاسٍ، فقال: قضى أكثَرَهما وأطْيَبَهما؛ إنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا قال فعَلَ)[١].

﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾.

أي: قال موسى لامرأتِه: أقيموا مَكانَكم؛ فإنِّي أبصَرْتُ نارًا، سأذهَبُ إليها راجيًا أن أرجِعَ إليكم مِن عندِها بخبَرٍ عن الطَّريقِ[٢].

= ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

وممن اختار هذا القولَ مِن السلف: ابنُ عبَّاسٍ، ثبَت ذلك عنه، وأخرَجه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٢٦٨٤) بسندِه عن سعيدِ بنِ جبيرٍ عندَما سأَله يهوديٌّ: أيَّ الأجلينِ قضَى موسَى؟ فسأَل سعيدُ ابنُ جُبيرٍ ابنَ عبَّاسٍ رضِي الله عنهما، فأجابَه بأنَّ موسى عليه السلامُ قضَى أكثرَهما.

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّه قد يُستفاد هذا أيضًا مِن الآيةِ الكريمةِ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ أي: الأكملَ منهما. ينظر:((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤).

وأيضًا فهذا هو الظنُّ بموسَى عليه السلامُ وكرمِه ووفائِه. ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

ويحتملُ أنَّه قضَى الأجلَ الواجبَ ثماني سنين؛ فإنَّه هو الواجبُ عليه، وموسَى كان في اشتياقٍ إلى بلادِه بمصرَ، وقد قال فيما سبَق معتذرًا ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾، وهذه جملةٌ قد تشيرُ إلى أنَّه يريدُ أن يقتصرَ على الأجلِ الواجبِ، وإلا فمِن المعلوم أنَّه إذا قضَى الأجلَ الواجبَ فإنَّه لا أحدَ يلومُه، أو يعتدي عليه. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

قال البقاعي: (والظَّاهِرُ أنَّه مكَثَ عندَه بعدَ الأجَلِ أيضًا مدَّةً؛ لأنَّه عطف بالواو قولَه: ﴿وَسَارَ﴾، ولم يجعَلْه جوابًا لِلَمَّا). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٧٧).

(١) رواه البخاري (٢٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن =

﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾.

أي: أو آتيكم مِن النَّارِ بقِطعةِ حَطَبٍ مُشتَعلةٍ، راجيًا أن تَستدفِئوا بها مِن البَردِ(١).

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾.

أي: فلمَّا أتَى موسَى إلى النَّارِ الَّتي أبصَرَها عندَ الجبَلِ، ناداه اللهُ تعالى مِن جانِبِ الوادي الواقِعِ على يمينِ موسى عليه السَّلامُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

= كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٥، ١٣٦).

واختار الزَّجَّاجُ ومكِّيٌّ أنَّ معنى ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: لعلِّي أعلَمُ لِمَ أُوقِدَتْ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩، ٢٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٠، ١٤١).

قال ابنُ كثير: (أي: مِن جانِبِ الوادي ممَّا يلي الجبَلَ عن يمينِه، مِن ناحيةِ الغَربِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ [القصص: ٤٤]، فهذا ممَّا يُرشِدُ إلى أنَّ موسى قصَدَ النَّارَ إلى جهةِ القِبْلَة، والجبَلَ الغربيَّ عن يمينِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢).

﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾.

أي: ناداه في قِطعةِ الأرضِ الَّتي أحَلَّ اللهُ فيها البَرَكةَ[١] مِن ناحيةِ الشَّجَرةِ الَّتي في جانِبِ الوادي الأيمَنِ[٢].

﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: نادَى اللهُ موسَى فقال له: يا موسَى، إنَّ الَّذي يُكَلِّمُك هو أنا اللهُ ربُّ جميعِ الخلائِقِ، الَّذي لا إلهَ غيري[٣].

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

أي: واطرَحْ عصاك الَّتي معك على الأرضِ[٤].

﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

---

(١) قال الواحدي: (﴿الْمُبَارَكَةِ﴾ بتَكليمِ الله سُبحانَه فيها موسى عليه السَّلامُ، وإتيانِه النُّبوَّةَ). ((الوجيز)) (ص: ٨١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤١-١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن فورك)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٩).

أي: فألقَى موسَى عصاه، فلمَّا رآها تتحرَّكُ وتَضْطَرِبُ كأنَّها حيَّةٌ في سُرعةِ حَرَكتِها، وشِدَّةِ اهتِزازِها؛ هرَبَ منها مُسرِعًا ولم يَرجِعْ أو يلتَفِتْ؛ لشِدَّةِ خَوفِه(١).

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾.

أي: قال اللهُ له: يا موسى، عُدْ إلى مكانِك ولا تخَفْ؛ إنَّك في أمنٍ مِن أن ينالَك مَكروهٌ(٢).

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾.

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾.

أي: أدخِلْ يَدَك في فَتحةِ قَميصِك -وهي الفتحةُ العُلويَّةُ مكانَ دُخولِ الرَّأسِ- فإذا أخرَجْتَها تخرُجُ بيضاءَ بياضًا عظيمًا مِن غيرِ عَيبٍ أو مَرَضٍ(٣)!

﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾.

أي: واضمُمْ يَدَك إلى صَدرِك؛ فيذهَبَ ما أصابَك مِن الخَوفِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٩، ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٦، ١٥٧). =

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾.

أي: فهاتانِ آيَتانِ وحُجَّتانِ من رَبِّك -تَحَوُّلُ عَصاكَ إلى حَيَّةٍ، وخُروجُ يَدِك مِن جَيبِك بَيضاءَ مِن غيرِ سُوءٍ- تَدُلَّانِ على الحَقِّ، أُرسِلُك بهما إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه وكُبَرائِهم(١).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: أُرسِلُك بهاتينِ الآيتَينِ؛ لأنَّ فِرعَونَ ومَلأَه قَومٌ مَطبوعونَ على الكُفرِ، مُتَّصِفونَ بالخُروجِ عن طاعةِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ ضَمُّ اليَدِ إلى الصَّدرِ؛ لإذهابِ خَوفِه: يحيى بنُ سلام، وابن جرير، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الواحدي: (وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قال مجاهدٌ: اضمُمْ إليك يدَك مِنَ الفَرَقِ. وهذا قولُ جميعِ المفسِّرينَ؛ قالوا: لَمَّا ألقى موسى عصاه فصارتْ جانًّا رَهِبَ وفَزِعَ، فأمَرَه الله أن يَضُمَّ إليه جَناحَه؛ لِيَذهَبَ عنه الفَزَعُ). ((البسيط)) (١٧/ ٣٨٥).

وقيل: المرادُ ضَمُّ يَدِه الَّتي صارت بيضاءَ إلى جَسدِه؛ لِتَعودَ إلى لَونِها الطَّبيعيِّ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٨١).

قال العُلَيمي: (إذا هالَكَ أمرُ يدِك، وما تَرَى مِن شعاعِها، فأدخِلْها في جيبِك، تَعُدْ إلى حالتِها الأُولَى). ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٦، ٢٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ تضمَّنَ ذلك أنْ يذهَبَ موسى بهذينِ البُرهانَينِ إلى فِرعَونَ وقَومِه؛ فعندَ ذلك طَلَبَ مِن اللهِ تعالى ما يُقوِّي قلْبَه، ويُزيلُ خَوفَه، فقال[1]:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ٣٣﴾.

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي قَتَلْتُ مِن قَومِ فِرعَونَ نفْسًا، فأخافُ -إنْ رأَوْني وحيدًا بلا ظَهيرٍ ومُعِينٍ يُبيِّنُ لهم ما أُريدُ مِن القَولِ- أن يَقتُلوني قبلَ أن أتمكَّنَ مِن دَعوتِهم إلى الحَقِّ[2].

﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾.

﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾.

أي: وأخي هارونُ هو أحسَنُ مِنِّي بيانًا؛ فاجعَلْه رَسولًا معيَ إلى فِرعَونَ وقَومِه، ووزيرًا ومُعِينًا لي على دَعوتِهم، يُبيِّنُ ما أقولُ لهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٣)، ((الفواتح الإلهية)) للشيخ علوان (٢/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).
قال الرازي: (أجمَعَ المفسِّرون على أنَّ المرادَ منه قَتْلُ ذلك القِبطيِّ بذلك الوَكزِ). ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩، ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الفواتح الإلهية)) للشيخ علوان (٢/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).
قال ابنُ عاشور: (معنى تصديقِه إيَّاه: أن يكونَ سَبَبًا في تصديقِ فِرعَونَ وَملَئِه إيَّاه؛ بإبانتِه عن الأدلَّةِ الَّتي يُلقيها موسى في مقامِ مُجادَلةِ فِرعَونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٩).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ موسى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي * وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي * كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا * وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ [طه: ٢٧ - ٣٥].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

أي: أيِّدْني بأخي هارونَ؛ لأنِّي أخافُ ألَّا يُصَدِّقَني فِرعَونُ وقَومُه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٢، ١٣].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: سنُقوِّيك ونُعينُك بإرسالِ أخيك معك[2].

﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

أي: ونجعَلُ لكما حُجَّةً على فِرعَونَ وقَومِه، ومَهابةً في قُلوبِهم منكما، فيكونُ لكما الظُّهورُ والغَلَبةُ عليهم، وتَمتَنِعانِ منهم؛ بسَبَبِ آياتِنا، فلا يؤذونكما[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((تفسير المظهري)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٨، ١٦٩). =

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾

أي: أنتما وأتْباعُكما المنصورونَ على فِرعَونَ ومَلَئِه، القاهِرونَ لهم[1].

= اختلَف المفسِّرون في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ على عدَّةِ أقوالٍ؛ منها: أنَّ المعنى: تمتنعانِ منهم بآياتِنا وحُجَجِنا، فلا يَصِلُون إليكما. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: القرطبيُّ، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٩-١٧١).

وقيل: هو مُتعلِّقٌ بما بعْدَه، فالمعنى: بآياتِنا أنتما ومَنِ اتَّبَعكما الغالِبون، أي: تَغلِبون بآياتِنا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢٧٢).

قال ابن كثير: (ووجَّه ابنُ جريرٍ على أنَّ المعنى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، ثمَّ يَبتدئُ فيقولُ: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، تقديرُه: أنتُما ومَنِ اتَّبعَكما الغالِبون بآياتِنا. ولا شكَّ أنَّ هذا المعنى صحيحٌ، وهو حاصلٌ مِنَ التَّوجيهِ الأوَّلِ، فلا حاجةَ إلى هذا، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧).

وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، تقديرُه: ونجعَلُ لَكما سُلطانًا بآياتِنا، فلا يَصِلُون إليكما. وممَّن جوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧).

وقيل: عنى بالآياتِ هنا: سائرَ مُعجِزاتِ موسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

قال ابن عاشور: (وعلى الوُجوهِ كلِّها فالآياتُ تشمَلُ خوارِقَ العاداتِ المُشاهَدةَ؛ مِثلُ: الآياتِ التِّسعِ، وتشمَلُ المعجزاتِ الخفيَّةَ؛ كصَرفِ قَومِ فِرعَونَ عن الإقدامِ على أذاهما معَ ما لَدَيْهم من القُوَّةِ، وما هم عليه مِن العَداوةِ، بحيث لولا الصَّرفةُ مِن اللهِ لأهلَكوا موسى وأخاه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ سؤالٌ: أنَّ قولَه: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ خطابُ جماعةِ الذكورِ؛ فما وجهُ خِطابِ المرأةِ بخِطابِ جماعةِ الذُّكورِ؟

الجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل: أنَّ الإنسانَ يُخاطِبُ المرأةَ بخِطابِ الجماعةِ؛ تعظيمًا لها، ونظيرُه قولُ الشَّاعِرِ(١):

فإنْ شِئتِ حَرَّمتُ النِّساءَ سِواكُمُ

الثَّاني: أنَّ معها خادمًا، والعرَبُ رُبَّما خاطبَتِ الاثنينِ خِطابَ الجماعةِ.

الثَّالثِ: أنَّه كان له مع زوجتِه ولَدانِ له(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دَليلٌ على حُسنِ مُعاملةِ موسى لأهلِه؛ إذْ جَعَلَ يَتطلَّبُ لهم ما يُدفِّئُهم، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((خَيرُكم خَيرُكم لأهلِه، وأنا خَيرُكم لأهلي))(٣).

---

(١) ينظر: ((ديوان العرجي)) (ص ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٩). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الأعْوانِ هو مِن أسبابِ النَّجاةِ، وهذا أمرٌ مَعلومٌ مِن قديمِ الزَّمانِ وحَديثِه؛ أنَّه كلَّما كان الإنسانُ معه مَن يُعينُه ويُساعِدُه، كان ذلك أقرَبَ إلى نجاحِه مِن انفرادِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ﴾ إثباتُ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى قد يُقَدِّرُ للمَرءِ مِن الأسبابِ ما يُوصِلُه إلى الكَمالِ؛ ذلك أنَّ رَعْيَ الغَنَمِ فيه مَصلَحةٌ لِرعايةِ الخلْقِ فيما بَعدُ؛ ولهذا أخبرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه ((ما بَعَثَ اللهُ نبيًّا إلَّا رعَى الغَنَمَ))[2]، فإذا كان الإنسانُ يَتعوَّدُ الرِّعايةَ ومَسؤوليةَ الرَّعيَّةِ، فإنَّ هذا فيه تَوطِئةٌ لِمَا يُوكَلُ إليه فيما بَعْدُ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ للرَّجُلِ أن يذهَبَ بأهلِه حيثُ شاء؛ لِما له عليها مِن فَضلِ القواميَّةِ، وزيادةِ الدَّرجةِ، إلَّا أن يلتزِمَ لها أمرًا؛ فالمؤمنونَ عند شُروطِهم، و((أحَقُّ الشُّروطِ أن تُوفُوا به ما استَحلَلْتُم به الفُروجَ))[4].

= والحديث أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن حبان (٤١٧٧) واللَّفظُ لهما، والبيهقيُّ (١٦١١٧) مختصرًا، مِن حديثِ عائشةَ رضي الله عنها.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((تهذيب الآثار- مسند عمر)) (١/ ٤٠٨)، وصحَّحه الشَّوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٦٣٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١١). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ -حتَّى قبْلَ النُّبوَّةِ- هم كغيرِهم مِن البشَرِ؛ يُحِسُّون بآلامِ البَردِ، وكذلك بآلامِ الجوعِ وغيرِه، ويَهتَدون إلى الطَّريقِ، وقد يَضِلُّون عنه، فهنا فائدتانِ شَرعيَّتانِ:

الأُولى: أنَّهم لا يَعلمونَ الغَيبَ؛ إذْ لو كانوا يَعلمونَ الغيبَ ما ضَلُّوا عن الطَّريقِ.

الثَّانيةُ: أنَّهم لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نفعًا ولا ضَرًّا، فإذا كانوا لا يَملكون ضَرًّا ولا نفعًا لأنفُسِهم، فلِغَيرِهم مِن بابِ أَولى، وهذا مُصَرَّحٌ به في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال اللهُ تعالى لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾[1] [الجن: ٢١، ٢٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى إذا أراد أمرًا هَيَّأَ أسبابَه؛ فإنَّ اللهَ لَمَّا أراد أنْ يوحِيَ إلى نبيِّه موسى عليه السَّلامُ في ذلك المكانِ، هَيَّأَ له أسبابًا تُوصِلُه إلى النَّارِ الَّتي رآها وقَصَدَها[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الأسبابِ لا يُنافي التَّوكُّلَ، بل هو مِن تمامِ التَّوكُّلِ، ومِن

= والحديث أخرجه البخاري (٢٧٢١) واللفظ له، ومسلم (١٤١٨) من حديثِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تمام معرفةِ الإنسانِ باللهِ سُبحانَه وتعالى، لكنَّ المحظورَ أنْ يَعتمِدَ الإنسانُ على السَّبَبِ، ويَظُنَّ أنَّه هو الغايةُ[(١)]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إثباتُ كلامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ المُناديَ في قَولِه: ﴿نُودِىَ﴾ هو اللهُ؛ لِقَولِه تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[(٢)] [النازعات: ١٦]. والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا مَسموعًا، ولا يُعقَلُ في لُغةِ العَرَبِ لفظُ النِّداءِ بغيرِ صَوتٍ مَسموعٍ، لا حَقيقةً ولا مَجازًا[(٣)]، وفيه رَدٌّ على الأشاعرةِ الَّذين يقولون: «إنَّ كَلامَ اللهِ هو المعنى القائمُ بنَفْسِه»، ولا شكَّ أنَّ المعنى القائمَ بالنَّفْسِ لا يُسمَّى كلامًا، ولا يُسمَعُ، وكلامُ اللهِ تعالى يُسمَعُ[(٤)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الرَّدُّ على الجَهميَّةِ والمُعتَزلةِ الَّذين يقولون: «إنَّ كلامَ اللهِ مخلوقٌ»، ووجْهُ ذلك: أنَّه ثَبَتَ أنَّ النِّداءَ من اللهِ سُبحانه وتعالى، والنِّداءُ قَولٌ، والقَولُ لا يُؤخَذُ إلَّا بقائلٍ؛ فيكونُ القَولُ قولَ اللهِ، وكلُّ صفةٍ من صفاتِ اللهِ فإنَّها غيرُ مخلوقةٍ؛ لأنَّها وصْفٌ لِمَنِ اتَّصفَ بها، فإذا كانت وَصْفًا للخالقِ فهي غيرُ مَخلوقةٍ[(٥)].

٨- قولُه تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه إثباتُ أنَّ كلامَ اللهِ سُبحانَه وتعالى بحرفٍ؛ لأنَّ هذه جُمَلٌ مُكَوَّنةٌ مِن حروفٍ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أنَّه يجوزُ على الأنبياءِ ما يجوزُ على غَيرِهم مِن الخَوفِ الطَّبيعيِّ، مع أنَّ موسى عليه السَّلامُ -كما هو معلومٌ- كان مِن الرِّجالِ الأقوياءِ، لكِنَّه يَعتريه ما يعتري غيرَه مِن البَشَرِ(١).

١٠- قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾، قولُه: ﴿أَقْبِلْ﴾ يقتضي الأمرَ بإقبالِه، ويجبُ عليه الامتثالُ، ولكن قد يكونُ إقبالُه وهو لم يزلْ في الأمرِ المخوفِ، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾، ولكن يبقَى احتمالٌ، وهو أنَّه قد يُقبِلُ وهو غيرُ خائفٍ، ولكن لا تحصُلُ له الوقايةُ والأمنُ مِن المكروهِ، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾، فحينئذٍ اندفَع المحذورُ مِن جميعِ الوجوهِ، فأقبَل موسى عليه السلامُ غيرَ خائفٍ ولا مرعوبٍ، بل مطمئنًّا، واثقًا بخبرِ ربِّه، قد ازداد إيمانُه، وتمَّ يقينُه، فهذه آيةٌ، أراه الله إيَّاها قبلَ ذهابِه إلى فرعونَ، ليكونَ على يقينٍ تامٍّ، فيكونَ أجرأَ له، وأقوَى وأصلبَ(٢).

١١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ رُبَّما إذا استعمل أحَدٌ ذلك على سبيلِ الاقتداءِ، فوضَعَ يَديه على فؤادِه؛ فإنَّه يَزولُ عنه ما يجِدُ أو يَخِفُّ، إن شاء اللهُ، وبه الثِّقةُ(٣)، قال ابنُ عبَّاس: (ليس مِن أحدٍ يَدخُلُه رُعبٌ بعدَ موسَى، ثمَّ يُدخِلُ يدَه فيَضعُها على صدرِه؛ إلَّا ذهَب عنه الرُّعبُ)(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٧٩).

قال ابن كثير: (وهذا وإن كان خاصًّا به، إلَّا أنَّ ببركةِ الإيمانِ به حقَّ الإيمانِ ينتفعُ مَن استعمَل ذلك على وجهِ الاقتداءِ بالأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٥٧).

اللهَ تعالى يُعطي الأنبياءَ مِن الآياتِ ما يُناسِبُ الوقتَ وحالَ المُرسَلِ إليهم؛ لأنَّ هذا مِن الحِكمةِ أنْ تأتيَ الآياتُ مُطابِقةً للواقعِ(١)، فموسى عليه السَّلامُ كانت مُعجزتُه ممَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، فكانوا سَحَرةً أذكياءَ، فبُعِث بآياتٍ بَهَرَتِ الأبصارَ، وخضعَتْ لها الرِّقابُ(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُجَدِّدُ لهذه الأُمَّةِ دينَها كُلَّما خرَجوا عنه؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يُرسِلُ الرُّسلَ عندَ الحاجةِ إليهم، وعندَما لا يكونُ هناك رسولٌ -كحالِ أُمَّتِنا- يَبعثُ دُعاةً صالحينَ مُصلِحينَ للخَلْقِ(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أنَّ الخَوفَ الطَّبيعيَّ لا يُنافي مقامَ الرِّسالةِ(٤)، وإنَّما هو مُباحٌ في الأصلِ، لكنْ إنْ حمَل على ترْكِ واجبٍ أو فِعلِ محرَّمٍ؛ فهو محرَّمٌ، وإنِ استَلزَمَ شيئًا مباحًا كان مباحًا(٥).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ أنَّ فَصاحةَ اللِّسانِ لها تأثيرٌ قَويٌّ في القَبولِ أو الرَّفضِ، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مِن البَيانِ لَسِحْرًا))(٦).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ فَضيلةُ موسى عليه الصَّلاةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٤٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٢).
(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٦٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٧).
والحديث أخرجه البخاري (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما.

والسَّلامُ؛ لإقرارِه بالفَضلِ لأخيه[(١)]!

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أنَّ الخَبرَ يَزدادُ ثبوتًا وتَبيينًا بتَعَدُّدِ مُخبِريه؛ ولهذا طلَب موسى عليه السَّلامُ من الله أن يُرسِلَ معه هارُونَ؛ لِتزدادَ رسالتُه قوَّةً ووُضوحًا عندَ آلِ فِرعَونَ؛ لأنَّ الرِّسالةَ خبرٌ، فإذا كان معه مَن يُقَوِّيه على هذا الخَبرِ ويُثَبِّتُه ويُصَدِّقُه، فإنه يكونُ أقوى، والآيةُ شاهِدٌ له[(٢)].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ استَجابَ اللهُ له دَعْوَتَيه، وزادَهُ تَفضُّلًا بما لم يَسأَلْه؛ فاستِجابةُ الدَّعوةِ الثَّانيةِ بقولِه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، واستِجابةُ الأُولى بقولِه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، والتَّفضُّلُ بقولِه: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، فأعطَى مُوسى ما يُماثِلُ ما لهارونَ مِن المَقدِرةِ على إقامةِ الحُجَّةِ؛ إذ قال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾[(٣)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أنَّ التمَسُّكَ بشريعةِ اللهِ سببٌ للغلبةِ، فإذا كان هذا في بني إسرائيلَ: أنَّه مَن اتَّبَعَ موسى عليه السَّلامُ فهو الغالبُ؛ فمِن بابِ أَولى مَن اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإنَّه غالِبٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، ومعنى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: يُعلِيَه؛ لأنَّ الظَّهرَ والظُّهورَ كلُّه يدُلُّ على الغَلَبةِ[(٤)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).

يُنصَرُ ويَغلِبُ باتِّبَاعِ الرُّسُلِ، وأنَّه لا طريقَ إلى النَّصرِ والغَلَبةِ إلَّا بالدُّخولِ في طريقِ الرُّسلِ، واتِّباعِهم، وعليه فتكونُ مِن هذه قاعدةُ: (كلُّ مَن كان للرَّسولِ أتبَعَ، كان إلى النَّصرِ أقربَ؛ وكلُّ مَن كان مِن اتِّباعِ الرَّسولِ أبْعَدَ، كان عن النَّصرِ أبعَدَ)؛ لأنَّه مِن المعلومِ في القواعِدِ المقرَّرةِ: (أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ كان ثبوتُه -قوَّةً وضَعفًا، ووُجودًا وعدمًا- بحَسَبِ ذلك الوَصفِ)[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لم يَذكُرِ القرآنُ أيَّ الأجلَينِ قَضى مُوسى؛ إذ لا يَتعلَّقُ بتَعيينِه غرَضٌ في سِياقِ القصَّةِ[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ فَصيحةٌ، أي: فعَقَدَا العَقدينِ، وباشَرَ مُوسى ما الْتزَمهُ، فلمَّا أتمَّ الأجَلَ...[3].

- قَولُه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ الجَذوةُ: العودُ الغليظُ، قيل: مُطلقًا، وقيل: المُشتعِلُ؛ فإنْ كان الأوَّلَ؛ فوَصْفُ الجَذوةِ بأنَّها مِن النَّارِ وصْفٌ مُخصِّصٌ، وإنْ كان الثَّانيَ فهو وصْفٌ كاشفٌ، و(مِن) على الأوَّلِ بَيانيَّةٌ، وعلى الثَّاني تَبعيضيَّةٌ[4].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١١).

- التَّعريفُ في ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وعُدِلَ عن التَّنكيرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّها شَجرةٌ مَقصودةٌ، وليس التَّعريفُ للعهْدِ؛ إذ لم يَتقدَّمْ ذِكْرُ الشَّجرةِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى في سُورةِ (النَّملِ): ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وقال في (طه): ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١- ١٢]، وقال هاهنا: ﴿نُودِيَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأشياءِ؛ فهو تعالى ذَكَرَ الكُلَّ، إلَّا أنَّه حَكَى في كُلِّ سُورةٍ بَعضَ ما اشتَمَلَ عليه ذلك النِّداءُ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فَصيحةٌ مُفصِحةٌ عن جُمَلٍ قد حُذِفَت؛ تَعويلًا على دَلالةِ الحالِ عليها، وإشعارًا بغايةِ سُرعةِ تَحقُّقِ مَدلولاتِها، أي: فألْقاها، فصارت ثُعبانًا، فاهتزَّتْ...[٣].

- قَولُه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ زِيادةُ ﴿أَقْبِلْ﴾ هنا -وهي تَصريحٌ بمَضمونِ قولِه: (لَا تَخَفْ) في سُورةِ (النَّملِ) ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]-؛ لأنَّه لَمَّا أدبَر خَوفًا مِن الحيَّةِ كان النَّهيُ عن الخَوفِ يدُلُّ على معنى طَلبِ إقبالِه؛ فكان الكلامُ هنالك إيجازًا، وكان هنا مُساواةً[٤]؛ تفنُّنًا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٤) المساواةُ: هي أن يكونَ اللَّفظُ مُساويًا للمعنى بحيثُ لا يَزيدُ عليه ولا يَنقُصُ عنه، بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قَصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه، ظاهرٌ أو مُقَدَّرٌ، فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني =

حِكايةِ القصَّتينِ. وكذلك زِيادةُ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ هنا، ولم يُحْكَ في سُورةِ (النَّملِ)، وهو تأكيدٌ لِمُفادِ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾. وفيه زِيادةُ تَحقيقِ أمْنِه بما دلَّ عليه التَّأكيدُ بـ(إنَّ)، وجَعْلِه مِن جُملةِ الآمِنينَ؛ فإنَّه أشَدُّ في تَحقيقِ الأمْنِ مِن أنْ يُقالَ: إنَّك آمِنٌ[١]؛ وذلك لِيَتذكَّرَ أنَّ هناك آمِنينَ، فإذا كان هناك آمِنونَ فإنَّه لا غَرابةَ أنْ تأْمَنَ؛ فالإنسانَ إذا ذُكِّرَ بما حدَثَ لغَيرِه صار أشدَّ طُمأنينةً في حُصولِ ذلك الشَّيءِ، ونَظيرُه بالعَكْسِ، هو قولُ فِرعونَ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولم يقُلْ: لأَسجُنَنَّك؛ لأجْلِ أنْ يُرْهِبَه بأنَّ عندَه مَن هو مَسجونٌ، وأنَّه ليس يُعجِزُنا أنْ نَسجُنَك. والحاصلُ: أنَّ مِثلَ هذا يُقالُ مِن أجْلِ أنْ يَتذكَّرَ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ هناك أناسًا آمِنينَ، فيأْمَنَ أكثرَ[٢].

٤- قولُه تَعالَى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قد جُعِلَ الجَناحُ -وهو اليَدُ- في أحدِ الموضِعَينِ مَضمومًا، وفي الآخَرِ مَضمومًا إليه؛ وذلك قولُه هنا: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، وقولُه في سُورةِ

= مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيادةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ).

قيل: ومِن المساوةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٣٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٨٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥١).

(طه): ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢]؛ لأنَّ المُرادَ بالجَناحِ المضمومِ هو اليَدُ اليُمْنى، وبالمَضمومِ إليه اليدُ اليُسرى، وكلُّ واحدةٍ مِن يُمْنى اليدينِ ويُسراهما جَناحٌ[(١)].

- قولُه: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، أي: انْكفِفْ عن التَّخوُّفِ مِن أمْرِ الرِّسالةِ. وفي الكلامِ إيجازٌ، وهو ما دَلَّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، فقولُه: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ في معنَى قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[(٢)] [القصص: ٣٥].

- قولُه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: كائنانِ منه، وكذلك قولُه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: مُرْسَلانِ، أو واصِلانِ إليهم[(٣)].
وقيل: يتعلَّقُ بمَحذوفٍ دَلَّ عليه المعنى، تَقديرُه: اذهَبْ إلى فِرعونَ...[(٤)].

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾؛ لِتَضمُّنِها أنَّهم بحيث يُقرَعونَ بالبراهينِ، فبيَّنَ أنَّ سببَ ذلك تَمكُّنُ الكُفرِ مِن نُفوسِهم حتَّى كان كالجِبِلَّةِ فيهم، وبه قِوامُ قَوْميَّتِهم؛ لِمَا يُؤذِنُ به قولُه: ﴿كَانُوا۟﴾، وقولُه: ﴿قَوْمًا﴾[(٥)].

- قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٥).

﴿ٱلشَّجَرَةِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ [القصص: ٣٠ - ٣٢]، تقدَّمَ مِثلُ هذا في سُورةِ (النَّملِ)، إلَّا مُخالفةَ ألْفاظٍ؛ مِثلُ ﴿أَتَىٰهَا﴾ هنا و﴿جَآءَهَا﴾ [النمل: ٨] هناك، ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ هنا، ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٩] هناك، بضَميرٍ عائدٍ إلى الجَلالةِ هنالك، وضَميرُ الشَّأنِ هنا، وهما مُتساويانِ في المَوقعِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجلالةِ شأنُه عظيمٌ. وقولُه هنا: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقولُه هنالك: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وهذا يَقْتضي أنَّ الأوصافَ الثَّلاثةَ قِيلَت له حينَئذٍ. والقولُ في نُكتةِ تَقديمِ صِفةِ اللهِ تعالى قبْلَ إصدارِ أمْرِه له بإلقاءِ العصَا: أنَّ وصْفَ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ جميعَ الخلائقِ مُسَخَّرةٌ له؛ لِيَثْبُتَ بذلك قلْبُ مُوسى مِن هَولِ تلقِّي الرِّسالةِ. ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ﴾ هنا، ﴿وَأَلۡقِ﴾ هناك [النمل: ١٠]، و﴿ٱسۡلُكۡ﴾ هنا، ﴿وَأَدۡخِلۡ﴾ هناك [النمل: ١٢]، وتلك المُخالَفةُ تفنُّنٌ في تكريرِ القصَّةِ؛ لِتُجدِّدَ نَشاطَ السَّامعِ لها، وإلَّا زِيادةَ ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾[(١)].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ جَرَى التَّأكيدُ على الغالِبِ في استِعمالِ أمثالِه مِن الأخبارِ الغريبةِ؛ لِيَتحقَّقَ السَّامعُ وُقوعَها، وإلَّا فإنَّ اللهَ قد عَلِمَ ذلك لَمَّا قال له: (اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)، والمعنى: فأخافُ أنْ يَذكُروا قَتْليَ القِبطيَّ فيَقْتُلوني؛ فهذا كالاعتِذارِ، وهو يَعلَمُ أنَّ رِسالةَ اللهِ لا يُتخلَّصُ منها بعُذرٍ، ولكنَّه أرادَ أنْ يَكونَ في أمْنٍ إلهيٍّ مِن أعدائِه؛ فهذا تَعريضٌ بالدُّعاءِ، ومُقدِّمةٌ لطَلبِ تأْييدِه بهارونَ أخيه[(٢)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١١٥).

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ هذا سُؤالٌ صَريحٌ يدُلُّ على أنَّ مُوسى لا يُريدُ بالأوَّلِ التَّنصُّلَ مِن التَّبليغِ، ولكنَّه أراد تأْييدَه بأخيه. وإنَّما عيَّنَه ولم يَسأَلْ مُؤيِّدًا ما؛ لعِلْمِه بأمانتِه وإخلاصِه للهِ ولأخيه، وعِلْمِه بفَصاحةِ لِسانِه[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ تَعليلٌ لسُؤالِ تأْييدِه بهارونَ؛ فهذه مَخافةٌ ثانيةٌ مِن التَّكذيبِ، والأُولى مَخافةٌ مِن القتْلِ[٢]. ولَمَّا كان جُلُّ غَرضِه عليه السَّلامُ الدِّينَ، وكان يُؤْثِرُه على حَظِّ نفْسِه؛ جاء بـ (إنَّ) في هذا التَّعليلِ، وبالفاءِ في الأوَّلِ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾؛ لأنَّه تَعليلٌ لتَصديقِ القَومِ، كأنَّه قِيل: أرْسِلْه معي رِدْءًا لِأنْ يُصدِّقَني قَومي؛ لأنِّي أخافُ أنْ يُكذِّبوني[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾

- قَولُه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ لَمَّا أكَّدَ أمْرَ الطَّلبِ بهارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، أكَّد له سُبحانَه أمْرَ الإجابةِ بقولِه مُستأنِفًا: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ﴾، وذَكَر أَوْلَى الأعضاءِ بمُزاولةِ المَكارِه، فقال: ﴿عَضُدَكَ﴾؛ فشَدُّ عَضُدِه كِنايةٌ عن تَقويتِه؛ لأنَّ اليَدَ تشتَدُّ بشِدَّةِ العَضُدِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٢٠/ ٧٨).

الآيات (٣٦-٤٢)

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: أي: العاقِبةُ المحمودَةُ أو خاتمةُ الخَيرِ، وعاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعْدَ غيرِه[1].

﴿صَرْحًا﴾: أي: قَصرًا عاليًا مُرتفِعًا، وأصلُ (صرح): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).

﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾: أي: فألقَيْناهم، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على إلقاءِ الشَّيءِ وطَرحِه[1].

﴿الْيَمِّ﴾: البحرِ[2].

﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾: أي: المَوسُومينَ بحالةٍ مُنكَرةٍ، أو المُبعَدِينَ المَطرودينَ، أو المُشَوَّهينَ، والقبيحُ: ما يَنْبو عنه البصرُ مِن الأعيانِ، وما تَنبو عنه النَّفْسُ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ، والقبحُ: الإبعادُ، وأصلُ (قبح): يدُلُّ على خلافِ الحُسْنِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: فلمَّا جاء موسى فِرعَونَ وقومَه بالمُعجِزاتِ والحُجَجِ الظَّاهِرةِ، قالوا: ما هذا إلَّا سِحرٌ باطِلٌ مُختلَقٌ، وما سَمِعْنا بمِثلِ هذا في آبائِنا الأوَّلينَ!

قال موسى مُجيبًا لهم: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحقِّ والهُدى مِن عندِه، وبمَن تكونُ له العاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ: نحنُ أمْ أنتم؛ إنَّه لا يَفوزُ الظَّالِمون.

وقال فِرعَونُ لِسادةِ قَومِه: لا أعلَمُ لكم إلهًا غيري! فأَوقِدِ النَّارَ يا هامانُ على الطِّينِ لِتَجفيفِه فيكونَ آجُرًّا تَبني لي به بِناءً مرتفعًا؛ لَعَلِّي أنظُرُ إلى إلهِ موسى، وإنِّي لأظُنُّ موسى كاذبًا في زَعمِه!

وتكبَّرَ فِرعَونُ وجُنودُه في الأرضِ عُدوانًا وظُلمًا مِن غيرِ بُرهانٍ، وظَنُّوا أنَّهم لا يَرجِعونَ إلينا فنُحاسِبُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩).

فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه فألْقَيْناهم في البَحرِ فأغرَقْناهم أجمَعين، فانظُرْ كيف كانت نهايةُ الظَّالمينَ؟

وجعَلْنا فِرعونَ وقومَه في الدُّنيا أئمَّةً مَتبوعينَ يَدْعونَ النَّاسَ إلى أعمالِ أهلِ النَّارِ، ويومَ القيامةِ لا يُنصَرون، وأتْبَعْناهم في الدُّنيا لَعنةً، ويومَ القيامةِ هم مِنَ المَمقوتينَ المُستقذَرةِ أفعالُهم وأشكالُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾.

أي: فلمَّا جاء موسى فِرعَونَ وقومَه بالمعجزاتِ والحُجَجِ الظَّاهِرةِ الواضحةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وصِحَّةِ ما جاء به مِن الحَقِّ، قال فِرعَونُ وقَومُه: ما هذا الَّذي جاء به موسى إلَّا سِحرٌ باطِلٌ افتراه واختَلَقه؛ فهو تخييلٌ لا حقيقةَ له، وليس مُعجِزةً إلهيَّةً كما يزعُمُ(١)!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٥، ١٧٦).

قال ابنُ عاشور: (الآياتُ البيِّناتُ هي خوارِقُ العاداتِ الَّتي أظهَرَها، أي: جاءهم بها آيةً بعدَ آيةٍ في مواقِعَ مختلِفةٍ، قالوا عندَ كلِّ آيةٍ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨، ١١٩).

أي: وما سَمِعْنا مَن يدعو آباءَنا إلى مِثلِ ما تَدعو إليه[١].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى بقَولِهم، عَطَفَ عليه الإخبارَ بقَولِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيوازِنَ السَّامِعُ بيْنَ الكلامَينِ، ويَتبصَّرَ بعقلِه ما الفاسِدُ منهما؛ «فبِضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ»[٢].

وأيضًا لَمَّا قالوا قولًا صريحًا في تكذيبِه، واستَظْهَروا على قَولِهم بأنَّ ما جاء به موسى شَيءٌ ما عَلِمَه آباؤُهم، أجاب موسَى كلامَهم بمِثلِه في تأييدِ صِدقِه؛ فإنَّه يَعلَمُه اللهُ، فما عِلْمُ آبائِهم في جانبِ عِلمِ اللهِ بشَيءٍ، فلمَّا تمسَّكوا بعِلمِ آبائِهم تمسَّك موسى بعِلمِ الله تعالى[٣].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾.

أي: وقال موسى مُجيبًا لهم: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحقِّ والرَّشادِ مِن عنده: نحنُ أو أنتم[٤].

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

أي: وربِّي أعلَمُ بمَن تكونُ له العاقِبةُ المحمودةُ في الدَّارِ الدُّنيا والآخرةِ: نحنُ أو أنتم[(١)].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يفوزُ الظَّالِمون بالعاقبةِ الحَميدةِ والبَقاءِ في النَّعيمِ[(٢)].

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

أي: وقال فِرعَونُ لِسادةِ قَومِه: يا أيُّها الأشرافُ، لا أعلَمُ أنَّ لكم معبودًا غيري

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٤).

قيل: الظالِمون هنا بمعنى: الكافرين أو المشركين. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٧٨).

وقيل: يُحمَلُ معنى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على العمومِ؛ لِيَشمَلَ كُلَّ ظالمٍ، سواءٌ وقَع في الكُفرِ أو فيما هو دُونَه من أنواعِ الظُّلْمِ، فينتفي عنه مِنَ الفَلاحِ بحسَبِ ظُلْمِه، أمَّا الظُّلْمُ الأكبرُ فيَفوتُ به الفلاحُ كلُّه. وذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٥).

كما يزعُمُ موسى؛ فلا إلهَ في الحقيقةِ سِوايَ[١]!

كما قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾.

أي: قال فِرعَونُ: فأوقِدِ النَّارَ يا هامانُ على الطِّينِ؛ لِتَجفيفِه، فيكونَ آجُرًّا تبني لي به بناءً مُرتَفِعًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

أي: ابنِ لي صَرْحًا لعلِّي أنظُرُ إلى معبودِ موسى الَّذي يَدْعونا إلى عبادتِه، وأقِفُ على شَأنِه[٣].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أي: وإنِّي لأظُنُّ موسى كاذِبًا في زَعمِه أنَّ للخَلقِ إلهًا غيري[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨).

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: واستعظَمَ فِرعَونُ وجُنودُه وتعالَوا في الأرضِ[١] عن اتِّباعِ الهُدى؛ عُدوانًا وظُلمًا مِن غيرِ حُجَّةٍ أو بُرهانٍ[٢].

﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾.

أي: وظنَّ فِرعَونُ وجُنودُه أنَّهم لا يُبعَثونَ بعدَ الموتِ فيَرجِعونَ إلينا للحِسابِ والجَزاءِ؛ فلذا تَجرَّؤوا على الاستكبارِ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ[٣].

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾.

---

(١) المرادُ بالأرضِ: الأرضُ المعهودةُ، أي: أرضُ مِصرَ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عثيمين، ونسبه الألوسيُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

قال السعدي: (استكبَروا على عِبادِ الله، وساموهم سُوءَ العذابِ، واستكبَروا على رُسلِ الله، وما جاؤوهم به مِن الآياتِ، فكذَّبوها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

أي: فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه أخْذَ قَهرٍ ونِقمةٍ، فطرَحْناهم في البَحرِ، فأغرَقْناهم أجمَعينَ[١].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ[٢] كيف كان آخِرُ أمرِ فِرعَونَ وقَومِه الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رَسولِه؛ كان شَرًّا وخسارةً وهلاكًا لهم[٣]!

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن سَنَّ سُنَّةً حسنةً كان له أجْرُها وأجرُ مَن عَمِلَ بها إلى يَومِ القيامةِ، ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ[٤]؛ قال اللهُ تعالى[٥]:

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٧).
والبحرُ الذي هلَك فيه فِرعَون هو البحرُ الأحمرُ (القُلْزُم)، ونسَبَ ذلك ابنُ عطيَّةَ إلى أكثرِ الناسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

(٢) قيل: الخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٥).

(٤) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جَريرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٠٢).

أي: وجعَلْنا فِرعَونَ وقَومَه في الدُّنيا زُعماءَ مَتبوعينَ على الكُفرِ، يَدْعُونَ النَّاسَ إلى أعمالِ أهلِ النَّارِ(١).

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الغالِبُ مِن حالِ الأئمَّةِ النُّصرةَ، وكان قد أخبَرَ عن خِذْلانِهم في الدُّنيا؛ قال(٢):

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ويَومَ القيامةِ لا يَنصُرُ أحَدٌ فِرعَونَ وقَومَه، ولا يدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ تعالى(٣).

﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾.

﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾.

أي: وجعَلْنا اللَّعنةَ تَتبَعُهم بعْدَ هَلاكِهم؛ يَلعَنُهم اللهُ، ويَلعَنُهم العِبادُ؛ فهُم مَطرودونَ مِن رَحمةِ اللهِ تعالى(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾ [هود: ٩٩].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

أي: ويومَ القيامةِ هم مِنَ المُهلَكِينَ المَمقوتينَ، المُبعَدينَ المَخْزِيِّينَ، المُستقذَرةِ أفعالُهم، الشَّنيعةِ أحوالُهم وأقوالُهم، مع قُبحِ وُجوهِهم وأشكالِهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للمَرءِ أنْ يَثْنِيَه عن قَولِ الحَقِّ ردُّه أو وصْفُه هو بالعُيوبِ؛ لأنَّ موسى لم يتوقَّفْ عنِ الدَّعوةِ حينَما قالوا له هذا، بل استمَرَّ في الدَّعوةِ، وبه قامتِ الحُجَّةُ، مع أنَّه هُدِّدَ بالسَّجنِ، ولكِنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُبَالِ بها؛ فينبغي للدَّاعي إلى اللهِ أن يَصبرَ ما دام يَعلَمُ أنَّه على الحَقِّ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ التَّحذيرُ مِنَ الظُّلمِ، والتَّرغيبُ في العدلِ؛ لأنَّ التَّحذيرَ مِنَ الشَّيءِ ترغيبٌ في ضِدِّه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أنَّ مَنِ استكبَرَ عنِ الحقِّ فيه شَبَهٌ مِن فِرعَونَ وجنودِه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّه يُطلَبُ مِنَ المَرءِ -إمَّا وُجوبًا أو استِحبابًا- أن يَتأمَّلَ في عاقبةِ الظَّالِمينَ، وأنَّه ينبغي لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

قال البقاعي: (﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، أي: المُبْعَدينَ أيضًا، المَخْزِيِّينَ، مع قُبحِ الوُجوهِ والأشكالِ، والشَّناعةِ في الأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).

أن نَتَّعِظَ بعاقبةِ هؤلاء، فلا نَظلِمَ مِثْلَهم؛ لأنَّه ما دام عاقبةُ الظالمِ الهلاكَ، فإنَّ الإنسانَ يخشى أنْ يَهلِكَ إذا ظَلَمَ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ ما أُقيمَ عليه البُرهانُ حقٌّ، وإنْ لم يَسبِقْ به قَولٌ متقَدِّمٌ، وأنَّ الرَّادَّ لِمَا لم يَسبِقْ به قولٌ مُتَشَبِّهٌ بهؤلاءِ القَومِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ التَّنَزُّلُ مع الخَصمِ على وجْهٍ لا يكونُ فيه تقويضٌ لدعوى المدَّعي[(٣)].

٣- مَن دعا على أخيه -وهو ظالمٌ له-؛ فإنَّ اللهَ لا يُجيبُ دعاءَه؛ لأنَّه لو أُجيبَ لكان نصرًا له؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٤)].

٤- قولُه: ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ فيه إسنادُ الفعلِ إلى الآمرِ به لِمَن كانت له سُلطةُ الأمرِ، فمعلومٌ أنَّ هامانَ لم يُباشِرِ البناءَ، بل باشرَه العمَّالُ؛ ولكنَّه نُسِبَ الفعلُ إليه لأنَّه الآمِرُ به، والفقهاءُ رحمهم اللهُ اعتبَروا هذا، فقالوا: لو أَمَرَ بالقتلِ غيرَ مُكَلَّفٍ، فقتَل؛ فالقَوَدُ على الآمِرِ؛ لأنه هو السَّببُ، والحُكمُ إليه[(٥)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٩).

مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ حُجَّةٌ على مَن يزعُمُ أنَّ اللهَ بنَفْسِه في الأرض، حالٌّ في كُلِّ مَكانٍ، ويُنكِرُ كَيْنونتَه بنَفْسِه في السَّماءِ، وعِلمَه في الأرضِ؛ إذ مُحالٌ أن يقولَ فِرعَونُ هذا القَولَ إلَّا وقد دَلَّه موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ إلهَه في السَّماءِ دونَ الأرضِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم كانوا عارِفينَ باللهِ تعالى، إلَّا أنَّهم كانوا يُنكِرون البعثَ؛ فلأجْلِ ذلك تَمَرَّدوا وطَغَوا[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ حِكمةُ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ حيثُ كان إهلاكُ فِرعَونَ وقَومِه بالماءِ الذي كان يَفتخِرُ به بقَولِه: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]! فإنَّ هذا الَّذي كان يَفتخِرُ به كان مَحَلَّ هلاكِه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إشارةٌ عظيمةٌ بأعظَمِ بِشارةٍ بأنَّ كلَّ ظالمٍ تكونُ عاقِبتُه هكذا إنْ صابَرَه المظلومُ المُحِقُّ، ورابَطَه حتَّى يَحكُمَ اللهُ وهو خيرُ الحاكِمينَ[٤].

٩- اللهُ سُبحانَه وتعالى هو الَّذي جَعَلَ العبدَ فاعلًا، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، فهو سُبحانَه الَّذي جعَلَ أئمَّةَ الهدى يَهْدُونَ بأمرِه؛ وجعَلَ أئمَّةَ الضَّلالِ والبِدَعِ يَدْعونَ إلى النَّارِ[٥]، وفيه رَدٌّ على المعتَزِلةِ؛ لأنَّ جَعْلَه لهم أئمَّةً لا يخلو مِن أنْ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٦).

يكونَ خَلْقًا أو صَيْرورةً، وكِلاهما حُجَّةٌ عليهم خانِقةٌ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإمامةَ تكونُ في الشَّرِّ كما تكونُ في الخَيرِ؛ لأنَّ معناها أن يَصيرَ المرءُ قُدوةً يُؤتَمُّ به فيما يكونُ مُقيمًا عليه[٢]، وفَرْقٌ بيْنَ مَن يَقودُ النَّاسَ بأمرِ اللهِ أو مَن يَقودُونَهم بشريعتِه، وبيْنَ مَن يَدْعون إلى النَّارِ[٣]! فمِن أعظَمِ العُقوباتِ أنْ يكونَ الإنسانُ إمامًا في الشَّرِّ، وذلك بحسَبِ مُعارَضَتِه لآياتِ اللهِ وبيِّناته، كما أنَّ أعظَمَ نِعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها على عبدِه أن يَجعَلَه إمامًا في الخَيرِ هاديًا مَهْدِيًّا[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أنَّ الدُّعاءَ إلى النارِ -وإلى الخَيرِ أيضًا- كما يكونُ بالقولِ يكونُ بالفعلِ، وقد يكونُ ما هو بالقولِ أقوى، وقد يكونُ ما هو بالفعلِ أقوى، إنَّما على كلِّ حالِ الدُّعاءُ بهذا وبهذا ثابتٌ؛ فإنَّ فرعونَ وقومَه كانوا يَدْعون النَّاسَ بمقالِهم وبحالِهم[٥].

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فيه تحقيرُ الدُّنيا، فالدُّنيا مؤنَّثُ «أدنى»، وهي مِن الدُّنوِّ الحِسِّيِّ والمَعنويِّ؛ أمَّا الدُّنوُّ الحِسِّيُّ فلِسَبْقِها على الآخرةِ، فهي أدنَى إلى المخلوقِينَ مِنَ الآخرةِ، وأمَّا الدُّنوُّ المعنويُّ فلِمَا تَتضَمَّنُه مِنَ النَّقصِ في جميعِ كمالاتِها، فما مِن كمالٍ في الدُّنيا إلَّا وهو ناقصٌ، والآنَ لو تأمَّلْتَ جميعَ المَضارِّ والمنافعِ الدُّنيويَّةِ تجدُها مَشُوبةً بالضَّررِ والخطرِ -حتَّى الزَّمانُ-، كما قال الشاعرُ:

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠١).

فَــيَــومٌ عــلــيــنــا، ويـــومٌ لنا ويـــومٌ نُســـاءُ، ويـــومٌ نُســـرُّ(١)

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ صريحٌ في أنَّ فِرعَونَ عدوُّ اللهِ في الآخرةِ،كما كان عدوَّه في الدنيا، ففيه ردٌّ على مَن يقولُ: إنَّه مات مؤمنًا، وإنَّه لا صريحَ في القرآنِ بأنَّه مِن أهلِ النارِ(٢)! وقد قال تعالى في حقِّ فِرعونَ وقومِه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٨، ٩٩]، وقال سُبحانَه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ طُوِيَ ما بيْنَ نِداءِ اللهِ إيَّاه وبيْنَ حُضورِه عندَ فِرعونَ مِن الأحداثِ؛ لعَدَمِ تعلُّقِ العِبرةِ به(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أُسنِدَ المَجيءُ بالآياتِ إلى مُوسى عليه السَّلامُ وحْدَه دونَ هارونَ؛ لأنَّه الرَّسولُ الأصليُّ الَّذي تأْتي المُعجزاتُ على يَدَيه، بخِلافِ قولِه: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ في سُورةِ (الشُّعراءِ [١٥]، وقولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؛ إذ جعَلَ تَعلُّقَ الآياتِ بضَميرَيْهما؛ لأنَّ معنى المُلابَسةِ معنًى مُتَّسِعٌ؛ فالمُصاحِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٤).
والبيت للنَّمرِ بنِ تَوْلب، يُنظر ((ديوانه)) (ص: ٦٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

لصاحبِ الآياتِ هو مُلابِسٌ له[١].

- قولُه: ﴿سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾، أي: سِحرٌ تَعمَلُه أنتَ، ثمَّ تَفْتريه على اللهِ. أو: سِحرٌ ظاهِرٌ افتراؤُه. أو: مَوصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السِّحرِ، وليس بمُعجزةٍ من عندِ اللهِ؛ فعلى هذا الوَجْهِ ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ باقٍ على إطلاقِه، وهو صِفةٌ مُؤكِّدةٌ، وعلى الوجْهِ الأوَّلِ صِفةٌ مُخصِّصةٌ مُقيِّدةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الإشارةُ إلى ادِّعاءِ الرِّسالةِ مِن عِندِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك هو الَّذي يُسمَعُ، وأمَّا الآياتُ فلا تُسمَعُ؛ فمَرجِعُ اسْمَي الإشارةِ في قَولِه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مُختلِفٌ، أي: ما سَمِعْنا مَن يَدْعو آباءَنا إلى مِثْلِ ما تَدْعو إليه؛ فالكَلامُ على حَذْفِ مُضافٍ دَلَّ عليه حَرْفُ الظَّرفيَّةِ، أي: في زمَنِ آبائِنا[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كان مُقْتضى الاستِعمالِ أنْ يُحكَى كلامُ مُوسى بِفِعلِ القولِ غير مَعطوفٍ بالواوِ شأْنَ حِكايةِ المُحاوَراتِ، فخُولِفَ ذلك هنا بمَجيءِ حَرفِ العطْفِ؛ لأنَّه قُصِدَ هنا التَّوازُنُ بيْنَ حُجَّةِ مَلأِ فِرعونَ وحُجَّةِ مُوسى؛ لِيَظهَرَ للسَّامعِ التَّفاوُتُ بيْنَهما في مُصادَفةِ الحقِّ، ويَتبصَّرَ فسادَ أحدِهما وصِحَّةَ الآخَرِ، وبضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ؛ فلهذا عُطِفَت الجُملةُ جرْيًا على الأصلِ غيرِ الغالبِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ فيه خُصوصيَّةً غيرَ المَعهودةِ في مِثْلِه؛ فتكونُ مَعرفةُ التَّفاوُتِ بيْنَ المُحتَجِّينَ مُحالةً على النَّظرِ في مَعناهما. وعلى القِراءةِ بدُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨، ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

واو[(١)] على أصلِ حِكايةِ المُحاوَراتِ، وقد حصَلَ مِن مَجموعِ القِراءتَينِ الوفاءُ بحقٍّ الخُصوصيَّتَينِ من مُقْتضى حالَي الحِكايةِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ ...﴾ عَبَّرَ عن اللهِ تَعالَى بوَصفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِه؛ للتَّنصيصِ على أنَّ الَّذي يَعلَمُ الحقَّ هو الإلهُ الحقُّ، لا آلِهتُهم المزعومةُ[(٣)].

- وعَبَّرَ في جانبِ (مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى) بفِعلِ المُضيِّ، وفي جانبِ (مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ) بالمُضارعِ؛ لأنَّ المَجيءَ بالهُدى المُحقَّقِ والمزعومِ أمْرٌ قد تَحقَّقَ ومَضى، سواءٌ كان الجائيَ به مُوسى أمْ آباؤُهم الأوَّلون وعُلماؤُهم. وأمَّا كِيانُ عاقبةِ الدَّارِ لِمَنْ فمَرْجُوٌّ لَمَّا يَظهَرْ بعْدُ؛ ففي قولِه: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ إشهادٌ للهِ تعالى وكلامٌ مُنصِفٌ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بزِيادةِ الباءِ، وقاله بعْدُ بدُونِها في قولِه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [القصص: ٨٥]؛ تقْويةً للعاملِ هنا بحسَبِ الظَّاهرِ؛ لِضَعفِه عن العَملِ، وحَذَفه بَعْدُ؛ اكتِفاءً بدَلالةِ الأوَّلِ عليه[(٥)].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ تَفويضٌ إلى ما سيَظهَرُ مِن نَصرِ أحدِ

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ بدونِ واوٍ، وقرأ الباقون بالواو. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩، ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

الفريقَينِ على الآخَرِ، وهو تَعريضٌ بالوعيدِ بسُوءِ عاقِبَتِهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كلامُ فِرعونَ المَحْكيُّ هنا واقعٌ في مَقامٍ غيرِ مَقامِ المُحاوَرةِ مع موسى؛ فهو كلامٌ أقبَلَ به على خِطابِ أهلِ مجلِسِه إثرَ المُحاورةِ مع موسى؛ فلذلك حُكِيَ بحَرفِ العطفِ (الواو)؛ عَطفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فهذه قِصَّةُ مُحاوَرةٍ بيْنَ فِرعونَ ومَلَئِه في شأنِ دَعوةِ مُوسى؛ فهي حقيقةٌ بحَرفِ العطفِ[٢].

- قولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قيل: نَفَى عِلمَه بذلك؛ إظهارًا للنَّصَفةِ، وأنَّه ما قَصَد غِشَّهم، وذلك منه واضحٌ في أنَّه قَصَد تَشكيكَهُم؛ إشارةً منه إلى أن انتِفاءَ عِلمِه بوُجودِه ما هو إلَّا لانتِفاءِ وُجودِه[٣]، فعَبَّرَ بنَفْيِ عِلمِه عن نفْيِ المعلومِ؛ تدليسًا على مَلَئِه، وتلبيسًا على عُقولِهمُ السَّخيفةِ، ففِرعونُ كان يَدَّعي الإلَهيَّةَ، ويُعامِلُ عِلمَه مُعاملةَ عِلمِ اللهِ تعالى في أنَّه لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ؛ فمِن ثَمَّ طَغَى وتَكبَّرَ[٤].

- ولم يقُلْ: (ما وجَدْتُ لكُم)؛ لأنَّه لو قال: ما وجَدْتُ لكم، لكَذَّبوه؛ إذْ سيُحاجُّونَه بأنَّه لم يَذهَبْ لأيِّ مَكانٍ، ولم يُفارِقْهُم، فلمْ يَذهَبْ لِيَطلُبَ اللهَ ولم يَجِدْه، فنَفَى أنْ يَكونَ عالِمًا بذلك، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾؛ لأجْلِ أن يُفرِّعَ عليه، ثمَّ قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فتتَمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠).

له حيلتُه؛ يَقولُ: أنا لا أَعلَمُ لكُم مِن إلهٍ غَيري، لكنْ لا مانعَ مِن أن نَبحَثَ[(١)].

- وإنَّما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ولم يقُلْ: اطبُخْ لي الآجُرَّ واتَّخِذْه؛ لأنَّ هذه العِبارةَ أَحسَنُ طِباقًا لفَصاحةِ القرآنِ وعُلوِّ طَبقتِه، وأَشبَهُ بكَلامِ الجبابرةِ. كأنَّه قال: أَوقِدْ لي على هذا الشَّيءِ المُسمَّى بالطِّينِ؛ كأنَّه شَيءٌ حَقيرٌ لا يَصلُحُ مِن مِثلِ الملوكِ أن يُتلفَّظَ به، ويَدخُلُ في تَسميتِه في زُمرةِ العامَّةِ، أو أنَّ كَلِمةَ الآجُرِّ ونَحوِها -كالقَرْمَدِ، والطُّوبِ- كلِماتٌ مُبتذَلةٌ، فذَكَر بلفظِ الطِّينِ. وأظهَرُ مِن هذا: أنَّ العُدولَ إلى الطِّينِ؛ لأنَّه أَخَفُّ وأَفصَحُ. أو عَبَّرَ عنِ الآجُرِّ بالطِّينِ؛ لأنَّه قِوامُ صُنعِ الآجُرِّ، وهو طِينٌ معروفٌ، وكأنَّه لم يَأمُرْه ببناءٍ مِن حَجَرٍ وكِلْسٍ؛ قَصدًا للتَّعجيلِ بإقامةِ هذا الصَّرحِ المُرتفعِ؛ إذْ ليس مطلوبًا طولُ بقائِه بإحكامِ بنائِه على مَرِّ العُصورِ، بلِ المرادُ سُرعةُ الوُصولِ إلى ارتفاعِه؛ كَيْ يَشهَدَه النَّاسُ، ويَحصُلَ اليأسُ، ثمَّ يُنقَضَ مِنَ الأساسِ[(٢)].

- وأَمْرُ هامانَ -وهو وزيرُه ورَديفُه- بالإيقادِ على الطِّينِ مُنادًى باسمِه بـ (يا) في وسَطِ الكلامِ: دليلُ التَّعظيمِ والتَّجبُّرِ؛ فهامانُ كان حاضرًا بيْن المَلأِ، وداخلًا في الخِطابِ؛ بل هو المُخاطَبُ الأوَّلُ لكَونِه وزيرَه ومُشيرَه؛ فاختِصاصُه مِن بيْنِهم بالنِّداءِ، ثمَّ بـ (يا) الدَّالَّةِ على البَعيدِ، ثمَّ تصريحُه باسمِه- ما كان إلَّا إظهارًا للكبرياءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢، ١٢٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢٠/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢، ٦٣).

- وأراد بقولِه: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أن يأمُرَ هامانُ العَمَلةَ أن يَطبُخوا الطِّينَ ليَكونَ آجُرًّا ويَبنُوا به؛ فكُنِّيَ عنِ البناءِ بمُقدِّماته، وهي إيقادُ الأفرانِ لتَجْفيفِ الطِّينِ المُتَّخَذِ آجُرًّا[1]. وابتَدأَ بأمْرِه بأوَّلِ أشغالِ البِناءِ؛ للدَّلالةِ على العِنايةِ بالشُّروعِ مِن أوَّلِ أوقاتِ الأمرِ؛ لأنَّ ابتِداءَ البناءِ يَتأخَّرُ إلى ما بعْدَ إحضارِ مَوادِّه؛ فلذلك أمَرَه بالأخذِ في إحضارِ تلك المَوادِّ الَّتي أوَّلُها الإيقادُ، أي: إشعالُ التَّنانيرِ لطَبخِ الآجُرِّ[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بحذْفِ ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقال في (غافر) بذِكْرِه؛ لأنَّ ما هنا تَقدَّمه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ من غَيرِ ذِكرِ أرضٍ وغَيرِها؛ فناسَبَه الحذْفُ، وما هناك تَقدَّمه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؛ فناسَبَه مُقابَلتُه بالسَّماءِ في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[3] [غافر: ٣٦، ٣٧].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أقوى مِن: (كاذِبًا)؛ فهو يدُلُّ على أنَّه يَعُدُّه مِنَ الطَّائفةِ الَّذينَ شأْنُهمُ الكذِبُ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ مَعلومٌ بالفَحْوى مِن كُفرِهم باللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٣).

وإنَّما صَرَّح به؛ لأهمِّيَّةِ إبطالِه؛ فلا يُكتفَى فيه بدَلالةِ مفهومِ الفَحْوى[١]، ولأنَّ في التَّصريحِ به تعريضًا بالمُشركينَ في أنَّهم وإيَّاهُم سواءٌ، فلْيَضَعوا أنفُسَهم في أيِّ مَقامٍ مِن مَقاماتِ أهلِ الكُفرِ. ومعنَى ذلك: ظَنُّوا أنْ لا بَعْثَ ولا رُجوعَ؛ لأنَّهم كَفروا بالمَرجوعِ إليهِ؛ فذَكَر ﴿إِلَيۡنَا﴾ لحِكايةِ الواقعِ، وليس بقَيدٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنَى: وظَنُّوا أنَّهم في مَنَعةٍ مِن أنْ يَرجِعوا في قَبضةِ قُدرتِنا، كما دَلَّ عليه قولُه في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤، ٢٥] استِعجابًا مِن ذلك. وعلى هذا الاحتِمالِ فالتَّعريضُ بالمُشركينَ باقٍ على حالِه؛ فإنَّهم ظَنُّوا أنَّهم في مَنَعةٍ مِنَ الاستِئْصالِ، فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٢] [الأنفال: ٣٢].

- وقُدِّم ﴿إِلَيۡنَا﴾ على عامِلِه ﴿يُرۡجَعُونَ﴾؛ لأجْلِ الفاصلةِ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ الدُّعاءُ إلى النَّارِ هو الدُّعاءُ إلى العملِ الَّذي يوقِعُ في النَّارِ؛ فهي دَعوةٌ إلى النَّارِ بالمآلِ. ومناسَبةُ عطْفِ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ هي أنَّ الدُّعاءَ يَقتَضي جُندًا وأتْباعًا يَعتَزُّون بهم في الدُّنيا، ولكنَّهُم لا يُجْدُونَ عنهُم يَومَ

(١) فَحوى الخِطابِ: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، وهو نوعان: تنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنَّهي عن قولِ أُفٍّ على النَّهي عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٤، ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٢٤).

القيامةِ؛ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾[١] [البقرة: ١٦٧].

٦- قوله تعالى: ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾

- الإشارةُ إلى الدُّنيا بـ﴿ هَٰذِهِ ﴾؛ لتَهوينِ أمْرِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للآخِرةِ[٢].

- ولم يَقُلِ: (الحياة)؛ لأنَّ السِّياقَ لتحقيرِ أمْرِهم، ودناءةِ شأنِهم[٣].

- والتَّخالُفُ بيْن صِيغتَيْ قَولِه: ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ﴾ وقَولِه: ﴿ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾؛ لأنَّ اللَّعنةَ في الدُّنيا قد انتَهى أمْرُها بإغراقِهم، أو لأنَّ لَعْنَ المؤْمِنينَ إيَّاهُم في الدُّنيا يَكونُ في أحيانٍ يَذْكُرونَهم، فكِلَا الاحتِمالَين لا يَقتَضي الدَّوامَ؛ فجِيءَ معه بالجملةِ الفِعليَّة. وأمَّا تقبيحُ حالِهم يومَ القيامةِ فهو دائمٌ معهم، مُلازِمٌ لهم، فجِيءَ في جانبِه بالاسميَّةِ المُقتضيةِ الدَّوامَ والثَّباتَ. وضَميرُ (هُم) في قولِه: ﴿ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ ليس ضَميرَ فَصْلٍ، ولكنَّه ضميرُ مبتدَأٍ، وبه كانتِ الجُملةُ اسميَّةً دالَّةً على ثَباتِ التَّقبيحِ لهم يَومَ القِيامةِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٧).

الآيات (٤٢-٤٦)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْقُرُونَ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرِ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مُدَّةُ القرنِ مِئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئَينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿بَصَآئِرَ﴾: أي: ضياءً، وقيل: عبرةً، وقيل: دلالاتٍ، جمعُ بصيرةٍ؛ سُمِّيَ بصيرةً اشتِقاقًا مِن بَصَرِ العَينِ[٢].

﴿ثَاوِيًا﴾: أي: مُقيمًا، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ، وأصلُه: يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

الإقامةِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا ما امتَنَّ به على نبيِّه موسى عليه السَّلامُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ مِن بعدِ ما أهلَكْنا واستأْصَلْنا الأمَمَ الماضيةَ الَّتي كذَّبَت رُسُلَها؛ آتَيْناه التَّوراةَ ضياءً لبني إسرائيلَ وهُدًى ورَحمةً لهم؛ لِيَتذَكَّروا.

ثمَّ يقولُ تعالى منبِّهًا على بُرهانِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حيثُ أخبَرَ بهذه الغُيوبِ الماضيةِ: وما كنتَ -يا محمَّدُ- حاضِرًا بجانبِ الغربيِّ الَّذي كلَّمْنا فيه موسى وأوحَيْنا إليه، وما كنتَ مُشاهِدًا لِما جرى هناك، ولكنَّا خلَقْنا أُمَمًا مِن بَعدِ موسى، فطالت مُدَّةُ انقِطاعِ الوَحيِ، فنُسِيَ عَهدُ اللهِ؛ فأرسَلْناك -يا محمَّدُ- رسولًا للنَّاسِ.

وما كنتَ -يا محمَّدُ- مُقيمًا في أهلِ مَدْيَنَ؛ فتقرأَ على أهلِ مكَّةَ خَبرَهم وما وقَعَ لهم مع موسى، ولكِنَّا أرسَلْناك وأنزَلْنا عليك هذه الأخبارَ في القرآنِ، ولولا ذلك لَمَا عَلِمْتَها.

وما كنتَ -يا محمَّدُ- بجانِبِ الجبَلِ حينَ كلَّمْنا موسى وأوحَيْنا إليه، ولكنَّا أوحَيْنا إليك ما جرى؛ رحمةً منَّا، لتُحَذِّرَ قومَك الَّذين لم يأتِهم رَسولٌ مِن قَبْلِك؛ لِيَتذَكَّروا ويُنيبوا إلى اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى ما آلَ إليه فِرعونُ وقَومُه مِن غَضَبِ اللهِ عليهم، وإغراقِه لهم؛ ذَكَرَ ما امتَنَّ به على رَسولِه موسى عليه السَّلامُ[1].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ مِن بَعدِ ما أهلَكْنا بعذابِ الاستِئصالِ الأُمَمَ الماضيةَ الَّتي كذَّبتْ رُسُلَها؛ كقَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وغيرِهم[2].

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: آتَيْنا موسى التَّوراةَ ضِياءً لبني إسرائيلَ يُبصِرون به ما ينفَعُهم، وهُدًى إلى الحَقِّ مِن الضَّلالةِ، ورَحمةً لهم؛ لِيَتذكَّروا ويَتَّعِظوا[3].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه في هذه السُّورةِ مِن غرائبِ أمرِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وخَفيِّ أحوالِه ما بَيَّنَ، وكانت هذه الأخبارُ لا يَقدِرُ أهلُ الكتابِ على إنكارِها نوعًا مِن الإنكارِ، وكان مِنَ المشهورِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَعرِفْها ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ١٠٠، ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

سِواها مِن غيرِ الواحدِ القهَّارِ؛ أشار إلى ذلك سُبحانَه بقَولِه[1]:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾.

أي: وما كنتَ حاضِرًا -يا محمَّدُ- في المكانِ[2] الَّذي كلَّمْنا فيه موسى وأوحَيْنا إليه[3].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٢).

(٢) قال أبو حيَّان: (﴿بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾: مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه عندَ قَومٍ، ومِن حذفِ المَوصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مقامَه عندَ قومٍ. فعلى القَولِ الأوَّلِ أصْلُه: بالجانبِ الغربيِّ، وعلى الثَّاني أصْلُه: بجانبِ المكانِ الغربيِّ، والتَّرجيحُ بيْنَ القولَينِ مذكورٌ في النَّحو. و﴿ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ قال قَتادةُ: غَرْبيِّ الجبَلِ. وقال الحسَنُ: بعَثَ اللهُ موسى بالغَرب. وقال أبو عُبَيدةَ: حيثُ تَغرُبُ الشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ. وقيل: هنا جبلٌ غربيٌّ. وقيل: الغَربيِّ مِنَ الوادي. وقيل: مِنَ البحرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٨).

ممَّن اختار أنَّه مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه، والمرادُ: الجانبُ الغَربيُّ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: بجانبِ غَربيِّ الجبلِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٥١).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بجانبِ الجبلِ الغربيِّ، فيكونُ مِن حذفِ المَوصوفِ وإقامةِ صفتِه قيامَه: الزَّجَّاجُ، والرسعنيُّ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠).

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾.

أي: وما كُنتَ مُشاهِدًا بعينيك تفاصيلَ ما جرَى هنالِك(١).

﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥﴾.

﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾.

أي: ولكنَّا خلَقْنا أُمَمًا مِن بَعدِ موسى، فطالت مدَّةُ انقِطاعِ الوَحيِ، فنُسيَ عَهدُ الله، وتُرِك أمْرُه، واندرَس العِلمُ؛ فأرسَلْنا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِنَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَى العِلمَ بتفاصيلِ ما جرَى بطريقِ الشُّهودِ؛ نفَى سببَ العلمِ بذلك(٣)، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).

قال القرطبي: (﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ أي: من بَعدِ موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ حتَّى نَسُوا ذِكرَ الله، أي: عهْدَه وأمْرَه. نظيرُه: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحديد: ١٦]. وظاهرُ هذا يوجِبُ أن يكونَ جرى لِنَبيِّنا عليه السَّلامُ ذِكرٌ في ذلك الوقتِ، وأنَّ اللهَ سيَبعَثُه، ولكنْ طالَتِ المُدَّةُ، وغلَبَت القَسْوةُ، فنسيَ القَومُ ذلك. وقيل: آتَيْنا موسى الكِتابَ، وأخَذْنا على قومِه العُهودَ، ثمَّ تَطاوَلَ العهدُ فكفروا، فأرسَلْنا محمَّدًا مجَدِّدًا للدِّينِ، وداعيًا الخَلْقَ إليه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٤).

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾.

أي: وما كُنتَ -يا محمَّدُ- مقيمًا ومُستقِرًّا زمنًا طويلًا في أهلِ مَدْيَنَ؛ فتقرأَ على أهلِ مكَّةَ خبَرَ ما وقعَ مِن شأنِ موسى في مَدْيَنَ(١).

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾.

أي: لم يقَعْ ذلك، ولكِنَّا أرسَلْناك وأوحَيْنا إليك في القُرآنِ بتلك الأخبارِ الماضيةِ(٢).

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾.

أي: وما كُنتَ -يا محمَّدُ- بجانِبِ الجَبَلِ حينَ كلَّمْنا موسى وأوحَيْنا إليه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

قيل: النِّداءُ المذكورُ لموسى في هذه الآيةِ وقَع حينَ ناداه الله لِميقاتِ الأربعينَ لَيلةً وأنزَل إليه الألواحَ، وهو غيرُ النِّداءِ الأوَّلِ حينَ أوحى إليه في ابتِداءِ الأمرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٨).

قال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ أي: كما لم تحضُرْ جانِبَ المكانِ =

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: ما كُنتَ حاضِرًا بجانِبِ الطُّورِ، ولكِنَّا أوحَيْنا إليك ما جرى؛ رحمةً منَّا بك وبالعِبادِ(١).

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ نبيَّه محمَّدًا عليه السَّلامُ لم يكُنْ في تلك الأحوالِ حاضرًا؛ بَيَّنَ تعالى أنَّه بَعَثه وعَرَّفه هذه الأحوالَ؛ رحمةً للعالَمينَ، ثمَّ فَسَّرَ تلك الرَّحمة بأنْ قال(٢):

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

أي: لتُحذِّرَ العَرَبَ الَّذينَ لم يأتِهم رَسولٌ مِن قَبْلِك، مِن الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ(٣).

= الغربيِّ إذْ أرسَل اللهُ موسَى إلى فِرعونَ، فكذلك لم تحضُرْ جانبَ الطُّورِ إذْ نادَيْنا موسى لَمَّا أتى الميقاتَ مع السَّبعينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢).

وقال ابنُ كثير في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾: (هذا -واللهُ أعلمُ- أشبَهُ بقوله تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾. ثُمَّ أخبَر هاهنا بصيغةٍ أُخرَى أخَصَّ مِن ذلك، وهو النِّداءُ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشُّعراء: ١٠]، وقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النَّازعات: ١٦]، وقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

كما قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ٢، ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس: ٦].

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: لِيَتذكَّروا خطَأَ ما هم عليه مِن الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ، ويتَّعِظوا ويُنيبوا إلى اللهِ؛ فيُطيعوه ويَعبُدوه وَحْدَه لا شريكَ له[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا ذهبَ إلى فِرعَونَ لم تكُنِ التَّوراةُ قد نَزَلتْ، وإنَّما أُنزلتِ التَّوراةُ بعد أنْ غَرِقَ فِرعَونُ، وخَلَصَ موسى عليه السلامُ ببني إسرائيلَ، فاحتاجوا إلى شريعةٍ يَعمَلونَ بها[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ هذا دَليلٌ على أنَّه بعدَ نزولِ التَّوراةِ انقطعَ الهلاكُ العامُّ، وشُرِعَ جهادُ الكُفَّارِ بالسَّيفِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١) و (٥/ ٤٧٥، ٤٧٦) و (٦/ ٢٣٩، ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنَّ الكتبَ النَّازِلةَ مِن السَّماءِ أنوارٌ للنَّاسِ يَهتَدونَ بها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾[1].

٤- في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وكذلك في شرائعِه؛ لأنَّ «لعل» معناها التَّعليلُ، والَّذين أنكَروا الحكمةَ هم الجَهْميَّةُ؛ حيثُ يقولون: إنَّ اللهَ تعالى ليست له حِكمةٌ فيما يَفعلُ وما يَشاءُ؛ وإنَّما هو لِمُجَرَّدِ المشيئةِ[2]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يُقبَلُ خبرُه إلَّا إذا كان حاضِرًا يَسمَعُ، أو شاهِدًا يَرى؛ لِقَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ فإنَّ الذي يمكِنُ أنْ يُخبِرَ هو مَن حَضَرَ فسَمِعَ، أو مَن قَرُبَ فشاهَدَ، أمَّا الإخبارُ دُونَ شهادةٍ، أو شهودٍ أو حُضورٍ؛ فمثلُ هذا لا يُقبَلُ، وهذا أمرٌ معلومٌ مِن الشَّرعِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ دَلالةٌ على رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ حيثُ أخبرَ بذلك تفصيلًا مُطابِقًا، وتأصيلًا مُوافِقًا؛ قَصَّه قصًّا صَدَّقَ به المرسَلينَ، وأيَّدَ به الحقَّ المُبينَ، مِن غيرِ حضورِ شَيءٍ مِن تلك الوَقائعِ، ولا مُشاهَدةٍ لموضِعٍ واحدٍ من

= قال ابنُ عثيمين: (استنبَط بعضُ العلماءِ مِن قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنَّه لم تهلِكْ أُمَّةٌ على العُمومِ بعدَ نزولِ التَّوراةِ... وهذا الاستنباطُ ليس ببعيدٍ؛ لأنَّ الواقعَ يُصَدِّقُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).

تلك المَواضِع، ولا تلاوةِ دَرسٍ فيها شَيءٌ مِن هذه الأمورِ، ولا مُجالَسةِ أحدٍ مِن أهلِ العلمِ، إنْ هو إلَّا رسالةُ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، ووحْيٌ أنزلَه عليه الكريمُ المنَّانُ؛ لِيُنذِرَ به قومًا جاهلينَ، وعن النُّذُرِ والرُّسُلِ غافِلينَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أنَّ الوحْيَ يُسمَّى قضاءً[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ذِكرُ إهلاكِ القُرونِ الأُولى إدماجٌ[٣] للنَّذارةِ في ضِمنِ الاستِدلالِ. وجُملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ تَخلُّصٌ مِن قصَّةِ بَعثةِ موسى عليه السَّلامُ إلى تأييدِ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ثُمَّ إنَّ القُرآنَ أعرَضَ عن بَيانِ حِكمةِ الفِتَرِ الَّتي تَسبِقُ إرسالَ الرُّسلِ، واقتَصَر على بيانِ الحِكمةِ في الإرسالِ عَقِبَها؛ لأنَّه المُهِمُّ في مَقامِ نَقْضِ حُجَّةِ المُبطِلينَ للرِّسالةِ، أو اكتِفاءً بأنَّ ذلك أمْرٌ واقعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). ويُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لِمعنًى -من مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجَت المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

لا يُستطاعُ إنكارُه، وهو المقصودُ هنا(١).

- وإنَّما أَوقعَ ﴿بَصَآئِرَ﴾ حالًا مِنَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لِيُؤْذِنَ بشِدَّةِ احتياجِ القَومِ إلى ما تُفتَحُ به قُلوبُهمُ العَمياءُ، وإنَّما أردَفَها بقَولِه: ﴿وَهُدًى﴾؛ لِيُنبِّهَ على أنَّهم كانوا يَخبِطونَ في ضَلالٍ، وعَقَّبَهما بقولِه: ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ لِيُناديَ بأنَّهم كانوا بُعَداءَ مِن رحمةِ اللهِ، وما عَمِلوا بمُقتضَى الكِتابِ؛ لأنَّهم لو عَمِلوا به لوَصَلوا إلى رحمةِ اللهِ؛ فألفاظُ الآيةِ كلُّها تعريضاتٌ باليهودِ، ودَلَّ على مكانِ التَّعريضِ قَولُه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بلامِ القَسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزلةَ المُنكِرينَ لوُقوعِ ذلك، حتَّى يُحتاجَ معهم إلى التَّأكيدِ بالقسَمِ، فمَوقعُ التَّأكيدِ هو قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾(٣).

- والتَّعرُّضُ لبَيانِ كَونِ إيتاءِ التَّوراةِ بعْدَ إهلاكِ القُرونِ الأُولى؛ للإشعارِ بمساسِ الحاجةِ الدَّاعيةِ إليه؛ تمهيدًا لما يَعقُبُه مِن بيانِ الحاجةِ الدَّاعيةِ إلى إنزالِ القُرآنِ الكريمِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ إهلاكَ القُرونِ الأُولَى مِن مُوجِباتِ اندراسِ مَعالمِ الشَّرائعِ، وانطِماسِ آثارِها وأحكامِها، المؤدِّيَينِ إلى اختلالِ نظامِ العالَمِ، وفَسادِ أحوالِ الأُمَمِ، المُستدعِيَينِ للتَّشريعِ الجديدِ بتقريرِ الأُصولِ الباقيةِ على مَرِّ الدُّهورِ، وترتيبِ الفروعِ المُتبدِّلةِ بتَبدُّلِ العُصورِ، وتَذكيرِ أحوالِ الأُممِ الخاليةِ الموجِبةِ للاعتبارِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٨، ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٦، ٤١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

كأنَّه قيلَ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ على حينِ حاجةٍ إلى إيتائِها[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لَمَّا بَطَلَتْ شُبهتُهم الَّتي حاوَلوا بها إحالةَ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، نَقَل الكلامَ إلى إثباتِ رِسالتِه بالحُجَّةِ الدَّامِغةِ، وذلك بما أعلَمَه اللهُ به مِن أخبارِ رِسالةِ موسى عليه السَّلامُ، ممَّا لا قِبَلَ له بعِلمِه، لولا أنَّ ذلك وَحْيٌ إليه مِنَ اللهِ تعالى؛ فهذا تَخلُّصٌ مِنَ الاعتِبارِ بدَلالةِ الالتِزامِ في قِصَّةِ موسى إلى الصَّريحِ مِن إثباتِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أعجَبُ احتِراسٍ وقَع في القرآنِ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال حكايةً عن موسى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، فلمَّا نفى سُبحانَه عن رسولِه أن يكونَ بالمكانِ الَّذي قضى لموسى فيه الأمرَ عرَّف المكانَ بالغربيِّ، ولم يقُلْ في هذا الموضعِ: الأيمَن، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]؛ أدبًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَنفيَ عنه كَوْنَه بالجانبِ الأيمَنِ، أو يَسلُبَ عنه لَفْظًا مُشتَقًّا مِنَ اليُمنِ أو مُشارِكًا لِمادَّتِه، ولَمَّا أخبَر عن موسى عليه السَّلامُ ذكَرَ الجانبَ الأيمَنَ؛ تشريفًا لموسى، فراعى في المَقامَينِ حُسْنَ الأدَبِ معهما؛ تعليمًا للأُمَّةِ، وهو أصلٌ عظيمٌ في الأدبِ في الخِطابِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شُروعٌ في بيانِ أنَّ إنزالَ القرآنِ الكريمِ أيضًا واقعٌ في زمانِ شدَّةِ مساسِ الحاجةِ إليه، واقتِضاءِ الحِكمةِ له البَتَّةَ. وقد

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٦).

صُدِّرَ بتحقيقِ كَونِه وَحْيًا صادقًا مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ببيانِ أنَّ الوُقوفَ على ما فُصِّل مِنَ الأحوالِ لا يَتسنَّى إلَّا بالمُشاهَدةِ أو التَّعلُّمِ ممَّن شاهَدَها، وحيثُ انتَفَى كِلاهُما تَبيَّنَ أنَّه بوَحْيٍ مِن علامِ الغُيوبِ لا مَحالةَ، على طريقةِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ...﴾ الآيةَ[1] [آل عمران: ٤٤].

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ بدَأَ أوَّلًا بنَفْيِ شَيءٍ خاصٍّ، وهو أنَّه لم يَحضُرْ وقْتَ قَضاءِ اللهِ لموسى الأمرَ، ثمَّ ثَنَّى بكَونِه لم يكُنْ مِنَ الشَّاهِدينَ، أي: مِنَ الشَّاهِدينَ بجَميعِ ما أعلَمْناك به؛ فهو نفْيٌ لشَهادتِه جَميعَ ما جرَى لموسى؛ فكان عُمومًا بعْدَ خُصوصٍ[2].

وقيل: إنَّما قال: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ لأنَّ مَن كان في الجانبِ قد يَرى، وقد لا يَرى، فإذا قال قائلٌ: لماذا لم يُقتصَرْ على قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؟

الجوابُ: لأنَّ الإنسانَ قد يُشاهِدُ مِن بُعْدٍ ولكنْ قليلٌ، فهنا تضمَّنَ أنه قريبٌ، وأنَّه شاهدٌ، ففَرْقٌ بيْنَ أنْ نقولَ: ما كنتَ شاهدًا، أي: ما كنتَ حاضرًا مُشاهدًا بعينِك -ولو كنتَ بعيدًا-، ولهذا ليس في الآيةِ الكريمةِ تكرارٌ؛ ولكنْ فيها شَيءٌ مِن التَّوكيدِ، يعني: لا حَضَرَ، ولا نَظَرَ، فيكونُ ما أخبَرَ به عن ذلك مِن بابِ الوحْيِ، لا مِن بابِ المشاهَدةِ، ولا مِن بابِ السَّماعِ؛ ولكنَّه وحْيٌ أُوحيَ إليه[3].

- قَولُه: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ فسمَّى اللهُ تعالى الوحيَ «الأمر» بـ «ال» الدَّالةِ على العظَمةِ والكمالِ، ولا ريبَ أنَّ أعظَمَ الأمورِ ما جاءتْ به الرُّسلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

مِن وحْيِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لِمَا فيه مِن مصلحةِ البلادِ والعبادِ[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ خَفيَ اتِّصالُ هذا الاستِدراكِ بالكلامِ الَّذي قَبْلَه، وكيف يَكونُ استِدراكًا وتعقيبًا للكلامِ الأوَّلِ برفْعِ ما يُتوهَّمُ ثُبوتُه؟ فبيانُه أنَّ قولَه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ مَسوقٌ مَساقَ إبطالِ تَعجُّبِ المُشركينَ مِن رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ لم يَسبِقْها رِسالةُ رَسولٍ إلى آبائِهمُ الأوَّلينَ، فذَكَّرَهم بأنَّ اللهَ أرسَلَ موسى كذلك بعْدَ فَترةٍ عظيمةٍ، وأنَّ الَّذينَ أُرسِلَ إليهم موسى أثارُوا مِثلَ هذه الشُّبهةِ، فقالوا: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) [القصص: ٣٦]، فكما كانتْ رِسالةُ مُوسى عليه السَّلامُ بعْدَ فَترةٍ مِنَ الرُّسلِ، كذلك كانت رسالةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالمعنَى: فكان المُشركونَ حَقيقِينَ بأنْ يُنَظِّروا رسالةَ محمَّدٍ برسالةِ موسى. ولكنَّ اللهَ أَنشأَ قُرونًا -أي: أُمَمًا- بيْنَ زمَنِ موسى وزمَنِهم، فتَطاوَلَ الزَّمَنُ، فنَسيَ المُشركونَ رسالةَ موسى، فقالوا: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [ص: ٧]. وحُذِف بقيَّةُ الدَّليلِ، وهو تقديرُ: فنَسُوا؛ للإيجازِ؛ لظُهورِه مِن قَولِه: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾، كما قال تعالى عن اليَهودِ حينَ صارُوا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال عن النَّصارَى: ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤]، وقال لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحديد: ١٦]، فضَميرُ الجَمعِ في قَولِه: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ عائدٌ إلى المُشركينَ، لا إلى القُرونِ. فتبيَّنَ أنَّ الاستِدراكَ مُتَّصِلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٤).

بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]، وأنَّ ما بيْنَ ذلك وبيْنَ هذا استِطرادٌ. وهذا أحسَنُ في بيانِ اتِّصالِ الاستِدراكِ، وهو بهذا مُخالِفٌ لمَوقعِ الاستِدراكَينِ الآتِيَينِ بعْدَه؛ مِن قَولِه: ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقولِه: ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1] [القصص: ٤٦].

- وقيلَ: اتَّصَلَ هذا الاستِدراكُ بالكلامِ قَبْلَه؛ لأنَّه ليس الاعتِبارُ بصُورةِ النَّفيِ والإثباتِ، وإنَّما المُعتبَرُ المعنَى؛ فإنَّه تعالى لَمَّا نفَى عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلًا كَوْنَه بجانبِ الغَربيِّ، وكَوْنَه مُشاهِدًا لِلوَحيِ إلى موسى عليه السَّلامُ وقَضاءِ الأمرِ له؛ مِنَ المُكالَمةِ وكِتْبةِ التَّوراةِ وغَيرِهما، والمرادُ نفْيُ عِلمِه بذلك- أثبَتَ له العِلمَ ثانيًا بتِلك القِصَّةِ وبسائرِ قِصَصِ الأنبياءِ؛ فكأنَّه قيل: ما كنتَ داريًا بذلك بطريقٍ مِن طُرُقِ العِلمِ؛ لكنْ جعَلْناك داريًا بطريقِ الوَحيِ، بأنْ أرسَلْناك أحْوَجَ ما يكونُ النَّاسُ إلى إرسالِك؛ لفُتورِ الوَحيِ مدَّةً مُتطاوِلةً؛ فوُضِع قَولُه: ﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ مَوضِعَ: (أرسَلْناك وكَسَبْنا لك العِلمَ)؛ وَضْعًا للسَّببِ مَوضعَ المُسبَّبِ؛ لأنَّ إطالةَ فَترةِ الوَحيِ واندِراسِ العُلومِ سببٌ لإرسالِ الرُّسُلِ وكَسْبِهِمُ العُلومَ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ تكريرٌ للدَّليلِ بمثَلٍ آخَرَ، مِثلُ ما في قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾[3] [القصص: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠، ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٧)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣١).

- وعُدِل عن أن يُقالَ: (ولكنَّا أوحَيْنا بذلك)، إلى قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾؛ لأنَّ المَقصَدَ الأهمَّ هو إثباتُ وُقوعِ الرِّسالةِ مِنَ اللهِ للرَّدِّ على المُشركينَ في قَولِهم وقَولِ أمثالِهم: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) [القصص: ٣٦]. وتُعلَمُ رسالةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بدَلالةِ الالتِزامِ[(١)] مع ما يأتي مِن قَولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ [القصص: ٤٦] الآيةَ، فالاحتِجاجُ والتَّحدِّي في هذه الآيةِ والآيةِ الَّتي قَبْلَها تَحَدٍّ بما عَلِمَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن خبَرِ القِصَّةِ الماضيةِ[(٢)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ جانبُ الطُّورِ: هو جانبُ الغَربيِّ -وذلك على قولٍ-، وهو الجانبُ الأيمَنُ المُتقدِّمُ وصْفُه بذَيْنِكَ الوَصفَينِ؛ فعُرِّيَ هنا عنِ الوَصفِ؛ لأنَّه صار معروفًا. وحُذِف مفعولُ النِّداءِ؛ لظُهورِ أنَّه نداءُ موسى مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[(٣)].

- والاستِدراكُ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ ناشئٌ عن دَلالةِ قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، على معنَى: ما كان عِلمُك بذلك لحُضورِكَ، ولكنْ كان عِلمُك ﴿رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ فانتِصابُ ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ مؤْذِنٌ بأنَّه مَعمولٌ لعامِلِ نَصبٍ مأخوذٍ من سِياقِ الكلامِ: إمَّا على تَقديرِ كَونٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه نَفْيُ الكَونِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، والتَّقديرُ: ولكنْ كان عِلمُك رحمةً مِنَّا، وإمَّا على المفعولِ المُطْلَقِ

(١) دلالةُ الالتزامِ: هي دلالةُ اللفظِ على لازمِه، كدلالةِ الأسدِ على الشجاعةِ. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢، ١٣٣).

الآتي بدَلًا مِن فِعلِه، والتَّقديرُ: ولكنْ رَحِمْناك رَحمةً بأنْ عَلَّمْناك ذلك بالوَحيِ رحمةً؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا﴾. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿رَّحۡمَةً﴾ منصوبًا على المفعولِ لأجْلِه، معمولًا لفِعلِ ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿لِتُنذِرَ﴾ مُتعلِّقًا بكَوْنٍ مَحذوفٍ هو مَصَبُّ الاستِدراكِ. وفي هذه التَّقاديرِ توفيرُ مَعانٍ، وذلك مِن بليغِ الإيجازِ(١). وقد اكتُفيَ عن ذِكرِ المُستدرَكِ هاهنا بذِكْرِ ما يوجِبُه مِن جِهَتِه تعالى، كما اكتُفيَ عنه في الأوَّلِ بذِكرِ ما يُوجِبُه مِن جِهةِ النَّاسِ، وصُرِّح به فيما بيْنَهما؛ تَنصيصًا على ما هو المقصودُ، وإشعارًا بأنَّه المرادُ فيهما أيضًا. ولله دَرُّ شأنِ التَّنزيلِ(٢).

- والالتِفاتُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إلى اسمِ الرَّبِّ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الرَّحمةِ، وتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإضافةِ(٣).

- وعُدِل عن: (رحمةً مِنَّا)، إلى ﴿رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بالإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِما يُشعِرُ به معنَى الرَّبِّ المُضافِ إلى ضميرِ المُخاطَبِ مِنَ العنايةِ به عنايةَ الرَّبِّ بالمَربوبِ(٤).

- قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ القَومُ: قُرَيشٌ والعرَبُ؛ فهُمُ المُخاطَبونَ ابتِداءً بالدِّينِ، وكُلُّهم لم يأتِهم نَذيرٌ قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّما اقتُصِر على قُرَيشٍ أو على العرَبِ دُونَ سائرِ الأُمَمِ الَّتي بُعِث إليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ المِنَّةَ عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

أَوْفَى؛ إذْ لم تَسبِقْ لهم شَريعةٌ مِن قَبْلُ، فكان نِظامُهم مُختَلًّا غَيرَ مَشوبٍ بأَثارةٍ مِن شَريعةٍ مَعصومةٍ؛ فكانوا في ضرورةٍ إلى إرسالِ نذيرٍ، وللتَّعريضِ بكُفرانِهم هذه النِّعمةَ[1].

- وتغييرُ التَّرتيبِ الوُقوعيِّ بيْن قَضاءِ الأمرِ والثَّواءِ في أَهْلِ مَدْيَنَ والنِّداءِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كُلًّا مِن ذلك بُرهانٌ مُستقِلٌّ على أنَّ حكايتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للقصَّةِ بطريقِ الوَحيِ الإلهيِّ. ولو ذُكِر أوَّلًا نَفْيُ ثَوائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهلِ مَدْيَنَ، ثمَّ نَفْيُ حُضورِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَ النِّداءِ، ثمَّ نفْيُ حُضورِه عِندَ قضاءِ الأمرِ -كما هو الموافِقُ للتَّرتيبِ الوُقوعيِّ- لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ الكُلَّ دليلٌ واحدٌ على ما ذُكِرَ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦، ١٧).

الآيات (٤٧-٥٠)

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ
تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَظَٰهَرَا﴾: أي: تَعاوَنا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ سبحانه مُبطِلًا ما يَتعلَّلُ به المُشرِكون من معاذيرَ: ولولا أن يُعذِّبَ اللهُ مُشرِكي قُرَيشٍ بسَبَبِ كُفرِهم، فيقولوا: ربَّنا هلَّا أرسلْتَ إلينا رَسولًا قبْلَ أن تعذِّبَنا؛ فنتَّبِعَ آياتِك ونكونَ مِنَ الموحِّدينَ المؤمِنينَ- لَعاجَلْناهم بالعذابِ، فلمَّا جاءهم القرآنُ مِن عندِنا قالوا: هلَّا أُوتيَ محمَّدٌ القرآنَ جُملةً واحِدةً كما أُوتيَ موسى التَّوراةَ دَفعةً واحِدةً، وهلَّا أُوتيَ مُعجِزاتٍ كالَّتي أُوتيَها موسى؟! أوَلَمْ يَكفُروا بالتَّوراةِ والمُعجِزاتِ الَّتي آتاها اللهُ موسى مِن قَبْلُ؟! قالوا: التَّوراةُ والقرآنُ سِحْرانِ تَعاوَنا وتَناصَرَا على إضلالِ النَّاسِ بسِحْرِهما، وصدَّق كلٌّ منهما الآخَرَ، وقالوا: إنَّا بكُلٍّ مِنَ التَّوراةِ والقُرآنِ كافِرونَ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

قُلْ -يا محمَّدُ- لكفَّارِ قُرَيشٍ: فهاتوا إذَنْ كتابًا مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ هو أهدى للحَقِّ منهما؛ فأعمَلَ به، إنْ كنتُم صادقينَ في دَعْواكم.

فإنْ لم يَستَجيبوا لك ويتَّبِعوا الحَقَّ، فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّهم يتَّبِعونَ أهواءَهم، ولا أحَدَ أضَلُّ عن الحَقِّ ممَّن اتَّبَع هَوى نفْسِه وترَكَ هُدى اللهِ، إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الظَّالمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان انتفاءُ إنذارِهم قَبْلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نافيًا للحُجَّةِ في عذابِهم بما أوجبَه اللهُ -وله الحُجَّةُ البالِغةُ، لا يُسألُ عمَّا يَفعَلُ- على نَفْسِه الشَّريفةِ؛ فَضلًا منه ورحمةً؛ ذَكَر أنَّ إرسالَه ممَّا لا بُدَّ منه لذلك، فقال[1]:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾.

أي: ولولا أن يُعذِّبَ اللهُ مُشرِكي قُرَيشٍ بسَبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم قبْلَ إرسالِك -يا محمَّدُ-، فيقولوا محتَجِّينَ: يا رَبَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رَسولًا قبْلَ أن تعذِّبَنا؛ فنتَّبِعَ آياتِ القُرآنِ، ونَكونَ مِنَ الموحِّدينَ المُؤمِنينَ بك وبرَسولِك- لَعاجَلْناهم بالعذابِ، ولَكِنَّا أقَمْنا الحُجَّةَ عليهم بإرسالِك إليهم[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عنهم أنَّهم عندَ الخَوفِ قالوا: «هلا أرسلْتَ إلينا رَسولًا فنتَّبعَ آياتِك»؛ بَيَّنَ أيضًا أنَّه بعْدَ الإرسالِ إلى أهلِ مكَّةَ ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾، فهؤلاء قبْلَ البَعثةِ يَتعَلَّقون بشُبهةٍ، وبعدَ البَعثةِ يَتعلَّقونَ بأُخرى؛ فظهَرَ أنَّه لا مَقصودَ لهم سِوى الزَّيغِ والعِنادِ[1].

وأيضًا لَمَّا بَهرَتْهم آياتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لم يَجِدوا من المعاذيرِ إلَّا ما لَقَّنهم اليَهودُ؛ وهو أن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾[2].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾.

أي: فلمَّا جاء كُفَّارَ قُريشٍ القُرآنُ الَّذي أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه

= (٦/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٧).

وسلَّمَ، قالوا: هلَّا أُوتيَ مُحمَّدٌ القُرآنَ جُملةً واحِدةً، كما أُوتيَ موسى التَّوراةَ دَفعةً واحِدةً، وهلَّا أُوتيَ مُعجِزاتٍ كالَّتي أُوتِيَها موسى؛ مِثلُ العصا الَّتي تَنقَلِبُ حَيَّةً، واليَدِ الَّتي تَخرُجُ بَيضاءَ[1]!

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾.

أي: أوَلَمْ يَكفُرْ كُفَّارُ قُرَيش بالتَّوراةِ والمُعجِزاتِ الَّتي آتاها اللهُ موسى مِن قَبْلِ بَعثةِ مُحمَّدٍ؟! فكيف يَطلُبونَ مِن مُحمَّدٍ مِثلَ ما أُوتيَ موسى[2]؟!

﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢٧-٢٢٩).

قال ابن عثيمين: (والحقُّ بمعنى: الشَّيءِ الثَّابتِ، وهو بالنِّسبةِ للأخبارِ: الصِّدقُ، وبالنِّسبة للأحكامِ: العدلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٥).

ممَّن قال بأنَّ الضميرَ هنا عائدٌ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: الواحديُّ، والسمعانيُّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على اليهودِ في زمَنِ النَّبيِّ، أي: أوَلَمْ يكفُرِ اليَهودُ بما أُوتيَ موسى مِن قَبْلِك، فلَمْ يُؤمِنوا بها؟ وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٠).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على اليهودِ في زمَنِ موسى. وممَّن قال بهذا القولِ: الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٧).

وقال البقاعي: (﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ أي: العَرَبُ ومَن بلغَتْهم الدَّعوةُ مِن بني إسرائيلَ، أو مَن شاء اللهُ منهم، أو أبناءُ جِنسِهم ومَن كان مِثلَهم في البَشَريَّةِ والعَقلِ في زمنِ موسى عليه السَّلامُ ﴿بِمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٠٩).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿سِحْرَانِ﴾ على معنى: أنَّهم يَقصِدون التَّوراةَ والقُرآنَ[١].

٢- قِراءةُ ﴿سَاحِرَانِ﴾ على معنى: أنَّهم يَقصِدونَ موسى ومحمَّدًا، وقيل: موسى وهارونَ. عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾.

أي: قال كُفَّارُ قُرَيش: التَّوراةُ والقُرآنُ سِحرانِ تَعاوَنَا وتَناصَرَا على إضلالِ النَّاسِ بسِحْرِهما، وصدَّق كُلٌّ منهما الآخَرَ[٣].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَضَمَّنَ قولُهم ذلك الكُفرَ؛ صَرَّحوا به[٤].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) قرأ بها عاصم، وحمزة، والكِسائي، وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤١، ٣٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٠).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّا بكُلٍّ مِنَ التَّوراةِ والقُرآنِ كافِرونَ لا نُؤمِنُ بهما[١].

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أجاب اللهُ تعالى عن شُبَهِهم؛ ذَكَر الحُجَّةَ الدَّالَّةَ على صِدقِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال[٢]:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قُرَيشٍ: فهاتُوا إذَن كِتابًا مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ أكثَرَ هِدايةً للحَقِّ منهما؛ فأعمَلَ به[٣].

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: إنْ كُنتُم صادقينَ في دَعْواكم أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ، وأنَّ الحقَّ في غَيرِهما[٤]!

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٥).
وذهب ابنُ جرير إلى أنَّ المعنى: وقالت اليهودُ: إنَّا بكُلِّ كِتابٍ في الأرضِ -مِن توراةٍ، وإنجيلٍ، وزَبورٍ، وفُرقانٍ- كافِرونَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٠). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٢٠٠).

هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

أي: فإنْ لم يأتِ الزَّاعِمونَ أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ بكتابٍ أهدَى منهما، ويتَّبِعوا الحَقَّ؛ فاعلَمْ -يا مُحمَّدُ- أنَّهم يُؤْثِرونَ أهواءَهم وما تستَحسِنُه نفوسُهم ويُحَبِّبُه لهم الشَّيطانُ، ولا يتَّبِعونَ الحَقَّ، ولا حُجَّةَ لهم على ما يَزعُمونَ مِن الكَذِبِ والباطِلِ(١).

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا أحَدَ أضَلُّ عن الحَقِّ ممَّن اتَّبَع هوى نفْسِه، وتَرَكَ الهُدى بغيرِ بَيانٍ وحُجَّةٍ مِن عندِ اللهِ(٢).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ والهُدى القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم وغَيرَهم، وصار ذلك وَصفًا لازِمًا لهم، ومِن جُملةِ ذلك الانهِماكُ في مُتابعةِ الهوى(٣).

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالظَّالمينَ: الكامِلونَ في الظُّلْمِ، وهو ظُلْمُ الأنفُسِ وظُلمُ النَّاسِ، وأعظَمُه الإشراكُ وإتيانُ الفَواحشِ والعُدوانُ... وهم مع ذلك مُتفاوِتونَ في انتفاءِ هُدى اللهِ عنهم على تَفاوُتِهم في التَّصلُّبِ في ظُلمِهم، فقد يَستمِرُّ أحدُهم زمانًا على ضَلالِه ثمَّ يُقدِّرُ اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أنَّه ينبغي في مَقامِ المُناظَرةِ والمُجادَلةِ أنْ يُفحَمَ الخَصمُ بإبطالِ قَولِه بقَولِه أو بفِعلِه، فيُبطَلُ قَولُه بما جرى منه هو؛ لأنَّ ما جرى منه لا يُمكِنُ أنْ يُنكِرَه، ولو أنكَرَه ما قُبِلَ؛ فكَونُنا نقيمُ الحُجَّةَ على الخَصمِ مِن فِعلِه وقَولِه- هذا أبلغُ في إفحامِه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أنَّه ينبغي عندَ المناظرةِ إبطالُ قَولِ الخَصمِ بالأمرِ الواقعِ؛ فإنَّ الآياتِ الَّتي جاء بها موسى وأبطَلَها هؤلاء: كُذِّبَتْ وما آمنَ بها البشرُ، إذَنْ فالمدارُ ليس على جِنسِ الآياتِ، ولكنَّ المدارَ على حالِ المخاطَبِ، وإلَّا فالآياتُ قائِمةٌ بيِّنةٌ، لكنْ ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2] [يونس: ١٠١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا﴾ طَمْأنةُ أتْباعِ الرُّسُلِ، وتَثبيتُهم على أنَّهم سيَنالُهم مِن ألقابِ السُّوءِ ومِن المُعاداةِ مِثلُ ما نال الرُّسلَ؛ فعليهم أن يُقابِلوا ذلك بالصَّبرِ والثَّباتِ والقوَّةِ، لا أنْ يُخذَلوا، بل عليهم أنْ يكونوا كما كان مَتبوعُهم الَّذي أمَرَه اللهُ قائلًا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل

= له الهدى... ولأجْلِ هذا التَّفاوُتِ في قابليَّةِ الإقلاعِ عن الضَّلالِ استمَرَّتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم للإيمانِ في عُمومِ المَدْعوِّينَ؛ إذْ لا يَعلَمُ إلَّا اللهُ مَدى تَفاوُتِ النَّاسِ في الاستِعدادِ لقَبولِ الهُدى، فالهُدى المَنْفيُّ عن أن يَتعلَّقَ بهم هنا هو الهدى التَّكوينيُّ، وأمَّا الهُدى بمعنى الإرشادِ فهو مِن عُمومِ الدَّعوةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾[(١)] [الأحقاف: ٣٥].

٤- في قَوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّه مِن العَدلِ التَّنزُّلُ مع الخَصمِ إلى حالٍ يُقِرُّ بها؛ فإنَّه مِن المعلومِ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَعلَمُ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يأتوا بما طُلِبَ منهم، وذلك حينَ طُلِبَ منهم أنْ يأتوا بكتابٍ أهدَى مِن التَّوراةِ والقرآنِ، أي: أنتم ائْتُوا بكتابٍ أهدَى مِن التَّوراةِ والقرآنِ وأنا ألتَزِمُ باتِّباعِه، فإذا لم يأتوا فمعناه: ألزِمْهم أن يَتَّبِعوا التَّوراةَ والقرآنَ[(٢)].

٥- عدمُ مجادَلةِ المتَّبِعِ هواه المُكابِرِ؛ فليس هناك سبيلٌ لإقناعِه، فهو يريدُ أنْ يَنتصِرَ لنفْسِه فقط، ويَتَّبِعَ هواه! فما دام الرَّجُلُ صاحِبَ هوًى، فالجِدالُ معه لا فائدةَ منه؛ قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾[(٣)].

٦- ليس لأحدٍ أن يعمَلَ في الدِّينِ إلَّا ما شرَعَه اللهُ ورسولُه، دونَ ما يشتهيه ويَهْواه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[(٤)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على بُطلانِ قَولِ الَّذين يقولونَ: إنَّ أعمالَ المُشرِكينَ قبْلَ البَعثةِ ليست قَبيحةً لِذَاتِها، بل إنَّما قَبُحَت بالنَّهيِ فقط؛ وبُطلانِ قَولِ الَّذين يقولونَ: إنَّها قَبيحةٌ ويَستحِقُّونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٠).
(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٠١).

عليها العُقوبةَ عَقلًا بدُونِ البَعثةِ- فنَظَمَتِ الآيةُ بُطلانَ قَولِ الطَّائِفَتينِ، ودلَّت على القَولِ الوَسَطِ: أنَّ هذه الأعمالَ قَبيحةٌ في نفْسِها، ولا يَستحِقُّونَ العِقابَ إلَّا بعد إقامةِ الحُجَّةِ بالرِّسالةِ؛ فلا تَلازُمَ بيْنَ ثُبوتِ الحُسْنِ والقُبْحِ العقليَّينِ، وبينَ استِحقاقِ الثَّوابِ والعِقابِ؛ فالأدلَّةُ إنَّما اقتَضَتِ ارتباطَ الثَّوابِ والعِقابِ بالرِّسالةِ، وتَوَقُّفَهما عليها، ولم تَقتَضِ تَوَقُّفَ الحُسنِ والقُبحِ بكلِّ اعتِبارٍ عليها، وفَرْقٌ بيْنَ الأمْرَينِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أنَّ ما خالفَ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو باطلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، فكلُّ خبرٍ يَتضمَّنُ تكذيبَ خبرِ اللهِ ورسولِه فهو الكذبُ، وإذا شَرَّعَ الإنسانُ قوانينَ مخالِفةً للشَّرعِ؛ قُلْنا: هذا باطلٌ وضلالٌ؛ لأنَّ الحقَّ فيما جاء به الشَّرعُ فقط(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أنَّ قُرَيشًا كان عندَهم بعضُ المعلوماتِ عن الرُّسلِ السَّابِقينَ، حيثُ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ وقد حصَلوا على هذا العلمِ عن طريقِ اليهودِ(٣).

٤- أنَّ أهلَ الباطلِ يُلَقِّبون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوءِ؛ تنفيرًا للناسِ عن قَبولِ ما جاؤوا به، يُؤخَذُ هذا من قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ﴾ أو ﴿سَاحِرَانِ﴾ على القراءةِ الأُخرَى، فسَواءٌ وَصَفوا ما جاءَتْ به الرُّسلُ بالسِّحرِ، أو وَصَفوا الرُّسلَ أنفُسَهم بالسِّحرِ؛ فإنَّ المقصودَ بذلك تنفيرُ الناسِ عن قَبولِ ما جاءتْ به الرُّسلُ(٤).

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

٥- التَّحدِّي يَكونُ بالوَصفِ كما يكونُ بالفِعلِ؛ فقولُه تعالى: ﴿فَأْتُواْ﴾ تَحَدٍّ بفِعلٍ ما هم بآتينَ به، وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تَحَدٍّ بالوَصفِ؛ أي: إنْ كان ما أنتم عليه حقًّا فأْتُوا بهذا، وإلَّا فأنتم مِن الكاذِبينَ؛ ولهذا قال: ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بيانُ أنَّه سُبحانَه لم يُنزِلْ كتابًا أهدى مِن التَّوراةِ والقُرآنِ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ أنَّه لا يَلزَمُ الإنسانَ الانتِقالُ عمَّا كان عليه إلى غَيرِه إلَّا إذا كان أهدَى منه[(٣)].

٨- جوازُ التَّعليقِ بالشَّرطِ فيما هو مُحقَّقُ الوُقوعِ، وهذا في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ هذا مُحقَّقُ الوُقوعِ؛ فليس فيه احتمالُ أنْ يَستَجيبوا، فيجوزُ تعليقُ الشَّيءِ المحقَّقِ بالشَّرطِ، ولو كان مُحقَّقًا أنَّه لن يكونَ، وكذلك لو كان محقَّقًا أنَّه كائِنٌ؛ فإنَّ الانتِفاءَ هنا كائِنٌ لا محالةَ، ومع ذلك عُلِّقَ بالشَّرطِ، وفي الحديثِ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحِقون))[(٤)] في قَولِه لأهلِ المقابرِ، ومعلومٌ أنَّ هذا الأمرَ مُحقَّقٌ[(٥)].

٩- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جعَل سُبحانَه وتعالى المتَّبَعَ قِسْمَينِ لا ثالثَ لهما؛ إمَّا ما جاءَ به الرسولُ، وإمَّا الهوَى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٩).

فمَنِ اتَّبَع أحدَهما لم يُمكِنْه اتِّباعُ الآخَرِ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى جعَل الهوَى مُضادًّا لِما أنزَلَه على رَسولِه، وجعَلَ اتِّباعَه مُقابِلًا لِمُتابَعةِ رُسُلِه، وقَسَّم النَّاسَ إلى قِسمَينِ: أتْباعِ الوَحيِ، وأتْباعِ الهوى، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ[1].

١٠- جميعُ المعاصي إنَّما تنشأُ مِن تَقديمِ هوى النُّفوسِ على مَحبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وقد وصَف اللهُ المُشرِكينَ باتِّباعِ الهوى في مواضِعَ مِن كِتابِه؛ قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾. وكذلك البِدَعُ إنَّما تنشأُ مِن تقديمِ الهوَى على الشَّرعِ؛ ولهذا يُسمَّى أهلُها أهلَ الأهواءِ[2].

١١- اتِّباعُ الأهواءِ في الدِّياناتِ أعظَمُ مِنِ اتِّباعِ الأهواءِ في الشَّهواتِ؛ فإنَّ الأوَّلَ حالُ الَّذين كفَروا مِن أهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقالَ تعالَى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ ولهذا كان مَن خرَج عن موجَبِ الكِتابِ والسُّنَّةِ مِن العُلَماءِ والعبَّادِ يُجعلُ مِن أهلِ الأهواءِ، كما كان السَّلَفُ يُسَمُّونَهم أهلَ الأهواءِ؛ وذلك أنَّ كُلَّ مَن لم يتَّبِعِ العِلمَ فقد اتَّبَع هواه، والعِلمُ بالدِّينِ لا يكونُ إلَّا بهُدَى اللهِ الَّذي بعَثَ به رَسولَه؛ ولهذا قال تعالى في مَوضِعٍ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال في موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠٤، ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٧).

بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1] [القصص: ٥٠].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يَستجبْ للرَّسولِ، وذَهَب إلى قَولٍ مُخالِفٍ لِقَولِ الرَّسولِ؛ فإنَّه لم يَذهَبْ إلى هدًى، وإنَّما ذَهَبَ إلى هوًى[2].

١٣- اختِلافُ النَّاسِ في الضَّلالِ والهدى وتفاوتُهم فيهما؛ فليسوا على حَدٍّ سَواءٍ في الضَّلالِ، كما أنَّهم ليسُوا على حَدٍّ سَواءٍ في الهُدى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الهوى قد يكونُ في الحَقِّ أيضًا إذا كان فيه هُدًى مِن اللهِ[4].

١٥- أصْلُ الهوى محبَّةُ النَّفْسِ، ويَتبَعُ ذلك بُغضُها؛ ونَفْسُ الهوى -وهو الحُبُّ والبُغضُ الَّذي في النَّفْسِ- لا يُلامُ عليه المرءُ؛ فإنَّ ذلك قد لا يُملَكُ، وإنَّما يُلامُ على اتِّباعِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[5] [ص: ٢٦].

١٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ الظُّلمَ سببٌ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ١٢، ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٧٠).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٢).

لحرمانِ الظَّالمِ مِن الهُدى(١).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ردٌّ على القَدَريَّةِ الذين يُنكِرون قَدَرَ اللهِ بالنِّسبةِ للأفعالِ، فيَرَون أنَّ الإنسانَ يُمكِنُ أن يهتديَ بنَفْسِه، وليس لله تبارك وتعالى عليه أيُّ سُلطةٍ(٢)!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ردٌّ على الجَبْريةِ الجَهْميَّةِ -الذين يقولون بعَكسِ القَدَريَّةِ- يقولون بأنَّ اللهَ تعالى نَسَبَ هؤلاء بفِعلِهم إلى الظُّلْمِ، ولو كانوا مُجبَرينَ عليه لكانت نِسبةُ الظُّلمِ إليهم ظُلمًا، واللهُ تبارك وتعالى لا يَظْلِمُ أحدًا(٣)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لَمَّا كانتْ أكثَرُ الأعمالِ تُزاوَلُ بالأيدي- جُعِل كلُّ عمَلٍ مُعبَّرًا عنه باجتراحِ الأيدي، وتَقديمِ الأيدي، وإنْ كان مِن أعمالِ القُلوبِ، وهذا مِنَ الاتِّساعِ في الكَلامِ، وتَصييرِ الأقَلِّ تابِعًا للأكثَرِ، وتغليبِ الأكثَرِ على الأقَلِّ(٤).

- قولُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ إنْ قيلَ: كيف استقامَ هذا المعنَى وقد جُعِلَتِ العُقوبةُ هيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩، ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٠).

السَّببَ في الإرسالِ لا القَولُ؛ لدُخولِ حَرفِ الامتِناعِ عليها دُونَه؟

فالجوابُ: القولُ هو المقصودُ بأنْ يَكونَ سببًا لإرسالِ الرُّسلِ، ولكنَّ العُقوبةَ لَمَّا كانت هيَ السَّببَ للقَولِ، وكان وُجودُه بوُجودِها- جُعِلَتِ العقوبةُ كأنَّها سَببُ الإرسالِ بواسطةِ القَولِ؛ فأُدخِلَتْ عليها (لولا)، وجِيءَ بالقولِ معطوفًا عليها بالفاءِ المُعطِيةِ معنَى السَّببيَّةِ، ويَؤُولُ مَعناهُ إلى قَولِك: ولولا قَولُهم هذا إذا أصابَتْهم مُصيبةٌ لَمَا أَرسَلْنا، ولكنِ اختِيرَتْ هذه الطَّريقةُ لنُكتةٍ؛ وهي: أنَّهم لو لم يُعاقَبوا مثَلًا على كُفرِهم وقد عايَنوا ما أُلجِئُوا به إلى العِلمِ اليقينِ- لم يَقولوا: لولا أَرسَلْتَ إلينا رسولًا، وإنَّما السَّببُ في قَولِهم هذا هو العِقابُ لا غيرُ، لا التَّأَسُّفُ على ما فاتَهم مِنَ الإيمانِ بخالِقِهم. وفي هذا مِنَ الشَّهادةِ القَويَّةِ على استِحكامِ كُفرِهم ورُسوخِه فيهم ما لا يَخفَى، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾[1] [الأنعام: ٢٨].

- وأيضًا في عطْفِ سَببِ السَّببِ على السَّببِ الأصليِّ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾: مَزيدُ العِنايةِ بسَببِ السَّببِ؛ لكَوْنِه مَقصودَ السِّياقِ. وأيضًا في هذا النَّظمِ تنبيهٌ على سَببيَّةِ كلِّ واحدٍ منهما: أمَّا الأوَّلُ ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾؛ فلاقترانِه بحَرفِ التَّعليلِ وهو ﴿أَن﴾. والثَّاني ﴿فَيَقُولُواْ﴾ بالفاءِ، ولا يُعطى هذا المعنَى إلَّا مِنَ المَتْلُوِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٧١، ٧٢).

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]: تَخلُّصاتٌ من ذِكرِ مُوسى إلى إثباتِ نُبوَّةِ سيِّدنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإلزامِ الحُجَّةِ على المُعانِدينَ مِن أهلِ الكِتابِ والمُشركينَ. يعني: إنَّك تُخبِرُ عن هذِه الغُيوبِ، وهُم عالِمون أنَّك أُمِّيٌّ لم تَقرأْ، ولم تَأخُذْ مِن أحَدٍ، ولا أنتَ حَضَرْتَ هناك فتُخبِرُ عنها؛ بحيثُ لم تَخرِمْ حَرفًا، ولم يكُنْ ذلك إلَّا من طَريقِ الوَحيِ، كما قال: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: ٤٦]، والقومُ الَّذين ما أتاهُم مِن نَذيرٍ هُم مُشركو العرَبِ، ولا بدَّ مِن إرسالِك إليهم؛ وإلَّا فلَهُم أن يَقولوا -إذا عُوقِبوا بما قَدَّموا مِنَ الشِّركِ والمعاصي-: هَلَّا أَرسَلْتَ إلينا رسولًا فنَتَّبِعَ آياتِك؟ ويَعضُدُ هذا التَّرتيبَ الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ [القصص: ٤٨]، ووضْعُ المُظهَرِ -وهو ﴿ٱلْحَقُّ﴾- موضعَ المُضمَرِ؛ فإنَّ فيه الإشعارَ بقطْعِ الحُجَّةِ، وأنَّه المؤيَّدُ بالمُعجِزاتِ القاهرةِ، والآياتِ الباهرةِ، والهادي إلى ما يُزلِفُهم إلى المَقامِ الأَسْنى، والدَّرَجاتِ الحُسنى، ويُبعِدُهم عمَّا يوقِعُهم في وَرَطاتِ الرَّدى، ونحوها ممَّا يَدخُلُ تحتَ معنَى الحقِّ، أي: فلمَّا جاءَهُم مِثلُ هذا الحقِّ السَّاطعِ، والنُّورِ اللَّامعِ، عِندَما كانوا أفقَرَ شيءٍ إليهِ- تَعامَوْا وتَصامُّوا، واقتَرَحُوا عليه مِنَ الآياتِ ما ظَهَر به عِنادُهُم وتَمرُّدُهم؛ فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾[1] [القصص: ٤٨].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨، ٤١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٧٢).

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ، وتَقديرُ الكَلام: فإنْ كان مِن مَعذِرتِهم أنْ يَقولُوا ذلك، فقد أرسَلْنا إليهم رَسولًا بالحَقِّ، فلمَّا جاءَهمُ الحقُّ لَفَّقوا المَعاذيرَ، وقالوا: لا نؤْمِنُ به حتَّى نُؤتَى نُؤتَى مِثلَ ما أُوتيَ موسَى[1].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[2].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ استِئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ كُفرِهمُ المُستفادِ مِنَ الإنكارِ السَّابقِ، وبيانِ كيفيَّتِه[3].

- قولُه: ﴿سِحْرَانِ﴾ بتقديرِ مُضافٍ، بمعنَى: ذَوَا سِحْرٍ، أو جَعَلوهُمَا سِحْرَين مُبالَغةً في وصْفِهما بالسِّحرِ[4].

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ فيه تَصريحٌ بكُفرِهم بهما، وتأكيدٌ لكُفرِهم المفهومِ مِن تَسميتِهما سِحرًا؛ وذلك لغايةِ عُتوِّهم وتَماديهم في الكفرِ والطُّغيانِ[5].

- وتقديمُ المعمولِ في قَولِه: ﴿بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ يُفيدُ الحصرَ؛ مع أنَّهم كفَروا بهما وبغيرِهما، لكنِ المقصودُ بهذا الحصرِ إغاظةُ الخَصمِ، كأنَّهم يقولون: (لو آمَنَّا بكلِّ شَيءٍ ما كَفَرْنا إلَّا بهما!)[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مِثلُ هذا الشَّرطِ ممَّا يأتي به مَن يُدِلُّ بوُضوحِ حُجَّتِه، وسُنوحِ مَحَجَّتِه؛ لأنَّ الإتيانَ بما هو أهدَى مِنَ الكِتابَينِ أمْرٌ بيِّنُ الاستِحالةِ، فيُوسِّعُ دائرةَ الكلامِ للتَّبكيتِ والإفحامِ. وفي إيرادِ كلمةِ ﴿إِنْ﴾ مع امتِناعِ صِدْقِهم: نَوعُ تَهكُّمٍ بهم[١].

- ووَصْفُ الكِتابِ بأنَّه ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ إدماجٌ[٢] لمَدحِ القُرآنِ والتَّوراةِ بأنَّهما كِتابانِ مِن عِندِ اللهِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

- جِيءَ بحَرفِ (إنْ) الغالِبِ في الشَّرطِ المَشْكوكِ على طريقةِ التَّهكُّمِ، أو لأنَّها الحَرفُ الأصليُّ[٤].

- قولُه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ أي: فإنْ لم يَفعلُوا ما كَلَّفْتَهم مِنَ الإتيانِ بكِتابٍ أَهدَى منهُما، وإنَّما عُبِّر عنه بالاستِجابةِ؛ إيذانًا بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على كَمالِ أمْنٍ مِن أمْرِه، كأنَّ أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لهُم بالإتيانِ بما ذُكِر دُعاءٌ لهم إلى أمْرٍ يُريدُ وُقوعَه[٥].

وفِعلُ الاستِجابةِ يَقتَضي دُعاءً، ولا دُعاءَ في قَولِه: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٠).

(٢) تقدم تعريفه: (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨).

ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ [القصص: ٤٩]، بل هو تعجيزٌ؛ فالتَّقديرُ: فإنْ عَجَزوا ولم يَستَجيبوا لدَعْوَتِك بعْدَ العَجزِ، فاعلَمْ أنَّما يَتَّبِعونَ أهواءَهم. وقَولُه: ﴿أَتَّبِعۡهُ﴾ جوابُ ﴿فَـأۡتُواْ﴾، أي: إنْ تَأْتُوا به أتَّبِعْه، وهو مُبالَغةٌ في التَّعجيزِ؛ لأنَّه إذا وَعَدهم بأن يتَّبعَ ما يأْتُون به فهو يَتَّبِعُهم أنفُسَهم، وذلك ممَّا يوفِّرُ دَواعيَهُم على مُحاوَلةِ الإتيانِ بكِتابٍ أهْدَى مِن كِتابِه لوِ استَطاعوه، فإنْ لم يَفعَلوا فقد حَقَّ علَيهِمُ الحقُّ، ووجَبَتْ عليهِمُ المَغلوبيَّةُ؛ فكان ذلك أدَلَّ على عَجزِهم، وأَثبَتَ في إعجازِ القرآنِ. وهذا مِنَ التَّعليقِ على ما تَحقَّقَ عدَمُ وُقوعِه؛ فالمُعلَّقُ حِينَئذٍ مُمتنِعُ الوُقوعِ؛ كقولِه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. ولكَونِه مُمتنِعَ الوُقوعِ أمَر اللهُ رسولَه أنْ يَقولَه. وقد فُهِم مِن قَولِه: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ ومِن إقحامِ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ أنَّهم لا يَأْتون بذلك البتَّةَ، وهذا مِنَ الإعجازِ بالإخبارِ عن الغَيبِ[(١)].

- قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ (أنَّما) المفتوحةُ الهمزةِ تُفيدُ الحَصرَ، مِثلَ (إنَّما) المكسورةِ الهمزةِ، فالتَّقديرُ: فاعلَمْ أنَّهم ما يَتَّبِعون إلَّا أهواءَهُم. وإقحامُ فِعلِ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾؛ للاهتِمامِ بالخبرِ الَّذي بَعدَه[(٢)].

- وجاءَ في آخِرِ الكَلامِ قولُه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وهو تَذييلٌ عجيبٌ؛ أنَّه لا أحَدَ أشَدُّ ضَلالًا مِن أحَدٍ اتَّبَعَ هَواهُ المُنافي لهُدى اللهِ. و(مَنْ) اسمُ استِفهامٍ عن ذاتٍ مُبهَمةٍ، وهو استِفهامُ الإنكارِ؛ فأفادَ الانتِفاءَ؛ فصار معنَى الاسميَّةِ الَّذي فيه في معنَى نَكِرةٍ في سِياقِ النَّفيِ أفادَتِ العُمومَ؛ فشَمِلَ هؤلاءِ الَّذينَ اتَّبَعوا أهواءَهم وغَيْرَهم، وبهذا العُمومِ صار تَذييلًا، وهو كقَولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٠).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[١] [البقرة: ١٤٠].

- قولُه: ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تقييدُ اتِّباعِ الهوَى بعدَمِ الهُدى مِنَ اللهِ تعالى؛ لِزيادةِ التَّقريعِ، والإشباعِ في التَّشنيعِ والتَّضليلِ، وإلَّا فمُقارَنتُه لهدايتِه تعالى بَيِّنةُ الاستحالةِ. وقيل: هذا الحالُ قَيْدٌ في اتِّباعِ الهوَى؛ لأنَّه قد يَتَّبِعُ الإنسانُ ما يَهْواهُ ويَكونُ ذلك الَّذي يَهْواهُ فيه هُدًى مِنَ اللهِ؛ لأنَّ الأهواءَ كلَّها تَنقسِمُ إلى ما يَكونُ فيه هُدًى، وما لا يَكونُ فيه هُدًى؛ فلذلك قُيِّد بهذه الحالِ[٢].

- وجَعَل الهُدَى مِنَ اللهِ؛ لأنَّه حقُّ الهُدَى؛ لأنَّه واردٌ مِنَ العالِمِ بكلِّ شيءٍ، فيَكونُ معصومًا مِنَ الخلَلِ والخطأِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ذَيَّل هذا التَّذييلَ -﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾- بما هو تَمامُه؛ إذْ فيه تَعيينُ هذا الفريقِ المُبهَمِ الَّذي هو أشَدُّ الضَّالِّينَ ضلالًا؛ فإنَّه الفريقُ الَّذين كانوا قَومًا ظالِمينَ، أي: كان الظُّلْمُ شأنَهم، وقِوامَ قَوْميَّتِهم؛ ولذلك عَبَّر عنهُم بالقَومِ[٤].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ احتباكٌ[٥]؛ حيثُ أثبتَ أوَّلًا اتِّباعَ الهوى دليلًا على حذْفِه ثانيًا، وثانيًا الظُّلْمَ دليلًا على حذْفِه أوَّلًا[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: لا أحدَ أضَلُّ، وهو استِفهامٌ مَنفيٌّ، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥]؛ والجَمْعُ بيْنَهُما: أنَّ آيةَ (الأحقافِ) في مَقام الدُّعاءِ؛ وهذه الآيةَ في مَقامِ الاتِّباعِ؛ فقد تَكونُ كلُّ آيةٍ لها مَعنًى لا يَتعلَّقُ بالثَّاني، فضلالُ الغايةِ باعتِبارِ ما هو مِن جِنسِها[١]، هذا وجْهٌ. وهناك وجْهٌ آخَرُ: وهو أنَّهُما في مرتبةٍ واحدةٍ في الضَّلالِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾ لا يَمنعُ أنْ يوجَدَ شَيءٌ يُساويهِ في ذلك؛ فيَكونُ كلٌّ مِنَ الأمْرَينِ قد بَلَغ الغايةَ في الضَّلالِ[٢].



(١) أي: أنَّ كلَّ موضع يختصُّ بالمذكورِ معه؛ ففي المفترينَ: لا أحدَ أظلمُ ممَّن افترَى على الله كذبًا. وفي المانعينَ: لا أحدَ أظلمُ ممَّن منَع مساجدَ الله... وفي المُعرِضينَ: لا أحدَ أظلَمُ ممن ذُكِّر بآياتِ ربِّه ثمَّ أعرَض عنها... وهكذا. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٨).

والقاعدةُ: «أنَّ نفْيَ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المُساواةِ»، فغايةُ ما يدُلُّ عليه نفي التَّفضيلُ هو أنَّه لا مَزيدَ على وصْفِ المذكورِ، إلَّا أنَّ ذلك لا يعني أنَّه لا يُعادِلُه ويُساويه أحدٌ في تلك المرتبةِ أو الصِّفةِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٢٨، ٥٢٩).

الآيات (٥١-٥٦)

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ
هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ
۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: أنزَلْنا القرآنَ يَتْبَعُ بعضُه بعضًا، فاتَّصل عندَهم، وأصلُ (وصل): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ حتَّى يَتعلَّقَ به(١).

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: أي: يَدفَعونَ، وأصلُ (درء): يدُلُّ على دَفعِ الشَّيءِ(٢).

﴿ٱللَّغْوَ﴾: أي: الباطِلَ مِنَ الكَلامِ، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به(٣).

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٥).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مؤكِّدًا على قطعِ أعذارِ المشركينَ وحُجَجِهم: ولقد أنزَلْنا القُرآنَ يَتبَعُ بَعضُه بعضًا، وبيَّنَّا فيه الوَعدَ والوَعيدَ؛ ليتَّعِظَ كُفَّارُ العَرَبِ وأهلُ الكتابِ ويَعتَبِروا.

ثمَّ يمدحُ اللهُ تعالى طائفةً مِن أهلِ الكتابِ آمنَتْ، فيقولُ: الَّذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ مِن قَبلِ القُرآنِ يُؤمِنونَ بالقُرآنِ، وإذا سَمِعوه يُتلى عليهم قالوا: آمَنَّا به؛ لأنَّه حَقٌّ مِن عندِ رَبِّنا، إنَّا كُنَّا مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ على محمَّدٍ موحِّدينَ لله.

ثمَّ يُبيِّنُ ما أعدَّه لهم، فيقولُ: أولئك يُؤتيهم اللهُ ثوابَهم مُضاعَفًا، ومِن صفاتِهم أنَّهم يَدفَعونَ السَّيِّئةَ بالحسَنةِ، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقَهم اللهُ، وإذا سَمِعوا الكلامَ الباطِلَ أعرَضوا عن الاستِماعِ له، وقالوا: لنا دينُنا، ولكم دينُكم، لن نُؤذيَكم بقَولٍ أو فِعلٍ؛ فلا نُريدُ مُجادَلةَ السُّفَهاءِ!

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا أنَّ الهِدايةَ منه وحْدَه: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَهدي مَن أحبَبْتَ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولكِنَّ اللهَ وحْدَه يَهدي مَن يشاءُ أنْ يَهديَه، وهو أعلَمُ بمَن سبَقَ في عِلمِه أنَّه يَستحِقُّ الهدايةَ ويَقبَلُها، فيُوَفِّقُه لها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥١﴾.

أي: ولقد أتبَعْنا القُرآنَ بَعضَه بَعضًا وشَيئًا فشَيئًا لكُفَّارِ العَربِ وأهلِ الكِتابِ، وبَيَّنَّا فيه الوَعدَ والوَعيدَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، والمواعِظَ، وأخبارَ الماضينَ؛ لِيَعتبِروا ويتَّعِظوا(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

عن رِفاعةَ القُرَظيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (نَزَلت هذه الآيةُ في عَشَرةِ رَهْطٍ أنا أحَدُهم: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾)(١).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾.

أي: الَّذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ مِن قبْلِ القُرآنِ يُؤمِنونَ بالقُرآنِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

= (١٤/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٢).

(١) أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٥/ ٥٣) (٤٥٦٣)، وأبو نُعَيم في ((معرفة الصحابة)) (٢٧٣٢) واللَّفظُ لهما، وابن مَنْدَه في ((معرفة الصحابة)) (ص: ٦٣٢) باختلاف يسير.
وثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٩١)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ العراقي في ((طرح التثريب)) (٧/ ٩٤)، وجوَّد إسنادَه السيوطي في ((الدر المنثور)) (٦/ ٤٢٢)، والشوكانيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٥-٢٤٩).
قال الشنقيطي: (... قد كان في اليهودِ قَومٌ هم على دِينِ موسى حتَّى ماتوا على ذلك، وقَومٌ كانوا على دين موسى وآمَنوا بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وهؤلاء الَّذين كانوا على دينِ موسى وأدرَكوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فآمَنوا به هم الَّذين ذكَر الله في سورةِ «القصص» أنَّ لهم أجْرَهم مرَّتَين: أجْرَ إيمانِهم الأوَّل، وأجرَ إيمانِهم الثَّاني). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٤).
قال ابن الجوزي: (﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وفيهم ثلاثةُ أقوالٍ:
أحدها: أنَّهم مؤمنو أهلِ الكتابِ، رواه العوفيُّ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال مجاهدٌ.
والثاني: مسلمو أهلِ الإنجيلِ...
والثالث: مسلمو اليهودِ، كعبدِ الله بنِ سلامٍ، وغيرِه، قاله السُّديُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٧).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٩].

﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾.

﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾.

أي: وإذا سَمِعوا القُرآنَ يُتلَى عليهم قالوا: آمَنَّا بالقُرآنِ؛ لأنَّه حَقٌّ نزَل مِن عندِ ربِّنا بالخَبرِ الصَّادِقِ، والحُكْمِ العادِلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾[المائدة: ٨٣، ٨٤].

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾.

أي: إنَّا كنَّا مِن قبْلِ نُزولِ القُرآنِ على محمَّدٍ مُوحِّدينَ للهِ، مُنقادينَ لطاعتِه، مُؤمِنينَ بنُبوَّةِ محمَّدٍ؛ فلهذا بادَرْنا إلى الإذعانِ للحَقِّ، وآمَنَّا بهذا القُرآنِ[(٢)].

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) ﴾.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

أي: أولئك الَّذين تقدَّمَت صِفتُهم -الَّذين يُؤمِنونَ بكِتابِهم وبالقُرآنِ-، يؤتيهم اللهُ ثوابَهم مُضاعَفًا؛ بسبَبِ صَبرِهم على العَمَلِ بهما، وعلى ما يَلْقَونَه مِنَ الأذى[1].

عن أبي موسى الأَشْعَريِّ رضيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ثَلاثةٌ يُؤْتَونَ أجْرَهم مرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكِتابِ آمَنَ بنَبيِّه، وأدرَك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فآمَنَ به، واتَّبَعَه وصَدَّقَه؛ فله أجْرانِ، وعبدٌ مَمْلوكٌ أدَّى حَقَّ اللهِ تعالى وحَقَّ سَيِّدِه، فله أجْرانِ، ورجُلٌ كانت له أَمَةٌ فغَذَّاها فأحسَنَ غِذاءَها، ثمَّ أدَّبَها فأحسَنَ أدَبَها، ثمَّ أعتَقَها وتزَوَّجَها؛ فله أجْرانِ))[2].

وعن أبي سُفيانَ رضيَ الله عنه: أنَّه جاء في الكتابِ الَّذي بعَثَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى هِرَقْلَ: ((بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، مِن محمَّدٍ عبدِ اللهِ ورَسولِه إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّومِ: سلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهدَى، أمَّا بعْدُ، فإنِّي أدعوك بدِعايةِ الإسلامِ؛ أسلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أجرَك مرَّتينِ...)) الحديثَ[3].

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم يَدفَعونَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) رواه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠). =

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: وممَّا رَزَقْناهم مِنَ الأموالِ يُنفِقونَ في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ(١).

= قيل: المعنى: يَدفَعونَ بما يَعملون مِن الحَسَناتِ ما سبَق أنْ عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ؛ فقال: يَدفعونَ بشَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ الشِّركَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٩).

وقيل: المعنى: أنَّهم لا يُقابِلونَ المُسيءَ إليهم بإساءةٍ، ولكِنْ يُقابِلونَه بالإحسانِ إليه بالقَولِ الحميدِ، والفِعلِ الجميلِ. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَير، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٩١).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَ كِلا المعنَيَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٣).

وقال ابنُ عجيبة: (﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفَعونَ الخَصلةَ القَبيحةَ بالخَصلةِ الحَسَنةِ؛ يَدفَعونَ الأذى بالسِّلم، والمعصيةَ بالطَّاعة). ((البحر المديد)) (٤/ ٢٦١).

قال ابن عثيمين: (والحَسَنةُ الَّتي تَدرَأُ السَّيِّئةَ تنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: قِسمٌ يُزيلُ السَّيِّئةَ من باب المُقابَلةِ، وقِسمٌ آخَرُ يُزيلُ السَّيِّئةَ من بابِ المحوِ والإزالة؛ فإن كانت الحسنةُ المَدْروءُ بها السَّيِّئةُ مِن بابِ التَّوبةِ، فهو مِن بابِ المحوِ والإزالة، وإن كانت حسنةً أخرى، كما لو دفَعَ السَّيِّئات بالصَّلاة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]؛ فهذا الدَّرءُ من بابِ المُقابَلةِ، أي: إنَّ ثَوابَ الحَسَنةِ يُقابَلُ بعقوبةِ السَّيِّئةِ مِن بابِ الموازَنةِ؛ فإذا رجَحَ ثَوابُ الحسنةِ انمَحَت السَّيِّئةُ، وإلَّا فلا. والأوَّلُ أكمَلُ؛ لأنَّه إذا حصَلَ صارت الحَسَنةُ الثَّانيةُ زيادةَ رِفعةٍ في الدَّرَجاتِ، وليست بمقابَلةٍ بالسَّيِّئةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤).

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه كيفيَّةَ اشتِغالِهم بالطَّاعاتِ والأفعالِ الحَسَنةِ؛ بَيَّنَ كيفيَّةَ إعراضِهم عن الجُهَّالِ، فقال[1]:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾.

أي: وإذا سَمِعوا الكَلامَ الباطِلَ[2] أعرَضوا عن الاستِماعِ والإصغاءِ له، ولم يَلتَفِتوا إليه، ولم يَرُدُّوا على مَن آذاهم بالكَلامِ القَبيحِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

أي: وقالوا: لنا دِينُنا الَّذي رَضِينا به لأنفُسِنا، ولكم دِينُكمُ الَّذي رَضيتُم به لأنفُسِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا منَّا على عَمَلِه ثَوابًا أو عِقابًا، لا على عَمَلِ غَيرِه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٨).

(٢) قال ابن عطية: (اللَّغوُ سَقَطُ القولِ، والقولُ يَسقُطُ لِوُجوهٍ يَعِزُّ حصْرُها؛ فالفُحشُ لَغْوٌ، والسَّبُّ لغوٌ، واليمينُ لغوٌ -حسَبَ الخِلافِ فيها-، وكلامُ مُستمِعِ الخُطبةِ لغوٌ. والمرادُ من هذا في هذه الآيةِ ما كان سبًّا وأذًى، فأدَبُ أهلِ الإسلامِ الإعراضُ عنه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٢).
وقال ابن عثيمين: (الأصحُّ أنَّه يَشمَلُ كلَّ كلامٍ لا خيرَ فيه، سواءٌ كان فيه أذًى وشرٌّ، أم لم يكُنْ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠، ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

أي: أنتم سالِمونَ مِن أن نُؤذِيَكم بقَولٍ أو فِعلٍ، لا نُريدُ مُجادَلةَ السُّفَهاءِ المُخالِفينَ للحَقِّ، والمُعتَدينَ على الخَلقِ؛ ولا نُصاحِبُهم، ولا نُحِبُّ طَريقَتَهم(١).

كما قال تعالى في صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن المُسَيَّبِ بنِ حَزْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أبا طالبٍ لَمَّا حَضَرتْه الوفاةُ دخَل عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعِندَه أبو جَهلٍ، فقال: أيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ كَلِمةً أُحاجُّ لك بها عندَ اللهِ، فقال أبو جَهلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، تَرغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ؟! فلَمْ يَزالَا يُكَلِّمانِه حتَّى قال آخِرَ شَيءٍ كلَّمَهم به: على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَأَسْتَغفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٠-٢٧٢).
قال العُلَيمي: (﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلامُ توديعٍ ومُتارَكةٍ، وليس هو سلامَ التَّحيَّةِ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٠٦). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٥١).

عنه، فنزلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣]، ونزلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعَمِّه عندَ الموتِ: ((قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، أَشهَدْ لك بها يومَ القيامةِ، فأبى، فأنزَل اللهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآيةَ))[٢].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

أي: إنَّك -يا مُحمَّدُ- لا تُوفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن أحبَبْتَه[٣].

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ وحْدَه هو مَن يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن يَشاءُ أن يَهديَه[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤) واللفظ له، ومسلم (٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٨، ٢٧٩).
قال الزجاج: (أجمَع المفَسِّرون أنَّها نزلَتْ في أبي طالب، وجائزٌ أن يكونَ ابتداءُ نُزولِها في أبي طالبٍ، وهي عامَّةٌ؛ لأنَّه لا يَهدي إلَّا اللهُ، ولا يُرشِدُ ولا يوفِّقُ إلَّا هو، وكذلك هو يُضِلُّ مَن يشاءُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٤٩).
وقال ابنُ حجرٍ: (لم تختلِفِ النقلةُ في أنَّها نزَلت في أبي طالبٍ، واختلَفوا في المرادِ بمتعلقِ ﴿أَحْبَبْتَ﴾؛ فقيل: المرادُ: أحببْتَ هِدايتَه، وقيل: أحببْتَه هو لقرابتِه منك). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بمَن سبَقَ في عِلمِه أنَّه يَستَحِقُّ الهِداية ويَقبَلُها؛ فيُوَفِّقُه لاتِّباعِ الحَقِّ[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- جوازُ ثناءِ المرءِ على نَفْسِه بالصِّفاتِ المحمودة؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، وهذا أمرٌ واقعٌ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِن الصَّحابةِ، ومن أهلِ العلمِ؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أنا النَّبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المطَّلِب))[2]، فيجوزُ للإنسانِ أنْ يُثنيَ علي نَفْسِه بصِفاتِ الحَمدِ، ولكن ذلك مشروطٌ بشَرطين:

الشَّرطُ الأولُ: ألَّا يُريدَ بذلك الافتِخارَ على غيرِه، ووجهُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه إذا قَصَد بذلك الافتخارَ والعُلُوَّ على النَّاسِ، فهذا قَصدٌ مُحَرَّمٌ؛ ولهذا قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخرَ))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤٨) مطوَّلًا واللَّفظُ له، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (١٠٩٨٧) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٤٨)، وصحَّحه لغيرِه شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠٩٨٧).

الشَّرطُ الثَّاني: أنْ يكونَ في ذلك مَصلَحةٌ؛ لأنَّه إذا لم تكُنْ فيه مَصلَحةٌ كان لَغوًا من القَولِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ فضيلةُ الصَّبرِ، طالما أنَّ الصبرَ سببٌ للأجرِ؛ فلا شكَّ أنَّه صفةٌ حميدةٌ وفاضلةٌ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أنَّه ينبغي مُقابَلةُ المُسيءِ بالإحسانِ، فالحَسَناتُ يُذْهِبنَ السَّيِّئاتِ؛ فالآيةُ عامَّةٌ لِدَرْئِهم سَيِّئاتِهم بحَسَناتِهم، ودَرئِهم سيِّئاتِ غَيرِهم بالإحسانِ إليهم، لكنَّ دَرْءَ سيِّئاتِ الآخَرين بالإحسانِ إليهم ثَقيلٌ على المرءِ جدًّا؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾(٣) [فصلت: ٣٥].

٤- مِن أسبابِ دَفعِ شرِّ الحاسدِ عن المحسودِ -وهو مِن أصعبِ الأسبابِ على النفسِ وأشقِّها عليها، ولا يُوفَّقُ له إلَّا مَن عظُم حظُّه مِن الله- إطفاءُ نارِ الحاسدِ والباغي والمؤذي بالإحسانِ إليه، فكلَّما ازداد أذًى وشرًّا وبغيًا وحسدًا، ازددْتَ إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شفقةً. وما أظنُّك تصدِّقُ بأنَّ هذا يكونُ، فضلًا عن أنْ تتعاطاه، فاسمَعِ الآنَ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، وقولَه: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(٤) [فصلت: ٣٤- ٣٦]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ فيه فضيلةُ الإنفاقِ مِن رزقِ اللهِ[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ أنَّه ينبغي الإعراضُ عن اللَّغوِ، وهو الكَلامُ الذي لا فائدةَ فيه، ولا خيرَ منه، والفِعلُ يُقاسُ عليه؛ فلا ينبغي للإنسانِ أن يُمضيَ وَقتَه في أفعالٍ لا خيرَ فيها[٢]، فقد أثنى اللهُ سبحانه على مَن أعرَضَ عن اللَّغوِ إذا سمِعه، وهذه الآيةُ معناها عامٌّ مُتناوِلٌ لِكُلِّ مَن سمِع لَغْوًا فأعرَضَ عنه، وقال بلسانِه أو بقلبِه لأصحابِه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للعاقِلِ طَلَبُ السُّفَهاءِ، فَضلًا عن الجُلوسِ معهم؛ لأنَّ طَلَبَهم في الحقيقةِ يؤدِّي إلى الجُلوسِ معهم، والجلوسُ مع الجاهِلينَ إثمٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]؛ فلا ينبغي للإنسانِ أنْ يَتطلَّبَ أهلَ السَّفهِ ويجلِسَ إليهم، أو على الأقلِّ يأنَس بما يفعَلونَ؛ فإنَّ هذا مِن الصِّفاتِ الَّتي ليس عليها أهلُ الخَيرِ والإيمانِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ الحِكمةَ مِنَ الوَحيِ: التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إثباتُ العِلَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

في أحكامِ اللهِ الكَونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وأنَّه لا يَفعلُ شيئًا ولا يُشَرِّعُه إلَّا لحِكمةٍ، وقد خالَفَ في ذلك الأشاعرةُ، والجَهْميَّةُ هم الأصلُ، قالوا: أفعالُ الله لا تُعلَّلُ، وأحكامُه لا تُعلَّلُ[1]، و(لعلَّ) في كلامِ الله سُبحانَه وتعالى للتَّعليلِ مُجَرَّدةٌ عن معنى التَّرجِّي؛ فإنَّها إنَّما يُقارِنُها معنى التَّرجِّي إذا كانت مِنَ المخلوقِ، وأمَّا في حقِّ مَن لا يَصِحُّ عليه التَّرجِّي فهي للتَّعليلِ المَحْضِ[2].

٣- إنَّ الله تعالى حيثُ قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ لم يكونوا إلَّا مَمْدوحينَ مُؤمنين، وإذا أراد ذمَّهم والإخبارَ عنهم بالعنادِ وإيثارِ الضَّلالِ أتَى بلفظِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ، فالأولُ كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ * وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ * أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ ...﴾ الآيات. وكقولِه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، فهذا في سياقِ مدحِهم والاستشهادِ بهم، ليس في سياقِ ذمِّهم والإخبارِ بعنادِهم وجحودِهم.

وأمَّا الثاني فكقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ * وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٥]؛ فهذا شهادتُه سبحانَه للذين أوتوا الكتابَ، والأولُ شهادتُه للذين آتاهم الكتابَ بأنَّهم مؤمنونَ. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡ﴾ [آل عمران:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

٢٠] ، وهذا خطابٌ لِمَن لم يُسلِمْ منهم، وإلا فلم يُؤمَرْ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ هذا لِمَن أسلمَ منهم، وصدَّق به.

ولهذا لا يذكُرُ سبحانَه الذين أُوتوا نصيبًا مِن الكتابِ إلَّا بالذمِّ أيضًا، كقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الآية [النساء: ٥١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[1] [آل عمران: ٢٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّ التقديمَ يُفيدُ الاختِصاصَ، وهنا لا يتأتَّى ذلك؛ لأنَّهم لو خَصُّوا إيمانَهم بهذا الكتابِ فقط لَزِمَ كُفْرُهم بما عَداه، وهو عكسُ المرادِ! وقد أبدَى أهلُ البيانِ هذا في قولِه: ﴿آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، فقالوا: لو قُدِّمَ «به» لأوهَمَ الاختِصاصَ بالإيمانِ باللهِ وحْدَه دونَ ملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، وهذا بعَيْنِه جارٍ هنا!

والجوابُ: أنَّ الإيمانَ بغيرِه معلومٌ؛ فانصَبَّ الغرضُ إلى الإيمانِ بهذا[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ إثباتُ عدْلِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ حيثُ لم يُضَيِّعْ أجرَهم الأوَّلَ بالأجرِ الثَّاني؛ ولا الأجرَ الثَّانيَ بالأجرِ الأوَّلِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العملِ؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

شَـرًّا يَـرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فهؤلاء كان ثوابُهم مرَّتَينِ؛ لأنَّهم عَمِلوا مرَّتَينِ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أنَّ المُنفِقَ لم يُنْفِقْ ممَّا صَنَعَه أو اكتسبَه بنَفْسِه، ولكنْ يُنفِقُ مِن رزقِ اللهِ، فاللهُ هو الَّذي رَزَقَك، وهو الَّذي أَمَرَك، فأنت في الحقيقةِ خادمٌ، عبدٌ متصرِّفٌ حسَبَ أمرِ سيِّدِك، قال لك: اكتسِبْ؛ فاكتَسَبْتَ، قال لك: أنفِقْ؛ فأنفَقْتَ(٣).

٩- قَولُهم: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ هذا مِن أحسَنِ ما يُجابُ به السُّفَهاءُ، وهو أقرَبُ لإصلاحِهم، وأسلَمُ مِن تَزايُدِ سَفَهِهم(٤).

١٠- أنَّ الإنسانَ إذا جَدَّ واجتهَدَ في دعوةِ النَّاسِ إلى الهُدى فلمْ يَهتَدوا؛ فإنَّ عليه أنْ يَتلوَ هذه الآيةَ، وهي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، وإلَّا فكثيرٌ مِنَ النَّاسِ الآنَ عندَهم أقارِبُ -إمَّا معهم في البُيوتِ، أو خارجَ البُيوتِ- يَدْعونهم إلى الهدَى فلا يَهْتَدونَ! فنقولُ: الحمدُ لله أنْ بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى أنَّ هذا الأمرَ ليس إلينا، إنَّما هو إليه سُبحانَه، وإنِ اهتَدَوا فلَهُم ولنا ثَوابُ دَلالتِهم، وإنْ لم يَهتَدُوا فلَنا ثَوابُ الدَّلالةِ والدَّعوةِ، وعليهم وِزْرُ الغَيِّ(٥).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ إشكالٌ مِن جِهةِ أنَّ ظاهِرَه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحِبُّ أبا طالبٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٢).

وجوابُ ذلك:

إمَّا أن يُقالَ: إنَّه على تقديرِ أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ «مَن أحببتَ هِدايتَه»، لا مَن أحبَبْتَه هو.

أو يُقالَ: إنَّه أحَبَّ عمَّه مَحَبَّةً طبيعيَّةً كمَحبَّةِ الابنِ أباه ولو كان كافِرًا.

أو يُقالَ: إنَّ ذلك قبْلَ النَّهيِ عن محبَّةِ المُشرِكينَ. والأوَّلُ أقرَبُ، أي: مَن أحبَبْتَ هدايتَه لا عَيْنَه، وهذا عامٌّ لأبي طالبٍ وغيرِه[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ خانِقةٌ لهم مِن جِهَتينِ:

إحداهما: نِسبةُ الهِدايةِ إليه جَلَّ وتعالى جُملةً، كما هو في سائرِ القُرآنِ.

والأخرى: أنَّ قولَهم في تأويلِ الهِدايةِ: إنَّها البيانُ لا الاضْطِرارُ إليها- خطأٌ لا مَحالةَ؛ بدَلالةِ هذه الآيةِ مِن حيثُ لا يُنكِرونَ، لو أنصَفوا واستَبْصَروا؛ فإنَّا لا نَشُكُّ -ولا هُم- أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه قد بَيَّنَ لكُلِّ مَن خاطَبَه بالإيمانِ طَريقَ الهِدايةِ، ورَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد بَيَّنَها لكُلِّ مَن أُرسِلَ إليه، وأحَبَّها له، وأنَّه لم يَحرِصْ على إيمانِ عمِّه إلَّا وقد بَيَّنَ له طَريقَ الهِدايةِ مرَّةً بعْدَ أخرى؛ فهل تَكونُ الهِدايةُ الَّتي لم يَقْدِرْ عليها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِعَمِّه إلَّا هدايةَ الاضْطِرارِ والإجبارِ، لا هِدايةَ البيانِ الَّتي قد كان فَرَغ منها، وأدَّى أمْرَ اللهِ إلى أهلِه فيها[2]؟

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مع

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٣/ ٥٧١).

قَولِه سُبحانَه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] إيهامُ تعارُضٍ.

وجوابُه: أنَّه لا تَناقُضَ في الآيتَينِ؛ إذ المُرادُ بالهِدايةِ التي نفاها الله عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم في الآيةِ الأُولى هِدايةُ التَّوفيقِ، وهي الهدايةُ المستلزمةُ للاهتداءِ، فلا يتخلَّفُ عنها، وهذه لا يقدِرُ عليها ولا يَملِكُها إلَّا اللهُ وحْدَه، والمرادُ بالهدايةِ المثبتَةِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم في الآيةِ الثَّانيةِ هِدايةُ الدَّلالةِ والبيانِ والإرشادِ، وهذه تكونُ مِنَ الله تعالى ومِن غيرِه، فتكونُ مِنَ الرُّسلِ وورَثَتِهم مِنَ العلماءِ الرَّبَّانيِّينَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ اللَّامُ و(قَدْ) كِلاهُما للتَّأكيدِ ردًّا عليهم؛ إذ جَهِلُوا حِكمةَ تَنْجيمِ نُزولِ القُرآنِ، وذُكِرَتْ لَهُمْ حِكمةُ تَنْجيمِه هنا بما يَرْجِعُ إلى فائدتِهم بقولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وذُكِرَ في سورةِ (الفُرقانِ) حِكمةٌ أُخرى راجِعةٌ إلى فائدةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وفُهِمَ مِن ذلك أنَّهم لم يَتَذَكَّروا[2].

- و(وَصَّلَ) قيل: إنَّه مُضمَّنٌ معنى «بَيَّنَ»؛ ففيه أنَّ الوَحيَ مُشتمِلٌ على غايةِ البَيانِ[3].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لَمَّا أفْهَمَ قولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] أنَّهم لم يَفْعَلُوا، ولم يَكونُوا عندَ رَجاءِ الرَّاجي؛ عَقَّبَ ذلك بهذه الجُملةِ المُستأْنَفةِ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّها جوابٌ لسؤالِ مَنْ يَسأَلُ: هلْ تَذَكَّرَ غيرُهم بالقرآنِ، أو استوَى النَّاسُ في عدَمِ التَّذكُّرِ به؟

فأُجيبَ: بأنَّ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِن قَبْلِ نُزولِ القرآنِ يُؤمِنونَ به إيمانًا ثابتًا[١].

- قولُه: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسندِ إليه: ﴿هُم﴾، على الخبَرِ الفِعليِّ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لِتَقوِّي الخبرِ، وأيضًا ضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُم﴾ مُفيدٌ للقَصْرِ الإضافيِّ، أيْ: هُمْ يُوقِنونَ، بخِلافِ هؤلاءِ الَّذينَ وصَّلْنا لهمُ القَولَ. ومَجيءُ المُسنَدِ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ إيمانِهم وتجدُّدِه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ فيه حِكايةُ إيمانِهم بالمُضيِّ في قولِه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، مع أنَّهم يَقولونَ ذلكَ عند أوَّلِ سَماعِهم القرآنَ؛ لأنَّ المُضيَّ مُستعمَلٌ في إنشاءِ الإيمانِ مِثلَ استِعمالِه في صِيَغِ العُقودِ، أو للإشارةِ إلى أنَّهم آمَنوا به مِن قبْلِ نُزولِه، أيْ: آمَنُوا بأنَّه سيَجيءُ رسولٌ بكتابٍ مُصَدِّقٍ لِمَا بيْنَ يدَيْه؛ يعني: إيمانًا إجماليًّا يَعقُبُه إيمانٌ تفصيليٌّ عندَ سَماعِ آياتِه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استِئْنافٌ لِبَيانِ ما أوْجَب إيمانَهم به، وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ استِئنافٌ آخَرُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم به ليس مِمَّا أَحْدَثوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٤).

حينَئذٍ، وإنَّما هو أمرٌ تقادَمَ عَهْدُه لَمَّا رأَوْا ذِكْرَه في الكُتبِ المُتقدِّمةِ، وكَوْنَهم على دِينِ الإسلامِ قبْلَ نُزولِ القرآنِ(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ التَّعبيرُ عنهم باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرياءُ بما سيُذْكَرُ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ من أجْلِ الأوصافِ الَّتي ذُكِرَتْ قبْلَ اسمِ الإشارةِ(٢)، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للدَّلالةِ على عُلُوِّ رُتْبتِهم، وبُعْدِ مَنزلَتِهم في الشَّرَفِ والفضيلةِ(٣).

- قولُه: ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ أيْ: يُؤْتَونَ أجْرَيْنِ على إيمانِهم، أيْ: يُضاعَفُ لهمُ الثَّوابُ لأجْلِ أنَّهم آمَنوا بكِتابِهم مِن قَبْلُ، ثمَّ آمَنوا بالقُرآنِ؛ فعَبَّرَ عن مُضاعَفةِ الأجرِ ضِعْفَيْنِ بالمرَّتَينِ؛ تَشبيهًا للمُضاعَفةِ بتكريرِ الإيتاءِ، وإنَّما هو إيتاءٌ واحدٌ. وفائدةُ هذا إظهارُ العِنايةِ حتَّى كأنَّ المُثيبَ يُعطي، ثمَّ يُكرِّرُ عَطاءَه(٤).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

- قولُه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أيْ: أعمالُنا مُستَحَقَّةٌ لنا، وهو كِنايةٌ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤، ١٤٥).

مُلازَمَتِهم إيَّاها، وقولُهم: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ تَتْميمٌ[(١)]، على حدِّ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[(٢)] [الكافرون: ٦].

- وقد أَنطَقَهُمُ اللهُ بحكمةٍ جَعَلَها مُستأْهِلةً لأنْ تُنظَمَ في سِلْكِ الإعجازِ، فأَلْهَمهم تلك الكَلِماتِ، ثمَّ شَرَّفَها بأنْ حِيكَتْ في نَسْجِ القرآنِ، ولعلَّ القرآنَ غيَّرَ مَقالَتَهم بالتَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ لِتكونَ مُشتمِلةً على الخُصوصيَّةِ المُناسِبةِ للإعجازِ؛ لأنَّ تأخيرَ الكلامِ الَّذي فيه المُتارَكةُ إلى آخِرِ الخِطَابِ أَوْلَى؛ لِيَكونَ فيه بَراعةُ المَقْطَعِ[(٣)].

- قولُه: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ تَعليلٌ للمُتارَكةِ، أيْ: لأنَّا لا نُحِبُّ مُخالَطةَ أهلِ الجَهالةِ باللهِ وبدِينِ الحقِّ، وأهْلِ خُلُقِ الجهلِ الَّذي هو ضِدُّ الحِلْمِ؛ فاستُعمِلَ الجهلُ في مَعنَيَيْهِ المُشتَرَكِ فيهما[(٤)].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

---

(١) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلِمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و (٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- جملةُ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ، وافتِتاحُها بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) اهتِمامٌ باستِدْعاءِ إقبالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عِلْمِ ما تضَمَّنَتْه، وهو كِنايةٌ عن الأمرِ بالتَّفويضِ في ذلك إلى اللهِ تعالى[١].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ﴾ مَفعولُ فِعْلِ المَشيئةِ مَحْذوفٌ؛ لِدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: مَن يَشاءُ اهتِداءَه[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٨).

الآيات (٥٧-٥٩)

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نُتَخَطَّفْ﴾: أي: نُؤخَذْ لقِلَّتِنا، والتَّخَطُّفُ: الانتِزاعُ بسُرعةٍ، وأصلُ (خطف): يدُلُّ على استِلابٍ في خِفَّةٍ[1].

﴿يُجْبَىٰٓ﴾: أي: يُجمَعُ ويُجلَبُ، مِن قَولِهم: جَبَيتُ الماءَ في الحَوضِ: إذا جمَعْتَه فيه، والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصلُه: يدُلُّ على جمعِ الشَّيءِ[2].

﴿بَطِرَتْ﴾: أي: أشِرَتْ وطَغَتْ وبَغَتْ، وأصلُ (بطر): يدُلُّ على الطُّغيانِ في النِّعمةِ[3].

﴿أُمِّهَا﴾: أي: أصلِها وأعظمِها، قيل: المرادُ مكَّةُ، ويُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٠٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٢٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أمٌّ، وأصلُ (أمم) هنا: الأصلُ والمرجعُ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾

قَولُه: ﴿مَعِيشَتَهَا﴾: فيه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه مفعولٌ به على تضمينِ ﴿بَطِرَتْ﴾ معنى «خَسِرَت».

الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ «في»، أي: في مَعيشتِها.

الثَّالِثُ: أنَّه منصوبٌ على التمييزِ عندَ مَن يُجَوِّزُ تعريفَه، وهو قَريبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذْكُرُ اللهُ تعالى بعضَ الأعذارِ الواهيةِ التي تعلَّق بها المشركونَ في عدَمِ اتِّباعِ الهُدى، ويَرُدُّ عليها، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنْ نُؤمِنْ بك -يا محمَّدُ- ونَعْبُدِ اللهَ وحْدَه، يُخرِجْنا مُشرِكو العرَبِ مِن مكَّةَ، أو يَقتُلونا؛ لِمُخالَفتِنا دينَهم. أوَلَمْ نجعَلْ لأهلِ مكَّةَ بلدًا آمِنًا مِن انتِهاكِ حُرمتِه بقِتالٍ وغَيرِه، تُجلَبُ إليه الثَّمَراتُ المتنَوِّعةُ مِن مختَلَفِ البلادِ، عطاءً من عِندِنا؟ ولكِنَّ أكثَرَ كُفَّارِ مكَّةَ لا يَعلمونَ، ويَكفُرون ولا يَشكُرونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٠٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٨٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٠٥).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الأسبابَ الَّتي تؤدِّي إلى الهلاكِ وزَوالِ النِّعَم، مُعَرِّضًا بأهلِ مَكَّةَ، فيقولُ: وما أكثَرَ القُرى الَّتي أهلَكْناها لَمَّا طغى أهلُها وتكَبَّروا! فتلك بيوتُهم لم يَسْكُنْها أحدٌ مِن بعدِ هَلاكِهم إلَّا قليلًا مِنَ السُّكنَى لبَعضِ مَن يَمُرُّ بها، وكنَّا نحن الوارِثينَ لِمَساكِنِهم.

ولم يكُنْ ربُّك -يا محمَّدُ- لِيُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أصْلِها الَّذي تتبَعُه هذه القُرى رَسولًا يَتْلو عليهم آياتِ اللهِ، ولم نكُنْ مُهلِكينَ القُرى إلَّا وأهلُها ظالِمونَ مُستَحِقُّون للهَلاكِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه بعضَ شُبَهِ المشركينَ وأجاب عنها بالأجوبةِ الواضِحةِ، وبَيَّنَ أنَّ وُضوحَ الدَّلائلِ لا يكفي ما لم يَنضَمَّ إليه هِدايةُ اللهِ تعالى؛ حكَى عنهم شُبهةً أخرى مُتعَلِّقةً بأحوالِ الدُّنيا[١]، فقال تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيش: إنْ نُؤمِنْ بك -يا مُحمَّدُ- فنَعبُدِ اللهَ وَحْدَه، ينتَزِعْنا مُشرِكو العَرَبِ سَريعًا مِن مكَّةَ، فيُخرِجونا منها أو يأْسِرونا أو يَقتُلونا؛ لِمُخالَفتِنا دينَهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير =

﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾.

أي: أوَلَمْ نجعَلْ لأهلِ مكَّةَ بلَدًا حرَّمْنا على النَّاسِ انتِهاكَ حُرمتِه بقِتالٍ وغيرِه، فجعَلْناه آمِنًا[1]؟

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه الحَرَمَ بالأمنِ؛ أتْبَعَه بما تَطلُبُه النَّفْسُ بعْدَه، فقال[2]:

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: تُجمَعُ وتُجلَبُ إليه الثَّمَراتُ الكَثيرةُ المُتنَوِّعةُ مِن البُلدانِ المُختَلِفةِ[3].

= السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨).

قال ابنُ جُزَيٍ: (والهُدى هو الإسلامُ، ومعناه: الهُدى على زَعمِك. وقيل: إنَّهم قالوا: قد عَلِمْنا أنَّ الَّذي تقولُ حَقٌّ، ولكِنْ إنِ اتَّبَعْناك تَخَطَّفَتْنا العرَبُ، أي: أهلَكونا بالقِتالِ؛ لِمُخالَفةِ دينِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٥، ٢٨٦).

قال ابن كثير: (فقال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ يعني: هذا الَّذي اعتَذَروا به كَذِبٌ وباطِلٌ؛ لأنَّ اللهَ جعَلَهم في بلدٍ أمينٍ، وحَرَمٍ مُعظَّمٍ آمِنٍ منذُ وُضِعَ، فكيف يكونُ هذا الحَرَمُ آمِنًا في حالِ كُفرِهم وشِرْكِهم، ولا يكونُ آمِنًا لهم وقد أسلَموا وتابَعوا الحقَّ؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾.

أي: عَطاءً خاصًّا مِن عِندِنا[(١)].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ كُفَّارِ مكَّةَ لا يَعلَمونَ أنَّ مَن رزَقَهم وأمَّنَهم فيما مضَى حالَ كُفرِهم يَرزُقُهم لو أسلَموا، ويمنَعُ الكُفَّارَ عنهم حالَ إسلامِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَر سُبحانَه إهلاكَ القُرى السَّابقةِ لأجْلِ أن يُقالَ لِقُرَيشٍ: «الكفرُ لا يمنَعُ الخَوفَ، ولا يمنَعُ العُقوبةَ»، بل إنَّه سببُ العُقوبةِ، فأنتم تقولونَ: «إنَّنا إذا آمَنَّا تخطَّفَنا النَّاسُ»! هذا ليس بالحقيقةِ، بل العكسُ هو الحَقيقةُ؛ ولهذا قال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا﴾، فكأنَّ اللهَ يُدَلِّلُ لتكذيبِ هؤلاء بأنَّ الكُفرَ

= (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٦، ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٧).

أهلَكَ الأُمَمَ السَّابقةَ الَّتي بَطِرَتْ مَعيشتَها[١].

وأيضًا لَمَّا قال الكُفَّارُ: «إنَّا لا نُؤمنُ؛ خَوفًا مِن زَوالِ نِعمةِ الدُّنيا»؛ بَيَّن اللهُ تعالى لهم أنَّ الإصرارَ على عدَمِ قَبولِ الإيمانِ هو الَّذي يُزيلُ هذه النِّعَمَ؛ لا الإقدامَ على الإيمانِ[٢]!

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾.

أي: وما أكثَرَ القُرَى الَّتي طغَى أهلُها بالنِّعَمِ وتكَبَّروا بها، وألْهَتْهم وأشْغَلَتْهم عن شُكرِ رَبِّهم؛ فكَفَروا به، فأهلَكَهم وأزال عنهم نِعَمَه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَسَبَّبَ عن الإخبارِ السَّابقِ تَشَوُّفُ النَّفْسِ إلى آثارِ هذه الدِّيارِ؛ سَبَّبَ عنه الإشارةَ بأداةِ البُعدِ إلى مَنازِلِهم؛ تَنبيهًا على كَثرتِها، وسُهولةِ الوُصولِ إليها في كلِّ مكانٍ؛ لِكَونِها بحيثُ يُشارُ إليها، وعلى بُعْدِ رُتبتِها في الهلاكِ دليلًا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٩، ٢٩٠).

الجُملةِ التي قَبْلَها، فقال: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾، ولَمَّا كان المعنى أنَّها خاويةٌ على عروشِها؛ وَصَل به قولَه: ﴿لَمْ تُسْكَن﴾[1].

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: فتلك بُيوتُ القَومِ الَّذين أهلَكْناهم لم يَسكُنْها أحَدٌ مِن بعْدِ هلاكِهم إلَّا قَليلًا مِن السُّكْنى حينَ يَنزِلُ بعضُ المارَّةِ فيما بَقِيَ منها[2].

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

أي: وكُنَّا نحنُ الوارِثينَ لِمَساكِنِهم، ولم يَملِكْها أحدٌ مِن بَعْدِهم[3].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُعْقِبَ الاعتِبارُ بالقُرَى المُهْلَكةِ ببيانِ أشراطِ هلاكِها وسببِه؛ استِقصاءً للإعذارِ لِمُشرِكي العَربِ[4].

وأيضًا فإنَّ اللهَ سبحانَه لَمَّا ذَكَر أنَّه أهْلَك تلك القُرَى بسببِ بَطَرِ أهلِها، فكأنَّ سائلًا أورَدَ سؤالًا: لماذا ما أهلَك اللهُ الكفَّارَ قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع أنَّهم كانوا مُستغرِقينَ في الكفرِ والعِنادِ؟ فأجاب عن هذا السُّؤالِ بقولِه[5]:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧).

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾.

أي: ولم يكُنْ ربُّك -يا محمَّدُ- لِيُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أعظَمِها وأصْلِها الَّذي تَتْبَعُه القُرى رَسولًا يَتْلو على أهلِها آياتِ اللهِ الدَّالَّةَ على صِدقِ رِسالتِه، فيُقيمَ الحُجَّةَ عليهم[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢، ١٥٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (إن كانتِ الإرادةُ بـ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ المُدُنَ الَّتي في عصرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فـ «أُمُّ القُرى» مكَّةُ، وإن كانتِ الإرادةُ القُرى بالإطلاقِ في كلِّ زمَنٍ؛ فـ ﴿أُمِّهَا﴾ في هذا المَوضِعِ: أعظَمُها وأفضَلُها الَّذي هو بمَثابةِ مكَّةَ في عصرِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإن كانتْ أمَّ القرى كلِّها أيضًا مِن حيثُ هي أوَّلُ ما خُلِقَ مِنَ الأرضِ، ومِن حيثُ فيها البيتُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بـأُمِّ القُرى: مكَّةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والقرطبي، وابن كثير، وابن عاشور. ونسَبَه الواحديُّ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٩٧).

قال ابن عاشور: (وقُرى بلادِ العَرَبِ كثيرةٌ؛ مِثلُ مكَّةَ، وجدَّةَ، ومِنًى، والطَّائف، ويَثْرِبَ، وما حَوْلَها مِنَ القُرى؛ وكذلك قُرى اليَمَن، وقُرى البَحرَين. وأُمُّ القُرى هي القريةُ العظيمةُ منها، وكانت مكَّةُ أعظَمَ بلادِ العربِ شُهرةً، وأَذْكَرَها بيْنَهم، وأكثَرَها مارَّةً وزُوَّارًا؛ لِمكانِ الكعبةِ فيها، والحجِّ لها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢). =

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

أي: وما كُنَّا لِنُهلِكَ القُرى إلَّا وأهلُها مُستَحِقُّون للهَلاكِ؛ بسبَبِ اتِّصافِهم بالظُّلمِ -بالكُفرِ وغيرِه- وذلك من بَعْدِ الإعذارِ إليهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ دَلالةٌ على صِحَّةِ الحِجاجِ الَّذي يُتوصَّلُ به إلى إزالةِ شُبهةِ المُبطِلينَ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أنَّ فِعلَ العبدِ خَلْقُ اللهِ تعالى، وبيانُه أنَّ

= وممَّن اختار أنَّ القرَى على عُمومِها، وأنَّ المرادَ بأُمِّها: أعْظَمُها: الواحديُّ، والبيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

قال ابن كثير: (وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ أي: أصْلِها وعَظيمتِها؛ كأُمَّهاتِ الرَّساتِيقِ والأقاليمِ. حكاه الزمخشريُّ وابنُ الجوزي وغيرُهما، وليس ببعيدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

تلك الأرزاقَ إنَّما كانت تَصِلُ إليهم؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يَحمِلونَها إليهم، فلو لم يكُنْ فِعلُ العبدِ خَلْقًا للهِ تعالى لَمَا صَحَّتْ تلك الإضافةُ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ وهي مكَّةُ -على قولٍ في التفسيرِ- ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ النبيَّ الأُميَّ، وهو محمَّدٌ، صلواتُ الله وسلامُه عليه، المبعوثُ مِن أمِّ القُرَى، رسولٌ إلى جميعِ القُرَى، مِن عربٍ وأعجامٍ، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[2] [هود: ١٧].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بظُلمِه، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ التَّخطُّفُ مُبالَغةٌ في الخَطْفِ، وهو انتِزاعُ شَيءٍ بسُرعةٍ[4].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ استِفْهامُ إنكارِ أنْ يكونَ اللهُ لم يُمَكِّنْ لهم حَرَمًا، ووَجْهُ الإنْكارِ أنَّهم نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنْفي أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨).

ذلكَ الحَرَمَ مِن تَمْكينِ اللهِ، فاستُفْهِموا على هذا النَّفْيِ استِفهامَ إنكارٍ، وهذا الإنكارُ يَقتضي تَوبيخًا على هذه الحالةِ الَّتي نُزِّلوا لأجْلِها مَنزِلةَ مَن يَنفي أنَّ اللهَ مَكَّنَ لهم حَرَمًا[١].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حَصَل في خلالِ الرَّدِّ لقَولِهم إدْماجٌ[٢] للامْتِنانِ عليهم بهذه النِّعمةِ؛ ليَحْصُلَ لهم وازِعانِ عن الكُفْرِ بالمُنْعِمِ؛ وازِعُ إبْطالِ مَعْذِرتِهم عن الكُفرِ، ووازِعُ التَّذْكيرِ بنِعْمةِ المَكْفورِ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نَفْيُ العِلْمِ عن أكثَرِهم؛ لأنَّ بعضَهم أصحابُ رأْيٍ، فلو نَظَروا وتَدبَّروا لَمَا قالوا مَقالتَهم تلكَ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَخويفِ أهْلِ مكَّةَ مِن سُوءِ مَغَبَّةِ مَنْ كانوا في نِعمةٍ، فغَمَطُوها وقابَلُوها بالأَشَرِ والبَطَرِ[٥].

وقيل: هو عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، باعتِبارِ ما تَضَمَّنَتْه مِنَ الإنكارِ والتَّوبيخِ؛ فإنَّ ذلك يَقتضي التَّعرُّضَ للانتِقام شأنَ الأُمَمِ الَّتي كَفَرَتْ بنِعَمِ اللهِ؛ فهو تَخْويفٌ لقُرَيشٍ مِنْ سُوءِ عاقبةِ أقوامٍ كانوا في مِثْلِ حالِهم مِنَ الأمنِ والرِّزقِ، فغَمَطُوا النِّعمةَ، وقابَلُوها بالبَطَرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٥٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٠).

- قولُه: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الإشارةُ بـ(تِلْكَ) إلى مَساكِنِهم الَّذي بُيِّنَ به اسمُ الإشارةِ؛ لأنَّه في قوَّةِ تلكَ المَساكِنِ، وبذلك صارَتِ الإشارةُ إلى حاضِرٍ في الذِّهْنِ مُنَزَّلٍ مَنزِلةَ الحاضرِ بمَرْأى السَّامِعِ[١].

- وقولُه: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أيْ: لم يَتْرُكوا فيها خَلَفًا لهم، وذلك كنايةٌ عن انقِراضِهم على بَكْرةِ أبيهم[٢].

- وقولُه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ احتراسٌ، أيْ: إلَّا إقامةَ المارِّينَ بها المُعتَبِرينَ بهَلاكِ أهلِها، والسَّكَنُ القليلُ هو مُطلَقُ الحُلولِ بغيرِ نيَّةِ إطالةٍ؛ فهي إلْمامٌ لا سُكْنى؛ فإطلاقُ السُّكْنى على ذلك مُشاكَلةٌ لِيَتأتَّى الاستِثْناءُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ قَصْرُ إرْثِ تلكَ المَساكِنِ على اللهِ تعالى، أيْ: لا يَرِثُها غيرُنا، وهو كِنايةٌ عن حِرْمانِ تلكَ المَساكِنِ مِنَ السَّاكِنِ، وتلكَ الكِنايةُ رمْزٌ إلى شِدَّةِ غَضَبِ اللهِ تعالى على أهْلِها الأوَّلينَ؛ بحيثُ تَجاوَزَ غضَبُه السَّاكِنينَ إلى نَفْسِ المَساكِنِ، فعاقَبَها بالحِرمانِ مِن بَهْجةِ المَساكِنِ؛ لأنَّ بَهجةَ المَساكِنِ سُكَّانُها[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بيانٌ للعِنايةِ الرَّبَّانيَّةِ إثْرَ بَيانِ إهْلاكِ القُرى المَذكورةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥١، ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠).

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا ...﴾ المُرادُ بإهْلاكِ القُرى: إهْلاكُ أهلِها، وإنَّما عُلِّقَ الإهلاكُ بالقُرى؛ للإشارةِ إلى أنَّ شِدَّةِ الإهلاكِ بحيثُ يأتي على الأُمَّةِ وأهلِها، وهو الإهلاكُ بالحَوادثِ الَّتي لا تَستَقِرُّ معها الدِّيارُ، بخِلافِ إهلاكِ الأُمَّةِ؛ فقد يكونُ بطاعُونٍ ونحوِه، فلا يَترُكُ أثرًا في القُرى[١].

وقيل: خُصَّتِ القُرى بالذِّكْرِ؛ لأنَّ العِبْرَةَ بها أظْهَرُ؛ لأنَّها إذا أُهْلِكَتْ بَقِيَتْ آثارُها وأَطْلالُها، ولم يَنقَطِعْ خَبَرُها مِنَ الأجيالِ الآتيةِ بعْدَها، ويُعْلَمُ أنَّ الخِيامَ مِثْلُها بحُكْمِ دَلالةِ الفَحْوى[٢].

- وإفراغُ النَّفْيِ في صيغةِ (ما كان فاعِلًا) ونَحْوِه من صِيَغِ الجُحُودِ؛ كما في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ...﴾؛ يُفيدُ رُسوخَ هذه العادةِ واطِّرادَها[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ في إسنادِ الخبَرِ إلى اللهِ بعُنوانِ رُبوبيَّتِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿رَبُّكَ﴾؛ إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ بهذا الإنذارِ هم أُمَّةُ محمَّدٍ الَّذينَ كَذَّبوا -أي: من أمةِ الدعوةِ-؛ فالخِطابُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ لهذا المَقصدِ؛ ولهذا وقَعَ الالتِفاتُ عنه إلى ضَميرِ المُتكلِّم في قولِه: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الآياتِ مِن عندِ اللهِ، وأنَّ الدِّينَ دينُ اللهِ[٤]. وقيل: الالتِفاتُ إلى نُونِ العَظَمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٢).

وقد تقدم تعريف فحوى الخطاب (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٣).

لتَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوْعةِ[١].

- وحصَلَ في هذه الجُملةِ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تفنُّنٌ في الأساليبِ؛ إذْ جَمَعَتِ الاسمَ الظَّاهرَ، وضمائرَ الغَيْبةِ والخِطابِ والتَّكَلُّمِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

الآيات (٦٠-٦٧)

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ
٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢
قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ
إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ
كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ
يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَمَتَٰعُ﴾: المتاعُ: المتعةُ، والانتفاعُ، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتِدادُ مدَّةٍ في خيرٍ[(١)].

﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾: أي: أضْلَلْنا، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ[(٢)].

﴿فَعَمِيَتۡ﴾: أي: خَفِيَتْ والْتَبَسَتْ، وأصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى حقارةَ الدُّنيا وما فيها مِن متاعٍ بالنِّسبةِ لِما أعَدَّه للمؤمنينَ في الآخرةِ مِنَ النَّعيمِ العظيمِ، فيقولُ: وما آتاكم اللهُ مِنَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ فإنَّما هو متاعٌ تتمَتَّعونَ به في حياتِكم الدُّنيا، ثمَّ لا يلبَثُ أن يَزولَ، وما عندَ اللهِ في الجنَّةِ خَيرٌ وأدوَمُ لأهلِه؛ فإنَّه ثوابٌ لا ينفَدُ، أفلا تَعقِلونَ؟!

ثمَّ يَنفي التَّسويةَ بينَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، فيقولُ: أفمَن وعَدْناه الجنَّةَ، فهو لاقٍ ما وُعِدَه، وصائرٌ إلى ثوابِ اللهِ في الآخرةِ، كمَنْ هو كافِرٌ مُكَذِّبٌ بلِقاءِ اللهِ، مُؤْثِرٌ لَذَّةَ العاجلةِ، مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدُّنيا فحسْبُ، ثمَّ هو يومَ القيامةِ مِن المُحضَرينَ للجَزاءِ؟!

ثمَّ يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن أحوالِ المشركينَ يومَ القيامةِ، وما يُوبِّخُهم به، فيقولُ: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشركينَ يومَ القيامةِ فيَقولُ لهم: أين شُرَكائيَ الَّذين كنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ؟ قال الدُّعاةُ إلى الكُفرِ والضَّلالِ الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللهِ وغَضَبُه: يا ربَّنا، هؤلاء الَّذين دَعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضلَلْناهم مِثلَما كُنَّا ضالِّينَ، تَبَرَّأْنا إليك منهم؛ فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعون أهواءَهم!

وقيل للمُشرِكين: ادعُوا الَّذين كنتُم تَعبدونَهم وتَزعُمونَهم شُرَكاءَ لله؛ لِيَنفَعوكم اليومَ، فدعاهم المُشرِكون فلمْ يُجيبوهم، ورأَوْا جميعًا -التَّابعُ منهم والمَتبوعُ- العذابَ الَّذي سيَحُلُّ بهم. لو أنَّ المُشرِكين كانوا في الدُّنيا مُهتَدينَ للحَقِّ، لَمَا اتَّبَعوا شُرَكاءَ مِن دونِ اللهِ.

واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشركينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أَجبتُمُ المُرسَلينَ؟ هل آمَنتُم بهم واتَّبَعتُموهم، أمْ كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم؟ فخَفِيَتِ الحُجَجُ عليهم

يومَ القيامةِ ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ صحيحٍ، فهم لا يَسألونَ أحدًا عمَّا يُجيبونَ به اللهَ فيما سألَهم عنه. فأمَّا مَن تاب وآمَنَ وعَمِلَ عمَلًا صالِحًا، فهو في الآخرةِ مِنَ الفائزينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا هو الجوابُ الثَّالثُ عن شُبْهَتِهم الَّتي حاصلُها أنْ قالوا: تَرَكْنا الدِّينَ لِئَلَّا تَفُوتَنا الدُّنيا، فبَيَّنَ تعالى أنَّ ذلك خطأٌ عظيمٌ؛ لأنَّ ما عندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقَى[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَّرهم اللهُ بنِعَمِه عليهم تذكيرًا أُدْمِجَ في خلالِ الرَّدِّ على قولِهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ بقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [الْقَصَص: ٥٧]؛ أعْقَبَه بأنَّ كلَّ ما أُوتُوه من نعمةٍ هو من متاعِ الحياةِ الدُّنيا، وزينَتِها، وأمَّا ما عندَ اللهِ من نعيمِ الآخرةِ فهو خيرٌ من ذلك وأبقَى؛ لئلَّا يَحْسَبوا أنَّ ما هم فيه مِنَ الأمنِ والرِّزْقِ هو الغايةُ المطلوبةُ فلا يَتَطَلَّبوا ما به تحصيلُ النَّعيمِ العظيمِ الأبَديِّ، وتحصيلُه بالإيمانِ[2].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾.

أي: وما آتاكم اللهُ مِنَ الأموالِ والأولادِ وغَيرِها مِنَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ، فإنَّما هو مَتاعٌ تَتمَتَّعونَ به في حياتِكم الدُّنيا، وتتزيَّنونَ به فيها، ثمَّ يَزولُ عنكم سريعًا، ولا يَنفَعُكم بشَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

كما قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إصبَعَه هذه في اليَمِّ؛ فلْيَنظُرْ بِمَ ترجِعُ؟!))(١).

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

أي: وما عندَ اللهِ في الجنَّةِ أفضَلُ وَصفًا وكَمِّيَّةً مِن مَتاعِ الدُّنيا وزينتِها، وأدوَمُ لأهلِه؛ لأنَّه ثوابٌ لا يَنفَدُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: أفلا تتدَبَّرونَ -أيُّها النَّاسُ- بعُقولِكم، فتَعرِفونَ بها أنَّ ثوابَ الآخِرةِ الباقيةِ خَيرٌ مِن نَعيمِ الدُّنيا الفانيةِ(٣)؟!

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَفاوُتَ ما بيْنَ ما أُوتوه مِنَ المتاعِ والزِّينةِ، وما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ؛ قال: أفَبَعْدَ هذا التَّفاوُتِ الظَّاهِرِ يُسوى بيْنَ أبناءِ الآخرةِ وأبناءِ الدُّنيا[(١)]؟!

وأيضًا لَمَّا أنبأهمُ اللهُ بأنَّ ما هم فيه مِنَ التَّرَفِ إنْ هو إلَّا مَتاعٌ قليلٌ، قابَلَ ذلك بالنَّعيمِ الفائقِ الخالدِ الَّذي أعَدَّ للمُؤمِنينَ[(٢)].

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾.

أي: أفمَنْ وعَدْناه على طاعتِه إيَّانا الجنَّةَ، فآمَنَ بما وعَدْناه وأطاعَنا، فهو لاقٍ ما وُعِدَ، وصائِرٌ إلى ثوابِ اللهِ في الآخرةِ لا مَحالةَ[(٣)].

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

أي: كمَن هو كافرٌ مُكَذِّبٌ بلِقاءِ اللهِ ووَعْدِه ووَعيدِه، مُؤْثِرٌ اللَّذَّةَ العاجِلةَ على الآجِلةِ، فهو مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدُّنيا فحَسْبُ، ثمَّ هو يومَ القيامةِ إذا ورَدَ على اللهِ مِنَ المُحضَرينَ للجَزاءِ[(٤)]؟!

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَتَ أنَّ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ قد عَرَفوا بُطْلانَ ما كانوا عليه، وعَرَفوا صِحَّةَ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ بالضَّرورةِ؛ قال لهم: أينَ ما كنتُم تَعبُدونَه وتَجعَلونَه شَريكًا في العبادةِ، وتَزعُمونَ أنَّه يَشفَعُ؟ أين هو لِيَنصُرَكم ويُخَلِّصَكم مِن هذا الَّذي نزَلَ بكم[(١)]؟

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ أنَّ المُمَتَّعينَ في الدُّنيا يُحضَرونَ إلى النَّارِ؛ ذَكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ يومِ القيامةِ[(٢)].

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ فيَقولُ لهم يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونَكم ويَنصُرونَكم ويَشفَعونَ لكم[(٣)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

أي: قال الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللهِ وغَضَبُه مِنَ الدُّعاةِ إلى الكُفرِ والضَّلالِ: يا ربَّنا، هؤلاءِ التَّابِعونَ لنا الَّذينَ دعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضْلَلْناهم مِثلَما كنَّا ضالِّينَ[١].

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

أي: تبَرَّأْنا إليك مِنَ الَّذينَ أطاعونا وممَّا اختارُوه مِنَ الكُفرِ؛ هَوًى منهم للباطِلِ، ومَقْتًا للحَقِّ، فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعونَ أهواءَهم وشَهَواتِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

قال ابنُ الجوزي: (﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجَبَ عليهم العذابُ، وهم رُؤساءُ الضَّلالةِ، وفيهم قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم رُؤوسُ المشركين، والثَّاني: أنَّهم الشياطين). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

ﮋ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﮊ [الأحقاف: ٦].

ﮋ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﮊ.

ﮋ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ﮊ.

أي: وقيلَ للمُشرِكينَ: ادعُوا الَّذينَ كُنتُم تَعبدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ لِيَنفعوكم ويَنصُروكم[(١)].

ﮋ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﮊ.

أي: فدعاهم المُشرِكونَ فلمْ يُجيبوهم، ولم يَنفَعوهم بشَيءٍ[(٢)].

ﮋ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﮊ.

أي: ورأى المُشرِكونَ بأعيُنِهم -التَّابعُ منهم والمَتبوعُ- العذابَ الَّذي سيَحُلُّ بهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﮋ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا قولُه: ﮋ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ ﮊ فهذا دعاءُ المسألةِ، يُبكِّتُهم اللهُ ويُخزيهم يومَ القيامةِ، بإرائِهم أنَّ شُركاءَهم لا يَستجيبونَ لهم دَعوَتَهم، وليس المرادُ: اعبُدوهم. وهو نظيرُ قَولِه تعالى: ﮋ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ ﮊ [الكهف: ٥٢]). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

أي: لو أنَّ المُشرِكينَ كانوا في الدُّنيا مُهتَدينَ للحَقِّ؛ لَمَا اتَّبَعوا شُرَكاءَ مِن دونِ اللهِ، ولَمَا رأَوُا العَذابَ في الآخرةِ(١).

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أشار إلى أنَّه لا خَلاصَ مِن ذلك الرَّدَى إلَّا بالهُدى؛ أتْبَعَه الإعلامَ بأنَّه لا يُمكِنُ أحدًا هناك أن يَفعَلَ ما قد يَروجُ على سائلِه، كما يُفعَلُ في هذه الدَّارِ مِن إظهارِ ما لم يكُنْ، فقال مُكرِّرًا لتَهويلِ ذلك اليَوم وتبشيعِه، وتعظيمِه وتفظيعِه، سائلًا عن حقِّ رُسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بعْدَ السُّؤالِ عن حقِّه سُبحانَه، مُناديًا بعَجزِ الشُّرَكاءِ في الأُخرَى كما كانوا عاجِزينَ في الأُولى(٢):

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أجَبْتُمُ المُرسَلينَ الَّذين أرسَلْتُهم إليكم؟ هل آمَنْتُم بهم واتَّبَعْتُموهم، أو كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم ولم تُطيعوهم(٣)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

كما قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾.

أي: فخَفِيَت الحُجَجُ على المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ صَحيحٍ حينَ يَسألُهم اللهُ عن حالِهم في الدُّنيا مع الرُّسلِ، فيَسكُتون حَيارَى لا يَقدِرونَ على الإجابةِ بشَيءٍ[1].

﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

أي: فلا يَسألونَ أحدًا عمَّا يُجيبونَ به اللهَ فيما سألَهم عنه[2].

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ حالُ مَن أصَرَّ على كُفْرِه وعَمِلَ سَيِّئًا بطَريقِ العِبارةِ، وأُشيرَ إلى حالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٦).

قال القاسمي: (﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي: لا يَسألُ بعضُهم بعضًا عن الجوابِ؛ لِفَرْطِ الدَّهشةِ، أو لِعلمِه بأنَّه مِثلُه في العجزِ عن الجَوابِ، أو لعَجزِهم عن النُّطقِ، وكَوْنِهم مَختومًا على أفواهِهم). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣١).

وقال ابنُ جرير: (وقولُه: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ قيل: فهم لا يَتساءَلونَ بالأنسابِ والقرابةِ... وقيلَ: معنَى ذلك: فعَمِيَتْ عليهم الحُجَجُ يومئذٍ، فسَكَتوا، فهم لا يَتساءَلونَ في حالِ سُكوتِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧).

مَن تاب فوُعِدَ الوعدَ الحسَنَ بألطَفِ إشارةٍ؛ تَسَبَّبَ عن ذلك: التشَوُّفُ إلى التَّصريحِ بحالِهم[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه حالَ المعَذَّبينَ مِن الكفَّارِ، وما يَجري عليهم مِنَ التَّوبيخِ؛ أَتْبَعَه بذِكْرِ مَن يَتوبُ منهم في الدُّنيا؛ ترغيبًا في التَّوبةِ، وزجرًا عن الثَّباتِ على الكفرِ، فقال[٢]:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ٦٧﴾.

أي: فأمَّا مَن تاب مِنَ الشِّركِ، وآمَنَ باللهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالحًا بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فإنَّه يكونُ في الآخرةِ مِنَ الفائِزينَ النَّاجينَ مِن العَذابِ، الخالدينَ في الجنَّة[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذا حَضٌّ مِنَ اللهِ لِعبادِه على الزُّهدِ في الدُّنيا، وعَدَمِ الاغترارِ بها، وعلى الرَّغبةِ في الأُخرَى، وجَعْلِها مَقصودَ العَبدِ ومَطلوبَه، ويُخبِرُهم أنَّ جميعَ ما أُوتِيَه الخَلقُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، والحيواناتِ والأمتعةِ، والنِّساءِ والبَنينَ، والمآكِلِ والمشارِبِ واللَّذَّاتِ: كُلُّها متاعُ الحياةِ الدُّنيا وزينتُها، أي: يُتمتَّعُ به وقتًا قَصيرًا مَتاعًا قاصِرًا محشوًّا بالمنَغِّصاتِ، ممزوجًا بالغُصَصِ. ويُزَيَّنُ به زمانًا يسيرًا للفَخرِ والرِّياءِ، ثمَّ يزولُ ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يَستَفِدْ صاحِبُه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٧-٢٩٩).

منه إلَّا الحسرةَ والنَّدمَ، والخَيبةَ والحرمانَ(١)!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكونُ لكم عقولٌ، بها تَزِنونَ أيُّ الأمورِ أَوْلَى بالإيثارِ، وأيُّ الدَّارَينِ أحَقُّ للعملِ لها؟ فدَلَّ ذلك أنَّه بحَسَبِ عَقْلِ العبدِ فإنَّه يُؤْثِرُ الأُخرَى على الدُّنيا، وأنَّه ما آثَرَ أحَدٌ الدُّنيا إلَّا لِنَقَصٍ في عقْلِه؛ ولهذا نبَّه العُقولَ على الموازَنةِ بيْنَ عاقبةِ مُؤْثِرِ الدُّنيا ومُؤثِرِ الآخِرةِ، فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾(٢).

٣- طالبُ العلمِ يجبُ عليه أنْ يَتلقَّى المسائلَ بدَلائلِها، وهذا هو الَّذي يُنجيه عندَ الله سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ اللهَ سيَقولُ له يومَ القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؟ ولن يقولَ: «ماذا أجبتُم المؤلِّفَ الفُلانيَّ»! فإذَنْ لا بُدَّ أنْ نعرِفَ ماذا قالت الرُّسلُ لِنَعمَلَ به، ولكنَّ التَّقليدَ عندَ الضَّرورةِ جائزٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فإذا كُنَّا لا نستطيعُ أن نعرِفَ الحقَّ بدليلِه فلا بُدَّ أن نسألَ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أمَّا أنَّه خيرٌ؛ فلِوَجهَينِ؛ أحدِهما: أنَّ المنافعَ هناك أعظَمُ، وثانيهما: أنَّها خالِصةٌ عن الشوائبِ؛ ومنافعُ الدُّنيا مَشوبةٌ بالمَضارِّ؛ بل المَضارُّ فيها أكثرُ.

وأمَّا أنَّها أبقَى فلِأنَّها دائمةٌ غيرُ مُنقطِعةٍ، ومَنافِعُ الدُّنيا منقطعةٌ، ومتى قُوبِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٢١).
(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١/ ١٦).

المُتناهي بغيرِ المتناهي كان عدمًا؛ فكيف ونصيبُ كلِّ أحدٍ -بالقياسِ إلى منافع الدُّنيا كلِّها- كالذَّرَّةِ بالقياسِ إلى البحرِ؟! فظَهَر مِن هذا أنَّ منافعَ الدُّنيا لا نِسبةَ لها إلى مَنافعِ الآخرةِ الْبَتَّةَ، فكان مِن الجهلِ العظيمِ ترْكُ منافعِ الآخرةِ لاسْتِبقاءِ منافعِ الدُّنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إثباتُ صِفةِ الكلامِ له سُبحانَه مِن وجهَينِ: النِّداءِ والقولِ، وهذه الآياتُ -الَّتي فيها إثباتُ كلامِه سُبحانَه- تدُلُّ بمجموعِها على أنَّ اللهَ يَتكلَّمُ بكلامٍ حقيقيٍّ، متى شاءَ، بما شاءَ، بحرفٍ وصَوتٍ مسموعٍ، لا يُماثِلُ أصواتَ المخلوقينَ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: النِّداءُ الأوَّلُ عن سؤالِ التَّوحيدِ، والثَّاني فيه إثباتُ النُّبوَّاتِ[٣]، فالنَّاسُ يُسألونَ عن إيمانِهم بالرُّسلِ، كما يُسألونَ عن التَّوحيدِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أنَّه لا يُغني أحَدٌ عن أحدٍ يومَ القيامةِ، ولا يُنقِذُه ممَّا وَقَع فيه[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٤)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٥).

﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ فضيلةُ هذه الأوصافِ الثَّلاثةِ: التَّوبةِ، والإيمانِ، والعملِ الصَّالحِ، وأنَّها سببٌ للفلاحِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أنَّ العملَ لا يَنفعُ إلَّا إذا كان صالِحًا، وهو ما جَمَعَ شَرطينِ؛ هما: الإخلاصُ، والمتابعةُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ ...﴾ فيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا﴾ [القصص: ٥٧] إلى الخِطابِ بقولِه: ﴿أُوتِيتُم﴾؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِنَ الكلامِ أَوْجَب تَوجيهَ التَّوبيخِ مُواجَهةً إليهم(٣).

- وفي قَولِه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قالَه هنا بالواوِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾، وفي سُورةِ (الشُّورَى) قال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الشورى: ٣٦] بالفاءِ؛ لأنَّ ما هنا لم يَتعَلَّقْ بما قبْلَه كبيرَ تعلُّقٍ، فناسَبَ الإتيانُ به بالواوِ المُقْتَضِيةِ لمُطْلَقِ الجَمْعِ، وما هناك مُتعلِّقٌ بما قبْلَه أشَدَّ تعلُّقٍ؛ لأنَّه عَقَّبَ ما لهم مِنَ المَخافَةِ بما لهم مِنَ الأَمَنةِ، فناسَبَ الإتيانُ به بالفاءِ المُقْتَضِيةِ للتَّعقيبِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾ قالَه هنا بزيادةِ: ﴿وَزِينَتُهَا﴾، وفي (الشُّورَى) بحَذْفِه؛ لأنَّ ما هنا -لسَبْقِه- قُصِدَ فيه ذِكْرُ جميعِ ما بُسِطَ مِنْ رِزْقِ أعْراضِ الدُّنيا، فذَكَرَ ﴿وَزِينَتُهَا﴾ مع المَتاعِ؛ لِيَسْتَوْعِبَ جميعَ ذلك؛ إذِ المتاعُ ما لا بُدَّ منه في الحياةِ؛ مِنْ مَأكولٍ، ومَشْروبٍ، ومَلْبُوسٍ، ومَسْكَنٍ، ومَنْكُوحٍ، والزِّينةُ ما يَتجمَّلُ به الإنسانُ وقد يُسْتَغنى عنه؛ كالثِّيابِ الفاخرةِ، والمراكبِ الرَّائقةِ، والدُّورِ المجصَّصةِ، والأطعمةِ الملبَّقةِ (اللَّيِّنة)، وحذَفَه في (الشُّورى) اختِصارًا، أو لأنه لم يُقصَدِ الاستيعابُ، بلْ ما هو مطلوبُهم في تلك الحالةِ مِن النَّجاةِ والأمْنِ في الحياةِ، فلم يُحْتَجْ إلى ذِكْرِ الزِّينةِ[1].

- وقيل: إنَّ سُورةَ (القصصِ) تضمَّنت ذِكْرَ قارونَ وما أُوتِيَه من المالِ الَّذي هو زِينةُ الحياةِ الدُّنيا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، ثمَّ أخبَرَ تعالى عن زَهْوِه واختيالِه بمالِه وظَنِّه استِحقاقَه إيَّاه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]، حتَّى قال مَن غفَلَ عن آخرتِه ولم يَعلَمْ ما أعدَّ اللهُ فيها للمؤمنينَ: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩]، فقدَّم سُبحانَه للمُعتبِرينَ من عبادِه المؤمنينَ، وتنبيهًا للغافِلينَ؛ لتَحصُلَ السَّلامةُ للسُّعداءِ ممَّن عصَمَ بما ابْتَلى به قارونَ؛ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ -أي: للمؤمنينَ- ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]، وقد أخبَرَهم سُبحانَه في موضعٍ آخَرَ أنَّ الدُّنيا وحياتَها غُرورٌ، وأخبَرَهم أنَّ الآخرةَ هي دارُ القرارِ، وبعْدَ تَحذيرِ المؤمنينَ ورَدَت قِصَّةُ قارونَ، فالتَحمَتِ الآيةُ بتلك القِصَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٢).

وقيلَ هنا: ﴿وَزِينَتُهَا﴾، كما قيل في تلك: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]، ومَنِ الَّذي يَعدِلُ عمَّا عندَ اللهِ سُبحانَه إلى ما جعَلَه تعالى سببًا لإهلاكِ المشركينَ؟! فتناسَبَ هذا كلُّه وتلاءَمَ.

ولم يقَعْ في آيةِ (الشُّورى) ذِكْرُ (وزينتُها)؛ إذ لم يَرِدْ فيها ما ورَدَ هنا ممَّا اسْتَدعَى هذه المناسبةَ، ولم يَرِدْ في سُورةِ (الشُّورى) مِن أوَّلِها إلى آخِرِها ذِكْرُ بسْطِ حالٍ دُنياويٍّ لأحدٍ، بلْ تضمَّنَت حقارةَ الدُّنيا ونَزارةَ رِزْقِها، وأنَّه مَقْدورٌ غيرُ مبسوطٍ، وتلك حالُ الأكثرِ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال عندَ ذِكرِ مَنِ اختارَ الدُّنيا ومالَ إليها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، فقال: ﴿مِنْهَا﴾ بأداةِ التَّبعيضِ، فلم يقَعْ في هذه السُّورةِ ما يَستدعي ذِكْرَ الزِّينةِ الماليَّةِ؛ فلذلك لم تُذْكَرْ، واللهُ أعلَمُ[1].

- وأيضًا عُقِّبَت الآيةُ هنا بقولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، وفي سُورةِ (الشُّورى) بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]؛ وذلك لأنَّ قولَه تعالى في آيةِ (القصصِ): ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مُلتحِمٌ أوضحَ الْتِحامٍ بما اتَّصلَ به مِن قولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، فكأنْ قد قِيل بعْدَ قولِه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]، وكأنْ قد قيل: أفلا تعقِلون ما بيْنَ الأمْرَينِ؟! ثمَّ أخبَرَ بقولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في العذابِ الذي لا آخِرَ له، فقولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من تَمامِ ما قبْلَه، وذلك بَيِّنُ التَّناسُبِ.

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٤، ٣٨٥).

ولَمَّا ورَدَ قبْلَ آيةِ (الشُّورى): ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقولُه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥]، وقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]، وقولُه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢]، وقولُه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١]؛ ناسبَ هذا المتقدِّمَ مِن التَّخويفِ ما يُنبِّئُ المؤمنينَ المستجيبينَ بأصنافِ قولِه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾؛ فقولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الشورى: ٣٦] أي: بكلِّ هذا، وبما يجِبُ الإيمانُ به، وعَلِموا انفرادَه سُبحانَه بالخلْقِ والأمْرِ، فتوكَّلوا عليه؛ فأُعْقِبَت كلُّ آيةٍ منها بما يُناسِبُها، ووردَتْ على ما يجِبُ، واللهُ أعلَمُ(١).

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفْهامٌ تَوْبيخيٌّ وتَقْريريٌّ على عدَمِ عَقْلِ المُخاطَبينَ، تَفرَّعَ على الخبَرِ السَّابقِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا لم يَستَدِلُّوا بعُقولِهم على طريقِ الخَيرِ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَنْ أفْسَدَ عَقْلَه، فسُئِلوا: أهُمْ كذلكَ(٢)؟

- وقُرِئَ قولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: (أَفَلَا يَعْقِلُونَ) بياءِ الغَيْبةِ(٣) على الالْتِفاتِ عن خِطابِهم؛ لِتَعَجُّبِ المُؤمنينَ مِنْ حالِهم، وقيل: لأنَّهم لَمَّا كانوا لا يَعْقِلونَ نُزِّلوا مَنزِلةَ الغائبِ؛ لبُعْدِهم عن مَقامِ الخِطابِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٢)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي =

٢- قولُه تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ هذه الآيةُ كالنَّتيجةِ للَّتي قَبْلَها؛ ولذلك رُتِّبَتْ عليها بالفاءِ، وهي أيضًا تقريرٌ وإيضاحٌ للَّتي قَبْلَها؛ أمَّا كَونُها تقريرًا فإنَّه ضَرَب المَعْنَيين -﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾- مَثَلًا في هذه الآيةِ، وأخرَجَهما مُخْرَجَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّه به، وأدْخَلَ همزةَ الإنكارِ على فاءِ التَّعْقيبِ العاطفةِ لهذه الجملةِ على الأُولَى: ﴿ أَفَمَن ﴾، فموقِعُ هذه الفاءِ أنَّه قد ذَكَر في الآيةِ الَّتي قبْلَها مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا وما عِنْدَ اللهِ وتَفاوُتَهما، ثمَّ عقَّبَه بقولِه: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ ... ﴾ على معنى: أبَعْدَ هذا التَّفاوُتِ الظَّاهِرِ يُسوَّى بيْنَ أبناءِ الآخِرَةِ وأبناءِ الدُّنيا؟! فهو تَرْتيبُ إنكارِ التَّشابُهِ بينَ أهلِ الدُّنيا وأهلِ الآخرةِ على ما قَبْلَها مِنْ ظُهورِ التَّفاوُتِ بيْنَ مَتاعِ الحياةِ الدُّنيا وبينَ ما عِنْدَ اللهِ تعالى.

وأمَّا البَيانُ فإنَّهُ تعالى ذَكَر أنَّ ما أُوتُوا مِنْ شيءٍ فهو تمتُّعٌ وزينةٌ أيامًا قَلائلَ، ولم يُبَيِّنْ في تلكَ الآيةِ مآلَها وسُوءَ مغَبَّتِها؛ فبَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ المَآلَ أنَّهم يَحْضُرونَ النَّارَ، وذَكَر فيها أنَّ ما عِنْدَ اللهِ خيرٌ وأبْقى، ولم يُبيِّنِ العاقبةَ فيه؛ فبَيَّنَ في هذه أنَّ المَوْعودَ الجنَّةُ[(١)]؛ فمَوْقِعُ فاءِ التَّفْريعِ هنا: أنَّ ممَّا أَوْمَأَ إليه قولُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٦٠] ما كان المُشركونَ يَتبَجَّحُونَ به على المُسلمينَ مِنْ وَفْرةِ الأموالِ ونَعيمِ التَّرَفِ، في حينِ كان مُعظَمُ المُسلمينَ فُقراءَ ضُعَفاءَ؛ فيَظْهَرُ مِنْ آياتِ القُرآنِ أنَّ المُشركينَ كان من دأْبِهِمُ التَّفاخُرُ بما هم فيه مِنَ النِّعمةِ، وهي تُفيدُ مع ذلكَ تحقيقَ مَعنى الجملةِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ الثانيةَ زادَتِ الأُولى بَيانًا بأنَّ ما أُوتُوهُ زائِلٌ زَوالًا مُعَوَّضًا بضِدِّ المتاعِ والزِّينةِ، وذلكَ

= حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨٧، ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

قولُه: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[(١)].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ﴾ مُستعمَلٌ في إنكارِ المُشابَهةِ والمُماثَلةِ الَّتي أفادَها كافُ التَّشْبيهِ؛ فالمَعنى: أنَّ الفريقَينِ ليسُوا سواءً؛ إذْ لا يَستَوي أهلُ نعيمٍ عاجلٍ زائلٍ، وأهلُ نعيمٍ آجلٍ خالدٍ[(٢)].

- وجملةُ ﴿فَهُوَ لَـٰقِيهِ﴾ مُعترِضةٌ؛ لِبَيانِ أنَّه وعْدٌ مُحقَّقٌ، وقولُه: ﴿فَهُوَ لَـٰقِيهِ﴾ أيْ: مُدْرِكُه لا مَحالةَ لامْتِناعِ الخُلْفِ في وَعْدِه تعالى؛ جِيءَ بالجُملةِ الاسْمِيَّةِ المُفيدةِ لتحقُّقِه الْبَتَّةَ، وعُطِفَتْ بالفاءِ المُنْبِئةِ عن مَعنى السَّبَبِيَّةِ؛ لأنَّ لِقاءَ المَوْعودِ مُسَبَّبٌ عن الوَعْدِ الَّذي هو الضَّمانُ في الخيرِ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فهِيَ مِن تَمامِ صِلَةِ المَوصولِ، داخلٌ معه في حَيِّزِ الصِّلةِ، مُؤكِّدٌ لإنكارِ التَّشابُهِ، ومُقرِّرٌ له؛ كأنَّه قِيلَ: كمَنْ متَّعْناهُ مَتاعَ الحياةِ الدُّنْيا، ثم نُحْضِرُه أو أحْضَرْناه يومَ القيامةِ النَّارَ أوِ العذابَ. وإيثارُ الجُملةِ الاسْمِيَّةِ؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ حَتْمًا. وفي جَعْلِه مِن جُملةِ المُحْضَرينَ مِن التَّهويلِ ما لا يَخْفى[(٤)].

- و(ثُمَّ) قيلَ: للتَّراخي في الزَّمانِ، وقيلَ: للتَّراخي الرُّتَبي؛ لبيانِ أنَّ رُتبةَ مَضْمُونِها في الخَسارةِ أعظَمُ مِن مضمونِ الَّتي قبْلَها، أيْ: لم تَقْتَصِرْ خَسارتُهم على حِرْمانِهم مِن نعيمِ الآخرةِ، بل تَجاوَزَتْ إلى التَّعويضِ بالعَذابِ الأليمِ؛ فـ(ثُمَّ) لتَراخي حالِ الإحْضارِ عن حالِ التَّمْتيعِ، لا لِتَراخي وقتِه عن وقتِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

وذلك لأنَّه أبلَغُ وأكثرُ إفادةً؛ لأنَّ تأخُّرَ زمانِ الإحْضارِ عن زمانِ التَّمْتيعِ ظاهرٌ بَيِّنٌ، لا يَحتاجُ إلى التَّنْبيهِ عليه(١).

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أيْ: مِنَ المُحْضَرينَ للجَزاءِ؛ على ما دَلَّ عليه التَّوبيخُ في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، والمُقابَلةُ في قولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا...﴾ المُقْتَضِيةُ أنَّ الفريقَ المُعَيَّنَ مَوْعُودونَ بضِدِّ الحَسَنِ؛ فحُذِف مُتعلَّقُ المُحْضَرينَ اختِصارًا(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تَخلُّصٌ مِن إثباتِ بَعثةِ الرُّسُلِ وبَعْثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى إبْطالِ الشُّركاءِ للهِ؛ فالجملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [القصص: ٦١]، مُفيدةٌ سببَ كَونِهم مِنَ المُحْضَرينَ، أيْ: لأنَّهم اتَّخذُوا مِن دونِ اللهِ شُركاءَ، وزَعَموا أنَّهم يَشْفَعُونَ لهم، فإذا هم لا يَجِدونَهم يومَ يُحضَرونَ للعذابِ، فيَجوزُ أنْ يكونَ مَبدأُ الجُملةِ قولَه: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، فيَكونَ عَطْفًا على جُملةِ: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، أيْ: يُحْضَرونَ ويُنادِيهم فيقولُ: أينَ شُركائي... إلخ، ويَجوزُ جَعْلُ مَبدأِ الجُملةِ قولَه: (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ)، وجَعْلُه عَطْفَ مُفرداتٍ؛ فيَكونُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) عَطْفًا على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]؛ فيَكونُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) عَيْنَ يوم القيامةِ، وكان حقُّه أنْ يأتيَ بدَلًا مِن يوم القيامةِ، لكنَّه عدَلَ عن الإبْدالِ إلى العَطْفِ؛ لاخْتِلافِ حالِ ذلكَ اليومِ باخْتِلافِ العُنوانِ، فنُزِّلَ مَنزِلةَ يومٍ مُغايرٍ؛ زيادةً في تَهْويلِ ذلك اليومِ.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

ويَجُوزُ جَعْلُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) مَنصوبًا بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ بعْدَ واوِ العطفِ بتَقْديرِ: (اذْكُرْ)، أو بتَقْديرِ فِعْلٍ دَلَّ عليه مَعنى النِّداءِ. واستِفْهامُ التَّوبيخِ مِن حُصُولِ أمْرٍ فَظيعٍ، تقْديرُه: يومَ يُنادِيهِمْ يكونُ ما لا يُوصَفُ مِن الرُّعْبِ[١].

- قولُه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الاستِفْهامُ بكلمةِ (أينَ) ظاهِرُه استِفْهامٌ عنِ المكانِ الَّذي يُوجَدُ فيه الشُّركاءُ، ولكنَّه مُستعْمَلٌ كنايةً عن انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يومَئذٍ، فالاستِفْهامُ مُستَعْمَلٌ في الانْتِفاءِ[٢]، وقال: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ بِناءً على زَعْمِهم، وفيه تهكُّمٌ بهم[٣].

- ومَفْعولَا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ مَحْذُوفانِ؛ دَلَّ عليهما ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أيْ: تَزْعُمونَهم شُركائِيَ، وهذا الحَذْفُ اختِصارٌ؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليهما[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

- جُرِّدَتْ جُملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ عن حَرْفِ العَطْفِ؛ لأنَّها وَقَعَتْ في مَوقِعِ المُحاوَرةِ؛ فهي جوابٌ عن قولِه تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢][٥].

- وقيلَ: إنَّ قولَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ استِئْنافٌ مَبنيٌّ على حكايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٧).

السُّؤالِ؛ كأنَّه قيلَ: فمَاذَا صدَرَ عنهُم حينَئذٍ؟ فقيلَ: قالَ...[(١)].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وهمْ شُركاؤُهم مِنَ الشَّياطينِ، أو رُؤَساؤُهمُ الَّذينَ اتَّخذُوهمْ أربابًا مِن دُونِ اللهِ تعالى، وتَخْصيصُهم بهذا الحُكْمِ -مع شُمولِه للأتْباعِ أيضًا- لأصالَتِهم في الكُفرِ واستِحْقاقِ العذابِ، ومُسارَعَتُهم إلى الجوابِ مع كَوْنِ السُّؤالِ للعَبَدَةِ؛ إمَّا لِتَفَطُّنِهم أنَّ السُّؤالَ عنهم لاستِحْضارِهم وتَوْبيخِهم بالإضْلالِ، وجَزْمِهم بأنَّ العَبَدَةَ سيَقولونَ: هؤلاءِ أضَلُّونا، وإمَّا لأنَّ العَبَدَةَ قد قالُوه اعتِذارًا، وهؤلاءِ إنَّما قالوا ما قالوا ردًّا لقولِهم، إلَّا أنَّه لم يُحْكَ قولُ العَبَدَةِ إيجازًا؛ لظُهورِه[(٢)].

- وفي قَولِهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ ابتَدَؤُوا جَوابَهم بتَوْجيهِ النِّداءِ إلى اللهِ بعُنوانِ أنَّه ربُّهم؛ نداءً أُريدَ منه الاستِعطافُ بأنَّه الَّذي خلَقَهم؛ اعترافًا منهم بالعُبوديَّةِ، وتَمْهيدًا للتَّنصُّلِ مِن أنْ يَكُونوا هُمُ المُخْتَرِعينَ لِدينِ الشِّرْكِ؛ فإنَّهم إنَّما تَلَقَّوْه عن غيرِهم من سَلَفِهم، والإشارةُ بـ (هؤلاءِ) إلى بقيَّةِ المُنادَينَ معهم؛ قَصْدًا لأنْ يَتَميَّزوا عمَّنْ سِواهُمْ من أهلِ المَوقِفِ، وذلكَ بإلهامٍ مِنَ اللهِ؛ ليَزْدادوا رُعبًا، وأن يكونَ لهم مَطْمَعٌ في التَّخليصِ[(٣)].

- وفيه حَذْفُ مَفعولِ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ الأَوَّلِ -وهو العائدُ مِنَ الصِّلةِ إلى المَوصولِ- لكَثرةِ حَذْفِ أمْثالِه؛ لأنَّ اسمَ المَوصولِ (الَّذينَ) مُغْنٍ عن ذِكْرِه ودالٌّ عليه؛ فكان حَذْفُ العائدِ اختِصارًا، وذِكْرُ مَفعولِ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ الثَّاني اهتِمامًا بذِكْرِه؛ لعدَمِ الاستِغْناءِ عنه في الاستِعْمالِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٧، ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٩).

- وقولُهم: ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجوابُ حَقيقةً، وما قبْلَه تمهيدٌ له، وهو اسْتِئنافٌ للدَّلالةِ على أنَّهم غَوَوْا باخْتِيارِهم، وأنَّهم لم يَفْعَلوا بهم إلَّا وَسْوَسةً وتَسْويلًا، وما أكْرَهوهم على الغَيِّ بالقَسْرِ والإلْجاءِ، ولكنَّهم غَوَوْا باخْتِيارِهم غَيًّا مِثْلَ غَيِّنا باخْتِيارِنا[(١)]؛ فجُملةُ ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾؛ لأنَّ اعْترافَهم بأنَّهم أغْوَوْهُم يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ مُتعجِّبٍ: كيفَ يَعْترفونَ بمِثْلِ هذا الجُرْمِ؟ فأرادوا بيانَ الباعثِ لهم على إغْواءِ إخْوانِهم، وهو أنَّهم بَثُّوا في عامَّةِ أتْباعِهم الغَوايةَ المُستقِرَّةَ في نُفُوسِهم، وظَنُّوا أنَّ ذلكَ الاعتِرافَ يُخفِّفُ عنهم مِن العذابِ؛ بقَرينةِ قولِهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، وإنَّما لم يَقْتَصِرْ على جُملةِ: ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾؛ لقَصْدِ الاهتِمام بذِكْرِ هذا الإغْواءِ بتَأكيدِه اللَّفظيِّ، وبإجْمالِه في المرَّةِ الأُولى، وتَفْصيلِه في المرَّةِ الثانيةِ؛ فلَيسَتْ إعادةُ فِعْلِ (أَغْوَيْنَا) لمجَرَّدِ التَّأكيدِ[(٢)].

- وفيه احتباكٌ[(٣)]، حيثُ حُذِفَ أوَّلًا (فغَوَوا)؛ لدَلالةِ ﴿غَوَيْنَا﴾ عليه، وثانيًا (لَمَّا أغْوانا مَن قَبْلَنا)؛ لدَلالةِ ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ عليه[(٤)].

- وإخلاءُ الجُملتَيْنِ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ مِنَ العاطفِ؛ لِكَونِهما مُقرِّرتَينِ لمَعنى الجملةِ الأُولى[(٥)]، وجملةُ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ استِئْنافٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١، ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٨).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

والمُتَبَرَّأُ منه هو مَضمونُ جملةِ: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾؛ فهي بَيانٌ لإجْمالِ التَّبَرُّؤِ[1].

- وتقديمُ ﴿إِيَّانَا﴾ على ﴿يَعْبُدُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (يَعْبُدُونَنا)؛ للاهْتِمامِ بهذا التَّبَرُّؤِ، مع رعايةِ الفاصِلةِ[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أمْرٌ على سَبيلِ التَّهكُّمِ والاسْتِهْزاءِ بهم، أو التَّبْكيتِ لهم؛ لأنَّه يَعلَمُ أنه لا فائدةَ في دُعائِهم[3].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ فيه إسنادُ فِعْلِ القَوْلِ ﴿وَقِيلَ﴾ إلى المَفعولِ؛ لأنَّ الفاعلَ مَعلومٌ ممَّا تَقدَّمَ، أيْ: وقالَ اللهُ. وإضافةُ الشُّركاءِ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهمُ الَّذينَ ادَّعَوْا لهمُ الشَّركةَ كما في آيةِ (الأنعامِ): ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾[4] [الأنعام: ٩٤].

- قولُه: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ عطْفًا على جملةِ: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾، والرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ، والعذابُ عذابُ الآخرةِ، أيْ: أحْضَرَ لهم آلةَ العذابِ ليَعْلَمُوا أنَّ شُركاءَهم لا يُغْنُونَ عنهم شيئًا، وعلى هذا تكونُ جُملةُ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ مُستَأْنَفةً ابتِدائيَّةً مُستَقِلَّةً عن جملةِ: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٠).

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، والرُّؤيةُ أيضًا بصَريَّةً، والعذابُ عذابَ الآخرةِ، أيْ: وقد رأَوُا العذابَ فارْتَبَكوا في الاهْتِداءِ إلى سبيلِ الخَلاصِ، فقيلَ لهم: ادْعُوا شُركاءَكُم لخَلاصِكُم، وتكونَ جملةُ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ كذلكَ مُسْتَأْنفةً ابتدائيَّةً.

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الرُّؤيةُ عِلْميَّةً، وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني اختِصارًا، والعذابُ عذابَ الآخرةِ، والمَعنى: وعَلِمُوا العذابَ حائِقًا بهم، والواوُ للعطفِ أوِ الحالِ، وجملةُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأَلَ: ماذا صَنَعُوا حينَ تَحَقَّقُوا أنَّهمْ مُعَذَّبونَ؟ فأُجيبَ: بأنَّهم لو أنَّهم كانُوا يَهْتَدونَ سبيلًا لَسَلَكُوه، ولكنَّهم لا سَبيلَ لهم إلى النَّجاةِ. وعلى هذه الوُجوهِ الثلاثةِ تكونُ (لو) حرفَ شرطٍ، وجوابُها مَحذوفًا دَلَّ عليه حَذْفُ مفعولِ ﴿يَهْتَدُونَ﴾، أيْ: يَهتَدُونَ خَلاصًا أو سبيلًا، والتَّقديرُ: لَتَخَلَّصُوا منه. وعلى الوُجوهِ الثلاثةِ فَفِعْلُ ﴿كَانُوا۟﴾ مَزيدٌ في الكلامِ لِتَوكيدِ خبَرِ (أنَّ)، أيْ: لو أنَّهم يَهْتَدونَ اهتِداءً مُتمَكِّنًا مِن نُفوسِهم، وفي ذلك إيماءٌ أنَّهم حينَئذٍ لا قَرارةَ لنُفوسِهم، وصيغةُ المضارعِ في ﴿يَهْتَدُونَ﴾ دالَّةٌ على التَّجدُّدِ، فالاهتِداءُ مُنقَطِعٌ عنهُمْ، وهو كنايةٌ عن عدَمِ الاهْتِداءِ مِن أصْلِه.

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ (لو) للتَّمَنِّي المُستَعْمَلِ في التَّحسُّرِ عليهم، والمرادُ اهْتِداؤُهم في حياتِهِمُ الدُّنيا؛ كَيْلا يقَعُوا في هذا العذابِ، وفِعْلُ ﴿كَانُوا۟﴾ حينَئذٍ في مَوقعِه الدَّالِّ على الاتِّصافِ بالخبَرِ في الماضي، وصِيغةُ المُضارعِ في ﴿يَهْتَدُونَ﴾ لقَصْدِ تجدُّدِ الهُدى المُتحَسَّرِ على فَواتِه عنهم؛ فإنَّ الهُدَى لا يَنْفَعُ صاحبَه إلَّا إذا استَمَرَّ إلى آخِرِ حياتِه.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بالعذابِ عذابَ الدُّنيا، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ تقديرُه: ورَأَوْا آثارَ العذابِ، والرُّؤيةُ بصَريَّةٌ، أيْ: وَهُمْ رأَوُا العذابَ في حياتِهم،

أيْ: رأَوْا آثارَ عذابِ الأُمَمِ الَّذينَ كذَّبُوا الرُّسُلَ، وهذا في مَعنى قولِه تعالى في سورة (إبراهيم): ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وجملةُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ شَرْطٌ، جوابُه مَحذوفٌ دَلَّ عليه: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾، أيْ: بالاتِّعاظِ وبالاسْتِدلالِ بحُلولِ العذابِ في الدُّنيا على أنَّ وَراءَه عذابًا أعْظَمَ منه، لاهْتَدَوْا فأقْلَعوا عنِ الشِّرْكِ، وصدَّقوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ وهذا لأنَّه يُفيدُ مَعنًى زائدًا على ما أفادَتْه جملةُ ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾.

فهذه عِدَّةُ مَعانٍ يُفيدُها لَفْظُ الآيةِ، وكلُّها مَقْصودةٌ؛ فالآيةُ مِن جَوامعِ الكَلِمِ(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هو كقولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]؛ كُرِّرَ الحديثُ عنه باعتِبارِ تعدُّدِ ما يَقَعُ فيه؛ لأنَّ مَقامَ المَوعِظةِ يَقتَضي الإطْنابَ في تَعْدادِ ما يُستحَقُّ به التَّوبيخُ، وكُرِّرَتْ جملةُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ)؛ لأنَّ التَّكْرارَ مِن مُقتَضياتِ مَقامِ المَوعظةِ، وهذا تَوْبيخٌ لهُمْ على تَكْذيبِهم الرُّسُلَ بعدَ انقِضاءِ تَوبيخِهم على الإشْراكِ باللهِ(٢).

- والاستِفهامُ بـ﴿مَاذَآ﴾ صُوريٌّ، مَقْصودٌ منه إظْهارُ بَلْبَلَتِهم(٣).

٧- قولُه تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أصْلُه: (فعَمُوا عنِ الأَنْباءِ)، وقد عَكَسَ هنا؛ للمُبالَغةِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ما يَحْضُرُ الذِّهْنَ يفيضُ عليه، ويَصِلُ إليه مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٠، ١٦١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦١، ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٢).

خارجٍ، فإذا أخْطَأه لم يَكُنْ له حيلةٌ إلى اسْتِحضارِه، وتَعْدِيةُ الفِعْلِ بـ (على)؛ لِتَضَمُّنِه مَعنى الخَفاءِ والاشْتِباهِ[١].

- وأتى بلَفْظِ الماضي ﴿فَعَمِيَتْ﴾؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ تَخَلَّلَ بينَ حالِ المُشركينَ ذِكْرُ حالِ الفريقِ المُقابِلِ -وهو فريقُ المُؤمنينَ- على طريقةِ الاعْتِراضِ؛ لأنَّ الأحوالَ تَزْدادُ تميُّزًا بذِكْرِ أضْدادِها، والفاءُ في ﴿فَأَمَّا﴾ للتَّفريعِ على ما أفادَه قولُه: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ [القصص: ٦٦] مِنْ أنَّهم حَقَّ عليهم العذابُ[٣].

- ولَمَّا كانتْ (أمَّا) تُفيدُ التَّفصيلَ -وهو: التَّفكيكُ والفَصْلُ بيْنَ شَيئَينِ أو أشياءَ في حُكمٍ- فهي مُفيدةٌ هنا أنَّ غيرَ المُؤمنينَ خاسِرونَ في الآخرةِ، وذلكَ ما وَقَعَ الإيماءُ إليه بقولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦]؛ فإنه يَكتَفي بتَفْصيلِ أحدِ الشَّيئينِ عن ذِكْرِ مُقابِلِه[٤].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ التَّوبةُ هنا: الإقْلاعُ عن الشِّركِ، والنَّدَمُ على تقَلُّدِه، وعَطْفُ الإيمانِ عليها؛ لأنَّ المَقصودَ حُصولُ إقْلاعٍ عن عقائدِ الشِّرْكِ، وإحْلالِ عَقائدِ الإسلامِ مَحلَّها؛ ولذلكَ عَطَفَ عليه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ بعضَ أهلِ الشِّرْكِ كانوا شاعِرينَ بفَسادِ دينِهم[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ (عَسَى) للتَّحقيقِ على عادةِ الكرامِ، أو للتَّرجِّي مِنْ قِبَلِ التَّائبِ، بمعنى: فلْيَتَوَقَّعِ الإفْلاحَ؛ فهي تَرَجٍّ لتَمْثيلِ حالِهم بحالِ مَنْ يُرجى منه الفَلاحُ[١].

- وقولُه: ﴿أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أشَدُّ في إثباتِ الفَلاحِ مِن: (أَنْ يُفْلِحَ)؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّهم مِن جُملةِ المفلحينَ وزُمْرَتِهم[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٤).

الآيات (٦٨-٧٠)

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾: أي: الاختيارُ، وأصلُ (خير): العَطفُ والميلُ(١).

﴿تُكِنُّ﴾: أي: تُخفي، وتَستُرُ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ مَرَدَّ الأمورِ جميعِها إليه، وأنَّه هو صاحبُ الخَلقِ والأمرِ، فيقولُ: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يخلُقُ ما يشاءُ خَلْقَه، ويختارُ ما يَشاءُ مِن الأمورِ والأشياءِ، ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ وَحْدَه يَختارُ ما يشاءُ، تَنَزَّهَ اللهُ وتقدَّس عَمَّا يُشرِكون، وربُّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ ما تُخفي صدورُ عبادِه وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ، وهو اللهُ لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو، هو وحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وله وحْدَه الحُكمُ في الدُّنيا والآخرةِ، وإليه وحْدَه تُرَدُّون بعدَ مَوتِكم فيُحاسِبُكم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا متَّصِلٌ بذِكرِ الشُّركاءِ الَّذين عبَدوهم واختاروهم للشَّفاعةِ، أي: الاختيارُ إلى اللهِ تعالى في الشُّفعاءِ لا إلى المشركينَ[(١)].

وأيضًا بعدَ أن وبَّخهم فيما سلَف على اتِّخاذِهم الشُّركاءَ، وذكَر أنَّه يَسألُهم عنهم يومَ القيامةِ تهكُّمًا بهم وتقريعًا لهم- أردَفَ ذلك بتجهيلِهم على اختيارِ ما أشرَكوه، واصطفائِهم إيَّاه للعبادةِ، وأبانَ لهم أنَّ تمييزَ بعضِ المخلوقاتِ عن بعضٍ، واصطفاءَه على غيرِه مِن حقِّ الله لا مِن حقِّكم أنتم[(٢)].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يخلُقُ ما يَشاءُ خَلْقَه، ويختارُ ما يَشاءُ مِن الأمورِ والأشياءِ، فيَصطفي مَن يشاءُ للرِّسالةِ والهِدايةِ، ويُفضِّلُ مَن يشاءُ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، والأمكِنةِ والأزمِنةِ، وغَيرِ ذلك[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور: ٤٥، ٤٦].

وعن واثِلةَ بنِ الأَسْقَعِ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إنَّ اللهَ اصطفَى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفَى قُريشًا مِن كِنانةَ، واصطفَى مِن قُرَيشٍ بني هاشِمٍ، واصطفاني مِن بني هاشِمٍ))(١).

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾.

أي: ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ يختارُ وَحْدَه ما يَشاءُ(٢).

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ وارتفَعَ عن شِركِ المُشرِكينَ وكَذِبِهم عليه؛ فهو وَحْدَه

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥١، ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عطية: (ويحتَمِلُ أن يريدَ: ويختارُ اللهُ تعالى الأديانَ والشَّرائعَ، وليس لهم الخِيَرةُ في أن يَميلوا إلى الأصنامِ ونَحوِها في العبادة، ويؤيِّدُ هذا التأويلَ قَولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٦).

المتفَرِّدُ بالخَلقِ والاختيارِ دونَ آلهتِهم الَّتي لا تَخلُقُ ولا تختارُ شَيئًا[1].

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾.

أي: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ ما تُخفي وتُضمِرُ نفوسُ عبادِه، وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ[2].

كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه فَسادَ طريقِ المُشرِكينَ مِن قَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [القصص: ٦٢] خَتَمَ الكلامَ في ذلك بإظهارِ هذا التَّوحيدِ، وبيانِ أنَّ الحَمدَ والثَّناءَ لا يَليقُ إلَّا به[3].

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو دونَ ما سِواه[4].

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

أي: هو وَحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ في الدُّنيا والآخِرةِ على أفعالِه وإحسانِه، وأسمائِه وصِفاتِه(١).

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

أي: وللهِ وَحْدَه الحُكمُ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ففي الدُّنيا يَحكُمُ بينَ عِبادِه بِشَرْعِه وقَدَرِه، وفي الآخرةِ يَقضي بيْنَهم بعَدْلِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُحاسِبُكم في الآخرةِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ التَّحذيرُ والتَّرغيبُ؛ تحذيرُ الإنسانِ أنْ يُضمِرَ أو يُعلِنَ سوءًا؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ به، وتَرغيبُه في أن يُضمِرَ أو يُعلِنَ خيرًا؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُه، واللهُ أعلمُ بما أضمَرَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ومعناه أنَّه لن يَضيعَ؛ فهو مَعلومٌ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى في آياتٍ كثيرةٍ إنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

يَعلَمُ، ويُخبِرُ يومَ القيامةِ عمَّا عَمِلَ هؤلاءِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآيةُ تعليلٌ لبُطلانِ آلهةِ المُشرِكينَ، وإثباتٌ للألوهيَّةِ للهِ، وذلك عن طريقِ إثباتِ الخَلْقِ؛ فإنَّ الخالِقَ هو الَّذي يجِبُ أنْ يُعبَدَ؛ لقولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فإنَّ هذا الوصفَ تعليلٌ للأمرِ؛ فإنَّ الخالقَ يجبُ أن يكونَ هو الإلهَ المعبودَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، فإذا كانوا لا يَخلُقون فكيف يَستحِقُّون أن يُعبَدوا؟ قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]. فهنا قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لإلزامِ هؤلاءِ المشركينَ بعبادتِه سُبحانَه وَحْدَه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لمْ يَقُلْ: «مَن يشاءُ» لِيَشمَلَ الأعيانَ والأوصافَ، فاللهُ تعالى خالِقُ كلِّ شيءٍ: الأعيانِ والأوصافِ؛ ولهذا فإنَّ من مَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للعبدِ، ولأفعالِ العبدِ -الَّتي هي أوصافُه-، فاللهُ تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩).

وقال ابنُ القيم: («ما» اسمٌ مبهَمٌ في غايةِ الإبهامِ، حتَّى إنَّها تقعُ على كلِّ شَيءٍ، وتقعُ على ما ليس بشَيءٍ، ألَا تراكَ تقولُ: إنَّ اللهَ يعلمُ ما كان وما لم يكُنْ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣١). ويُنظر: ((نتائج الفكر)) للسهيلي (ص: ١٣٩).

٣- إثباتُ الإرادةِ للهِ سُبحانَه وتعالى؛ لِقَولِه: ﴿وَيَخۡتَارُ﴾، والإرادةُ هنا إنْ نظَرْنا إلى قرْنِها بالخَلْقِ قُلْنا: هي الكَونيَّةُ، وإنْ نظَرْنا إلى لفْظِها -بقَطعِ النَّظَرِ عن اقتِرانِها بالخَلْقِ- قُلْنا: إنَّها شامِلةٌ لِلْكَونيَّةِ وللشَّرعيَّةِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى يَختارُ كَونًا وشَرْعًا ما يَشاءُ، وهذا العُمومُ أَولى[(١)].

٤- احتجَّ الجَبريَّةُ بقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ على مذهبِهم، فقالوا: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الإنسانَ لا اختيارَ له، وأنَّه مُجبَرٌ على فِعْلِه!

والجوابُ عن ذلك: أنَّ معنَى الآيةِ: ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ يختارُ وَحْدَه ما يَشاءُ[(٢)]، فليس في الآيةِ نفْيٌ لأصلِ صِفةِ الاختيارِ عن الإنسانِ.

ويُجابُ أيضًا بأنَّ المرادَ: ما كان لهم الخِيَرةُ المُطْلَقةُ، أي: الَّتي تكونُ بدُونِ اللهِ، فالنَّفيُ مُسَلَّطٌ هنا على الخِيَرةِ المُطلَقةِ؛ لأنَّ الآياتِ تَشهدُ بأنَّ الإنسانَ يختارُ، وله إرادةٌ ومشيئةٌ، ومنها قولُه تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، فهو سُبحانَه وتعالى أثبَتَ للإنسانِ مَشيئةً.

والواقعُ أيضًا يَشهَدُ بأنَّ للإنسانِ خِيَرةً، فالإنسانُ يُفَرِّقُ بيْنَ الفِعلِ الاختياريِّ، والفِعلِ غيرِ الاختياريِّ؛ فالإنسانُ إذا نَزَل مِنَ السَّطحِ بالدَّرَجِ فنُزولُه اختياريٌّ، ولكنْ إذا دَفَعَه أحَدٌ مِن أعلى الدَّرَجِ فتدحرَجَ، فنُزولُه غيرُ اختياريٍّ، والعُلماءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١).

يقولون في كثيرٍ من الكَفَّاراتِ: يُخَيَّرُ بينَ كذا وكذا[١]، لكنَّ مشيئةَ الإنسانِ تابعةٌ لمشيئةِ الله عزَّ وجلَّ؛ قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢] [التكوير: ٢٨، ٢٩].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ انفرادُ اللهِ عزَّ وجلَّ بالإرادةِ المُطْلَقةِ؛ فلا مُعَقِّبَ لحُكْمِه، ولا رادَّ لقَضائِه[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ سؤالٌ: هَلَّا اكتفى بقَولِه تعالى: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ عن قَولِه: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ عِلْمَ الخَفيِّ لا يَستلزِمُ عِلْمَ الجَليِّ؛ إمَّا لبُعْدٍ، أو لَغَطٍ، أو اختِلاطِ أصواتٍ يَمنعُ تمييزَ بعضِه عن بعضٍ، أو غيرِ ذلك؛ لهذا قال: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ سؤالٌ: أنَّ الحمدَ في الدُّنيا ظاهِرٌ؛ فما الحمدُ في الآخرةِ؟

الجوابُ: أنَّهم يَحمَدونَه بقَولِهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، والتَّوحيدُ هناك على وَجهِ اللَّذَّةِ لا الكُلْفةِ، وفي الحَديثِ ((يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ))[٥]. وفي حديثِ الشَّفاعةِ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ويُلهِمُني مَحامِدَ أَحْمَدُه بها لا تَحْضُرُني الآنَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١١٤).

والحديث أخرجه مسلم (٢٨٣٥) مطولًا من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

فأحْمَدُه بتلك المحامِدِ))[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ﴾ ظهورُ كمالِ صفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى في الدُّنيا والآخرةِ، لأنَّ الحمدَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ[٢].

٩- اختِصاصُ اللهِ تعالى بالحُكمِ؛ وأنه وحْدَه هو الحاكمُ؛ لقولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وما ذُكِرَ مِن إثباتِ الحُكمِ لغيرِه فهو أمرٌ مُقيَّدٌ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كالتَّذْييلِ، وبيانِ أنَّه هو الَّذي يَخْلُقُ ما يَشاءُ؛ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويَهدِي مَنْ يَشاءُ، ليس لأحدٍ أنْ يَتَصرَّفَ في مُلكِه ويُشارِكَه في خَلْقِه؛ ولهذا خَتَمَه بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ الابْتداءُ بقولِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تَمهيدٌ للمَقصودِ، وهو قولُه: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، أيْ: كمَا أنَّ الخَلْقَ مِنْ خَصائصِه، فكذلكَ الاخْتيارُ[٥].

- وقولُه: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنَّ مَعناهُ: ويَخْتارُ ما يَشاءُ؛ ولهذا لم يَدْخُلِ العاطِفُ[٦]، وهو استِئْنافٌ مُؤكِّدٌ لمعنى

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) واللَّفظُ له، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٠٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

القَصْرِ؛ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّ الجُملةَ قَبْلَه مُفيدةٌ مُجرَّدَ التَّقَوِّي. وصِيغةُ (ما كانَ) تدُلُّ على نَفْيٍ للكَونِ يُفيدُ أَشَدَّ ممَّا يُفيدُ لو قِيلَ: ما لهمُ الخِيرةُ[1].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمُ﴾ للمِلْك، أيْ: ما كانوا يَمْلِكونَ اختيارًا في المَخلوقاتِ حتَّى يقولوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، ونَفْيُ المِلْكِ عنهم مُقابِلٌ لقولِه: ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يُفيدُ مَعنى مِلْكِ الاخْتِيارِ. وفي ذِكْرِ اللهِ تعالى بعُنوانِ كَوْنِه ربًّا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إشارةٌ إلى أنَّه اخْتارَه لأنَّه ربُّه وخالِقُه، فهو قد عَلِمَ اسْتِعْدادَه لقَبولِ رسالَتِه[2].

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ لإنْشاءِ تَنزيهِ اللهِ وعُلُوِّه على طريقةِ الثَّناءِ عليه بتنَزُّهِه عن كلِّ نَقْصٍ، وهي مُعترِضةٌ بينَ المُتعاطفَيْنِ[3].

- وأُضِيفَ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ إلى اسمِه العَلَم دُونَ أنْ يُقالَ: (وسُبحانَه)، بَعْدَ أنْ قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ﴾ [القصص: ٦٩]؛ لأنَّ اسمَ الجلالةِ مُخْتَصٌّ به تعالى، وهو مُستَحِقٌّ للتَّنْزيهِ بذاتِه؛ لأنَّ استِحْقاقَ جَميعِ المَحامِدِ ممَّا تَضمَّنَه اسمُ الجلالةِ في أصْلِ معناهُ قبْلَ نَقْلِه إلى العَلَمِيَّةِ[4].

- ووَجْهُ تَقْييدِ التَّنزيهِ والتَّرفيعِ بـ(مَا يُشْرِكُونَ): أنَّه لم يَجترِئْ أحَدٌ أنْ يَصِفَ اللهَ تعالى بما لا يَليقُ به ويَسْتحيلُ عليه إلَّا أهْلُ الشِّرْكِ بزَعْمِهم أنَّ ما نسَبُوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

إلى اللهِ إنَّما هو كَمالٌ، مِثْلُ اتِّخاذِ الوَلَدِ، أو هو ممَّا أنبَأَهُم اللهُ به، وزَعَموا أنَّ الآلهةَ شُفَعاؤُهمْ عندَ اللهِ، وقالوا في التَّلْبِيَةِ: لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لكَ، إلَّا شَريكًا هو لكَ، تَمْلِكُه وما مَلَكَ[١]! وأمَّا ما عَدَا ذلك فهُم مُعترِفُون بالكَمالِ للهِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، أيْ: هو خالِقُهم ومُرَكِّبُهم على النِّظامِ الَّذي تَصْدُرُ عنه الأفعالُ والاعتِقاداتُ؛ فَضميرُ ﴿صُدُورُهُمۡ﴾ عائدٌ إلى (ما) مِنْ قولِه: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [القصص: ٦٨] باعتِبارِ معناها، أيْ: ما تُكِنُّ صُدورُ المَخْلوقاتِ وما يُعلِنونَ. وحيثُ أُجرِيَتْ عليهِمْ ضَمائرُ العُقلاءِ، فَقَدْ تعيَّنَ أنَّ المَقصودَ البَشَرُ مِنَ المَخْلوقاتِ، وهمُ المَقصودُ مِنَ العُمومِ في ﴿مَا يَشَآءُ﴾ [القصص: ٦٨]؛ فبِحَسَبِ ما يَعْلَمُ منهم يختارُهم ويُجازيهم؛ فحَصَل بهذا إيماءٌ إلى عِلَّةِ الاخْتِيارِ، وإلى الوَعْدِ والوَعيدِ، وهذا مُنتَهَى الإيجازِ[٣].

- وفي إحْضارِ الجلالةِ بعُنوانِ ﴿وَرَبُّكَ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ ممَّا تُكِنُّهُ صُدورُهُمْ: بُغْضَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] الآيةَ، والمَقصودُ هو قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾، وإنَّما قَدَّمَ عليه ما هو دَليلٌ على أنَّه المُنفَرِدُ بالحُكْمِ مع إدْماجِ صِفاتِ عَظَمَتِه الذَّاتيَّةِ المُقتَضِيةِ افْتِقارَ الكُلِّ إليه؛ ولذلكَ ابتُدِئَتِ الجملةُ بضَميرِ الغائِبِ؛ ليَعودَ إلى المُتحدَّثِ عنه بجَميعِ

(١) يُنظر ما رواه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨] إلى هُنا، أي: الموصوفُ بتِلْك الصِّفاتِ العظيمةِ، والفاعلُ لتلك الأفعالِ الجَليلةِ، والمَذكورُ بعُنوانِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ هو المُسمَّى الله اسمًا جامِعًا لجَميعِ معاني الكَمالِ(١).

- وأفادَ جَعْلُ اسمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبرًا لـ ﴿وَهُوَ﴾ أنَّه المُستأثِرُ بالإلهيَّةِ المُختَصُّ بها؛ ولهذا كان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقْريرًا له(٢).

- وقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبرٌ ثانٍ عن ضَميرِ الجلالةِ، وفي هذا الخبرِ الثَّاني زِيادةُ تَقريرٍ لمَدلولِ الخبرِ الأوَّلِ؛ فإنَّ اسمَ الجلالةِ اختُصَّ بالدَّلالةِ على الإلهِ الحقِّ، إلَّا أنَّ المُشركينَ حرَّفوا أو أثْبَتوا الإلهيَّةَ للأصنام، مع اعتِرافِهم بأنَّها إلهيَّةٌ دونَ إلهيَّةِ اللهِ تعالى؛ فكان من حقِّ النَّظَرِ أن يُعْلَمَ أنْ لا إلَهَ إلَّا هو؛ فكان هذا إبْطالًا للشِّرْكِ بعدَ إبْطالِه بحِكايةِ تَلاشيه عن أهْلِ مِلَّتِه يومَ القيامةِ بقولِه: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾(٣) [القصص: ٦٤].

- وأخْبَرَ عن اسْمِ الجَلالةِ خَبرًا ثانيًا بقولِه: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾، وهو اسْتِدلالٌ على انْتِفاءِ إلهيَّةِ غيرِه؛ بحُجَّةِ أنَّ الناسَ مُؤمِنَهُم وكافِرَهُم لا يَحمَدُونَ في الدُّنيا إلَّا اللهَ؛ فلا تَسمَعُ أحدًا مِنَ المُشركينَ يقولُ: الحَمْدُ للعُزَّى مثلًا؛ فاللَّامُ في ﴿لَهُ﴾ لِلمِلْكِ، أيْ: لا يَمْلِكُ الحمدَ غيرُه. وتَقْديمُ المَجرورِ (لَهُ)؛ لإفادةِ الاخْتِصاصِ، وهو اخْتِصاصٌ حَقيقيٌّ. وتعريفُ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ تعريفُ الجنسِ المفيدُ للاسْتِغراقِ، أيْ: لَهُ كلُّ حَمْدٍ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إدْماجٌ[١]؛ فإنَّ هذِه الآيةَ أُدْمِجَتْ فيها المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انْفِرادَه سُبحانَه بالحَمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحْمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في وَصْفِ ذاتِه بالانْفِرادِ والحمدِ، وهذِه -وإنْ خَرَجَ الكلامُ فيهما مَخْرَجَ المُبالَغةِ في الظَّاهِرِ- فالأمرُ فيها حَقيقةٌ في الباطنِ؛ لأنَّهُ أَوْلَى بالحمدِ في الدَّارَيْنِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ اللَّامُ فيه أيضًا للمِلْكِ، والتَّقديمُ للاخْتِصاصِ أيضًا، وحَذْفُ المُتعلَّقِ بالحُكمِ؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عليه، أيْ: له الحُكْمُ في الدَّارَينِ[٣].

- وأمَّا جملةُ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فمَسُوقةٌ مَساقَ التَّخصيصِ بَعْدَ التَّعميمِ؛ بَعْدَ أنْ أُثبِتَ للهِ كلُّ حَمدٍ وكلُّ حُكمٍ، أيْ: إنَّكم تَرْجِعونَ إليه في الآخِرةِ فتُمَجِّدُونَه، ويُجري عليكم حُكْمَه، والمَقصودُ بهذا إلْزامُهم بإثْباتِ البَعْثِ[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، وللاهتِمامِ بالانتهاءِ إليه، أي: إلى حُكْمِه[٥].



---

(١) تقدم تعريفه (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧١-٧٥)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم
بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَرْمَدًا﴾: أي: دائِمًا، وأصلُه مِن (سرد): إذا وَصَلَ -والميمُ فيه زائدةٌ-، فكأنَّه زمانٌ متَّصِلٌ بَعضُه ببَعضٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُذكِّرَ النَّاسَ بمظاهِرِ قدرتِه، وعظيمِ نعمتِه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم اللَّيلَ دائِمًا مُستمِرًّا بلا نهارٍ، مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بنهارٍ تُبصِرونَ فيه؟ أفلا تَسمَعونَ سَماعَ فَهمٍ وقَبولٍ؟! وقُلْ لهم: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم النَّهارَ دائِمًا مستَمِرًّا بلا ليلٍ، مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تستَقِرُّونَ فيه وتستريحونَ؟ أفلا تَرَوْنَ ذلك بأبصارِكم فتُوحِّدونَ اللهَ؟!

ومِن رحمةِ اللهِ بكم -أيُّها النَّاسُ- أنْ خلَقَ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يَتعاقَبانِ على الدَّوامِ؛ لمصالِحِكم، فجعَلَ اللهُ اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكنوا فيه وتَستريحوا، وجعَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨).

النَّهارَ مُضيئًا؛ لطلَبِ معايشِكم وأرزاقِكم، ولِتَشكروه على إنعامِه عليكم بهما.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى بعضَ مَشاهِدِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ فيَقولُ لهم: أين الَّذين كنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَهم شُرَكائي في العبادةِ؟

وأحضَرْنا مِن كلِّ قومٍ نبيَّهم؛ لِيَشهَدَ عليهم بالتَّبليغِ، فقُلْنا لكلِّ أُمَّةٍ كذَّبَت نبيَّها: هاتوا حُجَّتَكم على صِحَّةِ إشراكِكم باللهِ، فعَلِموا حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو المستحِقُّ وحْدَه للعبادةِ، وأنَّ ما جاءت به رُسُلُه صِدْقٌ وحَقٌّ، وغاب عنهم ما كانوا يَفتَرونَه على اللهِ في الدُّنيا مِن أنَّ معه شُرَكاءَ، فلَمْ يَنفعوهم في الآخرةِ بشَيءٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: أخْبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم اللَّيلَ دائِمًا مُستَمِرًّا بلا نهارٍ يأتي بعْدَه إلى يومِ القيامةِ[1].

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾.

أي: مَن مَعبودٌ غيرُ اللهِ يَقدِرُ على أن يأتيَكم بنَهارٍ مُنيرٍ تُبصِرونَ فيه[2]؟

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٠).

أي: أفلا تَسْمَعونَ ذلك سَماعَ فَهمٍ وقَبولٍ وانقيادٍ، وتتفَكَّرونَ فيه فتَتَّعِظونَ، وتَستَدِلُّونَ بذلك على توحيدِ اللهِ واستِحقاقِه للعِبادةِ وَحْدَه[١]؟!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم النَّهارَ دائِمًا مُستَمِرًّا بلا لَيلٍ يأتي بعْدَه إلى يومِ القيامةِ[٢].

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

أي: مَن مَعبودٌ غيرُ اللهِ يَقدِرُ على أنْ يأتيَكم بلَيلٍ تَستَقِرُّونَ فيه وتَستريحونَ[٣]؟

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفلا تَرَونَ ذلك بأبصارِكم، فتَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه، وأنَّ عِبادةَ مَنْ سِواه ضَلالٌ مُبينٌ[٤]؟!

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨).

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: ومِن رَحمةِ اللهِ بكم -أيُّها النَّاسُ- أنْ خَلَقَ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ مختلِفَين بالظُّلمةِ والضِّياءِ، يَتعاقَبانِ على الدَّوامِ لِمَصالحِكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾.

أي: جعَلَ اللهُ اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكُنوا فيه، وتَستريحوا مِن تَعَبِ أعمالِكم في النَّهارِ[(٢)].

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ النَّهارَ مُضيئًا؛ لِطَلَبِ مَعايِشِكم وأرزاقِكم[(٣)].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لِتَشكُروه على إنعامِه عليكم بهما، وتَعبُدوه وَحْدَه فيهما[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هجَّنَ طريقةَ المُشرِكين أوَّلًا، ثُمَّ ذَكَر التَّوحيدَ ودلائِلَه ثانيًا؛ عاد إلى تَهجينِ طريقتِهم مرَّةً أخرى، وشَرَحَ حالَهم في الآخرةِ، فقال[1]:

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ، فيقولُ لهم يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تدَّعُونَ كَذِبًا أنَّهم شُرَكائي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونكم ويَنصُرونكم[2]؟

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾.

أي: وأخرَجْنا وأحضَرْنا مِن كلِّ قَومٍ نبيَّهم؛ لِيَشهَدَ على أمَّتِه بالتَّبليغِ وبما أجابَتْه في دَعوتِه إلى الحَقِّ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٥، ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٦، ٣٤٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالشَّهيدِ هنا: النَّبيُّ أو الرَّسولُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، =

كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

أي: فقُلْنا لكلِّ أمَّةٍ كذَّبَت نبيَّها: هاتُوا حُجَّتَكم على صِحَّةِ إشراكِكم باللهِ[1].

﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾.

أي: فعَلِموا حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ وَحْدَه للعبادةِ، وأنَّ ما جاءت به رُسُلُه صِدقٌ وحَقٌّ مِن عِندِه[2].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

= والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وابن جُزَي، والبقاعي. يُنظر: المصادر السابقة، و((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومُجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٠٤).

وقال الواحدي: (شهيدُها: رسولُها الَّذي يَشهدُ عليها بالبلاغِ، وبما كان منها؛ في قولِ ابنِ عبَّاسٍ والمفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٧/ ٤٤٥).

وقيل: هم الشُّهداءُ الَّذين يَشهَدون على النَّاسِ في كلِّ زمانٍ، ويَدخُلُ في جُملتِهِمُ الأنبياءُ، قال الرازيُّ: (وهذا أقرَبُ؛ لأنَّه تعالى عَمَّ كلَّ أُمَّةٍ وكلَّ جماعةٍ بأن يَنزِعَ منهم الشَّهيدَ، فيَدخُلُ فيه الأحوالُ الَّتي لم يوجَدْ فيها النَّبيُّ، وهي أزمنةُ الفَتراتِ، والأزمنةُ الَّتي حصلَتْ بعدَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣).

وقيل: المرادُ بالشُّهَداءِ هنا: رُؤساءُ مُنتخَبونَ مِن رُؤساءِ المكَذِّبينَ يَتصَدَّونَ للمُجادَلةِ نيابةً عن إخوانِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

أي: وغاب عن المُشرِكينَ واضمَحَلَّ ما كانوا يَختَلِقونَه على اللهِ في الدُّنيا مِن أنَّ معه شُرَكاءَ، فلَمْ يَنفَعوهم في الآخِرةِ بشَيءٍ[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تَنبيهٌ إلى أنَّ العَبدَ ينبغي له أنْ يَتدبَّرَ نِعَمَ اللهِ عليه، ويَستبصِرَ فيها، ويَقيسَها بحالِ عَدَمِها؛ فإنَّه إذا وازَنَ بيْنَ حالةِ وُجودِها وبينَ حالةِ عَدَمِها، تَنبَّه عَقلُه لِمَوضعِ المِنَّةِ، بخِلافِ مَن جرى مع العوائِدِ، ورأى أنَّ هذا أمرٌ لم يَزَلْ مُستمِرًّا ولا يزالُ، وعَمِيَ قلْبُه عن الثَّناءِ على اللهِ بنِعَمِه، ورُؤْيةِ افتِقارِه إليها في كلِّ وقتٍ؛ فإنَّ هذا لا يُحْدِثُ له فِكرةَ شُكرٍ ولا ذِكْرٍ[2].

٢- الحَثُّ على التَّبَصُّرِ في آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لِقَولِه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ هذا يُفيدُ حَثَّ الإنسانِ أن يتبَصَّرَ فيما جعَلَه اللهُ عزَّ وجَلَّ في هذه الآياتِ؛ حتَّى يَستَدِلَّ بها على كَمالِ قُدرةِ الخالِقِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ...﴾ هو من أبدَعِ الاستِدلالِ؛ حيثُ اختيرَ للاستِدلالِ على وحدانيَّةِ اللهِ هذا الصُّنعُ العَجيبُ المتكرِّرُ كلَّ يومٍ مرَّتينِ، والَّذي يَستوي في إدراكِه كلُّ مميِّزٍ، والَّذي هو أجلى مَظاهِرِ التَّغَيُّرِ في هذا العالَمِ؛ فهو دَليلُ الحُدوثِ، وهو ممَّا يَدخُلُ في التَّكيُّفِ به جميعُ الموجوداتِ في هذا العالَمِ حتَّى الأصنامُ؛ فهي تُظلِمُ وتَسْوَدُّ أجسامُها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٢).

بظَلامِ اللَّيلِ، وتُشْرِقُ وتُضيءُ بضياءِ النَّهارِ، وكان الاستِدلالُ بتعاقُبِ الضِّياءِ والظُّلمةِ على النَّاسِ أقوى وأوضَحَ مِنَ الاستِدلالِ بتكوينِ أحدِهما لو كان دائِمًا؛ لأنَّ قُدرةَ خالقِ الضِّدَّينِ، وجاعلِ أحدِهما يَنْسَخُ الآخَرَ كلَّ يوم: أظهَرُ منها لو لم يَخلُقْ إلَّا أقواهما وأنفعَهما، ولأنَّ النِّعمةَ بتَعاقُبِهما دومًا أشدُّ مِن الإنعامِ بأفضَلِهما وأنفَعِهما؛ لأنَّه لو كان دائِمًا لكان مَسؤومًا[(١)]، ولحَصَلَتْ منه طائفةٌ مِن المنافِعِ وفُقِدَت مَنافِعُ ضِدِّهِ؛ فالتَّنَقُّلُ في النِّعَمِ مَرغوبٌ فيه، ولو كان تَنَقُّلًا إلى ما هو دُونٌ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ أنَّه لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُغيِّرَ سُنَّةَ اللهِ في الكَونِ، فلو جَعَله سَرْمَدًا ما استطاع أحدٌ أنْ يُزيلَه[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ على العبادِ بضياءِ النَّهارِ، فكم تَستَهلِكُ الأُمَّةُ مِن طاقةٍ في إضاءةِ اللَّيلِ الَّذي لا يكونُ مثلَ إضاءةِ النَّهارِ؟ وبهذا نَعرِفُ قدْرَ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بهذا الضِّياءِ الَّذي يَصِلُ إلى النَّاسِ بكَمِّيَّاتٍ كبيرةٍ[(٤)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أنَّ نَومَ اللَّيلِ أفيَدُ للجِسمِ مِن نَومِ النَّهارِ؛ حيثُ جَعَلَ اللهُ اللَّيلَ محَلَّ سَكَنٍ ووَقْتَه، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ[(٥)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقَولُه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إنَّما قاله؛ لأنَّ

---

(١) أي: مُمَلًّا، يقالُ: سَئِم مِن الشَّيءِ، أي: مَلَّهُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢).

الغَرَضَ مِن ذلك الانتِفاعُ بما يَسمَعونَ ويُبصِرونَ مِن جِهةِ التَّدَبُّرِ، فلمَّا لم يَنتَفِعوا نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أنَّه وإنْ كان السُّكونُ في النَّهارِ مُمكِنًا، وابتغاءُ فَضلِ اللهِ باللَّيلِ مُمكِنًا، فإنَّ الألْيَقَ بكلِّ واحدٍ منهما ما ذَكَرَه اللهُ تعالى به؛ فلِهذا خَصَّه به[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أنَّ اللَّيلَ للسَّكَنِ، والنَّهارَ لطَلَبِ المعاشِ؛ فقَولُه: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ في اللَّيلِ، وقَولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النَّهارِ، وتتفَرَّعُ على هذه المسألةِ فائِدةٌ في القِسمةِ بيْنَ الزَّوجَتَينِ: إذا كانت للإنسانِ زَوجتانِ، وأراد أنْ يَقْسِمَ بيْنَهما؛ فإنَّ مدارَ القَسْمِ على اللَّيلِ لِمَن معاشُه في النَّهارِ، والنَّهارِ لِمَن معاشُه في اللَّيلِ، فإذا أَشْكَلَ علينا الأمرُ فالعِمادُ هو اللَّيلُ؛ لأنَّه محَلُّ السَّكَنِ[3].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ حيثُ قال: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ أي: لِتَطلُبوا؛ فالرِّزقُ لا يأتي مِن السَّماءِ ويَنزِلُ، بل لا بُدَّ فيه من طَلَبٍ، وإذا لم تفعَلْ هذا السَّبَبَ الذي تحصُلُ به على الرِّزقِ، لم يَحصُلِ الرِّزقُ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى حكيمٌ رَبَطَ الأسبابَ بمُسَبَّباتِها[4].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أنَّ الرِّزقَ هو مِن اللهِ عزَّ وجلَّ وفَضْلِه وعَطائِه؛ فليس حاصِلًا بمجَرَّدِ كَدِّ الإنسانِ وكَدْحِه؛ فكم مِن إنسانٍ يَكُدُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٩).

ويَكدَحُ، ومع ذلك يكونُ رِزقُه ضَيِّقًا! وكم مِن إنسانٍ يَفعَلُ أسبابًا أقَلَّ ممَّا فعَله الأوَّلُ، ثمَّ يُوَسَّعُ له في الرِّزقِ[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ على انفرادِه تعالَى بالإلهيَّةِ بصِفاتِ ذاتِه، إلى الاستِدلالِ على ذلك ببَديعِ مَصْنوعاتِه، وفي ضِمْنِ هذا الاستِدلالِ إدماجُ الامْتِنانِ على النَّاسِ، وللتَّعريضِ بكُفرِ المُشركينَ جَلائلَ نِعَمِه. وسِيقَ إليهم هذا الاستِدلالُ بأُسلوبِ تَلقينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَه لهم؛ اهتمامًا بهذا التَّذكيرِ لهذا الاستِدلالِ، ولاشْتِمالِه على ضِدَّينِ مُتعاقِبَيْنِ، حتَّى لو كانتْ عُقولُهم قاصِرةً عن إدراكِ دَلالةِ أحَدِ الضِّدَّينِ لَكانَ في الضِّدِّ الآخرِ تَنْبيهٌ لهم، ولو قَصَّرُوا عن حِكمةِ كُلٍّ واحدٍ منهما كان في تعاقُبِهما ما يَكْفي للاستدلالِ. وجِيءَ في الشَّرطَينِ بحرفِ (إن)؛ لأنَّ الشَّرطَ مَفْروضٌ فرضًا مُخالفًا للواقعِ، وعُلِمَ أنَّه قَصَدَ الاستِدلالَ بعِبْرةِ خَلْقِ النُّورِ؛ فلِذلكَ فُرِضَ استِمرارُ اللَّيلِ، والمقصودُ ما بَعْدَه، وهو قولُه: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾[٢].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ تَقريريٌّ، والاستِفهامُ في ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ إنكاريٌّ، وهم مُعترِفونَ بهذا الانتفاءِ، وأنَّ خالِقَ اللَّيلِ والنَّهارِ هو اللهُ تعالى لا غيرُه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٩).

- قولُه: ﴿يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صِفةٌ أُخرى لـ﴿إِلَٰهٌ﴾، عليها يَدورُ أمْرُ التَّبْكيتِ والإلزامِ؛ كما في قولِه تعالَى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ٣١]، وقولِه تعالَى: ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ [الملك: ٣٠] ونَظائرِهما، غَيرَ أنَّه قُصِدَ بيانُ انتِفاءِ المَوصوفِ بانتِفاءِ الصِّفةِ، ولم يُقَلْ: (هل إلَهٌ... إلخ)؛ لإيرادِ التَّبكيتِ والإلزامِ على زَعْمِهم[1].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾.

- قولُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ كرَّرَ الأمرَ بالقَولِ في مَقامِ التَّقريرِ؛ لأنَّ التَّقريرَ يُناسِبُه التَّكريرُ، مِثْلَ مَقامِ التَّوبيخِ ومَقامِ التَّهويلِ[3].

- ووَصْفُ اللَّيلِ بـ﴿تَسۡكُنُونَ فِيهِ﴾ إدماجٌ[4] للمِنَّةِ في أثناءِ الاستِدلالِ؛ للتَّذكيرِ بالنِّعْمةِ المُشتَمِلةِ على نِعَمٍ كثيرةٍ، وتلكَ هي نِعمةُ السُّكونِ فيه؛ فإنَّها تَشْمَلُ لَذَّةَ الرَّاحةِ، ولَذَّةَ الخَلاصِ مِن الحَرِّ، ولَذَّةَ استعادةِ نشاطِ المَجموعِ العَصبيِّ الَّذي به التَّفكيرُ والعملُ، ولَذَّةَ الأمنِ مِن العدوِّ. ولم يُوصَفِ الضِّياءُ بشَيءٍ؛ لكثرةِ مَنافعِه، واختِلافِ أنواعِها[5]، فلمْ يَقُلْ: (بنَهارٍ تَتَصَرَّفونَ فيه)، كما قيلَ: ﴿بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِ﴾، بل ذَكَرَ الضياءَ -وهو ضَوْءُ الشَّمسِ-؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٤) تقدم تعريفه: (ص: ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

لأنَّ المنافعَ الَّتي تَتعَلَّقُ به مُتكاثِرةٌ، ليس التَّصرُّفُ في المَعاشِ وَحْدَه، والظَّلامُ ليس بتلك المنزلَةِ، ومِن ثَمَّةَ قَرَنَ بالضِّياءِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لأنَّ السَّمعَ يُدرِكُ ما لا يُدْرِكُه البصرُ مِنْ ذِكْرِ مَنافعِه، ووَصْفِ فوائِده، وقَرَنَ باللَّيلِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ غيرَكَ يُبْصِرُ مِن مَنفعةِ الظلامِ ما تُبْصِرُه أنت مِنَ السُّكونِ ونحوِه[1].

- وعَبَّرَ بالضِّياءِ دونَ النهارِ؛ لأنَّ ظُلمةَ اللَّيلِ قد تَخِفُّ قليلًا بنورِ القَمرِ؛ فكانَ ذِكْرُ الضِّياءِ إيماءً إلى ذلك[2].

- وفيه احتِباكٌ[3]؛ حيثُ ذَكَرَ الضِّياءَ أوَّلًا دليلًا على حذفِ الظَّلامِ ثانيًا؛ واللَّيْلَ والسُّكونَ ثانيًا دليلًا على حذفِ النهارِ والانتشارِ أوَّلًا[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَتَمَ آيةَ اللَّيلِ بقولِه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وآيةَ النَّهارِ بقولِه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لمُناسَبةِ اللَّيلِ المُظْلِمِ السَّاكنِ للسَّماعِ، ومُناسَبَةِ النهارِ النَّيِّرِ للإبصارِ[5].

- وقُدِّمَ اللَّيلُ على النَّهارِ؛ ليَسْتَريحَ الإنسانُ فيه، فيَقومَ إلى تَحصيلِ ما هو مُضطَرٌّ إليه مِن عبادةٍ وغيرِها بنَشاطٍ وخِفَّةٍ، ألَا تَرَى أنَّ الجنةَ نهارُها دائمٌ؛ إذْ لا تَعَبَ فيها يحتاجُ إلى لَيْلٍ يَستريحُ أهلُها فيه[6]؟ ولأنَّ ذَهابَ اللَّيلِ بطُلوعِ الشَّمسِ أكثرُ فائِدةً مِن ذَهابِ النَّهارِ بدُخولِ اللَّيلِ[7]، ولأنَّ تقديمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٦).

اللَّيلِ على النَّهارِ جارٍ على ما بَنَتِ العَرَبُ عليه حِسابَ شُهورِها مِن تقديمِ اللَّيلِ، وجَعْلِ النَّهارِ تابِعًا له، ولم يَرِدْ في كتابِ اللهِ تعالى على كثرةِ تَردادِه إلَّا ذلك[1]، ولأنَّ آيةَ اللَّيلِ عَدَميَّةٌ، وهي أسبَقُ[2].

- وفي تَعْدِيةِ فِعْلِ ﴿يَأْتِيكُم﴾ في المَوضعَيْنِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ؛ إيماءٌ إلى أنَّ إيجادَ الضِّياءِ وإيجادَ اللَّيلِ نِعمةٌ على النَّاسِ، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في أثناءِ الاستدلالِ على الانْفِرادِ بالإلهيَّةِ، وإذْ قدِ استَمَرَّ المُشركونَ على عِبادةِ الأصنامِ بعدَ سُطُوعِ هذا الدَّليلِ، وقد عَلِموا أنَّ الأصنامَ لا تَقْدِرُ على إيجادِ الضِّياءِ؛ جُعِلُوا كأنَّهم لا يَسْمَعُونَ هذه الآياتِ الَّتي أقامتِ الحُجَّةَ الواضحةَ على فَسادِ مُعتَقَدِهم، ففُرِّعَ على تلكَ الحُجَّةِ الاستفهامُ الإنكاريُّ عن انتفاءِ سَماعِهم بقولِه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، أي: أفلا تَسْمَعُونَ الكلامَ المُشتَمِلَ على التَّذكيرِ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ اللَّيلِ والضِّياءِ، ومِنه هذه الآيةُ، وليس قولُه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ تَذْييلًا[3].

- وتَفَرَّعَ على هذا الاستدلالِ أيضًا تَنْزيلُهم مَنزلةَ مَن لا يُبْصِرونَ الأشياءَ الدَّالَّةَ على عظيمِ صُنْعِ اللهِ وتفرُّدِه بصُنْعِها، وهي منهم بمَرأى الأعيُنِ، وناسَبَ السَّمعَ دَليلُ فَرْضِ سَرْمَدَةِ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ لو كانَ دائمًا لم تكُنْ للنَّاسِ رُؤيةٌ؛ فإنَّ رُؤيةَ الأشياءِ مَشْروطةٌ بانتشارِ شَيءٍ مِن النورِ على سَطْحِ الجسمِ المَرئيِّ؛ فالظُّلْمةُ الخالصةُ لا تُرى فيها المَرْئيَّاتُ؛ ولذلكَ جِيءَ في جانِبِ فَرْضِ دَوامِ اللَّيلِ بالإنكارِ على عدَمِ سَماعِهم، وجِيءَ في جانِبِ فَرْضِ دوامِ النَّهارِ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

بالإنكارِ على عدَمِ إبصارِهم، وليس قولُه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تَذْييلًا[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تَصريحٌ بنِعمةِ تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ على النَّاسِ بقولِه: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وذلكَ ممَّا دلَّتْ عليه الآيةُ السَّابقةُ بطريقِ الإدماجِ بقولِه: ﴿يَأْتِيكُم﴾، وبقولِه: ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (مِنْ) هنا للسَّببِ، أي: وبسببِ رحمتِه إيَّاكُم جَعَل لكمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، ثمَّ علَّلَ جَعْلَ كلٍّ واحدٍ منهُما؛ فبَدَأَ بعلَّةِ الأوَّلِ، وهو اللَّيلُ، وهو ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، ثمَّ بعلَّةِ الثَّاني وهو: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ثمَّ بما يُشْبِهُ العلَّةَ لِجَعْلِ هذَينِ الشَّيئينِ وهو: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، أي: هذه الرَّحمةَ والنِّعمةَ، وهذا النَّوعُ من عِلْمِ البديعِ يُسمَّى التَّفسيرَ، وهو أنْ تَذْكُرَ أشياءَ ثم تُفسِّرَها بما يُناسِبُها[(٣)].

- وقدَّمَ المَجرورَ (مِنْ رَحْمَتِهِ) على عامِلِه ﴿جَعَلَ﴾؛ للاهتِمامِ بمِنَّةِ الرحمةِ[(٤)].

- والضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ على اللَّيلِ، وفي ﴿فَضْلِهِۦ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عائدًا على اللهِ، والتَّقديرُ: مِنْ فَضْلِه، أي: مِن فَضْلِ اللهِ فيه، أي: في النهارِ، وحُذِف لِدَلالةِ المَعنى، ولدَلالةِ لفظِ ﴿فِيهِ﴾ السَّابقِ عليه. ويَحتمِلُ أن يَعودَ على النَّهارِ، أي: مِن فَضْلِ النهارِ، ويكونَ أضافَه إلى ضَميرِ النَّهارِ لَمَّا كانَ الفضلُ حاصلًا فيه أُضيفَ إليه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٢).

- وسَلَك في قولِه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ طريقةَ اللَّفِّ والنَّشْرِ المرَتَّبِ[1]؛ فإنَّ قولَه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يَعودُ إلى ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، ويَعودُ قولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ إلى (النَّهارِ)، والتَّقديرُ: ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِه فيه؛ فحُذِفَ الضَّميرُ وجارُه إيجازًا؛ اعتمادًا على المُقابَلةِ[2].

- قولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ الابتغاءُ مِن فَضْلِ اللهِ كنايةٌ عنِ العملِ والطَّلبِ

(١) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرُ أشياءُ على عدَد ذلك، كلُّ واحدٍ يَرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامِعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به.
فاللَّفُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحِقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دُونَ تعيينٍ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.
واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشْرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.
وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»-: هو أن يأتيَ النَّشرُ على غيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعْدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّبٍ؛ فجُملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.
يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠).

لتحصيلِ الرِّزْقِ؛ قال تعالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[١] [المزمل: ٢٠].

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ عُطِفَ على العِلَّتَينِ رجاءُ شُكْرِهم على هاتينِ النِّعمتينِ اللَّتينِ هُما مِن جملةِ رحمتِه بالناسِ؛ فالشأنُ أنْ يَتذَكَّروا بذلكَ مَظاهرَ الرَّحمةِ الرَّبَّانيَّة، وجلائلَ النِّعَمِ، فيَشكُروه بإفرادِه بالعبادةِ، وهذا تعريضٌ بأنَّهم كَفَروا فلمْ يَشْكُروا[٢].

- وفي هذه الآيةِ ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ما يُعرَفُ بصِحَّةِ المُقابلاتِ[٣]، حيثُ جاءَ اللَّيلُ والنَّهارُ في صَدْرِ الكلامِ، وهما ضِدَّانِ، وجاء السُّكونُ والحركةُ في عَجُزِه، وهما ضِدَّانِ، ومُقابَلةُ كلِّ طَرَفٍ منه بالطَّرَفِ الآخَرِ على التَّرتيبِ، وعَبَّرَ سُبحانَه عن الحركةِ بلفظِ الإردافِ[٤]؛ فاستَلْزَمَ الكلامُ ضَرْبًا مِن المَحاسِنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٢).

(٣) صِحَّة المُقابلاتِ: عِبارةٌ عن توخِّي المتكلِّم ترتيبَ الكلامِ على ما يَنبغي، فإذا أتَى بأشياءَ في صَدْرِ كلامِه قابَلَها في عَجُزِه بأَضْدادِها أو بأَغْيارِها من المُخالِفِ والمُوافِقِ على التَّرتيبِ؛ بحيثُ يُقابَلُ الأوَّلُ بالأوَّلِ، والثَّاني بالثَّاني، ولا يَخْرِمُ من ذلك شيئًا في المُخالِفِ والمُوافِقِ، ومتى أَخَلَّ بالتَّرتيبِ كان الكلامُ فاسِدَ المُقابَلةِ، وهذه الآيةُ مِن مُعجِزِ هذا البابِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠).

(٤) الإرداف: هو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ معنًى، فلا يُعبِّرُ عنه بلَفظِه الموضوعِ له، ولا بلفظِ الإشارةِ الدَّالِّ على المعاني الكثيرةِ، بلْ بلَفظٍ هو رِدفُ المعْنى الخاصِّ وتابِعُه، قَريبٍ من لَفظِ المعْنى الخاصِّ قُرْبَ الرَّديفِ من الرِّدفِ. ومثالُه قولُه تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ منَ الآيةِ الكريمة: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وحقيقةُ ذلك: وهلَكَ مَن قضَى اللهُ هلاكَه، ونجا مَن قضى نجاتَه، وإنَّما عُدِل عن هذه =

زائدًا على المُقابَلةِ، والَّذي أَوْجَب العُدولَ عن لفظِ الحركةِ إلى لفظِ ابتغاءِ الفضلِ: كَوْنُ الحركةِ تكونُ لِمَصلحةٍ ولِمَفْسَدةٍ، وابتغاءُ الفضلِ حَركةٌ للمَصلحةِ دونَ المَفْسدةِ، والآيةُ سِيقَتْ للاعتدادِ بالنِّعَمِ؛ فوَجَب العُدولُ عن لَفظِ الحركةِ إلى لفظٍ هو رِدْفُه وتابِعُه؛ لِيَتِمَّ حُسْنُ البيانِ، فتَضَمَّنَتْ هذه الكلماتُ -الَّتي هي بَعْضُ آيةٍ- عِدَّةً مِن المنافعِ والمصالحِ، الَّتي لو عُدِّدَتْ بألفاظِها المَوضوعةِ لها لاحْتاجَتْ في العبارةِ عنها إلى ألفاظٍ كثيرةٍ؛ فحَصَل بهذا الكلامِ بهذا السَّببِ عِدَّةُ ضُروبٍ مِن المَحاسِنِ؛ فقد جَعَل سُبحانَه العِلَّةَ في وُجودِ اللَّيلِ والنَّهارِ حُصولَ مَنافعِ الإنسانِ، حيث قال: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ و(لِتَبْتَغُوا) بلامِ التَّعليلِ؛ فجَمَعَتْ هذه الكَلِماتُ المُقابَلةَ والتَّعليلَ، والإشارةَ والإرْدافَ، والائْتِلافَ[1] وحُسْنَ النَّسَقِ[2] ....

= الحقيقةِ إلى لفظِ الإردافِ مِن الإيجازِ، والتَّنبيهِ على أنَّ هلاكَ الهالكِ ونجاةَ النَّاجي كان بأمرِ آمرٍ مُطاعٍ، وقضاءِ مَن لا يُرَدُّ قضاؤُه، والأمرُ يَستلزِمُ آمرًا، وقضاؤُه يدُلُّ على قدرةِ الآمرِ به، وطاعةُ المأمورِ تدُلُّ على قدرةِ الآمرِ وقَهرِه، وأنَّ الخَوفَ مِن عِقابِه ورجاءَ ثَوابِه يَحُضَّانِ على طاعةِ الآمرِ، ولا يَحصُلُ ذلك كلُّه مِنَ اللَّفظِ الخاصِّ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٠٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٠).

(١) الائتلاف: هو أن يكونَ اللَّفظُ مع اللَّفظِ المُجاوِرِ له في الكلامِ مؤتلِفَين، وهذا يَلزَمُ منه أن تكونَ الألفاظُ في الكلامِ مُتآلِفةً يُلائمُ بعضُها بعضًا، بحيثُ تكونُ كلُّ لفظةٍ لا يَصلُحُ مكانَها غيرُها. يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٢٠).

(٢) حُسْنُ النَّسَقِ: هو عبارةٌ عن أن يأتيَ المتكلِّمُ بالكلماتِ مِن النَّثرِ والأبياتِ مِن الشِّعرِ مُتتالياتٍ مُتلاحِماتٍ تلاحُمًا سليمًا مُستحسَنًا، لا مَعيبًا مُستهجَنًا، وأن تكونَ كلُّ واحدةٍ منها قابلةً لأَنْ تَستقِلَّ بنفْسِها لو أُفرِدَتْ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٢٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٦٢).

وحُسْنَ البيانِ[(١)]؛ لمَجيءِ الكلامِ فيها مُتلاحِمًا، آخِذَةً أعناقُ بعضِه بأعناقِ بعضِه، ثمَّ أخْبَر بالخبَرِ الصَّادقِ أنَّ جميعَ ما عدَّدَه مِن النِّعَمِ الَّتي هي مِن لَفْظَيِ الإشارةِ والإردافِ بعضُ رحمتِه؛ حيثُ قال بحرفِ التبْعيضِ: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، وكلُّ هذا في بَعضِ آيةٍ عِدَّتُها إحْدَى عَشْرةَ لفظةً، فالْحَظْ هذه البلاغةَ الظَّاهرةَ، والفصاحةَ المُتظاهِرةَ[(٢)]!

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ تَقْريعٌ بعدَ تَقْريعٍ، وَسَلَكَتْ هذه الآيةُ طَريقةَ اللَّفِّ في تَكريرِ التَّوبيخِ باتِّخاذِ الشُّركاءِ؛ للإشعارِ والإيذانِ بأنَّه لا شَيءَ أَجْلَبُ لغضَبِ اللهِ مِن الإشراكِ به، كما لا شَيءَ أَدْخَلُ في مَرْضاتِه مِن توحيدِه سُبحانَه. أو الأوَّلُ لتقريرِ فَسادِ رأيِهم، والثَّاني لبيانِ أنَّه لم يَكُنْ عن سَنَدٍ، وإنَّما كان مَحضَ تَشَهٍّ وهوًى[(٣)]. أو كُرِّرَ هنا على جهةِ الإبلاغِ والتَّأكيدِ[(٤)]. وقيل: كُرِّرَتْ جُملةُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) مرَّةً ثانيةً؛ لأنَّ التَّكريرَ مِن مُقتضياتِ مَقامِ التَّوبيخِ؛ فلذلكَ لم يقُلْ: (ويومَ نَنْزِعُ مِنْ كلِّ أُمَّةٍ شهيدًا)، فأُعيدَ ذِكْرُ أنَّ اللهَ يُناديهم بهذا الاستفهامِ التَّقريعيِّ، ويَنْزِعُ مِن كلِّ أمَّةٍ

(١) حُسْنُ البيانِ: حقيقتُه: إخراجُ المعنى في أحسَنِ الصُّورِ الموضحةِ له، وإيصالُه إلى فَهْمِ المُخاطَبِ بأقرَبِ الطُّرقِ وأسهلِها، وقد تأتي العبارةُ عنه مِن طريقِ الإيجازِ، وقد تأتي مِن طريقِ الإطنابِ؛ بحسَبِ ما تقتضيه الحالُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٨٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٢٩، ١٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٢).

شهيدًا، فظاهرُ الآيةِ أنَّ ذلكَ النِّداءَ يُكرَّرُ يومَ القيامةِ. ويَحتَمِلُ أنَّه إنَّما كُرِّرَتْ حِكايتُه، وأنَّه نِداءٌ واحدٌ يقَعُ عقِبَه جوابُ الَّذينَ حَقَّ عليهِم القولُ مِن مُشركي العربِ، ويَقَعُ نَزْعُ شهيدٍ مِن كلِّ أمةٍ عليهم؛ فهو شاملٌ لمُشركي العربِ وغيرِهم مِن الأُمَمِ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

- جِيءَ بفعلِ المُضيِّ في (نزَعْنا)؛ إمَّا للدَّلالةِ على تَحقيقِ وُقوعِه، حتَّى كأنَّه قد وَقَعَ، وإمَّا لأنَّ الواوَ للحالِ، فهو حالٌ مِن فاعِلِه بإضمارِ (قد)[2].

- والالْتِفاتُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بشأنِ النَّزعِ وتَهْويلِه[3]، أو لإظهارِ عَظَمةِ التَّكلُّمِ[4].

- وعُطِفْ ﴿فَقُلْنَا﴾ على ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ لأنَّه المَقْصودُ[5].

- قولُه: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ الأمرُ مُستَعْمَلٌ في التَّعجيزِ؛ فهو يَقتضي أنَّهم على الباطلِ فيما زَعَمُوه مِن الشُّركاءِ[6].

- قولُه: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿عَنْهُم﴾ مُتعلِّقٌ بفعلِ (ضَلَّ)، والمرادُ: ضَلَّ عن عقولِهم وعن مقامِهم، وعُلِّقَ بالضَّلالِ ضميرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٣).

ذواتِهم؛ ليَشْمَلَ ضَلالَ الأمْرَينِ، فيُفيدَ أنَّهم لم يَجِدُوا حُجَّةً يُرَوِّجُونَ بها زَعْمَهم إلهيَّةَ الأصنامِ، ولم يَجِدوا الأصنامَ حاضرةً للشَّفاعةِ فيهم، فوَجَموا عن الجوابِ، وأيْقَنُوا بالمُؤاخَذةِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٣).

الآيات (٧٦-٧٨)

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فَبَغَىٰ﴾: أي: تكبَّرَ، وتجاوَزَ حَدَّه، وأصلُه: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الفَسادِ[1].

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾: أي: تُثقِلُهم وتُميلُهم بثِقْلِها، يُقالُ: ناءَ به الحِملُ: إذا أثقَلَه حتَّى أمالَه. والعُصبةُ: الجماعةُ الكَثيرةُ، وقيل: هم مِن الرِّجالِ عَشَرةٌ. وأصلُ (نوء): يدُلُّ على نُهوضٍ بثِقلٍ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على رَبطِ شَيءٍ بشَيءٍ، فسُمِّيَتْ العصبةُ بذلك؛ لأنَّها قد عُصِبَتْ، أي: كأنَّها رُبِطَ بعضُها ببعضٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا قصَّةَ قارونَ: إنَّ قارونَ كان مِن قَومِ موسى الإسرائيليِّينَ، فتكبَّرَ على قَومِه واحتقَرَهم بسبَبِ غِناه، وقد آتاه اللهُ أموالًا كثيرةً مُدَّخَرةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبرِّد (١/ ١٧٦، ٢٩٠) و(٣/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((أمالي القالي)) (٢/ ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦) و(٥/ ٣٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٠).

لا يَستطيعُ حَمْلَ مفاتيحِها الجَماعةُ الأشِدَّاءُ مِن الرِّجالِ؛ فهي تُميلُهم بثِقْلِها، إذ قال له قَومُه: لا تفرَحْ وتَبطَرْ؛ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ البَطِرينَ، واطلُبْ ثوابَ الآخرةِ فيما آتاك اللهُ إيَّاه، فاستَعمِلْه في طاعةِ اللهِ، وأنفِقْ منه في الخَيرِ، ولا تترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخِرتِك، وأحسِنْ في عبادةِ اللهِ وإلى خَلْقِ اللهِ، كما أحسَنَ اللهُ إليك، ولا تطلُبِ الفَسادَ في الأرضِ بَغيًا وتكَبُّرًا؛ إنَّ اللهَ لا يحِبُّ المفسِدينَ.

قال قارونُ: إنَّما أُوتيتُ هذه الكُنوزَ؛ لأنِّي أهلٌ لذلك! أوَلَمْ يعلَمْ أنَّ اللهَ قد أهلك مِن قَبْلِه مِن الأُمَمِ الماضيةِ مَن كان أقوى منه وأكثَرَ جَمعًا للأموالِ؟! ولا يُسألُ المُجرِمونَ عن ذُنوبِهم، بل يُعاقِبُهم اللهُ تعالى عليها؛ لعِلمِه بها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذكَر سبحانَه حديثَ أهلِ الضَّلالةِ وما يَلْقَونَه مِن الإهانةِ والاحتقارِ يومَ القيامةِ، ومُناداتَهم على رؤوسِ الأشهادِ بما يَفضَحُهم، ويُبيِّنُ لهم سوءَ مَغبَّتِهم؛ أعْقَبه بقصصِ قارونَ، لِيُبيِّنَ عاقبةَ أهلِ البغْيِ والجبروتِ في الدُّنيا والآخرةِ(١).

وأيضًا لهذه القصَّةِ اتِّصالٌ بانتهاءِ قِصَّةِ جُندِ فرعونَ المنتهيةِ عندَ قولِه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ الآيةَ(٢) [القصص: ٤٦].

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٤).

أي: إنَّ قارونَ كان مِن بني إسرائيلَ مِن عَشيرةِ موسى، فتكبَّرَ على قَومِه، وتَجاوَزَ الحدَّ في احتِقارِهم؛ بسَبَبِ غِناه[1].

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ بَغْيَه؛ ذَكَرَ سببَه الحقيقيَّ، فقال[2]:

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.

أي: وآتَيْنا قارونَ أموالًا كثيرةً مُدَّخَرةً يُثقِلُ حَمْلُ مَفاتيحِها الجَماعةَ الأشِدَّاءَ مِن الرِّجالِ، وتُميلُهم بثِقْلِها؛ لِكَثرتِها[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٩، ٣١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦).

قال الرَّسْعَنيُّ: (اختلَفوا في قَرابتِه مِن موسى؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ ومُقاتلٌ وأكثَرُ المفسِّرينَ: كان ابنَ عمِّ موسى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٥).

وقال ابن كثير: (وهكذا قال إبراهيمُ النَّخَعيُّ، وعبدُ اللهِ بنُ الحارثِ بنِ نَوْفَلٍ، وسِماكُ بنُ حربٍ، وقَتادةُ، ومالكُ بنُ دينارٍ، وابنُ جُرَيْجٍ، وغيرُهم: أنَّه كان ابنَ عمِّ موسَى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٢ - ٣١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦، ١٧٧).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المفاتحَ هنا: جمعُ مِفتاحٍ، وهي الأداةُ الَّتي يُفتَحُ بها: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والألوسي، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾.

أي: إذ[1] قال له قَومُه ناصِحينَ: لا تَفرَحْ بهذه الدُّنيا وتَبطَرْ بما أُوتيتَ فيها مِن الكُنوزِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

= (١٨/ ٣١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦، ١٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: خَيْثَمةُ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٢).

وذهب مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفَرَّاءُ، والزجَّاجُ، والواحِديُّ -ونَسَبه للأكثرينَ- إلى أنَّ المَفاتحَ هي خزائنُ الأموالِ نَفْسُها، لا ما تُفتحُ به. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٣١٠)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ١٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: أبو صالح، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٠٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الكنوزُ إمَّا أن يكونَ هو كَنَزَها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤]، وإمَّا أن يكونَ اطَّلَع على كنائزَ مدفونةٍ، وهو الرِّكازُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(١) قال أبو حيان: (قال الحوفي: النَّاصِبُ له محذوفٌ، تقديرُه: «اذكُرْ»... ويظهَرُ أن يكونَ تقديرُه: فأظهَرَ التَّفاخُرَ والفَرَحَ بما أُوتيَ من الكنوزِ إذ قال له قَومُه: لا تَفرَحْ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٥).

وقال ابنُ عاشور: (﴿إِذْ﴾ ظرفٌ مَنصوبٌ بِفِعلِ «بغى عليهم»، والمقصودُ من هذا الظَّرفِ القِصَّةُ، وليس القَصدُ به توقيتَ البَغيِ؛ ولذلك قَدَّره بعضُ المفَسِّرينَ مُتعَلِّقًا بـ«اذكر» محذوفًا، وهو المعنيُّ في نظائرِه مِنَ القَصَصِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ بزينةِ الدُّنيا، البَطِرينَ بما أُوتُوا مِن مَتاعِها الفاني[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَهَوه عن الفَرَحِ المُطغي، أمَروه بأنْ يَطْلُبَ فيما آتاه اللهُ مِن الكُنوزِ وسَعةِ الرِّزقِ ثوابَ الدَّارِ الآخرةِ، بأنْ يَفعَلَ فيه أفعالَ البِرِّ، ويجعلَه زادَه إلى الآخِرةِ[2].

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

أي: واطلُبْ -يا قارونُ- ثوابَ الآخرةِ ونَعيمَها بما آتاك اللهُ مِنَ الدُّنيا، ووهَبَك مِن أموالِها، فاستَعْمِلْه في طاعةِ اللهِ والتَّقَرُّبِ إليه، والإنفاقِ في أوجُهِ الخَيرِ[3].

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

قال ابنُ الجوزي: (﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ يعني: الأَشِرينَ، ولم يُرِدِ الفرحَ بنعمةِ الله تعالى). ((صفة الصفوة)) (١/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سبَقَ شديدَ المشَقَّةِ على النُّفوسِ، مع ما فيه مِن شائبةِ الاتِّهامِ؛ قالوا[١]:

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: لا تَترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخِرتِك[٢].

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: لا تَترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخرتِك؛ لأنَّ حقيقةَ نَصيبِ الإنسانِ مِن الدُّنيا ما عَمِلَ فيها لآخِرتِه: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والزجَّاج، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ والرَّسْعَنيُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

وممَّن يُروى عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعَوْنُ بنُ عبدِ الله، ومجاهدٌ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٣).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ولا تَترُكْ حظَّك مِنَ التَّنعُّمِ بما أحلَّ اللهُ لك في الدُّنيا؛ مِنَ المآكِلِ والمَشارِبِ، والملابِسِ والمساكِنِ، والمَناكِحِ وغَيرِها: ابنُ العربيِّ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٣-٣٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٥٧).

قال الشوكانيُّ عن هذا القولِ: (وهذا ألْصَقُ بِمعنَى النَّظمِ القرآنيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥).

أي: وأحسِنْ -يا قارونُ- في عبادةِ اللهِ وإلى خَلْقِ اللهِ، كما أحسَنَ اللهُ إليك بالرِّزقِ الواسِعِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا كانتِ النَّفْسُ مِن شأنِها -إنْ لم تُزَمَّ بزِمامِ الشَّرعِ- الإسرافُ والإجحافُ، قالوا[(٢)]:

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولا تَطلُبْ -يا قارونُ- الفسادَ في الأرضِ بالمعاصي والبَغيِ والتكَبُّرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٧).

قيل: المرادُ بالإحسانِ هنا: الإحسانُ إلى عِبادِ الله. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن جُزَي، وابن كثير، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

وقيل: المرادُ بالإحسانِ هنا: طاعةُ الله وعبادتُه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البَغَويُّ، والقُرطُبيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (أحسِنْ بأداءِ ما افترَضَ الله عليك، كما في إحسانِه إليك). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

وممَّن ذهب هنا إلى الجمعِ بيْنَ الإحسانِ في عبادةِ الله والإحسانِ إلى خَلْقِ الله: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، والبَغيِ والظُّلمِ(١).

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

أي: قال قارونُ: إنَّما أُوتيتُ هذه الكُنوزَ؛ لأنِّي أهلٌ لذلك(٢).

= البغوي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤، ٢٥٥).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ...﴾ فيه خمسةُ أوجُه؛ أحَدُها: أي: بقوَّتي وعِلمي، قاله يحيى بنُ سلَّامٍ. الثَّاني: على خيرٍ وعِلمٍ عندي، قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: لِرضا الله عنِّي، ومعرفتِه باستِحقاقي، قاله ابنُ زَيدٍ. الرَّابعُ: على عِلمٍ بوجْهِ المكاسِبِ، قاله ابنُ عيسى. الخامسُ: العِلمُ بصَنعةِ الكيمياءِ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٦٨).

ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: على عِلمٍ مِنَ الله بحالي وفَضلي عليكم، واستِحقاقي لذلك المالِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلَفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٢).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ: إنَّما نِلْتُ هذا المالَ؛ بسَبَبِ ما لَدَيَّ مِن العِلمِ والمعرفةِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣، ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨١). =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٩، ٥٠].

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

أي: أوَلَمْ يعلَمْ قارونُ أنَّ اللهَ قد أهلَكَ مِن قَبْلِه مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ مَن كان أقوى منه وأكثَرَ جَمعًا للأموالِ؟ فلا مانِعَ إذَنْ مِن إهلاكِ قارونَ، كما أُهلِكَ مَن هو مِثلُه أو أعظَمُ، وقد فَعَل ما يُوجِبُ الهلاكَ(١)!

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

أي: ولا يُسألُ المُجرِمونَ عن ذُنوبِهم، فيُعاقِبُهم اللهُ تعالى عليها مِن غيرِ أن يَستَعلِمَهم عنها؛ لعِلْمِه بها كُلِّها(٢).

= قال ابنُ كثير: (وقد رُوي عن بعضِهم أنَّه أراد: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أنَّه كان يُعاني عِلمَ الكيمياءِ، وهذا القولُ ضعيفٌ؛ لأنَّ علمَ الكيمياءِ في نفسِه علمٌ باطلٌ؛ لأنَّ قلبَ الأعيانِ لا يقدِرُ أحدٌ عليها إلَّا الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ٣٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

قال البقاعي: (﴿قُوَّةً﴾ أي: في البدَنِ، والمعاني مِنَ العِلمِ وغيرِه، والأنصارِ والخَدَمِ، ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ في المالِ والرِّجالِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِن حُسْنِ الدَّعوةِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى أنَّه إذا ذُكِرَ الحُكمُ تُذكَرُ العِلَّةُ؛ تخويفًا أو تَرغيبًا، إنْ كان مَنصوحًا بطلَبٍ تُذكَرُ العِلَّةُ ترغيبًا، وإنْ كان منصوحًا بنَهيٍ فإنَّها تُذكَرُ تخويفًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، وقولِه: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، فينبغي للدَّاعي أنْ يُذَكِّرَ المدعُوَّ بنِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ الإنسانَ إذا ذُكِّرَ بالنِّعمةِ فقد يَخْجَلُ مِن اللهِ فلا يَعْصيه، أمَّا إذا ذُكِرَ له الأمرُ والنَّهيُ مجرَّدًا عن الأسبابِ والوسائلِ الَّتي تحمِلُه على الفِعلِ أو التَّركِ؛ فإنَّ هذه الدَّعوةَ تكون قاصِرةً؛ فالَّذي ينبغي للدَّاعي أنْ يُذَكِّرَ المرءَ المَدْعُوَّ بما يقتضي إقبالَه وقَبولَه[١].

٢- قال تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ الفرَحُ المنهيُّ عنه هو المفرطُ منه، أي: الذي تمحَّض للتَّعلُّقِ بمتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِ النَّفْسِ به؛ لأنَّ الانكبابَ على ذلك يُميتُ مِن النَّفْسِ الاهتمامَ بالأعمالِ الصَّالحةِ والمنافسةَ لاكتسابِها، فيَنحدِرُ به التَّوغُّلُ في الإقبالِ على اللَّذَّاتِ إلى حَضيضِ الإعراضِ عن الكمالِ النَّفْسانيِّ، والاهتِمامِ بالآدابِ الدِّينيَّةِ، والمُبالَغةُ في الفرَحِ تَقتضي شدَّةَ الإقبالِ على ما يُفرَحُ به، وهي تَستلزِمُ الإعراضَ عن غيرِه[٢]. ومتى كان الفرَحُ باللهِ، وبما مَنَّ اللهُ به، مُقارنًا لِلخَوفِ والحذَرِ؛ لم يَضُرَّ صاحبَه، ومتى خلا عن ذلك ضرَّه، ولا بُدَّ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٠٨).

آتاه اللهُ مالًا أنْ يُحسِنَ النِّيَّةَ والقَصدَ في بَذْلِه، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ قال لسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ: ((إنَّك لن تُنفِقَ نَفَقةً تَبتَغي بها وَجْهَ اللهِ إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تَجعَلُ في فِي امرأتِك))(١)، فقد قيَّدَها بقَولِه: ((تبتغي بها وَجْهَ اللهِ))(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ أنَّ مَنِ اعتقَدَ أنَّ ما رزقَه اللهُ هو مِن كَسْبِه، ولم يَنسِبِ الفضلَ لله؛ فهو مُشابِهٌ لقارونَ في عدَمِ اعترافِه بنِعمةِ اللهِ؛ فالإنسانُ الَّذي يقولُ: حَصَّلْتُ هذا بيَدي، وبمَعرِفتي بالأمورِ والمكاسِبِ، نقولُ له: أنت مُشابِهٌ لقارونَ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩] النَّهيُ عن إضافةِ النِّعَمِ إلى أسبابِها دُونَ المُنعِمِ بها. وإضافةُ النِّعَمِ إلى أسبابِها جَحْدٌ لإنعامِ اللهِ، وكذلك إضافةُ النِّعَمِ إلى غيرِه ممَّن يَعجِزُ عنها. ولا بأسَ بإضافتِها إلى الأسبابِ مع مُلاحَظةِ كَوْنِها أسبابًا، وأنَّ المُنعِمَ بها هو اللهُ وحْدَه؛ فإنَّا قد أُمِرْنا بشُكرِ الأسبابِ أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾(٤) [لقمان: ١٤].

٦- لِيَحذَرِ الإنسانُ كُلَّ الحَذَرِ مِن طُغيانِ «أنا»، و«لي»، و«عندي»؛ فإنَّ هذه الألفاظَ الثَّلاثةَ ابتُلِيَ بها إبليسُ، وفِرعَونُ، وقارونُ؛ فـ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢] لإبليسَ، و﴿لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لِفرعَونَ، و ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ

(١) أخرجه البخاري (٥٦) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٥١).

عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ لِقارونَ، وأحسنُ ما وُضِعت «أنا» في قولِ العبدِ: أنا العبدُ المذنبُ، المستغفِرُ، المعترِفُ ونحوه. «ولي»، في قولِه: لي الذنبُ، ولي الجرمُ، ولي المسكنةُ. «وعندي» في قولِه[١]: ((اغْفِرْ لي جِدِّي، وهَزلي، وخَطئي، وعَمدي، وكلُّ ذلك عِندي)) [٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أنَّ القَوميَّةَ لا تنفَعُ أصحابَها، إنَّما النَّافِعُ هو الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهذا الرَّجلُ مِن قَومِ موسى، ومع ذلك بغَى عليهم[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أنَّ الغِنى سَبَبٌ للطُّغيانِ؛ لأنَّ قارونَ إنَّما بغَى وطغَى بسببِ ما آتاه اللهُ تعالى مِن المالِ[٤].

٣- الإيتاءُ المضافُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى يكونُ كَوْنيًّا، ويكونُ شَرعيًّا؛ مِثالُ الكَونيِّ قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، ومِثالُ الشَّرعيِّ قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾[٥] [الإسراء: ٢].

٤- جاء الفَرَحُ في القُرآنِ على نَوعينِ: مُطلَقٌ، ومُقَيَّدٌ:

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٨٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (واللهُ سُبحانَه قد بيَّنَ في كتابِه في كلِّ واحدةٍ مِنَ: «الكَلِماتِ» و«الأمرِ» و«الإرادةِ» و«الإذنِ» و«الكتابِ» و«الحُكمِ» و«القضاءِ» و«التَّحريمِ» ونحوِ ذلك ما هو دينيٌّ مُوافِقٌ لِمَحبَّةِ اللهِ ورِضاهُ وأمرِه الشَّرعيِّ، وما هو كَوْنيٌّ موافِقٌ لمَشيئتِه الكَونيَّةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٢٤).

فالمُطلَقُ: جاء في الذَّمِّ، كقَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقيَّدُ نوعانِ أيضًا:

الأولُ: مُقيَّدٌ بالدُّنيا يُنسي صاحِبَه فضْلَ اللهِ ومِنَّتَه، فهو مذمومٌ، كقَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والثاني: مُقيَّدٌ بفَضلِ اللهِ وبرَحمتِه، وهو نوعانِ أيضًا:

فَضلٌ ورحمةٌ بالسَّبَبِ، وفَضلٌ بالمُسَبَّبِ؛ فالأوَّلُ: كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، والثَّاني: كقَولِه تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]؛ فالفَرَحُ باللهِ وبرَسولِه، وبالإيمانِ وبالسُّنَّةِ، وبالعِلمِ وبالقرآنِ: من أعلى مقاماتِ العارفينَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]. فالفَرَحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسُّنَّةِ: دَليلٌ على تعظيمِه عندَ صاحِبِه، ومحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيرِه؛ فإنَّ فَرَحَ العبدِ بالشَّيءِ عندَ حُصولِه له: على قَدْرِ محبَّتِه له، ورغبتِه فيه، فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه؛ فالفَرَحُ تابعٌ للمحبَّةِ والرَّغبةِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ يُؤخَذُ منه إثباتُ المحبَّةِ للهِ، مع أنَّ المرادَ نَفْيُ المحبَّةِ، ولكِنْ ما نفاها عن هؤلاءِ إلَّا وهي ثابتةٌ لضِدِّه؛ ولهذا استدَلَّ العلماءُ بأنَّ المؤمنينَ يَرونَ ربَّهم بقَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٤٩، ١٥٠).

[المطففين: ١٥]، قالوا: فلمَّا حُجِبَ هؤلاء عن ربِّهم؛ دلَّ على أنَّ غيرَهم غيرُ محجوبينَ، فلو كان الكُلُّ محجوبينَ ما كان لِتَخصيصِ هؤلاء فائِدةٌ(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ هذه الجملةُ المرادُ منها أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ، ولازمُها أنه يَكرَهُ، وإنْ كانتِ القِسمةُ العقليَّةُ لا تقتضي ذلك؛ فنَفْيُ المحبَّةِ لا يَلْزَمُه إثباتُ الكُرهِ، لكنَّ السِّياقَ يقتضيه، لأنّ كلَّ شَيءٍ نفى اللهُ عنه حُبَّه نَجِدُ أنَّه ممَّا يَكرَهُه اللهُ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فالظَّاهرُ مِن السِّياقاتِ أنَّ المرادَ إثباتُ الكراهةِ، لكنَّه أتى بنَفْيِ المحَبَّةِ؛ لأنَّ المَحَبَّةَ محبوبةٌ؛ فكأنَّ هذا الَّذي أحَبَّ الفسادَ أو أحَبَّ الفرحَ وما أشبَهَ ذلك يُقابَلُ بنقيضِ قَصْدِه(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ في قَولِه: ﴿نَصِيبَكَ﴾ إضافةُ النَّصيبِ إلى ضَميرِه؛ ففيه دَلالةٌ على أنَّه حَقُّه، وأنَّ للمَرءِ الانتِفاعَ بمالِه فيما يُلائِمُه في الدُّنيا خاصَّةً ممَّا ليس مِن القُرُباتِ، ولم يكُنْ حَرامًا(٣). وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ﴾ فيه تحريمُ نيَّةِ الفَسادِ في الأرضِ؛ وإذا حُرِّمَتْ نِيَّةُ الفَسادِ، فالفسادُ نَفْسُه مِن بابِ أولَى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٢).

٩- كُلُّ مَن عصى اللهَ فقد طلَبَ الفَسادَ في الأرضِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمعصيةِ[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ بيانُ أنَّ عَطاءَه سُبحانَه ليس دليلًا على حُسْنِ حالةِ المُعْطَى[2].

١١- قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وقال سبحانَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك؛ منها قَولُه تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، فهذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ اللهَ يَسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، ونَظيرُها قَولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

والجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: وهو أوجَهُها؛ لِدَلالةِ القُرآنِ عليه، وهو أنَّ السُّؤالَ قِسمان: سؤالُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ، وأداتُه غالِبًا: (لِمَ)؛ وسُؤالُ استِخبارٍ واستِعلامٍ، وأداتُه غالِبًا: (هل)؛ فالمُثبَتُ هو سُؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سؤالُ الاستِخبارِ والاستِعلامِ.

الوجهُ الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعَدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألُونَ، وفي بَعضِها لا يُسألُونَ.

الوجهُ الثالثُ: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ وتصديقِ

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

الرُّسُلِ، وعَدَمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يَستَلزِمُه الإقرارُ بالنُّبُوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّين وفُروعِه، ويدُلُّ لهذا قولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ لِذِكْرِ قِصَّةٍ ضُرِبَتْ مثلًا لحالِ بعضِ كُفَّارِ مَكَّةَ، وهم سادَتُهم؛ مِثلَ: الوليدِ بنِ المُغيرةِ، وأبي جهلِ بنِ هشامٍ، ولها مَزيدُ تعلُّقٍ بجملةِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾، إلى قولِه: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[٢] [القصص: ٦٠، ٦١].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحرفِ التوكيدِ (إنَّ) يَجوزُ أنْ يكونَ لإفادةِ تأكيدِ خبَرِ (إنَّ) وما عُطِفَ عليه وتَعلَّقَ به ممَّا اشْتَمَلَتْ عليه القِصَّةُ، وهو سُوءُ عاقبةِ الَّذين تَغُرُّهم أموالُهم وتَزْدَهيهم؛ فلا يَكترِثونَ بشُكرِ النِّعمةِ، ويَسْتخِفُّونَ بالدِّينِ، ويَكْفُرونَ بشرائعِ اللهِ؛ لظُهورِ أنَّ الإخبارَ عن قارونَ بأنَّه ﴿مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ ليس مِن شأنِه أن يَتردَّدَ فيه السَّامعُ حتَّى يُؤكَّدَ له؛ فمَصَبُّ التَّأكيدِ هو ما بعْدَ قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾... إلى آخِرِ القِصَّةِ المُنتَهيةِ بالخَسْفِ. ويَجوزُ أن تكونَ (إنَّ) لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، ومَناطُ الاهتمامِ هو مَجموعُ ما تَضَمَّنَتْه القِصَّةُ مِن العِبَرِ، الَّتي منها أنَّه مِن قومِ مُوسى، فصار عدوًّا له

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠، ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٤).

ولأتْباعِه؛ فأمْرُه أغْرَبُ مِن أمْرِ فِرعونَ. وعَدَل عن أنْ يُقالَ: (كان مِن بَني إسرائيلَ)؛ لِمَا في إضافةِ ﴿قَوْمِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ مِن الإيماءِ إلى أنَّ لقارونَ اتِّصالًا خاصًّا بمُوسى؛ فهو اتِّصالُ القَرابةِ(١).

- وفي الإخبارِ عنه بأنَّه مِن قومِ موسى تمهيدٌ للكِنايةِ بهذا الخبَرِ، عن إرادةِ التَّنظيرِ بما عَرَضَ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بَغْيِ بَعضِ قَرابتِه مِن المُشركينَ عليه(٢).

- وجُملةُ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ وجملةِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، والفاءُ فيها للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ؛ للتَّعجُّبِ مِنْ بَغيِ أحَدٍ على قَومِه(٣).

- قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ بُولِغَ في وَصْفِ كُنوزِ قارونَ؛ حيثُ ذَكَرها جَمْعًا، وجَمَع المفاتحَ أيضًا، وذَكَر النَّوْءَ والعُصْبةَ وأُولِي القُوَّةِ، وهذه المُبالَغةُ في القُرآنِ مِنْ أحسَنِ المُبالَغاتِ وأغرَبِها عندَ الحُذَّاقِ؛ وهي أنْ يُتقصَّى جميعُ ما يَدُلُّ على الكَثرةِ وتعدُّدِ ما يَتعَلَّقُ بما يَمْلِكُه(٤).

- في قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ حُسْنُ تَعليلٍ بجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ لأنَّ الفرَحَ المَحضَ في الدُّنيا -مِن حيثُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٠).

إنَّها دُنْيا- مَذْمومٌ على الإطلاقِ، وأيُّ فَرَحٍ بشَيءٍ زائلٍ، وظِلٍّ حائلٍ[١]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَينِ الحافتَينِ بها، والواوُ اعتراضيَّةٌ، والنَّهيُ في ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ مُستعْملٌ في الإباحةِ، والنِّسيانُ كِنايةٌ عن التَّرْكِ. وهذا احتِراسٌ في الموعظةِ خَشْيَةَ نُفورِ المَوعوظِ من موعظةِ الواعظِ؛ لأنَّهم لَمَّا قالوا لقارونَ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾؛ أوْهَموا أنْ يَتْرُكَ حُظوظَ الدُّنيا؛ فلا يَستعمِلُ مالَه إلَّا في القُرُباتِ؛ فأُفيدَ أنَّ له استِعمالَ بعضِه فيما هو مُتَمَحِّضٌ لنَعيمِ الدُّنيا إذا آتَى حَقَّ اللهِ في أموالِه، فقيلَ: أرادُوا أنَّ لكَ أنْ تأخُذَ ما أَحَلَّ اللهُ لكَ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ تَتْميمٌ[٣] لا بُدَّ منه؛ لأنَّه إذا لم يَغْتَنِمْها ليَعْمَلَ للآخِرةِ، لم يكنْ له نَصيبٌ في الآخِرةِ[٤]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

- قولُه: ﴿وَأَحْسِن﴾ الإحسانُ داخلٌ في عُمومِ ابتِغاءِ الدَّارِ الآخِرةِ، ولكنَّه ذُكِرَ هنا ليَبْنِيَ عليه الاحتِجاجَ بقولِه: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وحُذِفَ مُتعلَّقُ الإحسانِ لتَعْميمِ ما يُحْسِنُ إليه؛ فيَشملُ نفسَه وقَومَه ودوابَّه ومخلوقاتِ اللهِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨، ١٧٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٢).

الدَّاخِلةَ في دائرةِ التَّمكُّنِ مِن الإحسانِ إليها(١).

- وعَطَفَ ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للتَّحذيرِ مِنْ خَلْطِ الإحسانِ بالفَسادِ؛ فإنَّ الفسادَ ضِدُّ الإحسانِ؛ فالأمرُ بالإحسانِ يَقتضي النَّهيَ عن الفسادِ، وإنَّما نَصَّ عليه؛ لأنَّه لَمَّا تَعدَّدتْ مَواردُ الإحسانِ والإساءةِ فقد يَغيبُ عن الذِّهْنِ أنَّ الإساءةَ إلى شَيءٍ مع الإحسانِ إلى أشياءَ يُعتبَرُ غيرَ إحسانٍ(٢).

- وجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ عن الإفسادِ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ جوابٌ عن مَوعظةِ واعظيه مِن قَومِه، وقد جاء على أُسلوبِ حِكايةِ المُحاوَراتِ؛ فلمْ يُعْطَفْ، وهو جوابُ مُتصَلِّفٍ -أي: مُتكبِّرٍ- حاوَلَ به إفحامَهم، وأنْ يَقْطَعوا مَوعظتَهم؛ لأنَّها أَمَرَّتْ بَطَرَه وازْدِهاءَه(٤).

- و(إنَّما) أداةُ الحَصْرِ، وبُنِيَ الفِعلُ للنائبِ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾؛ للعِلْمِ بالفاعلِ مِن كلامِ واعِظيه(٥).

- وقولُه: ﴿عِندِيٓ﴾ صِفةٌ لـ﴿عِلْمٍ﴾ -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ- ؛ تأكيدًا لتَمكُّنِه مِن العِلْمِ وشُهرَتِه به(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨١).

- قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ إقبالٌ على خِطابِ المسلمينَ. والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ؛ تعجيبًا مِن عدَمِ جَرْيِه على موجَبِ عِلْمِه بأنَّ اللهَ أَهْلَكَ أُمَمًا على بَطَرِهِمُ النِّعمةَ، وإعجابِهم بقوَّتِهم، ونسيانِه، حتَّى صارَ كأنَّه لم يَعْلَمْه؛ تعجُّبًا مِن فَواتِ مُراعاةِ ذلكَ منه مع سَعَةِ عِلْمِه بغَيْرِه[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ ...﴾ تعجُّبٌ وتوبيخٌ على اغترارِه بقُوَّتِه وكَثرةِ مالِه مع عِلْمِه بذلك؛ لأنَّه قَرَأه في التَّوراةِ، وسَمِعَه مِن حُفَّاظِ التَّواريخِ، أو رَدٌّ لادِّعائِه للعِلْمِ وتعَظُّمِه به بنَفْيِ هذا العِلمِ عنه[٢]. وقيلَ: الظَّاهِرُ أنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ تَقريرٌ لعِلمِه ذلك، وتنبيهٌ على خَطَئِه في اغْتِرارِه، أي: قد عَلِمَ أنَّ اللهَ قد أهْلَكَ مِن القُرونِ قَبْلَه مَن هو أقوى منه وأغْنى؛ لأنَّه قد قَرَأه وأخْبَرَ به مُوسى وسَمِعه، كأنَّه قيلَ: أوَلَمْ يَعْلَمْ في جُملةِ ما عِندَه مِنَ العِلْمِ هذا؛ حتى لا يَغْتَرَّ بكثرةِ مالِه وقوَّتِه؟ ويَجوزُ أنْ يكونَ نعتًا لعِلْمِه بذلكَ؛ لأنَّه لَمَّا قال: أُوتيتُه على عِلْمٍ عندي، فتَنَفَّجَ بالعلمِ وتَعَظَّمَ به، قيلَ: أعِنْدَهُ مِثلُ ذلكَ العِلمِ الَّذي ادَّعاهُ؟ وأُرِيَ نفْسَه به مُستَوْجِبةً لكلِّ نعمةٍ، ولم يَعْلَمْ هذا العِلمَ النَّافعَ حتَّى يَقِيَ نفْسَه مَصارِعَ الهالِكينَ[٣]!

- قولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولا يُسألُ سُؤالَ استعلامٍ -فإنه تعالَى مُطَّلِعٌ عليها- أو مُعاتَبةٍ؛ فإنَّهم يُعَذَّبونَ بها بَغْتةً؛ كأنَّهُ لَمَّا هدَّدَ قارونَ بذِكْرِ إهلاكِ مَن قَبْلَه ممَّن كانوا أقوَى منه وأغنَى؛ أكَّدَ ذلك بأنْ بَيَّنَ أنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٦).

لم يَكُنْ مُطَّلِعًا على ما يَخُصُّهم، بلِ اللهُ مُطَّلِعٌ على ذُنوبِ المُجرمينَ كلِّهم، مُعاقِبُهم عليها لا مَحالةَ[1].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عاطفةٌ؛ لِتَربطَ الجُملةَ بما قَبْلَها على سَبيلِ التَّهديدِ والوعيدِ، أي: إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ذُنوبِ المجرمينَ لا يَحتاجُ إلى سُؤالٍ عنها[2].

- وقيل: قولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تَذْييلٌ للكلامِ؛ فهو استئنافٌ وليس عَطفًا على أنَّ اللهَ قد أهلَكَ مَن قبْلَه، والسُّؤالُ المنفيُّ: السُّؤالُ في الدُّنيا، وليس سؤالَ الآخرةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ السُّؤالُ كِنايةً عن عدَمِ الحاجةِ إلى السُّؤالِ عن ذُنوبِهم؛ فهو كنايةٌ عن عِلْمِ اللهِ تعالَى بذُنوبِهم، وهو كِنايةٌ عن عِقابِهم على إجرامِهم؛ فهي كِنايةٌ بوَسائطَ، والكلامُ تهديدٌ للمُجرمينَ؛ ليَكونوا بالحذَرِ مِنْ أن يُؤْخَذوا بَغْتةً، ويَحتَمِلُ أن يكونَ السُّؤالُ بمَعناه الحقيقيِّ، أي: لا يُسأَلُ المجرمُ عن جُرْمِه قبْلَ عِقابِه؛ لأنَّ اللهَ قد بَيَّنَ للنَّاسِ على ألْسِنةِ الرُّسُلِ بحَدَّيِ الخَيرِ والشَّرِّ، وأَمْهَلَ المجرِمَ؛ فإذا أخَذَهُ أَخَذَهُ بَغْتةً، وهذا كقولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[3] [الأنعام: ٤٤].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢).

الآيات (٧٩-٨٤)

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ
أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ
خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ
فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ
تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ
أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ
لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن
جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: أي: يُوفَّقُ لها، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على تَوافِي شَيئَيْنِ[1].

﴿وَيْكَأَنَّ﴾: (وَيْ) كَلِمةُ تنبيهٍ وتندُّمٍ على أمرٍ سبَقَ، يقولُها المُتندِّمُ عندَ إظهارِ ندامتِه، ويَقولُها المندِّمُ لِغيرِه، والمنبِّهُ له، و(كَأَنَّ) للتَّشبيهِ، ووقَع التَّشبيه هنا على أحَدِ معنَيين؛ أحدهما: أنَّهم أوقعوا التَّشبيهَ على ما في عِلمِهم وعُرفِهم. الثَّاني: أن يكونَ التَّشبيهُ ليس على أصلِه، بل المرادُ به التَّحقيقُ، أي: إنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزق، وإنَّ الأمرَ لا يُفلِحُ الكافِرونَ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٧٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٠). =

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، يقال: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: إذا ضيَّقْتَه، كأنَّما جعَلْتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾

﴿وَيْكَأَنَّ﴾ فيه أقوالٌ؛ الأوَّلُ: أنَّ (وَيْ) كلمةٌ برأسِها، وهي اسمُ فِعلٍ معناها: أعجَبُ، والكافُ في (كأنَّ) للتَّعليلِ، وأنَّ وما في حَيِّزِها مجرورةٌ بها، أي: أعجَبُ لأنَّ الله يَبسُطُ. الثَّاني: أنَّ (وي) كلمةُ تنبيهٍ وتندُّمٍ على أمرٍ سبَق، وهي منفصِلةٌ مِن (كأنَّ)، لكنْ وُصِلَت في الخطِّ لكثرةِ الاستعمالِ، ومعنى (كأنَّ الله يبسطُ الرِّزقَ) وإنْ كان لفظُه لفظَ التَّشبيهِ، فمعناه التَّحقيقُ، أي: تَنَبَّهْ، إنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، أي: تنَبَّهْ لِبَسْطِ اللهِ الرِّزقَ. الثَّالثُ: أنَّ (ويْكأنَّ) كلَّها كلمةٌ مُتَّصِلةٌ بسيطةٌ، ومعناها: ألم تَرَ. الرَّابعُ: أنَّ (ويكَ) كَلِمةٌ برأسِها، والكافَ حرفُ خِطابٍ، و (أنَّ اللهَ يبسطُ الرزقَ) معمولٌ لمحذوفٍ، أي: اعلَمْ أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، وأنَّ (وَيْكَ) بمعنى (وَيْلَكَ)، وحُذِفتِ اللامُ لكثرةِ استعمالِ هذه اللفظةِ في الكلامِ(٢).

= ويُنظر أيضًا: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ١٥٤، ١٥٥)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٢/ ٤٨٠-٤٨٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ١٨٣-١٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٧)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ١٨٣-١٨٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٢٧)، ((ارتشاف الضَّرَب)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٢٩٢)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٩٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فخرَجَ قارونُ على قَومِه مِن بَني إسرائيلَ في زِينةٍ عَظيمةٍ، فقال الَّذينَ يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا من ضِعافِ الإيمانِ حينَ رأَوْا زينةَ قارونَ: يا لَيْتَ لنا مِثلَ الَّذي أُوتيَه قارونُ؛ إنَّه لَذو نَصيبٍ وافرٍ من مَتاعِ الدُّنيا!

فقال لهم أهلُ العِلمِ: ويْلَكم، نعيمُ الجنَّةِ الَّذي أعَدَّه اللهُ في الآخرةِ لِمَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا: خيرٌ مِن مُلكِ قارونَ، ولا يُوَفَّقُ لذلك إلَّا الصَّابِرونَ!

فخَسَفْنا بقارونَ وبدارِه في باطِنِ الأرضِ، فلمْ يكُنْ لقارونَ جماعةٌ يَمنعونَه مِن عذابِ اللهِ، وما كان مِنَ المنتَصِرينَ بنَفْسِه أو قوَّتِه.

وأصبَحَ الَّذين تمَنَّوا مِن قَبْلُ أن يكونَ لهم ما لِقارونَ يقولونَ: ويْكَأنَّ اللهَ يوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ مِن عبادِه، ويُضيِّقُه على مَن يَشاءُ، لولا أنْ منَّ اللهُ علينا لَكُنَّا قد طَغَيْنا مِثلَ طُغيانِ قارونَ، فخَسَفَ اللهُ بنا كما خَسَفَ به، ويْكَأنَّه لا يَفوزُ الكافِرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سُنَّةً من سُنَنِه الَّتي لا تتخلَّفُ، فيقولُ: تلك الدَّارُ -وهي الجنَّةُ- نجعَلُها لِلذَّينَ لا يُريدونَ تكبُّرًا في الأرضِ، ولا إفسادًا فيها بالمعاصي، والعاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ للمُتَّقينَ.

مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ، فله ثوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ فلا يُثابُ إلَّا جزاءَ ما عَمِلَ، ولا يُظلَمُ بعِقابِه على ما لم يَعمَلْ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى قارونَ ونَعْتَه، وما آتاه مِن الكُنوزِ، وفَرَحه بذلك فَرَحَ البَطِرينَ، وادِّعاءَه أنَّ ما أُوتيَ مِن ذلك إنَّما أُوتيَه على عِلْمٍ- ذَكَرَ ما هو ناشئٌ عن التكبُّرِ والسُّرورِ بما أُوتيَ، فقال[١]:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾.

أي: فخرَج قارونُ على قَومِه مِن بني إسرائيلَ مُتجَمِّلًا في زينةٍ عَظيمةٍ[٢].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾.

أي: قال ضِعافُ الإيمانِ الَّذين يُريدونَ الحَياةَ الدُّنيا، حينَ رأَوْا زينةَ قارونَ: يا لَيْتَ لنا مِثلَ الَّذي أُوتيَه قارونُ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا ومَتاعِها[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

قال ابنُ عاشور: (الزِّينةُ: ما به جمالُ الشَّيءِ والتَّباهي به مِنَ الثِّيابِ والطِّيبِ والمراكبِ والسِّلاحِ والخدَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا ...﴾... هذا التَّركيبُ مُتكرِّرٌ في القرآنِ الكريم، والنَّحْويُّون اختلَفوا فيه على هذَينِ الوجهَين؛ منهم مَن يقولُ: هو لِمُجَرَّدِ التَّنبيه، وليس هناك نداءٌ ولا مُنادى، ومنهم مَن يقولُ: هو لِلنِّداءِ، وأنَّ المُنادى محذوفٌ، فالتَّقديرُ -مثلًا- هنا: يا قَوْمَنا، لَيْتَ لنا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٩).

ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٤)، ((همع الهوامع)) للسيوطي (١/ ٢٨)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد لأزهري (١/ ٣١)، ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٤).

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

أي: قالوا: إنَّ قارونَ لَصاحِبُ نَصيبٍ كبيرٍ وافرٍ مِن مَتاعِ الدُّنيا(١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

أي: وقال أهلُ العِلمِ النَّافِعِ العارِفونَ بحَقيقةِ الدُّنيا للَّذينَ تَمَنَّوا مِثلَ ما أُوتيَ قارونُ: وَيْلَكم(٢)! نَعيمُ الجنَّةِ الَّتي أعَدَّها اللهُ في الآخرةِ لِمَن آمَنَ باللهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحاتِ: خَيرٌ ممَّا أُوتيَ قارونُ مِن زينةِ الدُّنيا(٣).

كما قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

أي: ولا يُوفَّقُ للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ والزُّهدِ في الدُّنيا الموصِلِ لثَوابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٠).

(٢) قال الزمخشري: («ويلك»: أصلُه الدُّعاءُ بالهلاكِ، ثم استُعْمِل في الزَّجرِ والرَّدعِ والبعثِ على تركِ ما لا يُرتضَى). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالثَّوابِ هنا: الأُخرويُّ: ابنُ جريرٍ، والقُرطُبيُّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ به: الثَّوابُ العاجِلُ في الدُّنيا بلَذَّةِ العبادةِ، ومحبَّةِ الله تعالى، والإنابةِ إليه، والإقبالِ عليه. والثَّوابُ الآجِلُ في الجنَّةِ وما فيها من النَّعيمِ. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

الآخرةِ إلَّا الصَّابِرونَ على الطَّاعاتِ، وعن المعاصي، وعلى أقدارِ الله المؤلِمةِ؛ كالفَقرِ(١).

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

أي: فغيَّبْنا قارونَ ودارَه في باطِنِ الأرضِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعودُ إلى القوَّةِ في الدِّين بالإيمانِ والعمَلِ الصالحِ، بحيثُ يُؤْثِرُ صاحِبُها الآخرةَ على الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ عطيَّة، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الكَلِمةِ أو الوصيَّةِ الَّتي قالها الَّذين أُوتوا العِلمَ: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: لا يوفَّقُ لِقَولِ ذلك إلَّا الصَّابِرون. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جَرير، والزَّجَّاجُ، والثَّعلبيُّ، ومكِّي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٢٠).

قال ابن كثير مُعلِّقًا على هذا القولِ الذي اختاره ابنُ جرير: (وكأنَّه جعَل ذلك مقطوعًا من كلام أولئك، وجعَلَه من كلام الله عزَّ وجلَّ وإخباره بذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الجنَّة. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((بيْنَما رجُلٌ يَجُرُّ إزارَه مِنَ الخُيَلاءِ[١]، خُسِفَ به؛ فهو يَتجَلْجَلُ[٢] في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ))[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بيْنَما رجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ[٤]، تُعجِبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ[٥]؛ إذ خَسَفَ اللهُ به؛ فهو يَتجَلْجَلُ إلى يومِ القيامةِ))[٦].

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فلَمْ يكُنْ لِقارونَ جَماعةٌ يمنَعونَ عنه عذابَ اللهِ حينَ نَزَل به[٧].

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

أي: ولم ينتَصِرْ لِنَفْسِه فيَمنَعَ العذابَ بقُوَّتِه حينَ خُسِفَ به[٨]!

---

(١) الخيلاء: البَطَرُ والكِبْرُ والزَّهْوُ والتَّبَختُرُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٠).

(٢) يَتجَلْجَلُ: أي: يَتحرَّكُ وينزلُ مُضْطَرِبًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٤).

(٣) رواه البخاري (٣٤٨٥).

(٤) الحُلَّة: ثَوبانِ أحَدُهما فوقَ الآخَرِ، وقيل: لا تُسمَّى حُلَّةً إلَّا أن تكونَ ثوبَينِ مِن جنسٍ واحدٍ، وقيل: إزارٌ ورِداءٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٦٠).

(٥) مُرَجِّل: مِنَ التَّرجيلِ -بالجيم-، وهو تسريحُ شَعرِ الرَّأسِ، والجُمَّة: مجتمعُ شعرِ الرَّأسِ، وهو أكبَرُ مِنَ الوَفرةِ، ويُقالُ: هو الشَّعرُ الَّذي يتدلَّى مِنَ الرَّأسِ إلى المَنكِبَينِ وإلى أكثَرَ مِن ذلك. ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) للعيني (٢١/ ٢٩٨).

(٦) رواه البخاري (٥٧٨٩) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَدَرَ منهم تمنِّي حالِ قارونَ، وشاهَدوا الخسفَ؛ كان ذلك زاجرًا لهم عن حُبِّ الدُّنيا، وداعيًا إلى الرِّضا بقَدَرِ اللهِ، فتنَبَّهوا لخطَئِهم(١).

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾.

أي: وأصبحَ الَّذين رَغِبوا مِن قَبْلُ وطَمِعوا في أن تكونَ لهم حالُ قارونَ ومَنزِلتُه في الدُّنيا يقولونَ: ويْكأنَّ(٢) اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه بحِكمتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٩).

(٢) قيل: معناها: (ألم ترَ) أو (ألم تعلَمْ). وممَّن قال بذلك في الجملة: البخاريُّ، وابن جرير. يُنظر: ((صحيح البخاري)) كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ الآية (٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال السمعانيُّ: (ومِن المعروفِ في التَّفاسيرِ عن العلماءِ المتقدِّمينَ: ويْكأنَّ اللهَ: ألم ترَ أنَّ اللهَ، وحُكيَ مِثلُ هذا عن أبي عُبَيدةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦١). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤).

وقيل: معناها: التَّندُّم والتَّوجُّعُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وقيل: معناها: ويْلَكَ اعلَمْ أنَّ، ولكِنْ خُفِّفَت، فقيل: «ويْكَ»، ودلَّ فتحُ «أنَّ» على حذفِ «اعلَمْ». وممَّن ذكَر هذا القولَ: ابنُ كثير، وقال: (الظَّاهر أنَّه قويٌّ). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) =

لا لِفَضلِ مَنزلتِه أو لكَرامتِه عليه، سواءٌ كان فَطِنًا وحاذِقًا في أسبابِ الرِّزقِ أمْ لا، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم بحِكمتِه لا لِهَوانِه عندَه، سواءٌ كان فَطِنًا حاذِقًا أمْ لا؛ فاللهُ يُعطي ويمنَعُ، ويُضَيِّقُ ويُوسِّعُ، ويَخفِضُ ويَرفَعُ، وله سُبحانَه الحِكمةُ البالِغةُ التَّامَّةُ(١).

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾.

أي: لولا أنَّ اللهَ تفضَّل علينا بأنْ صرَف عنَّا ما تمنَّيْناه مِن حالِ قارونَ، لَكُنَّا قد طغَيْنا مِثلَ طُغيانِه؛ فخَسَفَ اللهُ بنا كما خَسَفَ به(٢).

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أي: ويْكأنَّه لا يَنجَحُ ولا يَفوزُ الكافِرونَ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ(٣).

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

= (١٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٨، ٥٣٩).

قال ابنُ عاشور بعدَ ذِكْرِه عدَّةَ أقوالٍ: (ومعنى الآيةِ على الأقوالِ كُلِّها: أنَّ الَّذين كانوا يَتَمَنَّون منزلةَ قارونَ نَدِموا على تمنِّيهم لَمَّا رأَوْا سوءَ عاقبتِه، وامتلَكَهم العَجَبُ مِن تلك القِصَّةِ، ومِن خَفِيِّ تصَرُّفاتِ الله تعالى في خَلقِه، وعَلِموا وُجوبَ الرِّضا بما قُدِّر للنَّاسِ مِن الرِّزقِ؛ فخاطَبَ بعضُهم بعضًا بذلك وأعلَنوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٩ - ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦٠-٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٦، ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن قَولِ أهلِ العلمِ والإيمانِ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾؛ ذَكَر مَحَلَّ الثوابِ، وهو الدَّارُ الآخرةُ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَر تعالى قارونَ وما أُوتيَه مِن الدُّنيا، وما صار إليه عاقبةُ أمرِه، وأنَّ أهلَ العِلمِ قالوا: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ رغَّب تعالى في الدَّارِ الآخرةِ، وأخبَر بالسَّببِ الموصلِ إليها، فقال(٢):

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا﴾.

أي: نعيمُ الجنَّةِ في الآخرةِ نَجعَلُه للَّذين لا يُريدونَ أيَّ تكبُّرٍ في الأرضِ عن الحَقِّ بردِّه، أو على الخَلقِ بظُلمِهم، ولا يُريدونَ أيَّ عَمَلٍ بمعاصي اللهِ سُبحانَه(٣).

عن عِيَاضٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ يَومٍ خَطيبًا، فقال: إنَّ اللهَ أوحى إليَّ أنْ تواضَعوا حتَّى لا يَفخَرَ أحَدٌ على أحدٍ، ولا يَبغِيَ أحدٌ على أحدٍ))(٤).

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ، قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يحِبُّ أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا ونَعلُه حَسنةً! قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩، ١٩٠).

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥).

الحَقِّ[(١)]، وغَمْطُ النَّاسِ[(٢)]))[(٣)].

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: والعاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ لِلَّذينَ يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، فيَنصُرُهم اللهُ في الدُّنيا، ويُدخِلُهم الجنَّةَ في الآخِرةِ[(٤)].

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ الدَّارَ الآخرةَ ليست لِمَن يريدُ علوًّا في الأرضِ ولا فَسادًا، بل هي للمتَّقين؛ بَيَّنَ بعدَ ذلك ما يحصُلُ لهم[(٥)].

وأيضًا لَمَّا تَحَرَّرَ الفَرقُ بيْنَ أهلِ الدَّارَينِ، وكان لا بُدَّ مِن إتيانِ الآخرةِ، وعُلِمَ أنَّ الآخرةَ إنَّما هي جزاءُ الأعمالِ؛ فاستُؤنِفَ تفصيلُ ذلك -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما لِمَنْ أحسَنَ ومَن أساءَ عندَ القدومِ؟- بقَولِه[(٦)]:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾.

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦ - ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٣).

أي: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ، فله ثوابٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ[1].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر جزاءَ الإحسانِ؛ أعقَبَ بضِدِّ ذلك، مع مُقابَلةِ فضْلِ اللهِ تعالى على المُحسِنِ بعَدْلِه مع المُسيءِ، على عادةِ القرآنِ مِن قَرْنِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ، فقال[2]:

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ[3] فلا يُثابُ أصحابُها إلَّا جَزاءَ ما عَمِلوه بلا زيادةٍ، ولا يُظلَمونَ بتَعذيبِهم على ما لم يَعمَلوا[4].

كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- العاقِلُ يَغبِطُ مَن أنفَقَ مالَه في سبيلِ الخَيراتِ، ونَيلِ عُلُوِّ الدَّرَجاتِ، والجاهِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٩).

وقد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآيةِ في سورة النملِ الآية (٨٩) مع بيان الخلافِ الواقع في تفسير الحَسَنة، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٣) تقدَّم تفسيرُ نظيرِها في سورةِ النمل الآية (٨٩) مع بيان الخلافِ الواقِع في تفسيرِ السَّيِّئةِ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٧).

يَغبطُ مَن أنفَقَ مالَه في الشَّهَواتِ، وتوصَّلَ به إلى اللَّذَّاتِ المحَرَّماتِ؛ قال الله تعالى حاكيًا عن قارونَ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] إلى قَولِه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] [القصص: ٨٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ عُبِّرَ بالجَمعِ تَرغيبًا في التَّعاوُنِ؛ إشارةً إلى أنَّ الدِّينَ لصُعوبتِه لا يَستَقِلُّ به الواحِدُ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّعالي والبَغيِ على الخلْقِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ مَدْحُ مَن لا يريدُ العلوَّ في الأرضِ ولا الفَسادَ، وهو أعظَمُ مِن مَدْحِ مَن لا يَعلو ولا يُفسِدُ، ووجْهُ ذلك: أنَّ انتفاءَ الإرادةِ يَلزَمُ منه انتفاءُ الفِعلِ، أمَّا انتفاءُ الفِعلِ فلا يَلزَمُ منه انتفاءُ الإرادةِ؛ فقد يريدُ الإنسانُ العلوَّ والفسادَ ولكنْ لا يَعلو ولا يُفسِدُ؛ لعدَمِ تَمَكُّنِه، أو لسَبَبٍ مِن الأسبابِ، أمَّا الَّذي لا يريدُ فهو أكمَلُ[4].

٥- طَلَبُ شرَفِ الدُّنيا والرِّفعةِ فيها، والرِّياسةِ على النَّاسِ والعُلوِّ في الأرضِ أضَرُّ على العبدِ مِن طلَبِ المالِ، وضرَرُه أعظَمُ، والزُّهدُ فيه أصعَبُ؛ فإنَّ المالَ

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٧).

يُبذَلُ في طلبِ الرِّياسةِ والشَّرَفِ.

والحِرصُ على الشَّرَفِ على قِسْمَينِ:

أحدهما: طَلَبُ الشَّرفِ بالولايةِ والسُّلطانِ والمالِ. وهذا خطرٌ جدًّا، وهو الغالبُ، يمنعُ خيرَ الآخرةِ وشرَفَها، وكرامتَها وعِزَّها؛ قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ... ﴾ الآيةَ. وقَلَّ مَن يَحرِصُ على رياسةِ الدُّنيا بطلَبِ الولاياتِ فوُفِّقَ؛ بل يُوكَلُ إلى نفْسِه.

الثَّاني: طَلَبُ الشَّرفِ والعُلوِّ على النَّاسِ بالأمورِ الدِّينيَّةِ؛ كالعِلمِ والعملِ والزُّهدِ، فهذا أفحَشُ مِنَ الأوَّلِ وأقبَحُ وأشَدُّ فسادًا وخطرًا؛ فإنَّ العِلمَ والعملَ والزُّهدَ إنَّما يُطلبُ بها ما عندَ الله مِنَ الدَّرَجاتِ العُلَى والنَّعيمِ المُقيمِ، ويُطلَبُ بها ما عندَ الله والقُرب منه والزُّلْفى لَديهِ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يؤخَذُ منه فضيلةُ التَّقْوى[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذَمَّ سُبحانَه وتعالى مُتَمَنِّي الدُّنيا والغِنى والسَّعةِ فيها، ومَدَح مَن أنْكَر عليهم وخالفَهم، فقال تعالى عن أغنى أهلِ زَمانه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٧٠-٧١، ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٢).

قَـٰرُونُ﴾ أنَّ ذوي النَّظَرِ القاصرِ يَتمنَّونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا(١).

٣- قالوا: ﴿يَـٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ﴾ ولم يَقولوا: يا لَيْتَ لنا ما أُوتيَ قارونُ، بل قالوا: مِثلَه؛ قيل: لأنَّهم لو قالوا: لَيْتَ لنا ما أُوتيَ قارونُ، كان ذلك حسَدًا؛ لأنَّهم يتمَنَّوْنَ بذلك زَوالَ النِّعمةِ عنه(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ إنَّما لم يُوصَفوا بإرادةِ ثَوابِ الآخِرةِ؛ تَنْبيهًا على أنَّ العِلْمَ بأحوالِ النَّشْأتينِ يَقتضِي الإعراضَ عن الأُولى، والإقبالَ على الثَّانيةِ حتمًا، وأنَّ تَمنِّي المُتَمَنِّينَ ليس إلَّا لعدمِ عِلْمِهم بهما كما يَنبغي(٣).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ إيثارُ ثَوابِ الآجِلِ على العاجِلِ هي حالةُ العُلَماءِ، فمَن كان هكذا فهو عالِمٌ، ومَن آثَرَ العاجِلَ على الآجِلِ فليس بعالِمٍ(٤)، فأهلُ العلمِ الَّذين يَعلمونَ حقائقَ الأمورِ يَدرونَ أنَّ هذه الدُّنيا ليست بشَيءٍ، وأنَّ ثوابَ الآخرةِ أعظَمُ وأجَلُّ(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ إخبارٌ أنَّه ما يُلَقَّى الأعمالَ الصَّالحةَ وجزاءَها والحُظوظَ العظيمةَ إلَّا أهلُ الصَّبرِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦).
(٤) هذه الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٣).
(٦) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ إنَّما كانت عقوبتُه بالخَسفِ؛ لأنَّه كان باغيًا عاليًا متكبِّرًا، فأُخِذَ بما يُناسِبُ حالَه، فالعالي أشدُّ عقوبةٍ له أنْ يُنزَلَ من مكانتِه العاليةِ؛ ولهذا كانتِ العقوبةُ مُناسِبةً للعَمَلِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وممَّن خَسَفَ اللهُ به الأرضَ قارونُ ودارُه[١]، فإنَّه لَمَّا انتهَتْ بقارونَ حالةُ البَغيِ والفَخرِ، وازَّيَّنتِ الدُّنيا عندَه، وكَثُرَ بها إعجابُه؛ بَغتَه العذابُ؛ جزاءً من جنسِ عَمَلِه، فكما رَفَعَ نفْسَه على عبادِ اللهِ، أنزَلَه اللهُ أسفَلَ سافلينَ هو وما اغترَّ به مِن دارِه وأثاثِه ومَتاعِه[٢]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أنَّ هذا الخَسفَ خارِقٌ للعادةِ؛ لأنَّه لم يتناوَلْ غيرَ قارونَ ومَن ظاهَرَه، وغيرَ دارِ قارونَ؛ فهو معجزةٌ لموسى عليه السَّلامُ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى إذا أنزَلَ العقوبةَ بأحدٍ؛ فليس له ناصرٌ دونَ اللهِ، ولو عَظُمَتْ قوَّتُه، وكَثُرَ جندُه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ سؤالٌ: ألَا يُشْكِلُ على هذا ما كان عليه أهلُ الكفرِ من النَّعيمِ والتَّرفِ في الدُّنيا؟

الجوابُ: لا يُشْكِلُ؛ لأنَّهم لم يُفلحوا، حتَّى وإنْ نُعِّمُوا في الدُّنيا فلا يُفيدُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٦).

النَّعيمُ، وهم إذا ماتوا انتقَلوا إلى الجحيم، فهذا النَّعيمُ في الحقيقةِ يكونُ وبالًا عليهم؛ لأنَّه يَتحوَّلُ بعدَ ذلك إلى عذابٍ(١).

١١- قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فمَن أرادَ العُلُوَّ في الأرضِ والفَسادَ لم يكُنْ مِن أهلِ السَّعادةِ في الآخِرةِ(٢).

١٢- قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لَمَّا كان المقصودُ الأعظمُ طَهارةَ القلبِ الَّذي عنه يَنشأُ عَمَلُ الجَوارحِ، قال: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾، ولم يَقُلْ: «يَتعاطَونَ» مثلًا؛ تعظيمًا لضَرَرِ الفَسادِ بالتَّنفيرِ مِن كلِّ ما كان منه تَسَبُّبٌ؛ إعلامًا بأنَّ النُّفوسَ ميَّالةٌ إليه، نزَّاعةٌ له، فمهما رَتَعَتْ قريبًا منه اقتحمَتْه لا محالةَ(٣).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ فيه أنَّ النِّيَّةَ لها أثرٌ؛ فالإرادةُ بمعنى النِّيَّةِ(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ لم يُعَلِّقْ تعالى الوعدَ بتركِ العلوِّ والفَسادِ، ولكنْ بتركِ إرادتِهما ومَيلِ القلوبِ إليهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ١١٣]، فعَلَّقَ الوعيدَ بالرُّكونِ(٥).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ العاقبةُ هي النِّهايةُ الَّتي تَعقُبُ ما سَبَقَها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧١).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٠٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢١).

وهذه للمُتَّقينَ، فمَن كان مُتَّقيًا لله عزَّ وجلَّ فالعاقبةُ له في كلِّ حالٍ، ولكنَّها تكونُ له باعتبارِ شخصِه وعملِه أحيانًا، وتكونُ له باعتبارِ عملِه دونَ شخصِه، فالإنسانُ المتَّقي للهِ عزَّ وجلَّ لا بُدَّ أنْ تكونَ العاقبةُ له، حتَّى لو اعتدَى عليه مَن يعتدي؛ فإنَّ العاقبةَ له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٠٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أنَّ جَزاءَ الحسنةِ خيرٌ منها بالكَمِّيَّةِ والكيفيَّةِ؛ أمَّا الكَمِّيَّةُ فالحسنةُ بعَشرِ أمثالِها، وأمَّا الكيفيَّةُ فإنَّ جزاءَ الحَسَنةِ دائِمٌ، وفِعْلَ الحسنةِ ليس بدائمٍ؛ فالفعلُ ينتهي بموتِ الإنسانِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[2] [الأعلى: ١٦، ١٧].

١٧- ثوابُ اللهِ سبحانه وتعالى دائرٌ بينَ العَدلِ والفَضلِ، وهذان قِسْمان: الفَضلُ بالنِّسبةِ للمُحسِنينَ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ﴾، والعَدلُ بالنِّسبةِ للمُسيئينَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أمَّا الجَورُ فهذا ممتنِعٌ في حقِّ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، فجزاءُ اللهِ تعالى دائرٌ بيْنَ الفضلِ والعدلِ؛ فهو محمودٌ على كلِّ حالٍ؛ لأنَّه إمَّا عَدْلٌ، وإمَّا فَضْلٌ[3].

١٨- قال الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ﴾ في الموضِعَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٢).

إشارةٌ إلى أنَّ المدارَ على مجيءِ الإنسانِ بذلك، لا على عَمَلِه؛ فقد يعمَلُ الحَسَنةَ ثمَّ يَرِدُ عليها ما يُبطِلُها، فمثلًا: هناك إنسانٌ عَمِلَ صَدَقةً، ثم مَنَّ بها أو آذى مَن تصَدَّقَ عليه، فلا تكونُ هذه صَدقةً، بل تَبطُلُ، ولا يُثابُ عليها يومَ القيامةِ. وإنسانٌ آخَرُ عَمِلَ سَيِّئةً، لكِنَّه تاب منها، فذَهَبت السَّيِّئةُ، فلا يأتي بها يومَ القيامةِ[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنَّ عدَمَ مُضاعَفةِ السَّيِّئةِ عامٌّ في مكَّةَ وفي غيرِها، ووجْهُه: أنَّ الآيةَ عامَّةٌ ليس فيها استِثناءٌ، ثمَّ إنَّ سورةَ (القَصَص) مكِّيَّةٌ؛ نزلتْ بمكَّةَ، والآيةُ نزلتْ بمكَّةَ، ولم يَستثنِ شيئًا، لكنَّ السَّيِّئةَ في مكَّةَ تكونُ عقوبتُها أشدَّ وأبلغَ إيلامًا؛ فالسَّيِّئةُ لا تكونُ عشرَ سيِّئاتٍ، لكِنَّ جزاءَها يكونُ أشدَّ؛ فهي تُضاعَفُ لا مِن جهةِ الكَمِّيَّةِ، ولكِنْ من جهةِ الكيفيَّةِ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[٢] [الحج: ٢٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾

- قولُه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ دلَّتِ الفاءُ على أنَّ خروجَه بينَ قومِه في زينَتِه بعدَ ذلكَ كلِّه كان مِن أجْلِ أنَّه لم يُقَصِّرْ عن شَيءٍ مِن سيرَتِه، ولم يَتَّعِظْ بتلكَ المواعظِ ولا زمنًا قصيرًا، بل أعْقَبَها بخُروجِه هذه الخِرْجةَ المَليئةَ صَلَفًا وازْدِهاءً[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢، ١٨٣).

- وإنَّما فُصِلَتْ جملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها تَتنَزَّلُ مَنزلةَ بدَلِ الاشتمالِ؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه الزِّينةُ مِن أنَّها ممَّا يَتَمَنَّاهُ الرَّاغبونَ في الدُّنيا، وذلك جامِعٌ لأحوالِ الرَّفاهيةِ، وعلى أخْصَرِ وَجهٍ؛ لأنَّ الَّذين يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا لهم أميالٌ مُختلفةٌ، ورَغَباتٌ مُتفاوِتةٌ؛ فكلٌّ يَتَمَنَّى أُمنيَّةً ممَّا تَلَبَّسَ به قارونُ مِن الزِّينةِ، فحَصَلَ هذا المَعنى مع حُصولِ الإخبارِ عن انْقِسامِ قومِه إلى مُغتَرِّينَ بالزَّخارفِ العاجلةِ عن غيرِ عِلْمٍ، وإلى عُلماءَ يُؤْثِرونَ الآجِلَ على العاجِلِ. ولو عُطِفَتْ جملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بالواوِ وبالفاءِ لَفاتتْ هذه الخُصوصيَّةُ البَليغةُ؛ فصارتِ الجملةُ إمَّا خبَرًا مِن جملةِ الأخبارِ عن حالِ قَومِه، أو جُزءَ خبرٍ مِن قِصَّتِه[1].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ تعليلٌ لتمنِّيهم، وتأكيدٌ له[2]، والتَّوكيدُ كِنايةٌ عن التَّعجُّبِ؛ حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُنكِرُ حَظَّه فيُؤكِّدُه المتكلِّمُ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فهي مُشارِكةٌ لها في مَعناها؛ لأنَّ ما تَشتَمِلُ عليه خِرْجةُ قارونَ وما تدُلُّ عليه مَلامِحُه مِن فتنةٍ ببَهْرَجَتِه وبِزَّتِه؛ دالَّةٌ على قِلَّةِ اعتِدادِه بثوابِ اللهِ، وعلى تَمَحُّضِه للإقبالِ على لَذائذِ الدُّنيا ومَفاخِرِها الباطلةِ؛ ففي كلامِ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ تَنبيهٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

ذلكَ، وإزالةٌ لِمَا تَستَجلِبُه حالةُ قارونَ مِن نُفوسِ المُبْتَلَينَ بزَخارِفِ الدُّنيا[١].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه في قولِه: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ ليَتمكَّنَ الخبرُ في ذِهْنِ السامِعينَ؛ لأنَّ الابتداءَ بما يَدُلُّ على الثَّوابِ المُضافِ إلى أَوْسَعِ الكُرَماءِ كَرَمًا؛ ممَّا تَسْتَشْرِفُ إليه النَّفْسُ[٢].

- وعُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى المَوصوليَّةِ في قولِه: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ دونَ: (خَيْرٌ لَكُمْ)؛ لِمَا في الإظهارِ مِن الإشارةِ إلى أنَّ ثوابَ اللهِ إنَّما يَنالُه المؤمنونَ الَّذين يَعمَلون الصَّالحاتِ، وأنَّه على حَسَبِ صِحَّةِ الإيمانِ ووفْرَةِ العمَلِ، مع ما في الموصولِ من الشُّمولِ لِمَنْ كان منهم كذلكَ ولغَيْرِهم ممَّن لم يَحْضُرْ ذلك المَقامَ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾

- دَلَّتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَخَسَفْنَا﴾ على تَعْقيبِ ساعةِ خُروجِ قارونَ في ازْدِهائِه، وما جَرَى فيها مِن تَمَنِّي قومٍ أنْ يكونوا مِثْلَه، وما أنْكَر عليهم عُلَماؤُهم مِن غَفْلَتِهم عن التَّنافُسِ في ثوابِ الآخرةِ بتَعْجيلِ عِقابِه في الدُّنيا بمَرْأًى مِنَ الَّذينَ تَمَنَّوْا أنْ يَكونوا مِثْلَه[٤].

- قولُه: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ﴾ (مِنْ) صِلةٌ، أي: مِن جماعةٍ تُفيدُ استِغْراقَ الفِئاتِ، وإذا انْتَفَتِ الجُملةُ، ولم يُقْدَرْ على نَصْرِه؛ فانتِفاءُ الواحدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨٥).

عن نُصْرتِه أبلَغُ[(١)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ ... ﴾ (أَصْبَحَ) إذا حُمِلَ على ظاهِرِه دلَّ على أنَّ الخَسْفَ به وبِدارِه كان ليلًا، وهو أَفْظَعُ العذابِ؛ إذِ اللَّيلُ مَقَرُّ الرَّاحةِ والسُّكونِ، والأمسُ يَحتمِلُ أنْ يُرادَ به الزَّمانُ الماضي، ويَحتمِلُ أن يُرادَ به ما قبْلَ يوم الخَسْفِ، وهو يومُ التَّمنِّي، ويدُلُّ عليه العطفُ بالفاءِ الَّتي تَقْتَضِي التَّعقيبَ في قولِه: ﴿فَخَسَفْنَا﴾؛ فيكونُ فيه اعتِقابُ العذابِ خروجَه في زينَتِه، وفي ذلك تعجيلُ العذابِ[(٢)].

- قوله: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ فائدةُ البيانِ بقولِه: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ الإيماءُ إلى أنَّه في بَسْطَةِ الأرزاقِ وقَدْرِها مُتصَرِّفٌ تصرُّفَ المالِكِ في مِلْكِه؛ إذِ المَبْسوطُ لهم والمَقْدورُ عليهم كلُّهم عَبيدُه؛ فحَقُّهمُ الرِّضا بما قسَمَ لهم مَولاهُم[(٣)].

- وأعادَ ﴿وَيْكَأَنَّ ﴾ بعدُ؛ لاتِّصالِ كلٍّ منهما بما لم يتَّصِلْ به الآخَرُ[(٤)].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ تكريرٌ للتَّعجُّبِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

٥- قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ انْتَهَتْ قِصَّةُ قارونَ بما فيها مِنَ العِبَرِ مِن خَيرٍ وشرٍّ، فأُعقِبَتْ باستِئنافِ كلامٍ عنِ الجَزاءِ على الخيرِ وضِدِّه في الحياةِ الأبَديَّةِ، وأنَّها مُعَدَّةٌ لِلَّذينَ حالُهم بضِدِّ حالِ قارونَ، مع مُناسَبةِ ذِكْرِ الجَنَّةِ بعُنوانِ الدَّارِ لذِكْرِ الخَسْفِ بدارِ قارونَ؛ للمُقابَلةِ بيْنَ دارٍ زائلةٍ ودارٍ خالدةٍ، وابتُدِئَ الكلامُ بابْتِداءٍ مُشَوِّقٍ وهو اسمُ الإشارةِ إلى غيرِ مَذكورٍ مِن قَبْلُ؛ لِيَسْتَشْرِفَ السَّامعُ إلى مَعرفةِ المُشارِ إليه فيَعْقُبُه بيانُه بالاسمِ المُعَرَّفِ باللامِ[١].

- قولُه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ إشارةُ تَعظيمٍ وتفخيمٍ لها؛ كأنَّه قيلَ: تلكَ الَّتي سَمِعتَ خبَرَها وبلغَكَ وَصْفُها[٢]. والآخِرةُ: مُرادٌ به الدَّائِمةُ، أي: الَّتي لا دارَ بعْدَها؛ فاللَّفظُ مُستَعْمَلٌ في صَريحِ مَعناهُ وكِنايتِه[٣].

- وفي تَعليقِ المَوعِدِ بتَرْكِ إرادةِ العُلوِّ والفسادِ ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ لا بتَرْكِ أنفُسِهما؛ مَزيدُ تَحذيرٍ منهما[٤].

- ومَعنى ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ قيل: هي كِنايةٌ عن: (لا يَفْعلونَ)؛ لأنَّ مَن لَا يُريدُ الفِعلَ لا يَفْعَلُه إلَّا مُكْرَهًا[٥].

- وجاءَ التركيبُ بـ(لا) في قولِه: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾؛ فدَلَّ على أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠).

العُلُوِّ والفسادِ مَقصودٌ، لا مجموعُهما[(١)].

- قولُه: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ تَذْييلٌ، وهو مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ...﴾، وبه صارتْ جملةُ ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ...﴾ كلُّها تَذْييلًا؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِن إثباتِ الحُكْمِ للعامِّ بالمَوصولِ مِن قولِه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والمُعرَّف بلامِ الاستِغراقِ[(٢)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- تَتنَزَّلُ جُملةُ ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ مَنزِلةَ بدَلِ الاشتِمالِ لجُملةِ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ العاقِبةَ ذاتُ أحوالٍ مِن الخَيرِ، ودَرَجاتٍ مِن النَّعيم، وهي على حَسَبِ ما يَجيءُ به المُتَّقونَ مِن الحَسَناتِ، فتَفاوُتُ درجاتِهم بتفاوُتِها، واختيارُ فِعْلِ ﴿عَمِلُواْ﴾ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لِما فيه مِن التَّنْبيهِ على أنَّ عمَلَهم هو عِلَّةُ جَزائِهم؛ زِيادةٌ في التَّنبيهِ على عَدْلِ اللهِ تعالَى[(٣)].

- و(مَنْ جاءَ بالسَّيِّئةِ) ماصَدَقُه[(٤)]: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الثَّاني هو عَيْنُ (مَنْ جاءَ بالسَّيِّئةِ)؛ فكانَ المَقامُ مَقامَ الإضمارِ بأنْ يُقالَ: ومَنْ جاءَ بالسَّيئةِ فلا يُجْزَوْنَ... إلخ، ولكنَّه عَدَلَ عن مُقتَضَى الظاهِرِ؛ لأنَّ في التَّصريحِ بوَصْفِهم بـ ﴿عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تكريرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠، ١٩١).

(٤) الماصَدَق عندَ المَناطِقةِ: الأفرادُ الَّتي يَتحقَّقُ فيها معنَى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه (المفهوم). يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار (٢/ ١٢٨٤).

لإسنادِ عَمَلِ السَّيِّئاتِ إليهم؛ لقَصْدِ تَهجينِ هذا العمَلِ الذَّميمِ، وتَبْغيضِ السَّيِّئةِ إلى قُلوبِ السَّامِعينَ مِن المُؤمنينَ(١).

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استِثناءٌ مُفَرَّغٌ -ناقِصٌ مَنفيٌّ- عن فِعْلِ ﴿يُجْزَى﴾ المَنْفِيِّ المُفيدِ بالنَّفْيِ عُمومَ أنواعِ الجَزاءِ، والمستثنَى تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: جزاءٌ شِبْهُ الَّذي كانوا يَعْمَلونَه(٢).

- قولُه: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا مِثْلَ ما كانوا يَعمَلون؛ فحُذِفَ المِثْلُ، وأُقيمَ مُقامَه ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ مُبالَغةً في المُماثَلةِ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

الآيات (٨٥-٨٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾: أي: لا يَصْرِفُنَّكَ، والصُّدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصِرافًا عن الشَّيءِ وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرَ مُتَعَدٍّ، وقد يكونُ صَرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا، بمعنى: يصَدُّون غيرَهم، وأصلُ (صدد): إعراضٌ وعدولٌ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبَشِّرًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ اللهَ الَّذي أنزَلَ عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- وأوجَبَ عليك تِلاوتَه وتَبليغَه والعملَ به؛ سوف يَرُدُّك إلى مكَّةَ مِن بعدِ خُروجِك منها.

ثمَّ يأمُرُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يرُدَّ على دعاوى المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ مِن قَومِك: ربِّي أعلَمُ بمَن جاء بالحقِّ مِن عندِه ومَن هو في ضَلالٍ واضِحٍ.

ثمَّ يُذكِّرُ الله تعالى نبيَّه بنعمتِه العظيمةِ عليه وعلى العبادِ إذْ أرْسَله إليهم، فيقولُ: وما كنتَ تظُنُّ أن يُنزِلَ اللهُ عليك القُرآنَ، لكنَّ اللهَ أنزَلَه عليك رحمةً منه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨ب/ ١٣٩).

سُبحانَه؛ فلا تَكونَنَّ -يا محمَّدُ- مُعينًا للكافرينَ، ولا يَصرِفَنَّك هؤلاء الكفَّارُ عن آياتِ القُرآنِ بعدَ أن أنزَلْناها إليك، وادْعُ النَّاسَ إلى عبادةِ رَبِّك، ولا تَكونَنَّ مِنَ المُشرِكينَ، ولا تَعبُدْ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ؛ فإنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، كُلُّ شَيءٍ فانٍ إلَّا ذاتَ اللهِ سُبحانَه وبحَمدِه، وله وَحْدَه الحُكْمُ بيْنَ عِبادِه، وإليه وحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم للجَزاءِ والحِسابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح سُبحانَه لرَسولِه أمْرَ القيامةِ واستَقصَى في ذلك؛ شَرَحَ له ما يتَّصِلُ بأحوالِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ ذكر قصصَ موسى وقَومِه مع قارونَ، وبيَّن بَغْيَ قارونَ واستِطالتَه عليهم، ثمَّ هلاكَه، ونُصرةَ أهلِ الحقِّ عليه؛ أردَف هذا قصصَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه مع قومِه، وإيذائِهم إيَّاه، وإخراجِهم له مِن مَسقِطِ رأسِه، ثمَّ إعزازِه إيَّاه بالإعادةِ إلى مكَّةَ، وفتْحِه إيَّاها منصورًا ظافرًا[2].

وأيضًا لَمَّا قَرَّرَ ذِكْرَ الآخرةِ الَّتي هي المرجِعُ، وكَرَّرَه، وأثبَتَ الجزاءَ فيها، وأنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ؛ أتْبَعَه ما هو في بيانِ ذلك كالعلَّةِ؛ فقال مستأنفًا مقرِّرًا مؤكِّدًا لِمَا تقرَّرَ في أذهانِهم مِن إنكارِ الآخرةِ وما يقتضيه حالُ خروجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٠٤).

مِن مكَّةَ المُشرَّفةِ مِن استبعادِ رَدِّه إليها[1]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي أنزل عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- وأوجَبَ عليك تِلاوتَه وتَبليغَه والعملَ به: لَرادُّك إلى مكَّةَ مِن بَعدِ خُروجِك منها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٤-٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٣-٣٨٥).

قال الزَّجَّاجُ: (معنَى ﴿فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: أنزلَه عليك وألْزَمَك، وفرَضَ عليك العملَ بما يُوجِبُه القرآنُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٥٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: مكَّة: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والفَرَّاءُ، والسمرقندي، والواحدي، والرازي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والألوسي، ونسبه السمعانيُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ يومُ القيامةِ، وأنَّ المَعادَ هو البعثُ: الماتُريديُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ، ونسَبَه مكِّيٌّ للزَّجَّاجِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٨٧). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: المقامُ المحمودُ: أبو السُّعودِ، والشربينيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤١).

قال البِقاعي: (﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: مَرجِعٍ عظيمٍ يا لَه مِن مرجعٍ! يُجزى فيه كلُّ أحدٍ بما عمِل، =

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

وجهُ تَعَلُّقِ هذه الآيةِ بما قبْلَها أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا وَعَد رسولَه الرَّدَّ إلى مَعادٍ، قال: ﴿قُل﴾ للمشركينَ ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يعني: نفْسَه، وما يَستحِقُّه مِنَ الثَّوابِ في المعادِ، والإعزازِ بالإعادةِ إلى مكَّةَ، ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يَعْنيهم وما يَستحِقُّونَ مِنَ العقابِ في مَعادِهم[1].

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحَقِّ مِن عِندِه أنا أو أنتم، وأعلَمُ بمَن هو منَّا ومنكم في ضَلالٍ واضحٍ[2].

= فيَبعَثُك ربُّك فيه -ثوابًا على إحسانِك في العملِ- مقامًا محمودًا يَغبطُك فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ، بما عانَيْتَ في أمرِه مِن هذه المشَقَّاتِ الَّتي لا تَحمِلُها الجبالُ، ولولا الرَّدُّ إلى إلى هذا المَعادِ لكانت هذه التَّكاليفُ -الَّتي لا يعملُ أكثرُهم بأكثَرِها، ولا يُجازى على المخالفةِ فيها- مِنَ العبثِ المعلومِ أنَّ العاقلَ مِنَ الآدَميِّينَ مُتنزِّهٌ عنه، فكيف بأحكَمِ الحاكِمينَ؟! فاجتهِدْ فيما أنت فيه لعِزِّ ذلك اليومِ؛ فإنَّ العاقبةَ لك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٧٥).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَر ما جاء عن ابنِ عبَّاسٍ مِن رواياتٍ في معنى ذلك، ومنها أنَّ المرادَ: لَرادُّك إلى الجنَّةِ، وفي روايةٍ: إلى يومِ القيامةِ، وفي روايةٍ: إلى الموتِ، وفي روايةٍ: إلى مكَّةَ- قال: (وجْهُ الجَمعِ بينَ هذه الأقوالِ: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ فسَّر ذلك تارةً برُجوعِه إلى مكَّةَ، وهو الفَتحُ الَّذي هو عندَ ابنِ عبَّاسٍ أمارةٌ على اقترابِ أجَلِه... وفسَّر ابنُ عبَّاسٍ تارةً أخرى قَولَه: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ بالموتِ، وتارةً بيومِ القيامةِ الَّذي هو بعدَ الموتِ، وتارةً بالجنَّةِ الَّتي هي جزاؤُه ومَصيرُه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢٨٢).

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رجوعُه صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى مكَّةَ غايةَ البُعدِ؛ لكثرةِ الكفَّارِ، وقِلَّةِ الأنصارِ؛ قرَّبه تعالى بقولِه مُعلِمًا أنَّ كثيرًا مِن الأمورِ تكونُ على غيرِ رجاءٍ، بل وعلى خِلافِ القياسِ(١).

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: وما كُنتَ -يا مُحمَّدُ- تَظُنُّ أن يُنزِلَ اللهُ عليك القُرآنَ، لكِنَّ اللهَ أنزله عليك رحمةً منه بك وبِعبادِه(٢).

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَسَبَّبَ عمَّا تَقَدَّمَ الاجتِهادُ في تحريكِ الهِمَمِ إلى العُكوفِ على أمْرِ اللهِ؛ طَمَعًا فيما عِندَه سُبحانَه من الثَّوابِ، وشُكرًا على إنزالِ الكِتابِ- قال في سياقِ التَّأكيدِ؛ لأنَّ الطَّبعَ البَشريَّ يقتضي إدراكَ مُظاهَرةِ الكُفَّارِ لأمرٍ من التَّوفيقِ عَظيمٍ؛ لِكَثرتِهم وقُوَّتِهم وعِزَّتِهم(٣):

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٩).

أي: فلا تكونَنَّ -يا مُحمَّدُ- مُعينًا للكافِرينَ[١].

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾.

أي: ولا يَصرِفَنَّك الكُفَّارُ -يا مُحمَّدُ- بكَذِبِهم وأذاهم ومَكرِهم عن آياتِ القُرآنِ بعدَ أن أنزَلْناها إليك؛ لِتَتلوَها عليهم، وتعمَلَ بها؛ فلا تُبالِ بهم، ولا تتأثَّرْ بمُخالفتِهم لك، واتِّباعِ أهوائِهم، وامْضِ لِما أُمِرْتَ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۞ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

قال جلال الدين المحلي: (﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أصلُه يَصُدُّونَنَّك، حُذِفَت نُونُ الرَّفعِ للجازمِ، والواوُ للفاعلِ؛ لالْتِقائِها مع النُّونِ السَّاكنةِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٠).

أي: لَمَّا دخلت (لا) النَّاهيةُ على (يَصُدُّونَنَّكَ) وجَب حذفُ النُّونِ الأولى للجزمِ، فصارت: يَصُدونَّك، فلمَّا حُذِفَت النُّونُ الأُولى الْتَقَتْ واوُ الفاعلِ السَّاكنةُ مع النُّونِ المُشَدَّدةِ، وهي عبارةٌ عن نُونَينِ: الأُولى ساكنةٌ والثَّانيةُ مُتحرِّكةٌ، وإذا الْتَقى ساكِنانِ وجَب حذْفُ الأوَّلِ منهما. يُنظر: ((تفسير العثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٧). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٩١) و(٨/ ٧٠١).

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

أي: وادْعُ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- إلى رَبِّك؛ لعِبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له(١).

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: ولا تَكونَنَّ -يا مُحمَّدُ- مَعدودًا مِنَ المُشرِكينَ(٢).

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾.

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨١).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاس: هو مُخاطَبةٌ لأهلِ دينِه. يعني: أنَّ هذا الخِطابَ وإن كان ظاهِرُه له، فالمرادُ به أهلُ دينِه، أي: لا تُظاهِروا الكفَّارَ ولا توافِقوهم، وكذلك قولُه: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تَعبُدْ معه غيرَه. قال ابنُ عبَّاسٍ: هذا تخويفٌ للمشركين، وأمَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقد عصَمَه اللهُ من أن يَتَّخِذَ معه إلهًا آخَرَ. يريدُ: أنَّه إذا نُهيَ عن عبادةِ غيرِ الله، كان ذلك تخويفًا لِمَن عبَدَ معه غيرَه. وهذا فائدةُ النَّهيِ عن عبادةِ غيرِه بعدَ أن عُصِم عن ذاك، وحُكِم له بالنُّبوَّةِ في سابِقِ الحُكمِ). ((البسيط)) (١٧/ ٤٧٨).

وقال السمعاني: (وقولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: اثْبُتْ على التَّوحيدِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٣).

وقال ابن جرير: (﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يقولُ: ولا تَترُكَنَّ الدُّعاءَ إلى رَبِّك، وتبليغَ المشركينَ رسالَتَه، فتكونَ مِمَّنْ فَعَلَ فِعْلَ المشركينَ بمعصيَتِه رَبَّه، وخِلافِه أمْرَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣).

أي: ولا تَعبُدْ -يا مُحمَّدُ- مع اللهِ مَعبودًا غَيْرَه، وأخلِصْ عِبادتَك للهِ وَحْدَه[(١)].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه، وكُلُّ مَعبودٍ سِواه فهو باطِلٌ[(٢)].

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

أي: كلُّ شَيءٍ فانٍ إلَّا ذاتَ اللهِ تعالى، وكُلُّ عَمَلٍ باطلٌ إلَّا ما أُريدَ به وَجْهُه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨١، ٣٨٢).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالوَجهِ هنا: الذَّاتُ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٥، ٤٠٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٧).

وفي قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إن أُريدَ بالوَجهِ الذَّاتُ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يبقى هو نفْسُه مع إثباتِ الوَجهِ لله، فهذا صَحيحٌ، ويكون هنا عبَّرَ بالوجهِ عن الذَّاتِ لِمَن له وَجهٌ، ويكونُ المرادُ بالآيةِ: إلَّا ذاتَه المتَّصِفةَ بالوَجهِ.

وإنْ أُريدَ بتفسيرِ الوجهِ بالذَّاتِ: أنَّ الوَجهَ عبارةٌ عن الذَّاتِ بدونِ إثباتِ الوَجهِ، فهذا غيرُ مَقبولٍ، وهو تحريفٌ. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٤٣).

وقيل: المرادُ به: إخلاصُ العَمَلِ لله تعالى، فكُلُّ عَمَلٍ باطِلٌ إلَّا ما أُريدَ به وَجهُه سبحانه. ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ لجمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٨٣).

قال ابن تيميَّة: (قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يَقْتَضي أظهرَ الوجهَيْنِ، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ هالِكٌ إلَّا ما كان لوجهِه مِن الأعيانِ والأعمالِ وغيرِهما). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٢٧). =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ * وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أصدَقُ كَلِمةٍ قالها الشَّاعِرُ كَلِمةُ لَبيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلٌ))[1].

وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ، مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غَيري ترَكْتُه وشِرْكَه))[2].

﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾.

= وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾: إخبارٌ بأنَّه الدَّائمُ الباقي الحيُّ القَيُّومُ، الَّذي تموتُ الخلائقُ ولا يموتُ، كما قال تعالَى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ * وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فعبَّر بالوجهِ عن الذاتِ، وهكذا قولُه هاهنا: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ أي: إلَّا إيَّاه... وقال مجاهدٌ والثَّوريُّ في قَولِه: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ أيْ: إلَّا ما أُريدَ به وجهُه،... وهذا القولُ لا ينافِي القولَ الأوَّلَ؛ فإنَّ هذا إخبارٌ عن كلِّ الأعمالِ بأنَّها باطِلةٌ إلَّا ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ المطابقةِ للشَّريعة. والقولُ الأوَّلُ مُقتضاهُ أنَّ كلَّ الذَّواتِ فانيةٌ وهالكةٌ وزائلةٌ إلَّا ذاتَه تعالَى؛ فإنَّه الأوَّلُ الآخِرُ، الَّذي هو قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وبعدَ كلِّ شيءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١).

وقال البقاعي: (لعلَّه عَبَّرَ عن الذَّاتِ بالوجهِ؛ ليشملَ ما قُصِدَ به مِن العملِ الصَّالحِ، مع ما هو معروفٌ مِن تسويغِه لذلك بكَونِه أشرَفَ الجملةِ، وبكونِ النَّظرِ إليه هو الحامل على الطَّاعةِ بالاستحياءِ، وما في معناه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٨٢).

(١) رواه البخاري (٣٨٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٢٥٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

أي: لله وَحْدَه الحُكمُ بينَ عِبادِه في الدُّنيا والآخرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُرَدُّون بعدَ مَوتِكم، فيُجازي كُلًّا مِنكم بعَمَلِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ دَلالةٌ على نُبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه أَخبرَ عن الغيبِ ووَقَعَ ما أخبَرَ به، فيكونُ مُعجِزًا(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فيه إثباتُ عِلْمِ اللهِ، وأنَّه أكمَلُ العُلومِ؛ لأنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ فيقتضي أنْ يكونَ أفضلَ العُلومِ(٤).

٣- في قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّ ما عدا الهدَى فهو ضلالٌ؛ وأنَّه ليس ثمَّةَ واسطةٌ بينَ الهدَى والضلالِ، ومِن شواهدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

قال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّه يشملُ الحُكمَ الكونيَّ والشَّرعيَّ، وله القَضاءُ النَّافِذُ على كلِّ أحدٍ، وله أيضًا الفَصلُ بيْنَ الخَلقِ بالأحكامِ الشَّرعيةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٨).

هذا الأمرِ قولُه تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ومِثْلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] [سبأ: ٢٤].

٤- بيانُ تكذيبِ الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]؛ فالكُفَّارُ يقولونَ: إنَّما يُعَلِّمُ محمَّدًا القُرآنَ بشرٌ. فلو كان الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتعلَّمُ مِن بَشَرٍ لكان متطلِّعًا لهذا القرآنِ، واللهُ يقولُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، فالرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما كان يَتَطَلَّبُ الرسالةَ، ولا خطرتْ له على بالٍ[2].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أنَّ هذا القرآنَ الذي جاء به محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رحمةٌ للخلْقِ، رحمةٌ في الدنيا والآخرةِ، ففي الدنيا تستقرُّ الأمورُ، وتصْلُحُ أحوالُهم، ويَعلو أمْرُهم، وفي الآخرةِ يكونون في جناتِ النعيمِ، فهذا القرآنُ رحمةٌ أولًا وآخرًا، وهو أعظمُ نعمةٍ مِن اللهِ سبحانه وتعالى، وأعظمُ مِن نزولِ المطرِ الذي تحيا به الأرضُ؛ لأنَّ القرآنَ تحيا به القلوبُ، وتصْلُحُ به الأعمالُ، وبحياة القلوبِ والأعمالِ تحيا الأرضُ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] [الأعراف: ٩٦].

٦- قَولُه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فيه إثباتُ ربوبيَّةِ اللهِ الخاصَّةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فهذا يقتَضي ربوبيَّةً خاصَّةً، كما أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ له عُبوديةٌ خاصَّةٌ. فعبوديتُه خاصةٌ، وربوبيَّةُ اللهِ له خاصَّةٌ أيضًا[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تحريمُ مُظاهرةِ الكُفَّارِ -أي: مُعاونتِهم-؛ لأنَّ النَّهيَ للتَّحريمِ، لا سيَّما وقد أُكِّدَ بنونِ التَّوكيدِ[١].

٨- إذا قيل: ما الفائدةُ مِن قَولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، وأصلُ النَّهيِ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا يَقَعُ إلَّا إذا كانت نازِلةً؟ فهل هذا الكَلامُ لَغوٌ لا فائدة منه؟

الجوابُ: لا، ليس لَغوًا لا فائِدةَ منه، بل فيه فائِدةٌ، وهو تذكيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ الإنزالِ، حتى يكونَ ذلك أثبَتَ له؛ فإنَّها إذا كانت أُنزِلَت إليه مِن عندِ اللهِ فإنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَصُدَّه عنه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذا لا يَقَعُ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فما فائدةُ ذلك النَّهيِ؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

أولًا: أنَّه ذُكِرَ للتَّهييجِ والإلهابِ، وقَطعِ أطماعِ المُشركينَ عن مُساعدتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم، وإظهارِ أنَّ المنهيَّ عنه في القُبحِ والشَّرِّيةِ بحيثُ يُنهَى عنه من لا يُمكِنُ صُدورُه عنه أصلًا[٣].

ثانيًا: أنَّ الخطابَ وإنْ كان معه، لكِنَّ المرادَ غيرُه، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٤] [الزمر: ٦٥] فهذه الأوامِرُ والنواهي وإن كان خِطابُها مُتوجِّهًا إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فالمقصودُ بها أتباعُه، ولعَلَّها إنَّما وُجِّهَت إليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٨، ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٣).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ أمرَ الرئيسِ أدعى لأتباعِه إلى القَبولِ[١].

ثالثًا: أنَّ النهيَ عن الشيءِ قد يُوَجَّه إلى مَن لم يقعْ منه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فمن المعلومِ أنهم لم يصدُّوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن آياتِ الله! وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يقَعْ منه شركٌ! والغرضُ مِن توجيهِ النهيِ إلى مَن لا يقعُ منه: التنديدُ بمَن وقعَ منهم؛ والتحذيرُ مِن منهاجِهم[٢].

١٠- قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا النفيُ لا يَتعارضُ مع ما قَبْلَه ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾! لأنَّ ما قَبْلَه باعتبارِ أنَّه إلهٌ باطلٌ، والثاني باعتبارِ أنَّه إلهٌ حقٌّ؛ فلا إلهَ حقٌّ إلَّا اللهُ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أنَّ اللهَ تعالى شَيءٌ، لأنَّه استثنَى مِن قولِه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ استثناءً يُخرِجُ ما لولاه لوَجَبَ أو لَصَحَّ دخولُه تحتَ اللَّفظِ؛ فوَجَبَ كونُه شيئًا، يؤكِّدُه ما في سورةِ الأنعامِ، وهو قولُه: ﴿قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾[٤] [الأنعام: ١٩]، فيصحُّ إطلاقُ لفظةِ (شيء) على الله عَزَّ وجلَّ أو على صفةٍ مِن صفاتِه، لكن لا يقالُ: (الشيء) اسمٌ مِن أسمائِه تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢١٧).

قال البخاري: (باب ﴿قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾. وسَمَّى اللَّهُ تعالَى نفْسَه شيئًا، وسمَّى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القرآنَ شيئًا وهو صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ. وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾). (كتاب بَدْء الوحي) من ((صحيح البخاري)) (٩/ ١٥١).

١٢- خُلِقت الجَنَّةُ وما فيها، وخُلِقَت النَّارُ وما فيها؛ خلَقَهما اللهُ عَزَّ وجَلَّ وخَلَقَ الخَلْقَ لهما، ولا يَفْنَيانِ ولا يفنى فيهما ما فيهما أبدًا، فإذا احتَجَّ مُبتَدِعٌ أو زِنديقٌ بقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ وبنَحوِ هذا من مُتشابِهِ القُرآنِ، قيل له: كُلُّ شَيءٍ مِمَّا كَتَب اللهُ عليه الفَناءَ والهلاكَ هالِكٌ، والجنَّةُ والنَّارُ خَلَقهما اللهُ للبَقاءِ لا للفَناءِ ولا للهَلاكِ، وهما مِنَ الآخرةِ لا مِنَ الدُّنيا[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ إثباتُ صِفةِ الوَجهِ لله عزَّ وجَلَّ، وهو ثابتٌ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ الآيةُ ابتداءُ كَلامٍ؛ للتَّنويهِ بشأنِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثْبيتِ فُؤادِه، ووعْدِه بحُسْنِ العاقبةِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وإنَّ إنكارَ أهلِ الضَّلالِ رسالتَه لا يَضيرُه؛ لأنَّ اللهَ أعْلَمُ بأنَّه على هدًى، وأنَّهم على ضلالٍ بعدَ أنْ قَدَّمَ لذلكَ مِن أحوالِ رِسالةِ موسى عليه السَّلامُ ما فيه عبرةٌ بالمقارنةِ بينَ حالَيِ الرَّسولَينِ وما لَقِياهُ من المُعْرِضينَ[٣].

- وافتِتاحُ الكَلامِ بحَرْفِ التأكيدِ للاهتمامِ به، وجِيءَ بالمُسنَدِ إليه اسمٌ مَوصولٌ (الَّذي) دونَ اسمِه تعالَى العلَمِ؛ لِمَا في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وأنَّه خبَرُ الكَرامةِ والتَّأْييدِ، أي: إنَّ الذي أَعطاكَ القُرآنَ ما كان إلَّا مُقَدِّرًا نَصْرَك وكرامتَك؛ لأنَّ إعطاءَ القرآنِ شيءٌ لا نظيرَ له؛ فهو دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١، ١٩٢).

كَمالِ عِنايةِ اللهِ بالمُعطَى، وفيه إيماءٌ إلى تَعظيمِ شَأْنِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

- قولُه: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: مَعادٍ ليس لغَيرِكَ مِن البَشَرِ، وتَنكيرُ المعادِ لذلكَ. وقيلَ: المرادُ به مَكَّةُ، ووجْهُه أنْ يُرادَ ردُّه إليها يومَ الفَتْحِ؛ ووجْهُ تَنكيرِه أنَّها كانتْ في ذلكَ اليومِ مَعادًا له شأنٌ، ومَرجِعًا له اعتِدادٌ؛ لغَلَبةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليها، وقَهْرِه لأهلِها، ولِظُهورِ عزِّ الإسلامِ وأهلِه، وذُلِّ الشِّرْكِ وحِزْبِه(٢). وقيل: والتَّنكيرُ في مَعادٍ للتعظيمِ كما يَقْتَضيه مَقامُ الوَعْدِ والبِشارَةِ، والمَعادُ يَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في مَعنَى آخِرِ أحوالِ الشَّيءِ وقَرارِه الذي لا انتقالَ منه تَشبيهًا بالمكانِ العائدِ إليه، بَعْدَ أنْ صَدَر منه، أو كِنايةً عنِ الأَخَارَةِ، فيَكونُ مُرادًا به الحياةُ الآخرةُ؛ فتَنكيرُ ﴿مَعَادٍ﴾ أَفَادَ أنَّه عظيمُ الشأنِ، وتَرتُّبُه على الصِّلةِ أفاد أنَّه لا يُعطَى لغيرِه مِثْلُه؛ كما أنَّ القُرآنَ لم يُفْرَضْ على أحَدٍ مثلِه، ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالمَعادِ مَعْناهُ المَشهودُ القريبُ من الحَقيقةِ، وهو ما يَعودُ إليه المرءُ إنْ غابَ عنه، فيُرادُ به هنا بلَدُه الذي كانَ به وهو مَكَّةُ، وهذا الوجهُ يَقتَضي أنَّه كِنايةٌ عن خُروجِه منه ثم عَودُه إليه؛ لأنَّ الرَّدَّ يَستَلْزِمُ المُفارَقَةَ، وإذ قدْ كانتِ السُّورةُ مكيَّةً ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَكَّةَ؛ فالوَعْدُ بالرَّدِّ كِنايةٌ عن الخُروجِ منْهُ قَبْلَ أن يُرَدَّ عليه(٣).

- وجُملةُ ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بالنِّسبةِ إلى الوَجْهِ الأولِ بمَنزلةِ التَّفْريعِ على جُملةِ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: رادُّكَ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢، ١٩٣).

يومِ المعادِ؛ فمُظْهِرُ المُهْتديَ والضَّالِّينَ؛ فيكونُ عِلْمُ اللهِ بالمُهتدي والضالِّ مُكَنًّى به عنِ اتِّضاحِ الأمرِ بلا رَيْبٍ؛ لأنَّ عِلْمَ اللهِ تعالَى لا يَعْتَريهِ تَلْبيسٌ، وتكونُ هذه الكِنايةُ تَعْريضًا بالمشركينَ أنَّهم الضالُّونَ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو المُهتَدِي، ولهذِه النُّكتةِ عَبَّرَ عنْ جانبِ المُهتَدي بفِعْلِ ﴿مَن جَآءَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُهتَدِيَ هو الَّذي جاءَ بِهَدْيٍ لم يَكُنْ مَعروفًا مِنْ قَبْلُ؛ كما يَقْتَضيه: جاءَ بكذا. وبالنسبةِ إلى الوَجْهِ الثاني تكونُ بمَنزلةِ المُوادَعَةِ والمُتارَكَةِ وقَطْعِ المُجادَلَةِ، فالمعنى: عُدْ عن إثباتِ هُداكَ وضَلالِهم، وكِلْهم إلى يومِ ردِّكَ إلى مَعادِك يومَ يَتَبَيَّنُ أنَّ اللهَ نَصَرَكَ وخَذَلَهم، وعلى المَعْنَيَيْنِ؛ فجملة ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ ...﴾ مُستَأْنَفَةٌ استِئنافًا بيانيًّا عن جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ جوابًا لسؤالِ سائلٍ يُثيرُه أحَدُ المَعْنَيينِ، وفي تقديمِ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ على جملةِ ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ إعدادٌ لصَلاحيَةِ الجملةِ الثانيةِ للمعنيَيْنِ المذكورَينِ؛ فهذا مِن الدَّلالةِ على مَعاني الكلامِ بمَواقعِه، وتَرتيبِ نِظامِه، وتقديمِ الجملِ عنْ مَواضِعِ تأخيرِها لتَوْفيرِ المعاني[1].

- وعَبَّر عن جانبِ الضَّالِّينَ بالجُملةِ الاسميةِ ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ المُقْتَضِيَةِ ثَباتَ الضَّلالِ المُشْعِرِ بأنَّ الضَّلَالَ هو أَمْرُهم القديمُ الراسخُ فيهم، مع ما أفادَه حَرْفُ الظَّرفيةِ (في) مِنِ انغماسِهم في الضَّلالِ وإحاطَتِه بهم، ويكونُ المَعنى حينَئذٍ على حَدِّ قولِه تعالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ لظُهورِ أنَّ المُبَلِّغَ لهذا الكلامِ لا يُفرَضُ في حَقِّه أنْ يكونَ هو الشِّقَّ الضالَّ؛ فيَتَعَيَّنُ أنَّ الضالَّ مَن خالَفَه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٣، ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٣).

- قولُه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ تقريرٌ للوعيدِ السَّابقِ، وكذا قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾[1].

- قوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ في ذلكَ مُتارَكَةٌ للكفَّارِ وتوبيخٌ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ عَطْفٌ على جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ ...﴾ إلخ؛ باعتبارِ ما تضمَّنَتْه من الوعدِ بالثَّوابِ الجزيلِ، أو بالنَّصرِ المُبينِ، أي: كما حمَّلك تبليغَ القرآنِ؛ فكانَ ذلكَ علامةً على أنَّهُ أَعَدَّ لكَ الجزاءَ بالنَّصْرِ في الدُّنيا والآخرةِ، كذلك إعطاؤُه إياكَ الكتابَ عن غيرِ ترقُّبٍ منكَ، بل بمَحْضِ رحمةِ ربِّك، أي: هو كذلكَ في أنَّه علامةٌ لك على أنَّ اللهَ لا يَتْرُكُ نصرَكَ على أعدائكَ؛ فإنَّه ما اختارَكَ لذلكَ إلَّا لأنَّه أَعَدَّ لكَ نصرًا مُبينًا، وثوابًا جزيلًا، وهذا أيضًا مِن دَلالةِ الجُملةِ على مَعنًى غيرِ مُصَرَّحٍ به، بل على مَعنًى تعريضيٍّ بدَلالةِ مَوقعِ الجُملةِ[3].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ الظَّهيرُ: المُعينُ، والمُظاهَرَةُ: المُعاوَنَةُ، وهي مَراتبُ؛ أعْلاها: النُّصْرَةُ، وأَدْناها: المُصانَعَةُ والتسامُحُ؛ لأنَّ في المُصانَعةِ على المَرغوبِ إعانةً لراغبِه، فلَمَّا شَمِلَ النَّهْيُ جميعَ أكوانِ المُظاهَرَةِ لهمُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٣٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٤).

اقْتَضَى النَّهْيَ عن مُصانَعَتِهم والتسامُحِ معهم، وهو يَستَلْزِمُ الأمرَ بضِدِّ المُظاهَرَةِ؛ فيكونُ كِنايةً عنِ الأمرِ بالغِلْظَةِ عليهم؛ كصَريحِ قولِه تعالَى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهذا المَعنى يُناسِبُ كَوْنَ هذه الآياتِ آخِرَ ما نَزَلَ قَبْلَ الهِجرةِ وبعدَ مُتارِكَتِه المشركينَ ومُغادَرَتِه البَلَدَ الذي يَعْمُرونَه، وقيل: النَّهْيُ للتَّهْييجِ لإثارةِ غَضَبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم، وتَقْوِيَةِ داعي شِدَّتِه معهم.

ووَجْهُ تأويلِ النَّهْيِ بصَرْفِه عن ظاهِره أو عن بَعضِ ظاهِره؛ هو أنَّ المَنْهِيَّ عنه لا يُفْرَضُ وُقوعُه مِنَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى يُنْهَى عنه؛ فكان ذلك قرينةً على أنَّه مُؤَوَّلٌ. وتَوجيهُ النَّهْيِ إليه عنْ أنْ يَصُدُّوه عن آياتِ اللهِ في قولِه: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كِنايةٌ عن نَهْيِه عن أن يَتَقَبَّلَ منهم ما فيه صَدٌّ عن آياتِ اللهِ؛ كما يقولُ العربُ: لا أعْرِفَنَّك تفعلُ كذا، كَنَّوْا به عن: أنه لا يَفْعَلُه، فيَعْرِفُ المُتكلِّمُ الناهي فعلَه. والمقصودُ تَحْذيرُ المُسلمينَ مِنَ الرُّكونِ إلى الكافرينَ في شَيءٍ مِن شُؤونِ الإسلامِ؛ فإنَّ المشركينَ يُحاوِلونَ صَرْفَ المُسلمينَ عن سَماعِ القرآنِ؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، وقيل: هو للتَّهْييجِ أيضًا، وتأويلُ هذا النَّهْيِ آكَدُ مِن تأويلِ قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [القصص: ٨٥]، وما عُطِفَ عليها وما تَخَلَّلَ بينَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٥، ١٩٦).

ممَّا اقْتَضى جميعُه الوعدَ بنَصْرِه، وظُهورَ أَمْرِه وفَوزَه في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّه جاء مِن اللهِ إلى قَومٍ هم في ضَلالٍ مُبينٍ، وأنَّ الذي رحِمَه فآتاهُ الكتابَ على غيرِ ترقُّبٍ منه لا يَجْعَلُ أمْرَه سُدًى، فأعْقَب ذلك بتَحْذيرِه مِنْ أدنَى مُظاهَرةٍ للمُشركينَ، فإنَّ فِعْلَ الكَونِ لَمَّا وَقَع في سِياقِ النَّهيِ -وكان سِياقُ النَّهْيِ مِثْلَ سِياقِ النَّفْيِ؛ لأنَّ النَّهْيَ أَخُو النَّفْيِ في سائرِ تَصاريفِ الكلامِ- كانَ وُقوعُ فِعْلِ الكَوْنِ في سِياقِه مُفيدًا تَعميمَ النَّهْيِ عنْ كلِّ كَونٍ مِن أَكْوانِ المُظاهَرَةِ للمُشركينَ[1].

- والتَّقييدُ بالبَعْديَّةِ في قَولِه: ﴿بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَ﴾ لتَعليلِ النَّهْيِ، والأمرُ في قولِه: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ مُستَعْمَلٌ في الأمرِ بالدَّوامِ على الدَّعوةِ إلى اللهِ، لا إلى إيجادِ الدعوةِ؛ لأنَّ ذلكَ حاصِلٌ، أي: لا يَصْرِفُكَ إعراضُ المشركينَ عن إعادةِ دَعْوتِهم إعذارًا لهم، ويجوزُ أنْ يكونَ الدُّعاءُ مُستَعمَلًا في الأكمَلِ مِن أنواعِه، أي: إنَّك بعدَ الخُروجِ مِن مَكَّةَ أشَدُّ تَمكُّنًا في الدعوةِ إلى اللهِ ممَّا كنتَ مِنْ قَبْلُ؛ لأنَّ تَشْغيبَ المُشركينَ عليه كان يُرنِّقُ صَفاءَ تفرُّغِه للدعوة، وجميعُ هذه النَّواهي والأوامرِ داخِلَةٌ في حَيِّزِ التَّفْريعِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾. أمَّا قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فإنْ حُمِلَتْ (مِن) فِيه على مَعنى التَّبْعيضِ؛ كان النَّهْيُ مُؤَوَّلًا بمِثْلِ ما أَوَّلُوا به النَّهْيَيْنِ اللَّذينِ قَبْلَهُ أنه للتَّهْييجِ، أو أنَّ المقصودَ به المُسلمونَ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذا النَّهْيُ مُوَجَّهٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٦).

في الظاهرِ، والمَقصودُ به إبطالُ الشِّرْكِ وإظهارُ ضَلالِ أهلِه؛ إذْ يَزْعُمون أنهم مُعترِفونَ بإلهيَّةِ اللهِ تعالَى، وأنَّهم إنما اتَّخَذوا له شُركاءَ وشُفعاءَ؛ فبَيَّنَ لهم أنَّ اللهَ لا إلَهَ غيرُه، وأنَّ انفرادَه بالإلهيَّة في نفْسِ الأمرِ يَقضي ببُطلانِ الإشْراكِ في الاعتقادِ ولو أَضْعَفَ إشراكٍ؛ فجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في مَعنى العِلَّةِ للنَّهْي الذي في الجُملةِ قَبْلَها[1].

- وجملةُ ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ علَّةٌ ثانيةٌ للنَّهْي؛ لأنَّ هَلاكَ الأشياءِ التي منها الأصنامُ وكلُّ ما عُبِدَ مع اللهِ وأُشْرِكَ به، دَليلٌ على انتفاءِ الإلهيَّةِ عنها؛ لأنَّ الإلهيَّةَ تُنافي الهلاكَ، وهو العدَمُ[2].

- وجملةُ ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تَذْييلٌ؛ فلذلكَ كانتْ مَفْصُولةً عمَّا قبْلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها. وتقديمُ المجرورِ باللَّامِ ﴿لَهُ﴾ لإفادةِ الحَصرِ، والمَحْصورُ فيه هو الحُكمُ الأتَمُّ، أي: الذي لا يَرُدُّه رادٌّ[3].

- قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ بـ(إلى) للاهتِمام بالخبَرِ؛ لأنَّ المشركينَ نَفَوا الرُّجوعَ مِن أصلِه، ولم يَقولوا بالشَّرِكةِ في ذلكَ حتَّى يكونَ التَّقديمُ للتَّخْصيصِ[4].

- والمَقصودُ من تَعدُّدِ هذه الجُملةِ إثباتُ أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلهيَّةِ في ذاتِه، وهو مدلُولُ جُملةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذلك أيضًا يدُلُّ على صِفةِ الأوليَّةِ، وأنَّه الأوَّلُ الَّذي ليس قبْلَه شَيءٌ؛ لأنه لَمَّا انْتَفَى جِنْسُ الإلهيَّةِ عن غيرِه تعالَى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٧).

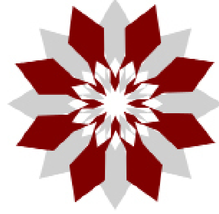
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

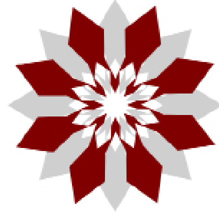
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

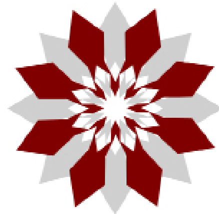
تَعَيَّن أنَّه لم يُوجِدْه غيرُه؛ فثَبَت أنَّ الله تعالى قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وأنَّه باقٍ لا يَعْتَرِيهِ العدَمُ، وذلك مَدْلولُ ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾، وأنَّه تعالَى مُنفَرِدٌ في أفعالِه بالتصرُّفِ المُطلَق الذي لا يَرُدُّه غيرُه، فيَتَضَمَّنُ ذلك إثباتَ الإرادةِ والقدرةِ. وفي كلِّ هذا رَدٌّ على المشركينَ الَّذين جَوَّزُوا شَرِكتَهُ في الإلهيَّةِ، وأَشْرَكوا معه آلهتَهم في التصرُّفِ بالشفاعةِ والغَوْثِ، ثمَّ أَبْطَلَ إنكارَهمُ البعثَ بقولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[1].



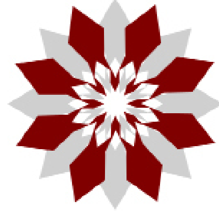
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٧).

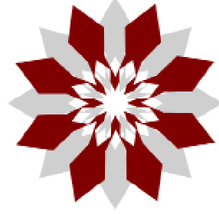


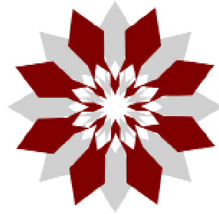




تَفْسِيرُ
سُورَةِ العَنكَبوتِ







سورةُ العَنكَبوتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العَنكَبوتِ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ العَنكبوتِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ العَنكَبوتِ:

ذِكرُ الابتلاءِ والامتحانِ، وبيانُ حالِ أهلِ البلوَى في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ العَنكبوتِ:

١- بيانُ حَقيقةِ الإيمانِ، وسُنَّةِ الابتلاءِ والفِتنةِ، ومَصيرِ المؤمِنينَ والمُنافِقينَ والكافِرين، والوصيَّةُ بالوالِدَينِ، وبيانُ حالِ المُنافِقينَ، وبيانُ فِتنةِ الإغواءِ والإغراءِ مِنَ الَّذين كفَروا.

٢- بيانُ طَرَفٍ مِن أخبارِ الرُّسُلِ مع أقوامِهم، ومنها قِصَّةُ نُوحٍ، وإبراهيمَ،

(١) سُمِّيت سورةَ العنكبوتِ؛ لتكَرُّرِ ذِكْرِها فيه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٩). وقد ورَدت في تسميتِها بذلك بعضُ الآثارِ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٤٩).

(٢) وقيل: السُّورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا الآيات (١-١١) فمدَنيَّةٌ. وقيل: إنَّها مدَنيَّةٌ إلَّا الآيات من (١-١٠) فنزلتْ بمكَّةَ. وقيل: مدنيَّةٌ كُلُّها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٨).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

ولُوطٍ، وشُعَيبٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، وموسى عليهم صلَواتُ الله وسلامُه، ثمَّ اختِتامُ هذه القصصِ ببيانِ العاقبةِ السَّيِّئةِ الَّتي لَحِقَتِ المكذِّبينَ مِن أقوامِ هؤلاء الرُّسلِ.

٣- ضرْبُ المثَلِ لحالِ الكفَّارِ بالعَنكبوتِ الَّتي اتخذَتْ بيتًا هو أَوْهَنُ البُيوتِ.

٤- توجيهُ الأمرِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتلوَ الكِتابَ، وأن يُقيمَ الصَّلاةَ.

٥- النَّهيُ عن مُجادَلةِ أهلِ الكتابِ إلَّا بالحُسنى إلَّا الَّذين ظَلَموا منهم، وإرشادُ المؤمنينَ إلى ما يَقولون لهم.

٦- إقامةُ بعضِ الأدِلَّةِ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله.

٧- بيانُ بعضِ ما عليه المشركونَ مِن تناقُضاتٍ، فهُم يَعترِفون أنَّ الله خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومع ذلك يُشرِكون! وإذا كانوا في السُّفُنِ، وأحاطتْ بهم الأمواجُ أخلَصوا الدُّعاءَ لله، ثمَّ إذا نجَّاهم إلى البَرِّ أشركوا!

٨- وعْدُ المؤمنينَ الَّذين جاهَدوا في الله بالهدايةِ، وحُسنِ العاقبةِ.



الآيات (١-٧)

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُفۡتَنُونَ﴾: أي: يُختبَرونَ، ويُمتَحنونَ، والفِتْنةُ مأخوذةٌ مِنَ الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾: مَصدَرٌ مُؤَوَّلٌ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَي (حَسِبَ). و﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ مَنصوبٌ على نزعِ الخافِضِ، وهو الباءُ، أو اللَّامُ، أي: بأن يقولوا، أو لأن يقولوا. وقيل: بدَلٌ مِنْ ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالحروفِ المقَطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ إذ تُبرِزُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مُرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣، ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥).

العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثون بها!

ثمَّ قال تعالى: أحَسِبَ النَّاسُ إذا آمَنوا أنَّهم يُتركُونَ مِن غيرِ أن يُمتحَنوا؟! ولقد اختبَرْنا الَّذين مِن قَبْلِهم وابتَلَيْناهم، فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصَّادقينَ في إيمانِهم مع البلاءِ، ولَيَعلَمَنَّ الكاذبينَ في دَعْوى الإيمانِ عِلمَ مُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه جزاؤُهم، بل أَظَنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ السَّيِّئاتِ أنَّهم يُعجِزونَنا ويُفلِتونَ مِنَّا فلا نُعَذِّبُهم؟! فما أسْوأَه مِن ظَنٍّ، وما أفسَدَه مِن اعتقادٍ!

ثمَّ ذكَر الله تعالى ما يُشعِرُ المؤمنينَ بالطُّمأنينةِ، ويُدخِلُ عليهم السُّرورَ، فقال: مَن كان يَطمَعُ في لقاءِ اللهِ يومَ القيامةِ فإنَّ القيامةَ واقِعةٌ لا مَحالةَ، واللهُ وَحْدَه هو السَّميعُ العَليمُ، ومَن جاهَدَ نفْسَه على فِعلِ ما أمَرَه اللهُ وترْكِ ما نهاه عنه، فإنَّما نَفْعُ ذلك لنَفْسِه في الدُّنيا والآخرةِ؛ إنَّ اللهَ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ لَنُكَفِّرَنَّ عنهم سيِّئاتِهم، ولا نؤاخِذُهم بها، ولَنُثيبَنَّهم بأحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَه مِنَ الطَّاعاتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ۝١﴾.

هذه الحروفُ المقَطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مُرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

أي: أظَنَّ النَّاسُ أنَّهم يَسْلَمونَ مِنَ الفِتنةِ إذا آمَنوا فيُترَكُونَ مِن غَيرِ أن يُمتحَنوا[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ، فيُبتلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِه؛ فإنْ كان دينُه صُلْبًا اشتَدَّ بَلاؤُه، وإنْ كان في دينِه رِقَّةٌ ابتُلِيَ على حَسَبِ دينِه، فما يَبرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يَترُكَه يمشي على الأرضِ ما عليه خَطيئةٌ))[(٢)].

وعن حُذَيْفةَ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تُعرَضُ الفِتَنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٨٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٣)، ((اختيار الأولى)) لابن رجب (ص: ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٤٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٩٤).

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٩٨)، وذكر ثبوتَه ابنُ القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٩٣)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٥٢).

على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا[١]، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ[٢] فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على قَلبينِ: على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[٣]، فلا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا[٤]، كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٥]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ))[٦].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: ولقد اختبَرْنا الماضِينَ مِن قَبلِ هذه الأُمَّةِ وابتَلَيْناهم[٧].

عن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو مُتوَسِّدٌ بُرْدةً[٨] له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا؟ ألَا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينِه،

---

(١) أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٢) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٣) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الَّذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٤) مِرْبادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ، مِنَ الرُّبْدةِ: لَونٌ بيْنَ السَّوادِ والغُبْرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٥) مُجَخِّيًا: أي: مائِلًا مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٤).

(٨) أي: كِساءً مُخَطَّطًا، والمعنى: جاعِلٌ البُرْدةَ وِسادةً له، مِن تَوسَّدَ الشَّيءَ: جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يَخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولَكِنَّكم تَستَعجِلونَ))[١].

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

أي: فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصَّادِقينَ في إيمانِهم الثَّابِتينَ عليه مع البلاءِ، ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبينَ في دَعْوى الإيمانِ، عِلمَ رؤيةٍ ومُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه الجزاءُ، ويُظهِرُه لعِبادِه، وقد كان عَلِمَه في الأزَلِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤، ١٥).

قال ابن جُزَي: (﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: يعلمُ صدقَهم علمًا ظاهرًا في الوجودِ، وقد كان علِمه في الأزلِ، والصِّدقُ والكذبُ في الآيةِ يعني بهما: صِحَّةَ الإيمانِ والثُّبوتَ عليه، أو ضِدَّ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢).

وقال البخاري في ((صحيحه)) (٦/ ١١٣): (﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾: عَلِمَ اللهُ ذلك، إنَّما هي بمنزلةِ: فليَميزَ اللهُ؛ كقولِه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١١٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُعْقِب تَثْبيتُ المؤمِنينَ على ما يُصيبُهم مِن فُتونِ المشركينَ وما في ذلك مِنَ الوعدِ والوعيدِ، بزَجْرِ المشركينَ على ما يَعملونَه مِنَ السَّيِّئاتِ في جانبِ المؤمنينَ، وأعظَمُ تلك السَّيِّئاتِ فُتونُهم المسلمينَ(١).

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾.

أي: بل(٢) أظَنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ السَّيِّئاتِ(٣) أنَّهم يُعجِزونَنا ويُفلِتونَ مِنَّا، فلا نُعَذِّبُهم(٤)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) قال السمينُ الحلبيُّ: (﴿ أَمْ ﴾ هذه مُنقطِعةٌ، فتُقدَّرُ بـ «بل» والهمزةِ عندَ الجمهورِ، والإضرابُ انتِقالٌ لا إبطالٌ). ((الدر المصون)) (٩/ ٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨).

وقيل: ﴿ أَمْ ﴾ مُعادلةٌ للألفِ في قولِه: ﴿ أَحَسِبَ ﴾ [العنكبوت: ٢]. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٠).

(٣) قيل: المرادُ بالسَّيِّئاتِ هنا: الكُفرُ والشِّركُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠).

وقيل: السَّيِّئاتُ هنا: فِتنةُ المؤمنينَ وتَعذيبُهم والتَّنكيلُ بهم؛ فالَّذين يَعملونَ السَّيِّئاتِ هم الفاتِنونَ للمُؤمنينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابنُ عطيَّة: (لفظُ الآيةِ يَعُمُّ كلَّ عاصٍ وعاملِ سَيِّئةٍ من المسلمينَ وغيرِهم... ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفرُ وما اشتمَلَ عليه، ويَدخُلُ في ذلك المعاصي مِن المؤمنينَ مع الأعمالِ الصَّالحاتِ واجتنابِ الكبائرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٦، ٣٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أي: بِئسَ ما يَظُنُّه المُشرِكونَ مِن أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ ويُفلِتونَ منه، فلا يُؤاخِذُهم بسَيِّئاتِهم الَّتي عَمِلوها، وهو القاهِرُ القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ، فما أسْوَأَه مِن ظَنٍّ، وما أفسَدَه مِن اعتِقادٍ[١]!

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾.

أي: مَن كان يَطمَعُ في لِقاءِ اللهِ يومَ القيامةِ، فإنَّ القيامةَ واقِعةٌ قَريبًا لا مَحالةَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٤٦٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو السَّميعُ لجَميعِ الأصواتِ، العَليمُ بكُلِّ الكائناتِ؛ فهو السَّميعُ لِقَولِ مَن قال: آمَنَّا بالله، العليمُ بصِدقِ أو كَذِبِ دَعواهم، ويَعلَمُ مَن كان صادِقًا في رَجاءِ لِقائِه، فيُثيبُه ويَمنَحُه ما يَرجوه[١].

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على العَمَلِ؛ بيَّن أنَّه ليس إلَّا لِنَفعِ العامِلِ[٢]، فقال:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾.

أي: ومَن بَذَلَ جُهدَه في حَمْلِ نفْسِه على فِعْلِ ما أمَرَه اللهُ، وتَرْكِ ما نهاه عنه؛ وتحمَّلَ المَشاقَّ في سَبيلِ اللهِ، وقِتالِ أعدائِه، ومُجاهَدةِ شَيطانِه- فإنَّما نَفْعُ ذلك وثَوابُه لِنَفْسِه في الدُّنيا والآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَنيٌّ عن جَميعِ خَلْقِه، فلا تَنفَعُه أعمالُهم وعِبادتُهم، كما لا تَضُرُّه مَعصيتُهم[١].

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روَى عن اللهِ تبارَكَ وتعالى أنَّه قال: ((... يا عِبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفعي فتَنفَعوني، يا عِبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقَى قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نقَص ذلك مِن مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ))[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى إجمالًا أنَّ مَن يَعملُ صالحًا فلِنَفْسِه؛ بيَّن مفصَّلًا بعضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

التَّفصيلِ جزاءَ المطيعِ، الصَّالحِ عمَلُه؛ فقال[1]:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وثَبَتوا على إيمانِهم عندَ البَلاءِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لَنُبطِلَنَّ سَيِّئاتِهم، ولَنعفُوَنَّ عن مؤاخَذتِهم بها[2].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولَنُثيبَنَّ أولئك المؤمِنينَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالِحاتِ بأحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَه مِن الطَّاعاتِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٣٠).

قال الزمخشري: (إمَّا أن يريدَ قَومًا مُسلِمينَ صالحينَ قد أساؤوا في بعضِ أعمالِهم، وسيِّئاتُهم مَغمورةٌ بحَسَناتِهم، فهو يُكَفِّرُها عنهم، أي: يُسقِطُ عِقابَها بثوابِ الحسَناتِ... وإمَّا قومًا مُشركينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فاللهُ عزَّ وجَلَّ يُكفِّرُ سيِّئاتِهم بأن يُسقِطَ عِقابَ ما تقدَّمَ لهم مِنَ الكُفرِ والمعاصي). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- لا بُدَّ أنْ يُبتلَى المرءُ في أمرِ اللهِ ونَهْيِه؛ تارةً يَترُكُ ما يَهوى، وتارةً يَفعَلُ ما يَكرهُ، كما يُبتلَى في الحوادِثِ المقَدَّرةِ بمِثلِ ذلك، وقد قال سُبحانَه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(١).

٢- إنَّ المؤمنَ لا بدَّ أن يُفتنَ بشَيءٍ مِن الفِتَنِ المؤلِمةِ الشَّاقَّةِ عليه؛ ليُمتحَنَ إيمانُه، كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا

= ممَّن اختار أنَّ قَولَه تعالى: ﴿أَحْسَنَ﴾: يعودُ إلى العمَلِ، أي: نُجازيهم بأحسَنِ أعمالِهم، الَّتي هي الطَّاعاتُ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٥).

قال السعدي: (﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهي أعمالُ الخيرِ؛ مِن واجباتٍ ومستحَبَّاتٍ، فهي أحسَنُ ما يعملُ العبدُ؛ لأنَّه يعملُ المباحاتِ أيضًا وغيرَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

وقيل: ﴿أَحْسَنَ﴾ يعودُ إلى الجزاءِ، أي: يجازيهم اللهُ أحسَنَ جزاءٍ على ما عَمِلوه. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٢).

قال ابن عثيمين: (وأحسَنُ جزاءٍ بيَّنه الله تعالى في قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فهذا الجزاءُ أحسَنُ جزاءٍ؛ لأنَّ الجزاءَ غايتُه أن يكونَ مِثلَما فعَلَ الفاعلُ، لكن هنا يُجازَى بأحسَنَ وأعظَمَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٠٤).

يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، ولكن الله يَلطُفُ بعبادِه المؤمنينَ في هذه الفِتَنِ، ويُصَبِّرُهم عليها، ويُثَبِّتُهم فيها، ولا يُلقيهم في فتنةٍ مُهلِكةٍ مُضِلَّةٍ تَذهَبُ بدينِهم، بل تَمُرُّ عليهم الفِتَنُ وهم منها في عافيةٍ(١).

٣- الفِتنةُ كِيرُ القُلوبِ، ومَحَكُّ الإيمانِ، وبها يتبيَّنُ الصَّادِقُ مِنَ الكاذِبِ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، فالفِتنةُ قَسَّمت النَّاسَ إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ ومنافقٍ، وطَيِّبٍ وخبيثٍ؛ فمَن صبَرَ عليها كانت رحمةً في حَقِّه، ونجا بصبرِه مِن فِتنةٍ أعظَمَ منها، ومَن لم يصبِرْ عليها وقعَ في فتنةٍ أشَدَّ منها؛ فالفِتنةُ لا بُدَّ منها في الدُّنيا والآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[الذاريات: ١٣، ١٤]، فالنَّارُ فِتنةُ مَن لم يصبِرْ على فِتنةِ الدُّنيا، ومَن صبَر كانت الفِتنةُ مُمَحِّصةً له، ومُخَلِّصةً مِنَ الذُّنوبِ، كما يُخلِّصُ الكِيرُ خَبَثَ الذَّهبِ والفِضَّةِ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فيه أنَّ هذه سُنَّةٌ قَديمةٌ جاريةٌ في الأُمَمِ كُلِّها؛ فلا ينبغي أن يُتوَقَّعَ خِلافُها(٣).

٥- قال تعالى: ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، وقال أيضًا: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ

---

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٨).

وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦]. في هذه الآياتِ سِرٌّ لطيفٌ، وعِبرةٌ وحكمةٌ، وذلك أنَّ أبانا آدَمَ كان في الجنَّةِ يأكُلُ منها رَغَدًا حيثُ شاءَ في أَتَمِّ نعمةٍ، وأكمَلِ سُرورٍ، وأرْغَدِ عَيشٍ، ولو تَناسَلْنا فيها لَكُنَّا في أرغَدِ عَيشٍ وأتمِّ نعمةٍ، ولكنَّ إبليسَ عليه لعائنُ اللهِ احتالَ بمَكْرِه وخِداعِه على أبَوَيْنا حتَّى أخرَجَهما منَ الجنَّةِ إلى دارِ الشَّقاءِ والتَّعبِ، وحينَئذٍ حكَم اللهُ تعالَى أنَّ جنَّتَه لا يَدخُلُها أحدٌ إلَّا بعدَ الابتلاءِ بالشَّدائدِ وصعوبةِ التَّكاليفِ؛ فعلى العاقلِ منَّا معاشِرَ بني آدمَ أنْ يَتصوَّرَ الواقعَ، ويَعلَمَ أنَّنا في الحقيقةِ سَبْيٌ سَباه إبليسُ بمكرِه وخِداعِه منْ وطنِه الكريمِ إلى دارِ الشَّقاءِ والبلاءِ، فيُجاهِدَ عدوَّه إبليسَ ونفْسَه الأمَّارةَ بالسُّوءِ حتَّى يَرجِعَ إلى الوطنِ الأوَّلِ الكريمِ؛ ولهذه الحكمةِ أكثَرَ اللهُ تعالَى في كتابِه من ذِكرِ قِصَّةِ إبليسَ مع آدمَ لِتَكونَ نُصْبَ أعيُنِنا دائمًا[(١)].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ هذه الآيةُ وإن كانت واردةً في شأنِ المُشركينَ المُؤْذِينَ للمُؤمنينَ -على أحدِ الأقوالِ-؛ فهي تُشيرُ إلى تحذيرِ المُسلمينَ من مُشابهتِهم في اقترافِ السَّيِّئاتِ، استخفافًا بوعيدِ اللهِ عليها؛ لأنَّهم في ذلك يأخُذونَ بشَيءٍ من مُشابهةِ حِسْبانِ الانفلاتِ، وإن كان المؤمنُ لا يَظُنُّ ذلك، ولكنَّه يُنَزَّلُ مَنزلةَ مَن يَظُنُّه؛ لإعراضِه عن الوعيدِ حين يَقترِفُ السَّيِّئةَ[(٢)].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يُوجِبُ إكثارَ العبدِ من العَمَلِ الصَّالح، وإتقانَه له؛ وذلك لأنَّ مَن يَفعلُ فِعلًا لأجْلِ مَلِكٍ، ويَعلَمُ أنَّ المَلِكَ يَراه ويُبصِرُه؛ يُحسِنُ العملَ ويُتقِنُه، وإذا عَلِمَ أنَّ نَفْعَه له، ومُقَدَّرٌ بقَدْرِ عَمَلِه؛ يُكثِرُ منه، فإذا قال اللهُ: (إنَّه سميعٌ عَليمٌ)، فالعَبدُ يُتقِنُ عَمَلَه ويُخلِصُه له، وإذا قال بأنَّ جِهادَه لِنَفْسِه، يُكثِرُ منه[١].

٨- مَن آمَنَ بالرُّسُلِ وأطاعَهم عاداه أعداؤُهم وآذَوْهُ، فابتُلِيَ بما يؤْلِمُه، وإنْ لم يؤْمِنْ بهم ولم يُطِعْهم عُوقِبَ في الدُّنيا والآخرةِ، فحصَلَ له ما يؤْلِمُه، وكان هذا المؤْلِمُ له أعظَمَ ألَمًا وأدْوَمَ مِن ألَمِ اتِّباعِهم؛ فلا بُدَّ مِن حصولِ الألمِ لكلِّ نفْسٍ آمنَتْ أو رَغِبَتْ عن الإيمانِ، لكنَّ المؤْمِنَ يَحصُلُ له الألمُ في الدُّنيا ابتداءً، ثمَّ تكونُ له العاقبةُ في الدُّنيا والآخرةِ، والمُعْرِضَ عن الإيمانِ تَحصُلُ له اللَّذَّةُ ابتِداءً، ثمَّ يَصيرُ إلى الألمِ الدَّائمِ.

ولَمَّا كان الألمُ لا مَحيصَ منه الْبَتَّةَ، عَزَّى اللهُ سبحانَه مَنِ اختار الألَمَ اليسيرَ المُنقطِعَ على الألمِ العظيمِ المُستمِرِّ، بقولِه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فضرَبَ لمُدَّةِ هذا الألمِ أجَلًا لا بُدَّ أنْ يأتيَ، وهو يومُ لقائِه، فيَلْتَذُّ العبدُ أعظَمَ اللَّذَّةِ بما تحَمَّلَ مِنَ الألمِ مِنْ أجْلِه وفي مَرْضاتِه، وتَكونُ لَذَّتُه وسُرورُه وابتِهاجُه بقَدْرِ ما تحَمَّلَ مِنَ الألمِ في اللهِ وللهِ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أنَّ مَن لم يُجاهِدْ فإنَّ ضَرَرَه على نفْسِه؛ لأنَّه إذا كانت منفعةُ الجهادِ له؛ فمَضَرَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣-١٥).

تَركه عليه[(١)].

١٠- قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ﴾ قيل: هذا تَعزيةٌ للمُشتاقينَ وتَسليةٌ لهم، أي: أنا أعلَمُ أنَّ مَن كان يرجو لقائي فهو مُشتاقٌ إلَيَّ؛ فقد أجَّلْتُ له أجَلًا يكونُ عن قَريب، فإنَّه آتٍ لا مَحالةَ، وكُلُّ آتٍ قريبٌ، وفيه لطيفةٌ أخرى: وهي تعليلُ المُشتاقينَ برَجاءِ اللِّقاءِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ هذه الحروفُ الهجائيَّةُ ليس لها معنًى، وابتداءُ السُّورةِ بهذه الحروفِ المقطَّعةِ له مَغزًى؛ وهو الإشارةُ إلى أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ -الَّذي أعجَزَكم مَعْشَرَ العربِ، وأعجَزَ غيرَكم- لَمْ يأتِ بحروفٍ جديدةٍ لا تَعرِفونها، وإنَّما أتَى بحروفٍ تَعرِفونها، وتُرَكِّبُون منها كلامَكم، ومع ذلك أعجَزَكم! ولهذا لا تَكادُ تَجِدُ سورةً مَبدوءةً بهذه الحروفِ الهجائيَّةِ إلَّا وجدْتَ بعدَها ذِكْرَ القرآنِ أو ما هو مِن خصائصِ القرآنِ، انظرْ قولَه سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقولَه: ﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]، وهكذا. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ فليس فيه ذِكْرُ القرآنِ، لكنْ فيها ذِكْرُ ما هو مِن لازِمِ القرآنِ، وهو قولُه: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ فإنَّ مَن آمَنَ بالقرآنِ لا بُدَّ أنْ يُفْتَنَ[(٣)].

٢- لفظُ الفِتنةِ في كتابِ الله تعالى يُرادُ بها الامتحانُ الَّذي لم يَفتَتِنْ صاحبُه، بل خلَص مِن الافتِتانِ، ويُرادُ بها الامتِحانُ الَّذي حصَل معه افتِتانٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠).

فمِنَ الأوَّلِ: قولُه تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

ومِنَ الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقولُه: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

ويُطلَقُ على ما يَتناوَلُ الأمْرَين؛ كقولِه تعالى: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾[1].

٣- ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المُسيءِ مُجمَلًا بقولِه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ إشارةً إلى التَّعذيبِ مُجمَلًا، وذكر حالَ المُحسِنِ مُجمَلًا بقولِه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦ﴾، ومُفَصَّلًا بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ ليكونَ ذلك إشارةً إلى أنَّ رحمتَه أتَمُّ مِن غَضَبِه، وفَضْلَه أعَمُّ مِن عَدلِه[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ هذا إبطالٌ لمذهَبِ مَن يقولُ: (التَّكاليفُ إرشاداتٌ، والإيعادُ عليه ترغيبٌ وترهيبٌ، ولا يُوجَدُ مِنَ اللهِ تعذيبٌ، ولو كان يُعَذِّبُ ما كان عاجِزًا عن العذابِ عاجِلًا، فلِمَ كان يؤخِّرُ العقابَ؟!)، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾، يعني: ليس كما قالوا، بل يُعَذِّبُ مَن يُعَذِّبُ، ويُثيبُ مَن يثيبُ بحُكمِ الوعدِ والإيعادِ، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ، وأمَّا الإمهالُ فلا يُفضي إلى الإهمالِ، والتَّعجيلُ في جزاءِ الأعمالِ شُغلُ مَن يخافُ الفَوتَ لولا الاستِعجالُ[3].

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٧).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ فيه سؤالٌ: كيف وقَعَ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ جوابًا للشَّرطِ؟

الجوابُ: أنَّه إذا كان وقتُ اللِّقاءِ آتيًا كان اللِّقاءُ آتيًا لا محالةَ، كما تقولُ: (من كان يرجو لِقاءَ المَلِك، فإنَّ يومَ الجُمُعةِ قَريبٌ)، إذا عُلِمَ أنَّه يَقعُدُ للنَّاسِ يومَ الجُمُعة[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه ﴿فَإِنَّمَا﴾ يقتضي الحَصرَ، فينبغي أن يكونَ جِهادُ المرءِ لِنَفْسِه فحَسْبُ، ولا يَنتفِعُ به غيرُه، وليس كذلك؛ فإنَّ مَن جاهَدَ يَنتفِعُ به ومَن يريدُ هو نَفعَه، حتَّى إنَّ الوالِدَ والوَلَدَ ببَرَكةِ المجاهِدِ وجِهادِه ينتَفِعانِ؟

الجوابُ: ذلك نَفعٌ له؛ فإنَّ انتِفاعَ الوَلَدِ انتفاعٌ للأبِ، والحَصرُ هاهنا معناه أنَّ جِهادَه لا يَصِلُ إلى اللهِ منه نَفعٌ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ قال بعضُ العارِفينَ: (لَمَّا عَلِمَ اللهُ شَوقَ المحبِّينَ إلى لقائِه، ضرَبَ لهم مَوعِدًا لِلقاءِ تَسكُنُ به قلوبُهم)[٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ الإنسانَ -وإن اجتهَدَ- لا بُدَّ مِن أن يَزِلَّ عن الطَّاعةِ؛ لأنَّه مَجبولٌ على النَّقصِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٥).

- الاستفهامُ في ﴿أَحَسِبَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: إنكارِ حِسْبانِ ذلك(١).

- قولُه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ...﴾ المُرادُ بالنَّاسِ كلُّ الَّذين آمَنوا، فالقولُ كِنايةٌ عن حُصولِ المَقولِ في نفْسِ الأمْرِ، أي: أحسِبَ النَّاسُ وُقوعَ تَركِهم لأنْ يَقولوا: آمَنَّا(٢)!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ انتِقالٌ إلى التَّنويهِ بالفُتونِ لأجْلِ الإيمانِ باللهِ بأنَّه سُنَّةُ اللهِ في سالِفِ أهلِ الإيمانِ. وتأْكيدُ الجُملةِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (لَقَدْ)؛ لتَنزيلِ المُؤمنينَ حينَ استَعظَموا ما نالَهم مِنَ الفِتنةِ مِن المُشركين، واستَبْطَؤوا النَّصرَ على الظَّالمين، وذُهولِهم عن سُنَّةِ الكَونِ في تلك الحالةِ: مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ مَن يُخالِفُ الدَّهْماءَ في ضَلالِهم، ويَتجافَى عن أخلاقِهم ورَذالتِهم لا بُدَّ أنْ تَلحَقَه منهم فِتنةٌ(٣).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ...﴾ مَوصولٌ بـ ﴿أَحَسِبَ﴾ أو بـ ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ فإذا اتَّصل بـ ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾ دخَلَ في حيِّزِ مُتعلَّقِ الحِسْبانِ المُنكَرِ، أي: أحَسِبوا ألَّا يَكونوا كغيرِهم، وليس لهم أُسوةٌ بالأُمَمِ السَّالِفةِ؟! فيكونُ حالًا مِن فاعلِ ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾، وإذا اتَّصل بـ ﴿أَحَسِبَ﴾ كان حالًا مُقرِّرةً لِجَهةِ الإنكارِ، أي: أحصَلَ الحِسْبانُ والحالةُ هذه؟! وفي هذا تَنبيهٌ على الخطأِ، وفي الأوَّلِ تَخطئةٌ(٤).

- قولُه: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٣٣).

حيث عدَلَ عن طَريقِ التَّكلُّم إلى طريقِ الغَيبةِ بإظهارِ اسمِ الجَلالةِ على أُسلوبِ الالتِفاتِ؛ لِمَا في هذا الإظهارِ مِن الجَلالةِ، ولإدخالِ الرَّوعةِ، وتربيةِ المَهابةِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ الجزاءَ على ذلك جزاءُ مالِكِ المُلْكِ(١).

- وتَكريرُ الجوابِ ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ والتَّقريرِ(٢).

- وتعريفُ المُتَّصفينَ بصِدقِ الإيمانِ بالموصولِ والصِّلةِ الماضَويَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم اشتَهَروا بحَدَثانِ صِدقِ الإيمانِ، وأنَّ صِدْقَهم مُحقَّقٌ. وأمَّا تعريفُ المتَّصفِينَ بالكذِبِ بطريقِ التَّعريفِ باللَّامِ وبصِيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ فلإفادةِ أنَّهم عُهِدوا بهذا الوصفِ وتميَّزوا به، مع ما في ذلك مِنَ التَّفنُّنِ والرِّعايةِ على الفاصِلةِ(٣).

وقيل: إنَّ وَقتَ نُزولِ الآيةِ كانت الحِكايةُ عن قَومٍ قَريبي العَهدِ بالإسلامِ في أوائِلِ إيجابِ التَّكاليفِ، وعن قومٍ مُستَديمينَ للكُفرِ مُستمِرِّينَ عليه، فقال في حَقِّ المؤمِنينَ: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بصِيغة الفِعلِ، أي: وُجِدَ منهم الصِّدقُ؛ فإنَّه لا يُفهَمُ مِن صيغةِ الفِعلِ التَّكرارُ والرُّسوخُ، وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ بالصِّيغةِ المُنبِئةِ عن الثَّباتِ والدَّوامِ، وهي اسمُ الفاعِلِ(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٧).

- قولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن معنى (بلْ) للإضراب والانتقالِ عن التَّوبيخ بإنكارِ حِسْبانِهم مَتروكينَ غيرَ مَفتونينَ إلى التَّوبيخِ بإنكارِ ما هو أبطَلُ مِن الحِسْبانِ الأوَّلِ، وهو حِسْبانُهم ألَّا يُجازَوْا بسَيِّئاتِهم[1].

- وقولُه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ذمٌّ لحِسْبانِهم ذلك وإبطالٌ له، فهي مُقرِّرةٌ لِمَعنى الإنكارِ في جُملةِ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾، فلها حُكْمُ التَّوكيدِ؛ فلذلك فُصِلَت[2]. والحُكمُ هنا مُستعمَلٌ في مَعنى الظَّنِّ والاعتقادِ؛ تهكُّمًا بهم بأنَّهم نَصَبوا أنفُسَهم مَنصِبَ الَّذي يَحكُمُ فيُطاعُ[3].

- والمَجِيءُ بالمُضارِعِ ﴿يَحْكُمُونَ﴾ قيل: للإشعارِ بأنَّ حُكْمَهم مَذمومٌ حالًا واستِقبالًا، وقيل: لأجْلِ الفاصِلةِ وقَعَ المضارِعُ مَوقِعَ الماضي اتِّساعًا[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ مَسوقٌ للمؤمنينَ خاصَّةً؛ لأنَّهم الَّذين يَرْجُون لِقاءَ اللهِ؛ فالجُملةُ مُفيدةٌ التَّصريحَ بما أَوْمَأَ إليه قولُه: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] مِن الوعْدِ بنصْرِ المؤمنينَ على عدُوِّهم، مُبَيِّنةٌ لها؛ ولذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها، ولولا هذا الوقْعُ لكان حقُّ الإخبارِ بها أنْ يَجِيءَ بواسطةِ حرْفِ العطْفِ[5].

- وفي قَولِه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ جَعْلُ فِعلِ الشَّرطِ فِعلَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

الكَونِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ هذا الرَّجاءِ مِن فاعِلِ فِعلِ الشَّرطِ[١].

- وعُبِّرَ بفِعلِ الرَّجاءِ ﴿يَرْجُواْ﴾ عن ترقُّبِ البعثِ؛ لأنَّ الكلامَ مَسوقٌ للمؤمنينَ، وهم ممَّن يَرجو لِقاءَ اللهِ؛ لأنَّهم يَترقَّبونَ البعثَ؛ لِمَا يَأْمُلون مِنَ الخَيراتِ فيه[٢].

- و﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ الوقتَ الَّذي عيَّنَه اللهُ في عِلْمِه للبعثِ والحسابِ؛ فيكونَ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، ومَقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (فإنَّه لآتٍ)، فعُدِلَ إلى الإظهارِ، كما في إضافةِ ﴿أَجَلَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن الإيماءِ إلى أنَّه لا يُخلَفُ، والمقصودُ الاهتمامُ بالتَّحريضِ على الاستعدادِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجَلَ الَّذي عيَّنَه اللهُ لنصْرِ المؤمنينَ، وانتهاءِ فِتنةِ المشركينَ إيَّاهم باستِئصالِ مَساعيرِ[٣] تلك الفِتنةِ، وهم صَناديدُ قُريشٍ؛ وذلك بما كان مِنَ النَّصرِ يومَ بدْرٍ، ثمَّ ما عَقِبَه إلى فتْحِ مكَّةَ؛ فيكونَ الكلامُ تَثبيتًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ حينَ اسْتبطَأَ المؤمنونَ النَّصرَ للخلاصِ مِن فِتنةِ المشركينَ حتَّى يَعْبُدوا اللهَ لا يَفْتِنوهم في عِبادتِه. وتأكيدُ جُملةِ الجزاءِ بحرْفِ التَّوكيدِ على الوجْهِ الأوَّلِ للتَّحريضِ والحثِّ على الاستعدادِ لِلِقاءِ اللهِ، وعلى الوجْهِ الثَّاني لقصْدِ تَحقيقِ النَّصرِ الموعودِ به؛ تَنزيلًا لاستِبطائه مَنزِلةَ التَّردُّدِ؛ لقَصْدِ إذكاءِ يَقينِهم بما وعَدَ اللهُ، ولا يُوهِنُهم طولُ المدَّةِ الَّذي يُضَخِّمُه الانتظارُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٠٩).

(٣) المَساعيرُ: جمع مِسْعَرٍ ومِسْعارٍ، وهو: ما سُعِرَتْ به النَّارُ، أي: ما تُحَرَّكُ به النَّارُ من حَديدٍ أو خَشَبٍ. ويُقالُ لموقِدِ الحربِ: مِسْعَرُ حربٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٢/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨).

- وإظهارُ اسم الجَلالةِ في جُملةِ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ -مع كونِ مُقْتضى الظَّاهِرِ الإضمارَ؛ لتقدُّمِ اسمِ الجَلالةِ في جُملةِ الشَّرطِ ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾-؛ لئلَّا يَلتبِسَ مُعادُ الضَّميرِ بأنْ يُعادَ إلى (مَن)؛ إذ المقصودُ الإعلامُ بأجَلٍ مَخصوصٍ، وهو وقْتُ النَّصرِ الموعودِ[1].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ مِن فُنونِ البلاغةِ: الحذْفُ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ الجوابُ مَحذوفًا، أي: فلْيَختَرْ مِنَ الأعمالِ ما يُؤدِّي إلى حُسنِ الثَّوابِ، ولْيَحذَرْ ما يَسوقُه إلى سُوءِ العذابِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفيه مِن الوعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى. وقيل: فلْيُبادِرْ إلى ما يُحقِّقُ أمَلَه، ويُصَدِّقُ رجاءَهُ، أو ما يُوجِبُ القُربةَ والزُّلفَى[2].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَذييلٌ لتَحقيقِ حُصولِ المَرْجُوِّ والمَخُوفِ وعْدًا ووَعيدًا[3]، ووقَعَ التَّذييلُ بوَصفَيِ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ دونَ غيرِهما مِن الصِّفاتِ العُلى؛ للإيماءِ بوصْفِ السَّميعِ إلى أنَّ اللهَ تعالى سمِعَ مَقالةَ بعضِهم مِنَ الدُّعاءِ بتَعجيلِ النَّصرِ، والإيماءِ بوصْفِ العليمِ إلى أنَّ اللهَ عَلِمَ ما في نُفوسِهم مِن استعجالِ النَّصرِ[4]. وقيل: لأنَّه سبَقَ القَولُ في قَولِه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟﴾، وسَبَق الفِعلُ بقَولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، وبقَولِه: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾، وبقَولِه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾، ولا شَكَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨، ٢٠٩).

أنَّ القَولَ يُدرَكُ بالسَّمعِ، والعَمَلَ منه ما لا يُدرَكُ بالبَصَرِ، ومنه ما يُدرَكُ به، كالقُصودِ، والعِلمَ يَشمَلُهما؛ وهو السَّميعُ: يَسمَعُ ما قالوه، وهو العليمُ: يعلَمُ مَن صَدَق فيما قال ممَّن كَذَب، وأيضًا عَليمٌ يَعلَمُ ما يُعمَلُ، فيُثيبُ ويُعاقِبُ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ القصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) هو قصْرُ الجهادِ على الكَونِ لنفْسِ المجاهِدِ، أي: الصَّالح نفْسِه؛ إذ العِلَّةُ لا تَتعلَّقُ بالنَّفْسِ، بلْ بأحوالِها، أي: جِهادٌ لفائدةِ نفْسِه، لا لِنَفْعٍ يَنجَرُّ إلى اللهِ تعالى؛ فالقصْرُ الحاصلُ بأداةِ (إنَّما) قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ للتَّنبيهِ إلى ما يَغفُلون عنه مِنَ الفوائدِ المُنجَرَّةِ إلى أنفُسِ المُجاهِدينَ؛ ولذلك عقَّبَ الرَّدَّ المُستفادَ مِنَ القصْرِ بتَعليلِه بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عن العالَمينَ، فلا يَكونُ شَيءٌ مِن الجِهادِ نافعًا للهِ تعالى، ولكنَّ نفْعَه للأُمَّةِ[٢].

- وأكَّدَ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛ لأنَّ كثرةَ الأوامرِ رُبَّما أَوجَبَت للجاهلِ ظَنَّ الحاجةِ، وذلك نُكتةُ الإتيانِ باسمِ الجلالة (الله)[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: ٤]؛ لِمَا تَضمَّنَتْه الجُملةُ المعطوفُ عليها مِن التَّهديدِ والوعيدِ، فعطَفَ عليها ما هو وعدٌ وبشارةٌ للَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، مع ما أفْضَى إلى ذِكْرِ هذا الوعدِ مِن قولِه قبْلَه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٤).

[العنكبوت: ٦]؛ فإنَّ مَضمونَ جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ يُفيدُ بَيانَ كَونِ جِهادِ مَن جاهَدَ لنفْسِه. ويجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، وسُلِكَ بها طريقُ العطْفِ باعتبارِ ما أَومَأَ إليه الموصولُ وصِلَتُه مِن أنَّ سبَبَ هذا الجزاءِ الحسَنِ هو أنَّهم آمَنوا وعَملوا الصَّالحاتِ، وهو على هذا الوجْهِ: إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لنُكتةِ هذا الإيماءِ[1].

- وتَقديرُ قولِه: ﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: ولَنجزيَنَّهم جزاءً أحسَنَ. وإضافتُه إلى ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ عِظَمِ الجزاءِ كلِّه؛ فهو مُقدَّرٌ بأحسَنِ أعمالِهم[2]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٢).

الآيتان (٨-٩)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ طاعتَه يجبُ أنْ تُقَدَّمَ على كلِّ طاعةٍ، فيقولُ: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ أن يُبالِغَ في الإحسانِ إلى والِدَيه، وإنْ جاهَداك لِتَجعَلَ لله شَريكًا لا تعلَمُ حُجَّةً على ألوهيَّتِه، فلا تُطِعْهما في ذلك، إلَيَّ مَصيرُكم يومَ القيامةِ فأُخبِرُكم بما كُنتُم تَعمَلونَ مِن خيرٍ وشَرٍّ. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ لَنُدخِلَنَّهم في جُملةِ الصَّالحينَ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ثوابَ مَن حَقَّق التَّكاليفَ؛ أُصولَها وفُروعَها؛ تحريضًا للمُكَلَّفِ على الطَّاعةِ- ذكَرَ المانِعَ، ومَنَعَه مِن أن يختارَ اتِّباعَه، فقال: الإنسانُ إنِ انقاد لأحدٍ ينبغي أن ينقادَ لأبوَيه، ومع هذا لو أمَرَاهُ بالمعصيةِ لا يجوزُ اتِّباعُهما، فضلًا عن غيرِهما، فلا يمنَعَنَّ أحَدَكم شَيءٌ من طاعةِ الله، ولا يَتبَعَنَّ أحَدٌ مَن يأمُرُ بمعصيةِ اللهِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه أنَّه لا بُدَّ مِن الفِتنةِ، وحذَّرَ مَن كَفَر، وبشَّرَ مَن صَبَر؛ قال عاطِفًا على ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ مُشيرًا إلى تَعظيم حُرمةِ الوالِدِ؛ حيثُ جعَلَها في سياقِ تَعظيمِ الخالِقِ، وإلى أنَّها أعظَمُ فِتنةٍ[1]:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاص رَضيَ اللهُ عنه، قال: (حلَفَتْ أمُّ سَعدٍ ألَّا تُكَلِّمَه أبدًا حتَّى يَكفُرَ بدينِه، ولا تأكُلَ ولا تَشرَبَ. قالتْ: زعَمْتَ أنَّ اللهَ وصَّاك بوالِدَيك، وأنا أمُّك، وأنا آمُرُك بهذا! قال: مَكَثَتْ ثلاثًا حتَّى غُشِيَ عليها مِنَ الجَهدِ، فقام ابنٌ لها يُقالُ له: عُمارةُ، فسَقاها، فجعَلَت تدعو على سَعدٍ، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ في القُرآنِ هذه الآيةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾)[2].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

أي: وأمَرْنا الإنسانَ أمرًا مؤكَّدًا وعَهِدْنا إليه أن يُحسِنَ إلى والِدَيه قَولًا وفِعلًا، وأن يُحافِظَ على ذلك[3].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٥).

(٢) رواه مسلم (١٧٤٨).

قال النيسابوري: (اتَّفق المفسِّرون على أنَّ هذه الآيةَ نزلت في سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وفي أمِّه حَمْنةَ بنتِ أبي سُفيانَ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣، ٣٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

أي: وإنْ بذَلَ والِداك -أيُّها المُسلِمُ- جُهدَهما لِتجعَلَ لي شَريكًا لا تعلَمُ حُجَّةً على ألوهيَّتِه، فلا تُطِعْهما في ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

عن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا طاعةَ في مَعصيةٍ، إنَّما الطَّاعةُ في المَعروفِ))(٢).

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إلَيَّ مَصيرُكم يومَ القيامةِ، فأُخبِرُكم بجَميعِ أعمالِكم: ظاهِرِها وخَفيِّها، خَيرِها وشَرِّها؛ وأُجازيكم عليها، ومِن ذلك إحسانُكم إلى والِديكم، وصَبرُكم وثباتُكم على دينِكم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٣، ٢١٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٥، ٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِشَرعِه: لَنُدخِلَنَّهم[1] في جُملةِ الصَّالحينَ[2].

كما قال تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ

---

(١) قيل: المرادُ: لَنُدخِلَنَّهم مُدخَلَ الصَّالحينَ، وهو الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

وقيل: المعنى: في زُمْرتِهم وجُملتِهم، يُحشَرونَ معهم يومَ القيامةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والرَّسْعَنيُّ، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٧).

قال الواحدي: (﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: في زُمرتِهم وجملتِهم، ومعناه: لَنَحشُرَنَّهم معهم). ((الوجيز)) (ص: ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

قيل: المرادُ بالصَّالحينَ هنا: الأنبياءُ والأولياءُ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والبَغَويُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٧).

وقيل: المرادُ بهم: الأنبياءُ فقط. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠، ٤١).

ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال يوسفُ عليه السَّلامُ فيما حكاه اللهُ عنه: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال سُليمانُ عليه السَّلامُ فيما حكاه اللهُ عنه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال سُبحانَه عن الأنبياءِ: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ يَحُثُّ الإنسانَ على بِرِّ الوالِدَينِ والإحسانِ إليهما بالقَولِ والعَمَلِ، وأن يحافِظَ على ذلك، ولا يَعُقَّهما ويُسيءَ إليهما في قَولِه وعَمَلِه[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مَن آمَنَ باللهِ وعَمِلَ صالِحًا، فإنَّ اللهَ وعَدَه أن يُدخِلَه الجنَّةَ في جُملةِ عبادِه الصَّالحينَ؛ مِنَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ، كلٌّ على حسَبِ درَجتِه ومَرتبتِه عندَ اللهِ؛ فالإيمانُ الصَّحيحُ والعمَلُ الصَّالحُ عُنوانٌ على سعادةِ صاحِبِه، وأنَّه من أهلِ الرَّحمنِ والصَّالحينَ من عبادِ اللهِ تعالى[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فلا طاعةَ لِمَخلوقٍ -وإنْ عَظُمَ- في مَعصيةِ الخالِقِ، وهذا مُوجِبٌ لئلَّا يقَعَ مِن أحدٍ شِركٌ أصلًا؛ فإنَّه لا رَيْبَ أصلًا في أنَّه لا شُبهةَ تقومُ على أنَّ غَيرَه تعالى يَستحِقُّ الإلهيَّةَ، فكيف بدَليلٍ يُوجِبُ عِلمًا؟! والمقصودُ مِن سياقِ الكلامِ إظهارُ النَّصَفةِ، والتَّنبيهُ على النَّصيحةِ؛ لِيكونَ أدعَى إلى القَبولِ(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ موافَقةٌ للواقعِ؛ فلا مفهومَ له(٢)، فهو بيانٌ للواقعِ أنَّ كلَّ شِرْكٍ باللهِ فإنَّه لا عِلْمَ به عندَ الإنسانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومعلومٌ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى ما جَعَل شِركًا فيه سُلطانٌ؛ فكلُّ الشِّركِ ليس فيه سلطانٌ، بل إنَّ الشركَ قد قام السُّلطانُ والعِلْمُ الصَّحيحُ على أنَّه باطلٌ، فصار قولُه: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ معناه: أنَّه موافِقٌ للواقِعِ، فيكونُ كالتَّعليلِ لتَحريمِ الشِّركِ، كأنَّه يقولُ: على أنْ تشركَ بي والحالُ أنَّ الشِّركَ ليس لك به عِلْمٌ؛ فإنَّ الشِّركَ قطعًا لا يمكنُ أنْ يقومَ الدَّليلُ على وجودِه، بل إنَّ الدَّليلَ الصَّحيحَ على انتفائِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا شَريكَ له سُبحانَه(٣).

٣- قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بإلهيَّتِه، عبَّرَ عن نفْيِها بنَفْيِ العِلْمِ بها؛ للإيذانِ بأنَّ ما لا يُعلَمُ صِحَّتُه لا يجوزُ اتِّباعُه وإنْ لم يُعلَمْ بطلانُه، فكيف بما عُلِمَ بُطلانُه(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير أبي =

٤- قال الله تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مِن لَطيفِ مُناسبةِ هذا الظَّرفِ في هذا المَقام: أنَّ المؤمنَ لَمَّا أُمِرَ بعِصيانِ والدَيْه إذا أمَراهُ بالشِّركِ، كان ذلك ممَّا يُثيرُ بيْنَه وبيْنَ أبوَيْه جَفاءً وتَفرِقةً، فجعَلَ اللهُ جزاءً عن وَحشةِ تلك التَّفرِقةِ أُنْسًا بجَعْلِه في عِدادِ الصَّالحينَ يأنَسُ بهم[1].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بيَّنَ اللهُ بهذه الآيةِ ما على المُسلم في مُعامَلةِ أنسبائِه مِن المُشركين، وخصَّ بالذِّكرِ منها نسَبَ الوالِدَينِ؛ لأنَّه أقرَبُ نسَبٍ؛ فيَكونُ ما هو دونَه أَوْلى بالحُكمِ الَّذي يُشْرَعُ له[2].

- والمقصودُ مِن الآيةِ هو قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى ...﴾ إلى آخرِه، وإنَّما افْتُتِحَت بـ (وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)؛ لأنَّه كالمُقدِّمةِ للمقصودِ؛ ليَعلَمَ أنَّ الوِصايةَ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ لا تَقتَضي طاعتَهما في السُّوءِ ونحْوِه، ولِقَصْدِ تَقريرِ حُكْمِ الإحسانِ للوالدين في كلِّ حالٍ إلَّا في حالِ الإشراكِ؛ حتَّى لا يَلتبِسَ على المُسلمينَ وجْهُ الجمْعِ بيْنَ الأمرِ بالإحسانِ للوالدينِ وبيْنَ الأمرِ بعِصيانِهما إذا أمَرَا بالشِّركِ؛ لإبطالِ قَولِ مَن يقولُ: أليس مِن دِينِ محمَّدٍ البرُّ بالوالدين؟! ونحوِه[3].

- وفي قَولِه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ذَكرَه في (الأحقافِ) ﴿إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وحَذَفَه في (لُقمانَ)؛ لأنَّ الوصيَّةَ

= السعود)) (٧/ ٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٣).

هنا وفي (الأحقافِ) جاءت في سِياقِ الإجمالِ، وفي (لُقمانَ) جاءت مُفصَّلةً؛ لِمَا تقدَّمَها مِن تَفصيلِ كلامِ لُقمانَ لابْنِه، ولأنَّ قولَه بعْدَها: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤] قائمٌ مَقامَه؛ فحسُنَ حذْفُه(١).

- ومن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال هنا: ﴿لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، وقال في (لُقمانَ): ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ﴾ [لقمان: ١٥]؛ مُوافقةً هنا لفظًا لِلَفْظِ اللَّامِ في قَولِه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، وحمْلًا للمعنَى بطَريقِ التَّضمينِ في (لُقمانَ)؛ إذِ التَّقديرُ: وإنْ حَمَلاكَ على أنْ تُشرِكَ بي...(٢).

- وجُملةُ ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لزيادةِ تَحقيقِ ما أشارتْ إليه مُقدِّمةُ الآيةِ مِن قولِه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾؛ لأنَّ بقيَّةَ الآيةِ لَمَّا آذَنَتْ بفَظاعةِ أمْرِ الشِّركِ، وحذَّرتْ مِن طاعةِ المرْءِ والدَيْه فيه؛ كان ذلك ممَّا يُثير سؤالًا في نُفوسِ الأبناءِ: أنَّهم هل يُعامِلون الوالدينِ بالإساءةِ لأجْلِ إشْراكِهما؟ فأُنْبِئوا أنَّ عِقابَهما على الشِّركِ مُفوَّضٌ إلى اللهِ تعالى؛ فهو الَّذي يُجازي المحسنينَ والمُسيئينَ(٣).

- قولُه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الإنباءُ: الإخبارُ، وهو مُستعمَلٌ كِنايةً عن عِلْمِه تعالى بما يَعمَلونه مِن ظاهرِ الأعمالِ وخَفيِّها، أي: ما يُخْفُونه عن المسلمينَ وما يُكِنُّونه في قُلوبِهم، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن الجزاءِ عليه مِن خَيرٍ أو شرٍّ؛ ففي قَولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ كِنايتانِ: أُولاهما إيماءٌ، وثانيتُهما تلويحٌ، أي: فأُجازِيكم ثوابًا على عِصيانِهما فيما يأْمُرانِ، وأُجازِيهما عذابًا

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٤، ٢١٥).

على إشراكِهما[١].

٢- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كرَّر تعالى ما رتَّبَ للمؤمنينَ مِن دُخولِهم في الصَّالحينَ؛ لِيُحرِّكَ النُّفوسَ إلى نَيْلِ مَراتبِهم[٢]. وهذه الآيةُ تَصريحٌ ببعضِ ما أفادَتْه الكِنايةُ الَّتي في قَولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ اهتِمامًا بجانبِ جزاءِ المؤمنينَ. وقد أُشيرَ إلى شرَفِ هذا الجزاءِ بأنَّه جزاءُ الصَّالحينَ الكاملينَ، كقولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣] [النساء: ٦٩].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

الآيتان (١٠-١١)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ١١ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن أحوالِ أصحابِ القلوبِ المريضةِ، فيقولُ: ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ بِلسانِه: آمَنَّا بالله، فإذا آذاه الكُفَّارُ لِيَرجِعَ عن دينِه، جعَلَ أذى النَّاسِ له كعذابِ اللهِ، فيَرتَدُّ لِيَسْلَمَ مِن أذاهم، ولَئِنْ جاء نصرٌ من ربِّك -يا محمَّدُ- لِعبادِه المؤمنينَ به، لَيَقولَنَّ أولئك المرتَدُّونَ عن دينِهم: إنَّا كنَّا مُؤمِنينَ معكم؛ لِيَأخُذوا نصيبَهم مِنَ الغنائِمِ! أوَليس اللهُ بأعلَمَ بما في قُلوبِ خَلقِه؟! ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ عِلمَ مُشاهَدةٍ يترتَّبُ عليه جزاؤُهم، وكذلك المنافِقونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

إنَّ أقسامَ المُكلَّفينَ ثلاثةٌ: مُؤمِنٌ ظاهِرٌ بحُسنِ اعتِقادِه، وكافِرٌ مُجاهِرٌ بكُفرِه وعِنادِه، ومُذَبْذَبٌ بيْنَهما؛ يُظهِرُ الإيمانَ بلِسانِه، ويُضمِرُ الكُفرَ في فؤادِه، واللهُ تعالى لَمَّا بَيَّنَ القِسْمَينِ بقَولِه تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، وبيَّن أحوالَهما بقَولِه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

[العنكبوت: ٤] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العنكبوت: ٧]- بيَّن القِسْمَ الثَّالثَ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه لا بُدَّ أن يُمتحَنَ مَنِ ادَّعى الإيمانَ؛ لِيَظهَرَ الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ؛ بيَّن تعالى أنَّ مِن النَّاسِ فَريقًا لا صبرَ لهم على المِحَنِ، ولا ثباتَ لهم على بَعضِ الزَّلازِلِ، فقال[٢]:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: (كان قَومٌ مِن أهلِ مكَّةَ أسلَموا، وكانوا يَستَخْفُونَ بإسلامِهم، فأخرَجَهم المُشرِكونَ يومَ بَدرٍ معهم، فأُصيبَ بَعضُهم، وقُتِلَ بَعضٌ، فقال المُسلِمونَ: كان أصحابُنا هؤلاءِ مُسلِمينَ وأُكرِهوا؛ فاستَغفِروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، فكُتِبَ إلى مَن بَقِيَ بمكَّةَ مِنَ المُسلِمينَ بهذه الآيةِ: أنْ لا عُذرَ لهم؛ فخرجوا، فلَحِقَهم المُشرِكونَ، فأعطَوْهُمُ الفتنةَ[٣]، فنَزَلت فيهم هذه الآيةُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فكتب المُسلِمونَ إليهم بذلك، فخَرَجوا وأَيِسُوا من كلِّ خَيرٍ، ثمَّ نَزَلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٣) أي: كفَروا بعدَ إسلامِهم. يُنظر: حاشية (٢) من ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٣) بتحقيق أحمد شاكر، ومحمود شاكر.

رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: ١١٠]، فكَتَبوا إليهم بذلك: إنَّ اللهَ قد جعَل لكم مَخرَجًا، فخرَجوا، فأدركَهم المُشرِكونَ، فقاتَلوهم، حتَّى نجا مَن نجا، وقُتِل مَن قُتِل)[1].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ بلِسانِه: آمَنَّا باللهِ فوحَّدْناه، فإذا آذاه الكُفَّارُ لِيَرجِعَ عن إيمانِه باللهِ، جعَل أذى النَّاسِ له كعَذابِ اللهِ، فيَرتَدُّ ويَترُكُ الحَقَّ لِيَسْلَمَ من أذى الخَلقِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ ﴾.

أي: ولَئِنْ جاء نَصرٌ من ربِّك -يا مُحمَّدُ- لِحِزبِ اللهِ الثَّابتي الإيمانِ، وفَتْحٌ ومَغانِمُ- لَيَقولَنَّ أولئك الجاعِلونَ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ اللهِ، المُرتَدُّونَ عن إيمانِهم:

---

(١) أخرجه البزَّار كما في ((كشف الأستار)) للهيثمي (٢٢٠٤)، وابن جرير في ((التفسير)) (١٠٢٦٠) واللفظ له، والطحاوي في ((مشكل الآثار)) (٣٣٧٧)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (١٧١٧٠)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (٢١٥).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيح غيرَ محمَّدِ بنِ شَريكٍ، وهو ثقةٌ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٦٠)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق ((مشكل الآثار)) (٨/ ٤٥٠)، وأورده الوادعي في ((الصحيح من أسباب النزول)) (١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٦).

إنَّا كنَّا معكم مُؤمِنينَ؛ لِيأخُذوا نصيبَهم مِن الغنائِم(١)!

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: أوَليس اللهُ بأعلَمَ مِن كُلِّ أحدٍ بما في قُلوبِ جَميعِ خَلقِه، إخلاصًا كان أو نِفاقًا؟ فهو العالِمُ بما يُخفِي المُنافِقونَ، وإن أظهَروا للمُؤمِنينَ خِلافَ ما في قُلوبِهم؛ فكيف يُخادِعونَ مَن لا تَخفَى عليه خافيةٌ، ولا يَستَتِرُ عنه سِرٌّ ولا علانيةٌ(٢)؟!

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أعلَمُ بما في قُلوبِ العالَمينَ؛ بيَّن أنَّه يَعلَمُ المؤمِنَ المحِقَّ وإن لم يتكَلَّمْ، والمنافِقَ وإن تكَلَّمَ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٤، ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

وأيضًا لَمَّا أنكَرَ اللهُ تعالى عدَمَ العِلمِ، صرَّحَ بالعِلمِ، فقال[1]:

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

أي: ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ المؤمنينَ الصَّادِقينَ الثَّابتينَ على إيمانِهم، ولَيَعْلَمَنَّ المُنافِقينَ الكاذِبينَ في دَعْوى الإيمانِ، عِلمَ مُشاهَدةٍ يترتَّبُ عليه جزاؤُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بادِروا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ؛ يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤمِنًا ويُمسي كافِرًا، أو يُمسي مُؤمِنًا ويُصبِحُ كافِرًا، يبيعُ دينَه بعَرَضٍ مِن الدُّنيا!))[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تحذيرٌ مِن أنْ يقولَ الإنسانُ خِلافَ ما في قَلبِه[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، لم يقُلْ: (آمنْتُ)، مع أنَّه وحَّد الأفعالَ الَّتي بعْدَه، كقَولِه: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾، وقَولِه: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾؛ وذلك لأنَّ المنافِقَ كان يُشَبِّهُ نفْسَه بالمؤمِنِ، ويقول: (إيماني

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٧، ٤٨).

(٣) رواه مسلم (١١٨).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد)) لابن عثيمين (٢/ ٧٧).

كإيمانِك!)، فقال: ﴿ءَامَنَّا﴾، يعني: أنا والمؤمِنُ حقًّا آمَنَّا؛ إشعارًا بأنَّ إيمانَه كإيمانِه! وهذا كما أنَّ الجبانَ الضَّعيفَ إذا خرج مع الأبطالِ في القِتالِ، وهَزَموا خُصومَهم، يقولُ الجبانُ: خرَجْنا وقاتَلْناهم وهزَمْناهم! فيَصِحُّ مِن السَّامع لكلامه أن يقولَ: وماذا كنت أنتَ فيهم حتَّى تقولَ: خرَجْنا وقاتَلْنا؟! وهذا الرَّدُّ يدُلُّ على أنَّه يُفهَمُ مِن كلامِه أنَّ خُروجَه وقِتالَه كخُروجِهم وقتالِهم؛ لأنَّه لا يَصِحُّ الإنكارُ عليه في دعوى نفْسِ الخُروجِ والقتالِ، فهُم لَمَّا أرادوا إظهارَ كَونِ إيمانِهم كإيمانِ المحقِّينَ، كان الواحِدُ يقولُ: ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: أنا والمحِقُّ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: هذا يقتضي مَنْعَ المؤمِنِ مِن إظهارِ كَلِمةِ الكُفرِ بالإكراهِ؛ لأنَّ مَن أظهَرَ كَلِمةَ الكُفرِ بالإكراهِ احترازًا عن التَّعذيبِ العاجِلِ، يكونُ قد جعَل فِتنةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ؟

الجوابُ: ليس الأمرُ كذلك؛ لأنَّ مَن أُكرِهَ على الكُفرِ وقَلبُه مُطمَئِنٌّ بالإيمانِ، لم يَجعَلْ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ اللهِ؛ لأنَّ عذابَ اللهِ يُوجِبُ تَركَ ما يُعذَّبُ عليه ظاهِرًا وباطِنًا، وهذا المؤمِنُ المُكرَهُ لم يجعَلْ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ الله، بحيثُ يَترُكُ ما يُعذَّبُ عليه ظاهِرًا وباطِنًا، بل في باطِنِه الإيمانُ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لم يقُلْ: (عذابَ النَّاسِ)؛ لأنَّ فِعلَ العبدِ ابتلاءٌ وامتحانٌ مِن الله، وفِتنَتَه تسليطُ بعضِ النَّاسِ على مَن أظهَرَ كَلِمةَ الإيمانِ لِيُؤذيَه؛ فتَبينَ مَنزِلتُه، كما جعَل التَّكاليفَ ابتلاءً وامتحانًا، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الصَّبرَ على البَليَّةِ الصَّادرةِ ابتلاءً وامتحانًا مِن الإنسانِ، كالصَّبرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤).

على العباداتِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ لم يَقُلْ: (مِنَ اللهِ) مع أنَّ ما تقدَّم كان كُلُّه بذِكرِ اللهِ، كقَولِه: ﴿أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾، وقَولِه: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لأنَّ (الرَّبَّ) اسمٌ مَدلولُه الخاصُّ به الشَّفَقةُ والرَّحمةُ، و(اللهُ) اسمٌ مَدلولُه الهَيْبةُ والعَظَمةُ؛ فعندَ النَّصرِ ذُكِرَ اللَّفظُ الدَّالُّ على الرَّحمةِ والعاطفةِ، وعندَ العذابِ ذُكِرَ اللَّفظُ الدَّالُّ على العَظَمةِ[٢]، أو باعتبارِ أنَّ النَّصرَ مِن أفعالِ الرُّبوبيَّةِ.

٥- عبَّرَ في حالةِ الشِّدَّةِ في قَولِه: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ بالإفرادِ؛ لِئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ الجمعَ قَيدٌ، وجَمَع في قَولِه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ دَلالةً على أنَّهم لا يَستَحْيُونَ مِنَ الكَذِبِ، ولو على رُؤوسِ الأشهادِ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهم أرادوا التَّلبيسَ، ولا يَصِحُّ ذلك لهم؛ لأنَّ التَّلبيسَ إنَّما يكونُ عندَما يخالِفُ القَولُ القَلبَ، فالسَّامِعُ يَبني الأمرَ على قَولِه، ولا يَدري ما في قَلبِه؛ فيَلتَبِسُ الأمرُ عليه، وأمَّا اللهُ تعالى فهو عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ، وهو أعلَمُ بما في صَدرِ الإنسانِ مِن الإنسانِ؛ فلا يَلتَبِسُ عليه الأمرُ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الاعتبارَ بما في القَلبِ؛ فالمنافِقُ الَّذي يُظهِرُ الإيمانَ ويُضمِرُ الكُفرَ: كافِرٌ، والمؤمِنُ المُكرَهُ الَّذي يُظهِرُ الكُفرَ ويُضمِرُ الإيمانَ: مُؤمِنٌ. واللهُ أعلَمُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أنَّ الحِكمةَ مِنَ الامتِحانِ إظهارُ المؤمنِ مِنَ المنافقِ(١)، فلذلك قدَّر اللهُ مِحَنًا وابتلاءً، لِيَظهَرَ عِلمُه فيهم، فيُجازيَهم بما ظهَر منهم، لا بما يَعلمُه بمُجَرَّدِه؛ لأنَّهم قد يَحتَجُّون على الله أنَّهم لو ابتُلوا لَثَبَتوا(٢).

٨- إنْ قيل: إنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، فكيف ذكَرَ اللهُ تعالى فيها النِّفاقَ في قولِه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، مع أنَّ النِّفاقَ لم يَظهَرْ إلَّا بالمدينةِ؟

والجواب: أنَّ هذه الآيةَ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ، واللهُ تعالى يَذكُرُ المنافقينَ في السُّورِ المكِّيَّةِ تحَسُّبًا لِما يقَعُ، واستِعدادًا لهم(٣).

وقيل: الآيةُ إخبارٌ عن حالِ المنافقينَ في الدَّارِ الآخرةِ(٤).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ حالِ المنافقينَ بعدَ أنْ بيَّنَ حالَ المؤمنينَ والكافرينَ فيما تقدَّمَ(٥).

- والخبرُ مِن قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ إلى قولِه: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ مُكنًّى به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨).
وقيل: الآيةُ بِناءً على أنَّ النِّفاقَ ظهَرَ في المدينةِ مدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠٥).

عن الذَّمِّ والاستِحقاقِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾، وقال في سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ [آل عمران: ١٩٥]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ بتلك الآيةِ الصَّابرون على أذيَّةِ الكافرينَ، والمُرادُ هاهنا الَّذين لم يَصبِروا عليها؛ فقال هناك: ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾، وقال هاهنا: ﴿أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾، ولم يقُلْ: (في سبيلِ اللهِ)؛ واللَّطيفةُ فيه: أنَّ اللهَ أراد بيانَ شرَفِ المُؤمِنِ الصَّابرِ، وخِسَّةِ المنافقِ الكافرِ، فقال هناك: أُوذِيَ المؤمِنُ في سبيلِ اللهِ ليَترُكَ سبيلَه ولم يَترُكْه، وأُوذِيَ المنافقُ الكافرُ فترَكَ اللهَ بنفْسِه، وكان يُمكِنُه أنْ يُظهِرَ مُوافقتَهم إنْ بلَغَ الإيذاءُ إلى حدِّ الإكراهِ، ويكون قلْبُه مُطمئنًّا بالإيمانِ، فلا يَترُكُ اللهَ، ومع هذا لم يَفعَلْه، بلْ ترَكَ اللهَ بالكُلِّيَّةِ، والمؤمِنُ أُوذِيَ ولم يَترُكْ سبيلَ اللهِ، بلْ أظهَر كَلِمَتَيِ الشَّهادةِ، وصبَرَ على الطَّاعةِ والعِبادةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ...﴾ فيه تأْكيدُ جُملةِ الشَّرطِ باللَّامِ المُوطِّئةِ للقَسَمِ؛ لتَحقيقِ حُصولِ الجوابِ عندَ حُصولِ الشَّرطِ، وهو يَقْتضي تَحقيقَ وُقوعِ الأمْرَينِ؛ ففيه وعدٌ بأنَّ اللهَ تعالى ناصِرٌ المسلمينَ، وأنَّ المنافقينَ قائلونَ ذلك حينَئذٍ[٣].

- قولُه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ. والاستِفهامُ إنكاريٌّ إنكارًا عليهم قولَهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وقولَهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ لأنَّهم قالوا قولَهم ذلك ظنًّا منهم أنْ يَرُوجَ كَذِبُهم ونِفاقُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣، ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٧).

على رسولِ اللهِ، فكان الإنكارُ عليهم مُتضَمِّنًا أنَّهم كاذِبونَ في قَولَيْهِم المَذكورَينِ، والخِطابُ مُوَجَّهٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَصْدِ إسماعِهِم هذا الخطابَ؛ فإنَّهم يَحضُرون مجالِسَ النَّبيِّ والمؤمنينَ، ويَستمِعون ما يَنزِلُ مِن القرآنِ وما يُتْلى منه بعدَ نُزولِه، فيَشعُرون أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ضَمائرِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقريريًّا، وجَّهَ اللهُ به الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صورةِ التَّقريرِ بما أنعَمَ اللهُ به عليه مِن إنبائِه بأحوالِ المُلْتبِسينَ بالنِّفاقِ. وهذا الأسلوبُ شائعٌ في الاستِفهامِ التَّقريريِّ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ خُصَّ بالذِّكْرِ فَريقانِ هما ممَّن شَمِلَه عُمومُ قولِه: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]؛ اهتِمامًا بهذينِ الفريقينِ وحالَيْهما: فريقِ الَّذين آمَنوا، وفريقِ المُنافقينَ؛ لأنَّ العِلْمَ بما في صُدورِ الفريقَينِ مِن إيمانٍ ونِفاقٍ يَترتَّبُ عليه الجزاءُ المُناسِبُ لحالَيْهما في العاجلِ والآجِلِ؛ فذلك ترغيبٌ وترهيبٌ. ووجْهُ تأكيدِ كِلَا الفِعلينِ بلامِ القسَمِ ونونِ التَّوكيدِ: أنَّ المقصودَ مِن هذا الخبرِ رَدُّ اعتقادِ المُنافقينَ أنَّ اللهَ لا يُطلِعُ رسولَه على ما في نُفوسِهم؛ فالمقصودُ مِن الخبرينِ هو ثانيهما، وهو قولُه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو تَمهيدٌ لِمَا بعْدَه، وتَنصيصٌ على عدَمِ الْتِباسِ الإيمانِ المكذوبِ بالإيمانِ الحقِّ. وفي هذا أيضًا إرادةُ المعنى الكِنائيِّ مِن العِلْمِ، وهو مُجازاةُ كلِّ فريقٍ على حسَبِ ما عَلِمَ اللهُ مِن حالِه(٢).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ مُخالَفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٨).

بيْنَ المؤمنينَ والمُنافقين في التَّعبيرِ عن الأوَّلِينَ بطريقِ المَوصولِ والصِّلةِ الماضَويَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وعن الآخرينَ بطريقِ اللَّامِ واسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ لِما يُؤْذِنُ به المَوصولُ مِن اشتِهارِهم بالإيمانِ، وما يُؤذِنُ به الفِعلُ الماضي مِن تمَكُّنِ الإيمانِ منهم وسابقِيَّتِه، وما يُؤذِنُ به التَّعريفُ باللَّامِ مِن كونِهم عُهِدوا بالنِّفاقِ وطَرَيانِه عليهم بعدَ أنْ كانوا مُؤمنينَ؛ ففيه تعريفٌ بسُوءِ عاقِبَتِهم، مع ما في ذلك مِن التَّفنُّنِ، ورِعايةِ الفاصلةِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقال قبلُ: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت:٣]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا كان الذِّكْرُ هناك للمُؤمنِ والكافرِ، والكافرُ في قَولِه كاذبٌ؛ فإنَّه يقولُ: اللهُ أكثَرُ مِن واحدٍ، والمؤمنُ في قَولِه صادقٌ؛ فإنَّه كان يقولُ: اللهُ واحدٌ، ولم يكُنْ هناك ذِكْرُ مَن يُضمِرُ خلافَ ما يُظهِرُ؛ فكان الحاصِلُ هناك قِسْمَينِ: صادقًا، وكاذبًا، وكان هاهنا المنافقُ صادقًا في قَولِه؛ فإنَّه كان يقولُ: اللهُ واحدٌ، فاعْتَبَرَ أمْرَ القلْبِ في المنافقِ، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، واعْتَبَرَ أمْرَ القلْبِ في المؤمنِ، وهو التَّصديقُ، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٨، ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

الآيتان (١٢-١٣)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَثۡقَالَهُمۡ﴾: أي: أوزارَهم وآثامَهم، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[1].

﴿يَفۡتَرُونَ﴾: يَختلِقون، ويَكذِبون؛ فـ(الافتراء) الاختِلاقُ، وهو ما عَظُم مِن الكَذبِ، ومنه قيل: افترَى فُلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيتُ الشَّيءَ أفريه فَرْيًا، وهو قطْعُه لإصلاحِه، وأفرَيْتَه: إذا أنت قطَعْتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى بعضَ دعاوى الكفَّارِ الباطِلة مُفَنِّدًا لها، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيش للمُؤمِنينَ: اتَّبِعوا طريقَتَنا ودينَنا، وسنتحَمَّلُ عنكم خطاياكم! وما هؤلاء الكُفَّارُ بحامِلينَ شيئًا مِن آثامِ مَنِ اتَّبَعوهم؛ فهم كاذِبونَ في زَعمِهم هذا.

ولَيَحْمِلَنَّ هؤلاء الدَّاعُونَ إلى الكُفرِ والضَّلالِ ذُنوبَ أنفُسِهم، وذُنوبَ مَن أضَلُّوهم، ولَيُسْألُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يختَلِقونَه مِنَ الكَذِبِ والضَّلالِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حالَ المؤمنينَ والمنافقينَ؛ ذكَر مقالةَ الكافرينَ قولًا واعتقادًا(١).

وأيضًا فالآيةُ بَيانٌ لِحَمْلِهم للمؤمنينَ على الكفرِ بالاستِمالةِ، بعدَ بَيانِ حَمْلِهم لهم عليه بالأذيَّةِ والوعيدِ(٢).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُخاطِبينَ المُؤمِنينَ: اتَّبِعوا طريقَتَنا في الدِّينِ، وسنتحَمَّلُ عنكم آثامَكم -إن كان في اتِّباعِها إثمٌ- فيكونُ العذابُ علينا، دونَ أن يكونَ عليكم شَيءٌ(٣)!

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾.

أي: ولن يَتحمَّلَ الكُفَّارُ شَيئًا مِن آثامِ مَنِ اتَّبَعوا طريقَتَهم الباطِلةَ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٠، ٥١).

قال ابن عاشور: (محاولةُ المشركينَ ارتدادَ المسلمينَ بمحاولاتِ فتنةٍ بالشَّكِّ والمغالَطةِ للَّذينَ لم يَقدِروا على فِتنتِهم بالأذى والعذابِ؛ إمَّا لعِزَّتِهم وخشيةِ بأسِهم... وإمَّا لكثرتِهم حينَ كثُرَ المسلمون وأَعْيَت المشركينَ حِيَلُ الصَّدِّ عن الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

أي: إنَّهم لَكاذِبونَ في زَعمِهم أنَّهم يَحمِلونَ ذُنوبَ المؤمِنينَ إن اتَّبَعوهم(١).

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ قد يُوهِمُ أنَّ الدُّعاةَ لن يَحمِلوا شيئًا مِن أوزارِ المَدْعُوِّينَ(٢)؛ عطَف عليه ما أفاد أنَّهم غيرُ ناجينَ مِن حملِ تَبِعاتٍ لأقوامٍ آخَرينَ، وهم الأقوامُ الَّذين أضَلُّوهم، وسَوَّلوا لهم الشِّركَ والبُهتانَ على وجهِ التَّأكيدِ بحملِهم ذلك(٣)، فقال:

= (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦).

قال ابن عثيمين: (فصارت الآيةُ مُتضَمِّنةً لِلنَّفْيِ حُكمًا شرعيًّا، ولِلنَّفيِ حُكمًا واقعيًّا؛ فهُم في الشَّرعِ لا يَحمِلونَ أوزارَهم، وهم في الواقِعِ لا يحمِلونَ أوزارَهم أيضًا، ولو قالوا ما صدَقوا، ولكنْ يريدون أن يخدَعوهم ويَغُرُّوهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾.

أي: ولَيَحملَنَّ أولئك الدَّاعونَ إلى طَريقِ الضَّلالِ ذُنوبَ أنفُسِهم، وذُنوبَ أتْباعِهم الضَّالِّينَ، مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن ذُنوبِ الأتْباعِ شَيءٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

أي: ولَيُسْألَنَّ أولئك الكافِرونَ يومَ القيامةِ سُؤالَ تَوبيخٍ وتَقريعٍ عَمَّا كانوا يختَلِقونَه مِن الضَّلالِ، وتزيينِه للنَّاسِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ يُخبِرُ تعالى عن افتِراءِ الكُفَّارِ ودَعوتِهم للمُؤمِنينَ إلى دينِهم، وفي ضِمنِ ذلك تحذيرُ المؤمِنينَ مِن الاغترارِ بهم، والوُقوعِ في مَكرِهم(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن أسْلَكَ أحدًا طريقًا، كان شَريكَه في عَمَلِه فيها؛ فكان عليه مِثلُ وِزرِه إن كانت طريقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

رَدًى، وله مِثلُ أجرِه إن كانت سَبيلَ هُدًى؛ فمَن سنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ، مِن غيرِ أن يَنقُصَ أحَدُهم من حِمْلِ الآخَرِ شَيئًا(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ حِرْصُ الكافرين على إغواءِ المؤمنينَ(٢).

٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ نرى في المُتَّسِمين بالإسلامِ مَن يَستَنُّ بأولئك فيَقولُ لصاحِبِه -إذا أراد أن يُشَجِّعَه على ارتكابِ بعضِ العظائِمِ-: افعَلْ هذا، وإثمُه في عُنُقي! وكم مِن مَغرورٍ بمثلِ هذا الضَّمانِ مِن ضَعَفةِ العامَّةِ وجَهَلتِهم(٣)!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ قال بعْدَه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾، فهناك نفى الحَملَ، وهاهنا أثبتَ الحَملَ، فكيف الجَمعُ بيْنَهما؟

الجوابُ: أنَّ الحَملَ المنفيَّ هو ما كان المقصودُ منه دفْعَ التَّبِعةِ عن الغيرِ، وتبرئَتَه مِن جناياتِه؛ فلا ينافيه إثباتُ حَملٍ آخَرَ عليهم هو حَملُ المؤاخَذةِ على التَّضليلِ في قَولِه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ إثباتُ عَدْلِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥، ٣٦)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

اللهِ؛ حيثُ لا يَحمِلُ أحدٌ خطيئةَ أحدٍ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: الصِّيغةُ في قَولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أمرٌ، والأمرُ لا يَدخُلُه التَّصديقُ والتَّكذيبُ، فكيف يُفهَمُ قَولُه: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ معناه شَرطٌ وجَزاءٌ، فكأنَّهم قالوا: إن تتَّبِعونا نَحمِلْ خطاياكم، وهم كَذَبوا في هذا؛ فإنَّهم لا يَحمِلونَ شَيئًا[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ التَّعبيرُ بصيغةِ الافتِعالِ في ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّهم كانوا يَعلَمونَ صِدقَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَتعمَّدونَ الكَذِبَ في وَعدِهم لِمَن غَرُّوه[٣].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ وَصْفُهم بالكُفْرِ هاهنا دونَ ما سبَقَ؛ لِمَا أنَّ مَساقَ الكلامِ لبَيانِ جِناياتِهم، وفيما سبَقَ لبَيانِ جِنايةِ مَن أضَلُّوه[٤].

- وإنَّما أمَرُوا أنفُسَهم بالحمْلِ عاطفينَ على أمْرِهم بالاتِّباعِ؛ مُبالَغةً في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

تعليقِ الحمْلِ بالاتِّباعِ، والوعْدِ بتَخفيفِ الأوزارِ عنهم -إنْ كانت- تَشجيعًا لهم عليه(١).

- وأخبَرَ أنَّهم يَحملون خَطاياهم على جِهَةِ التَّشبيهِ بالنَّقلِ، لكنَّهم أخْرَجوه في صِيغةِ الأمْرِ؛ لأنَّها أوجَبُ وأشَدُّ تأكيدًا في نفْسِ السَّامعِ مِنَ المُجازاةِ(٢)، ولفائدةِ تنزيلِ الشَّيءِ المُخْبَرِ عنه مَنزِلةَ المفروضِ المُلْزَمِ به(٣).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ مَجيءُ الأمْرِ بمعنى الخبَرِ؛ فأصْلُ الكلامِ: إنْ تَتَّبِعونا نَحمِلْ خَطاياكم؛ فعُدِلَ عنه إلى ما ذُكِرَ ممَّا هو خلافُ الظَّاهِرِ مِن أمْرِهم بالحَملِ(٤)، وقد حَكى اللهُ تعالى عنهم قولَهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ بصِيغةِ الأمْرِ بلامِ الأمْرِ: إمَّا لأنَّهم نَطَقوا بمِثْلِ ذلك؛ لبَلاغتِهم، وإمَّا لإفادةِ ما تَضمَّنَتْه مقالتُهم مِن تأْكيدِ تحمُّلِهم ذلك؛ فصِيغَةُ أمْرِهم أنفُسَهم بالحمْلِ آكَدُ مِن الخبرِ عن أنفُسِهم بذلك، ومِن الشَّرطِ وما في معناهُ؛ لأنَّ الأمْرَ يَسْتدعي الامتثالَ، فكانت صِيغةُ الأمرِ دالَّةً على تَحقيقِ الوفاءِ بالحَمالةِ. وواوُ العطْفِ لجُملةِ ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾ على جُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ مُرادٌ منها المَعِيَّةُ بيْنَ مَضمونِ الجُملتينِ في الأمرِ، وليس المُرادُ منه الجمْعَ في الحُصولِ؛ فالجُملتانِ في قوَّةِ جُملتَيْ شرطٍ وجزاءٍ، والتَّعويلُ على القرينةِ؛ فكان هذا القولُ أدَلَّ على تأكيدِ الالتزامِ بالحالةِ -إنِ اتَّبعَ المسلِمون سبيلَ المشركينَ- مِن أنْ يُقالَ: إنْ تَتَّبِعوا سبيلَنا نَحمِلْ خَطاياكم،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٠).

بصِيغةِ الشَّرطِ، أو أنْ يُقالَ: اتَّبِعوا سبيلَنا فنَحمِلَ خَطاياكم، بفاءِ السَّببيَّةِ[(١)].

- وكذلك دلَّ قولُه: ﴿خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ على العُمومِ؛ لأنَّه جمْعٌ مُضافٌ، وهو مِن صِيَغِ العمومِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ إبطالٌ لقولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ نقَضَ العمومَ في الإثباتِ بعُمومٍ في النَّفْيِ؛ لأنَّ (شيء) في سِياقِ النَّفْيِ يُفيدُ العُمومَ؛ لأنَّه نَكِرةٌ، وزِيادةُ حرْفِ (مِن) تنصيصٌ على العُمومِ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ تَضمَّنَت خُلُوَّ قولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ عن مُطابَقتِه للواقعِ في شَيءٍ، وذلك يَشتمِلُ على أنَّ مَضمونَها كذِبٌ صريحٌ؛ فكان مضمونُ جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ممَّا اشتمَلَ عليه مَضمونُ جُملةِ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾، وليس مَضمونُ الثَّانيةِ عينَ مَضمونِ الأُولى، بلِ الثَّانيةُ أَوْفى بالدَّلالةِ على أنَّ كذِبَهم مُحقَّقٌ، وأنَّه صِفةٌ لهم في خبَرِهم هذا وفي غَيرِه؛ ولهذا لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لكَمالِ الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾[(٤)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١).

- قولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ بيانٌ لِمَا يَستتبِعُه قولُهم ذلك في الآخرةِ مِنَ المَضَرَّةِ لأنفُسِهم، بعدَ بَيانِ عدَمِ مَنفعتِه لِمُخاطِبيهم أصلًا. والتَّعبيرُ عن الخَطايا بالأثقالِ؛ للإيذانِ بغايةِ ثِقَلِها وكَونِها فادحةً. واللَّامُ جوابُ قَسَمٍ مُضمَرٍ، أيْ: وباللهِ لَيَحمِلُنَّ أثقالَ أنفُسِهم كاملةً[١].

- وفائدةُ ذِكْرِ ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ -مع أنَّه لو قِيل: (ولَيحمِلُنَّ أثقالًا مع أثقالِهم) لَأفادَ-: أنَّه أُريدَ بَيانُ استقلالِ أثقالِ أنفُسِهم، وأنَّها بَهَظَتْهم واستفرَغَتْ جُهْدَهم، ومع ذلك جُعِلَت أثقالُ الَّذين يُضِلُّونهم كالعِلاوةِ عليها[٢].

- قولُه: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ تذييلٌ جامعٌ لِمُؤاخَذتِهم بجميعِ ما اختَلَقوه مِن الإفكِ والتَّضليلِ؛ سواءٌ ما أضَلُّوا به أتْباعَهم، وما حاوَلُوا به تَضليلَ المسلمينَ فلم يَقَعوا في أشْراكِهم، وقد شمِلَ ذلك كلَّه لَفْظُ الافتراءِ، كما عبَّرَ عن مُحاولتِهم تَغريرَ المسلمينَ بأنَّهم فيه كاذِبونَ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

الآيتان (١٤-١٥)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطُّوفَانُ﴾: أي: السَّيلُ العَظيمُ، والماءُ المُتناهي فِي الكَثرةِ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأن يَحُفَّ به[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبَيِّنًا ابتلاءَ نوحٍ عليه السَّلامُ بقومِه: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه فمكَثَ فيهم داعيًا لهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه تِسعَمئةٍ وخمسينَ سنةً، فأغرَقَهم الطُّوفانُ وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ، وأنجَيْنا نوحًا ومَنْ حمَلَهم معه في السَّفينةِ، وجعَلْنا تلك السَّفينةَ عِبرةً للعالَمينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ للبَلاءِ والامتِحانِ، والصَّبرِ على الهَوانِ، وإثباتِ عِلمِ اللهِ وقُدرتِه على إنجاءِ الطَّائِعِ وتعذيبِ العاصي؛ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُلِ الكِرامِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- مَن طال صَبرُه على البلاءِ، ولم يَفتُرْ عَزمُه عن نصيحةِ العبادِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨١).

على ما يُعامِلونَه به مِن الأذى؛ تسليةً لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولتابعيه رَضيَ الله تعالى عنهم، وتثبيتًا لهم، وتهديدًا لِقُريشٍ[(١)].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ، فأقام فيهم نبيًّا داعيًا لهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه تِسعَمئةٍ وخَمسينَ سَنةً[(٢)].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

أي: فأهلَكَهم الماءُ الكثيرُ الَّذي نزَل مِن السَّماءِ، ونَبَع مِن الأرضِ، فأغرَقَهم وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ؛ فاستَحَقُّوا عذابَ اللهِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾.

أي: فأنجَيْنا مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ نوحًا ومَن حمَلَهم معه في السَّفينةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٨، ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأعراف: ٦٤].

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا تلك السَّفينةَ عِبرةً للعالَمينَ وحُجَّةً عليهم، وعلامةً على قُدرةِ اللهِ وعِلمِه، وإنجائِه للطَّائعِ، وإهلاكِه للعاصي[١].

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

= قال ابن عثيمين: (أي: أهلُ نوحٍ كُلُّهم -إلَّا ابنَه الكافِرَ وامرأتَه-، والمؤمنون من قَومِه، وكذلك أيضًا الحيواناتُ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢، ٢٢٣).
قال ابن كثير: (قولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وجعَلْنا تلك السَّفينةَ باقيةً؛ إمَّا عَيْنُها كما قال قَتادةُ: إنَّها بَقِيت إلى أوَّلِ الإسلام على جبلِ الجُوديِّ، أو نَوْعُها جعَلَه للنَّاسِ تَذكرةً لِنِعَمِه على الخَلْقِ، كيف نجَّاهم مِنَ الطُّوفانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٢-٦٤).
وقال القرطبيُّ: (الهاءُ والألِفُ في «جَعَلْناها» لِلسَّفينةِ، أو لِلْعقوبةِ، أو لِلنَّجاةِ؛ ثلاثةُ أقوالٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ ابتُدِئت القِصصُ بقِصَّةِ أوَّلِ رَسولٍ بعَثَه اللهُ لأهلِ الأرضِ؛ فإنَّ لِأَوَّليَّاتِ الحوادِثِ وَقعًا في نفوسِ المتأمِّلينَ في التَّاريخ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائدةُ في ذِكرِ مُدَّةِ لُبثِه؟

الجوابُ: كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَضيقُ صَدرُه بسبَبِ عَدَمِ دُخولِ الكُفَّارِ في الإسلامِ، وإصرارِهم على الكُفرِ؛ فقال: إنَّ نوحًا لَبِث ألْفَ سَنةٍ -تقريبًا- في الدُّعاءِ، ولم يؤمِنْ من قَومِه إلَّا قليلٌ، وصبَرَ وما ضَجِرَ، فأنت أَوْلى بالصَّبرِ؛ لقِلَّةِ مُدَّةِ لُبثِك، وكثرةِ عَدَدِ أمَّتِك، وأيضًا كان الكُفَّارُ يَغترُّونَ بتأخيرِ العذابِ عنهم أكثَرَ، ومع ذلك ما نَجَوا، فبهذا المِقدارِ مِن التَّأخيرِ لا ينبغي أن يَغترُّوا؛ فإنَّ العذابَ يَلحَقُهم[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا﴾ فيه سؤالٌ: الاستِثناءُ في العدَدِ تكلُّمٌ بالباقي؛ فإذا قال القائِلُ: لفُلانٍ علَيَّ عَشَرةٌ إلَّا ثلاثةً، فكأنَّه قال: علَيَّ سَبعةٌ، إذا عُلِمَ هذا فقَولُه: ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا﴾ كقَولِه: تِسعمئةٍ وخمسين سنةً، فما الفائدةُ في العُدولِ عن هذه العبارةِ إلى غيرِها؟

الجوابُ: في ذلك فائدتانِ

الفائدةُ الأولى: أنَّ الاستِثناءَ يدُلُّ على التَّحقيقِ، وتركُه قد يُظَنُّ به التَّقريبُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦).

فإنَّ مَن قال: عاش فلانٌ ألْفَ سَنةٍ، يُمكِنُ أن يُتوهَّمَ أن يقولَ: ألف سنةٍ تقريبًا لا تحقيقًا، فإذا قال: إلَّا شهرًا أو إلَّا سنةً، يَزولُ ذلك التَّوهُّمُ، ويُفهَمُ منه التَّحقيقُ.

الفائدةُ الثَّانيةُ: أنَّ ذِكرَ لُبثِ نوحٍ عليه السَّلامُ في قَومِه كان لبيانِ أنَّه صبَرَ كثيرًا، ولم يؤمِنْ مِن قومِه إلا قليلٌ؛ ولذلك أتَى بعقدِ الألفِ؛ لأنَّه أعظمُ وأفخمُ، فهو أعلَى مراتِبِ الأعدادِ الَّتي لها اسمٌ مُفرَدٌ مَوضوعٌ، فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أولى بالصَّبرِ مع قِصَرِ مُدَّةِ دُعائِه، وكثرةِ مَن آمَن به[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ الاستِثناءِ مِن العدَدِ[2].

٥- قول الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، فيه ردٌّ على مَن قال: لا يُستثنَى مِن العَدَدِ عَقْدٌ صحيحٌ[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى لطيفةٍ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى لا يُعذِّبُ على مجرَّدِ وجودِ الظُّلمِ، وإلَّا لَعَذَّبَ مَن ظلَمَ وتاب؛ فإنَّ الظُّلمَ وُجِدَ منه، وإنَّما يُعذِّبُ على الإصرارِ على الظُّلمِ؛ فقولُه: ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ يعني: أهلَكَهم وهم على ظُلمِهم، ولو كانوا ترَكوه لَما أهلَكَهم[4].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، استَدلَّ بعضُهم بهذه الآيةِ على أنَّ ساكنَ الدَّارِ يُدعَى (صاحِبَها)، وإن لم تكُنْ له مِلكًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤١٠).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يَعتَبِرونَ بها على أنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ آخِرُ أمرِه الهلاكُ، وأنَّ المؤمِنينَ سيَجعَلُ اللهُ لهم مِن كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومِن كُلِّ ضِيقٍ مَخرَجًا(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ شُروعٌ في بَيانِ ابتلاءِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأذيَّةِ أُمَمِهم إثْرَ بَيانِ ابتلاءِ المؤمنينَ بأذيَّةِ الكفَّارِ؛ تأكيدًا للإنكارِ على الَّذين يَحسَبون أنْ يُترَكوا بمُجرَّدِ الإيمانِ بلا ابتِلاءٍ، وحثًّا لهم على الصَّبرِ؛ فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث ابْتُلوا بما أصابَهم مِن جِهَةِ أُمَمِهم مِن فُنونِ المكارِهِ وصَبرُوا عليها، فَلأنْ يَصبِرَ هؤلاءِ أَولى وأحْرى(٢).

- وذِكْرُ هذه القصَّةِ تَسليةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِمَا كان يَلْقَى مِن أذَى الكفَّارِ، فذُكِرَ ما لَقِيَ أوَّلُ الرُّسلِ -وهو نوحٌ عليه السَّلامُ- مِن أذَى قومِه المُدَدَ المُتطاوِلةَ؛ تَسليةً لخاتمِ الرُّسلِ صلواتُ اللهِ عليه(٣). وسِيقَت هذه القصَّةُ واللَّاتي بعْدَها شواهِدَ على ما لَقِيَ الرُّسلُ والَّذين آمَنوا معهم مِن تكذيبِ المشركينَ، كما صرَّحَ به قولُه عَقِبَ القصَّتينِ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٨] على أحدِ الوجهَينِ في تَفسيرِها(٤).

- وفي قَولِه: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ جاء المُميِّزُ أوَّلًا بالسَّنةِ، وثانيًا بالعامِ؛ لأنَّ تكريرَ اللَّفظِ الواحدِ في الكلامِ الواحدِ حقيقٌ بالاجتنابِ في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

البلاغةِ، إلَّا إذا وقَعَ ذلك لأجْلِ غرَضٍ يَنْتَحِيه المُتكلِّمُ؛ مِن تَفخيمٍ، أو تَهويلٍ، أو تَنويهٍ، أو نحوِ ذلك[١]. وقِيل: أُوثِرَ تَمييزُ ﴿أَلْفَ﴾ بـ﴿سَنَةٍ﴾؛ لطلَبِ الخِفَّةِ بلفظِ (سَنَة)، ومُيِّزَ ﴿خَمْسِينَ﴾ بلفْظِ ﴿عَامًا﴾؛ لئلَّا يُكرِّرَ لفْظَ سَنةٍ[٢]. أو عُبِّرَ بلفْظِ ﴿سَنَةٍ﴾ ذمًّا لأيَّامِ الكُفْرِ، وقال: ﴿عَامًا﴾ إشارةً إلى أنَّ زمانَ حياتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعدَ إغراقِهم كان رغَدًا واسعًا حَسنًا بإيمانِ المؤمنينَ، وخِصْبِ الأرضِ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فقد طُوِيَ ذِكْرُ ما تَرتَّبَ عليه أخْذُهم بالطُّوفانِ، وهو استِمرارُ تكذيبِهم[٤].

- وقولُه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: «فأغرقَهم»؛ لأنَّ الأخْذَ يكونُ في مُقابَلةِ عملٍ؛ فهو جزاءٌ[٥].

- وقولُه: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: أخَذَهم وهم مُتلَبِّسون بالظُّلمِ -أي: الشِّركِ، وتكذيبِ الرَّسولِ- تلَبُّسًا ثابتًا لهم مُتقرِّرًا، وهذا تَعريضٌ للمشركينَ بأنَّهم سيأخُذُهم عذابٌ[٦].

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

- وفاءُ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عطْفٌ على ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، وهذا إيماءٌ إلى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

اللهَ مُنْجِي المؤمنينَ مِن العذابِ[١].

- وإنَّما قال: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الشَّاملَ لجَميعِ سكَّانِ الأرضِ؛ لأنَّ مَن لمْ يُشاهِدْ بَقايا سفينةِ نُوحٍ فإنَّه يُشاهِدُ السُّفنَ، فيَتذكَّرُ سَفينةَ نُوحٍ وكيف كان صُنْعُها بوَحْيٍ مِن اللهِ لإنْجاءِ نوحٍ ومَن شاء اللهُ نَجاتَه، ولأنَّ الَّذين مِن أهْلِ قَريتِها يُخبِرون عنها، وتُنقَلُ أخبارُهم، فتَصِيرُ مُتواتِرةً[٢].

- وأفرَدَ ﴿آيَةً﴾، وجاء بالفاصلةِ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ إنجاءَ السُّفنِ أمْرٌ مَعهودٌ؛ فالآيةُ إنجاؤُه تعالى أصحابَ السَّفينةِ وقْتَ الحاجةِ، ولأنَّها بَقِيَت أعوامًا حتَّى مرَّ عليها النَّاسُ ورَأَوها، فحصَلَ العِلْمُ بها لهم؛ فناسَبَ ذلك قولُه: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

الآيات (١٦-١٨)

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْثَانًا﴾: أي: أصنامًا، والوثَنُ: هو ما كان يُعبدُ مِن حجارةٍ أو جصٍّ، وقيل: الصَّنمُ: ما كان مصَوَّرًا، والوثنُ: ما كان مِن غيرِ صورةٍ، وقيل: الوثنُ كلُّ ما كان منحوتًا مِن خشبٍ أو حجرٍ، والصَّنمُ: ما كان مِن ذهبٍ أو فضَّةٍ أو نُحاسٍ، واشتِقاقُه مِن قولِهم: وَثَنَ الشَّيءُ، إذا قام في مكانِه وثبَت، فسُمِّي الصَّنمُ وثنًا؛ لأنَّه يُنصَبُ ويُركزُ في مكانٍ، فلا يَبرَحُ عنه[١].

﴿إِفْكًا﴾: أي: كَذِبًا، وقيل: الإفكُ هو أسْوَأُ الكذِبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطلِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرْفِه عن جِهتِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ابتلاءَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بقومِه: واذكُرْ إبراهيمَ إذ قال لقَومِه: اعبُدوا اللهَ واتَّقوه؛ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتُم تعلَمونَ، إنَّما تَعبُدونَ مِن دونِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٧٩) و(١٧/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

اللهِ أوثانًا، وتَصنعونَ بأيديكم تلك الأوثانَ فتُسَمُّونَها آلهةً كَذِبًا! إنَّ أوثانَكم الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ لا تَملِكُ لكم رِزقًا؛ فاطلُبوا الرِّزقَ مِن اللهِ وَحْدَه، واعبُدوه واشكُروه على رِزقِه، إليه وحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ.

وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّبَتْ جماعاتٌ مِن قَبْلِكم، فأهلَكَهم اللهُ، وما على الرَّسولِ إلَّا أن يُبَلِّغَ قَومَه بلاغًا واضِحًا، وليس عليه هِدايتُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان بلاءُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عظيمًا في قَذفِه في النَّارِ، وإخراجِه مِن بلادِه؛ أتْبَعَ نوحًا به، فقال[1]:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾.

أي: واذكُرْ[2] إبراهيمَ إذ قال لِقَومِه: اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، واتَّقوا سَخَطَه وعذابَه بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٦).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المعنى: واذكرْ إبراهيمَ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٦).

ويجوزُ أن يكونَ (إبْراهِيمَ) معطوفًا على (نوح)، أي: وأرسَلْنا إبراهيمَ. ويجوزُ أن يكونَ معطوفًا على الضَّميرِ في ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ [العنكبوت: ١٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: عبادةُ اللهِ وَحْدَه وتَقْواهُ خيرٌ لكم في دُنياكم وأُخْراكم مِن تَركِ ذلك، إن كنتُم تَعلَمونَ؛ فلا يَعقِلُ خيريَّةَ عِبادةِ اللهِ وَحْدَه وتَقْواهُ إلَّا ذو عِلمٍ[1].

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَهم بعبادةِ اللهِ وتَقْواه؛ نهاهم عن عِبادةِ الأصنامِ، وبيَّن لهم نَقْصَها، وعَدَمَ استِحقاقِها للعبوديَّة، فقال[2]:

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ أوثانًا لا تَستَحِقُّ شَيئًا من رُتبةِ الألوهيَّة[3].

﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾.

أي: وتَصنَعونَ بأيديكم تلك الأوثانَ، وتُسَمُّونَها آلهةً، وتَختَلِقون الكذِبَ بالأمرِ بعِبادتِها[4]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٧-٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٤، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾.

أي: إنَّ أوثانَكم الَّتي تَعبُدونَها ناقِصةٌ وعاجِزةٌ، لا تَستطيعُ أن تَرزُقَكم أيَّ شَيءٍ مِن الرِّزقِ ولو قليلًا[1].

﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾.

= ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ أي: تَقولون كذِبًا: ابنُ أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٧).

وذلك على أنَّ معنى تَخْلُقونَ: تَكذِبون، فهو مِنِ اختلاقِ الكذِبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٧).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: تَعمَلون الأصنامَ بأيديكم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣).

قال ابن جُزَي: (﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ هو مِنَ الخِلقةِ، يُريدُ به نحتَ الأصنامِ، فسَمَّاهُ خِلْقةً على وجهِ التَّجَوُّزِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣).

وقال السعدي: (قال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ تَنحتونها وتَخلُقونها بأيديكم، وتَخلُقون لها أسماءَ الآلهةِ، وتَختلِقون الكذِبَ بالأمرِ بعبادتِها، والتَّمسُّكِ بذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

وقال الزمخشريُّ: (واختلاقُهم الإفكَ: تَسميتُهمُ الأوثانَ آلهةً وشُركاءَ لله أو شُفعاءَ إليه. أو سمَّى الأصنامَ: إفْكًا، وعمَلَهم لها ونَحْتَهم: خَلْقًا للإفكِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

أي: فاطلُبوا الرِّزقَ كُلَّه مِنَ اللهِ وَحْدَه، ولا تَطلُبوه ممَّن سِواه مِن الأوثانِ وسائرِ الخَلقِ(١).

﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾.

أي: واعبُدوا اللهَ وَحْدَه وتذَلَّلوا له، واشكُروه على رِزقِه وسائرِ نِعَمِه(٢).

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

أي: إلى الله وَحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ، فيُحاسِبُكم ويُجازيكم على أعمالِكم(٣).

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فرَغَ مِن بيانِ التوحيدِ؛ أتى بَعْدَه بالتَّهديدِ، فقال(٤):

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾.

أي: وإن تُكذِّبوا بالحَقِّ فقد كذَّبَتْ به جماعاتٌ مِن قَبْلِكم، فأهلَكَهم اللهُ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢، ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٣).

قيل: هذا مِن كلامِ إبراهيمَ لِقَومِه. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤). =

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: وما على رَسولِ اللهِ إلَّا أن يُبَلِّغَ قَومَه ما أمَرَه اللهُ بتبليغِه لهم بلاغًا واضِحًا مُوضِّحًا للحَقِّ، وليس عليه هِدايتُهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يَنبوعُ الخَيرِ وأصلُه: إخلاصُ العَبدِ لِرَبِّه عِبادةً واستِعانةً، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي قَولِه تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وفي قَولِه تعالى هنا: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، بحيث يَقطَعُ العبدُ تعلُّقَ قَلبِه مِن المخلوقينَ انتِفاعًا بهم أو عملًا لأجْلِهم، ويَجعَلُ هِمَّتَه رَبَّه تعالى، وذلك بمُلازَمةِ الدُّعاءِ له في كُلِّ مَطلوبٍ؛ مِن فاقةٍ وحاجةٍ ومَخافةٍ وغيرِ ذلك، والعَمَلِ له بكلِّ محبوبٍ، ومَن أحْكَمَ هذا فلا يمكِنُ أن يُوصَفَ ما يُعقِبُه ذلك[٢].

= وقيل: هذا من كلامِ الله تعالى خِطابًا لكُفَّار قُرَيش. أي: وإن تُكَذِّبوا رسولَنا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ منَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٤٥).

وقيل: هذا من كلامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم لكُفَّارِ قُرَيش. يعني: قُلْ لهم يا محمَّدُ: وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّب أمَمٌ مِن قَبْلِكم. وممَّن قال بذلك: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤).

قال ابن عاشور: (إن كان مِن كلامِ إبراهيمَ فالمرادُ بالرَّسولِ إبراهيمُ... وإن كان مِن خِطابِ الله مُشركي قُرَيشٍ فالمرادُ بالرَّسولِ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٥٩، ٦٦٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: عِبادةً يَقبَلُها تعالى، وهي ما كان خالِصًا عن الشِّركِ؛ فإنَّ مَن يكونُ كذلك يَستَحِقُّ ذلك، ويُثيبُ العابِدَ له، ويُعاقِبُ الزَّاهِدَ فيه، فلا يَشغَلْكم ابتِغاءُ الرِّزقِ بالأسبابِ الظَّاهِرةِ عن عبادتِه؛ فإنَّها هي الأسبابُ الحقيقيَّةُ، فرُبَّما حُرِمَ العبدُ الرِّزقَ بالذَّنْبِ يُصيبُه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ فأخبَرَ أنَّهم يَخلُقونَ إفْكًا قبْلَ النَّهي؛ ففيه بيانُ قُبْحِ أعمالِ الكُفَّارِ قبْلَ النَّهي، وقبلَ إنكارِ الرُّسُلِ عليهم -خلافًا لِمَن لا يُثبِتُ حَسَنًا ولا قبيحًا إلَّا بالأمرِ وَالنَّهي- فما فعَلُوه قبْلَ مجيءِ الرُّسلِ كان سَيِّئًا وقبيحًا وشرًّا؛ لكنْ لا تَقومُ عليهم الحُجَّةُ إلَّا بالرَّسولِ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ فيه إشارةٌ إلى تفرُّقِ الهَمِّ بكَثرةِ المعبودِ، والكَثرةُ يَلْزَمُها الفُرقةُ، ولا خيرَ في الفُرقةِ، ومادَّةُ «وثن» بجَميعِ تقاليبِها -واوِيَّةً ويائيَّةً ومَهموزةً- تَدورُ على الزِّيادةِ والكثرةِ، ويَلزَمُها الفُرقةُ مِن اختِلافِ الكَلِمةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ دَلالةٌ على صِحَّةِ إطلاقِ الخَلْقِ على فِعلِ المخلوقِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٨- ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (٧/ ٢٦٤).

أنَّه ينبغي الاستِدلالُ بالمحسوسِ على المعقولِ؛ فهنا دليلٌ محسوسٌ، ووجهُ الاستِدلالِ بالمحسوسِ على المعقولِ أنَّ المحسوسَ لا يُنكِرُه أحدٌ، لكنَّ المعقولَ قد لا يَتصَوَّرُه الإنسانُ فضلًا عن كَونِه يُقِرُّ به، فالاستدلالُ بالشَّيءِ المحسوسِ على المعقولِ مِن طُرُقِ المُناظَرةِ وإقامةِ الحُجَّةِ والإلزام[١]، وقد سلَك إبراهيمُ عليه السَّلامُ مَسلَكَ الاستِدلالِ بالنِّعَمِ الحِسِّيَّةِ؛ لأنَّ إثباتَها أقرَبُ إلى أذهانِ العُمومِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ دَلالةٌ على الأمرِ بمسألةِ الخالقِ، والنَّهيِ عن مسألةِ المَخلوقِ، فلَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «فابتغوا الرِّزقَ عندَ اللهِ»؛ لأنَّ تقديمَ الظَّرفِ يُشْعِرُ بالاختِصاصِ والحَصْرِ، كأنَّه قال: «لا تَبتغوا الرِّزقَ إلَّا عندَ اللهِ»[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أشار بصيغةِ الافتِعالِ إلى السَّعيِ فيه؛ لأنَّه أجرَى عادتَه سُبحانَه أنَّه في الغالِبِ لا يُؤتيه إلَّا بكَدٍّ مِنَ المرزوقِ وجُهدٍ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى عدَمِ المنفعةِ في الحالِ وفي المآلِ؛ وهذا لأنَّ النَّفعَ إمَّا في الوجودِ، وإمَّا في البقاءِ، لكنْ ليس منهم نفعٌ في الوجودِ؛ لأنَّ وُجودَهم منكم حيثُ تَخلُقونَها وتَنحِتونَها، ولا نفعَ في البقاءِ؛ لأنَّ ذلك بالرِّزقِ، وليس منهم ذلك، ثُمَّ بَيَّن أنَّ ذلك كلَّه حاصلٌ مِنَ اللهِ، فقال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾، فقَولُه: ﴿ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى استِحقاقِ عُبوديَّتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢، ٤١٣).

لِذَاتِه، وقولُه: ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ إشارةٌ إلى حصولِ النَّفعِ منه عاجِلًا وآجِلًا(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ مِن أسبابِ تَحصيلِ الرِّزقِ وبقائِه: العِبادةَ والشُّكرَ؛ فقَولُه: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ هذا سببٌ للرِّزقِ، وقولُه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هذا سَبَبٌ للبقاءِ(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ وُجوبُ شُكْرِ النِّعمةِ(٣).

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيه إثباتُ الجزاءِ على الأعمالِ؛ لأنَّ الفائدةَ مِن هذا الإخبارِ بأنَّهم سيُبْعَثُون ويُجازَون، ليس مُجَرَّدَ بَعْثٍ بدونِ جزاءٍ! بل لا بُدَّ فيه مِن جزاءٍ(٤).

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يدُلُّ على أنَّ تأخيرَ البيانِ عن وَقتِ الحاجةِ لا يجوزُ؛ لأنَّ الرَّسولَ إذا بلَّغ شَيئًا ولم يُبيِّنْه، فإنَّه لم يأتِ بالبلاغِ المُبينِ، فلا يكونُ آتيًا بما عليه(٥).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أنَّ الرُّسُلَ لا يجبُ عليهم هِدايةُ الخَلْقِ، فليس عليهم إلَّا البلاغُ، أمَّا الهدايةُ فإلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وكذلك الحسابُ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾(٦) [الرعد: ٤٠].

١٣- في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أنَّ القرآنَ مُتضَمِّنٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٣).

لجميع الأحكام العقديَّةِ والعمليَّةِ، وأنَّه أتَى بذلك على أكمَلِ وجهٍ وأبْيَنِه؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ فعليه البلاغُ لِكُلِّ ما أُرسِلَ به، والنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُرسِلَ بعقائدَ صحيحةٍ سليمةٍ، وبأعمالٍ قَويمةٍ، وبأقوالٍ مستقيمةٍ، وعلى هذا نَستدِلُّ بهذه الآيةِ على أنَّ جميعَ الشَّريعةِ بيِّنةٌ مُكَمَّلةٌ واضحةٌ، فنَرُدُّ بها على جميعِ أهلِ البِدعِ؛ لأنَّ أهلَ البدعِ يَستَلْزِمُ قولُهم ألَّا يكونَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بَلَّغَ البلاغَ المُبينَ!

فإن قال قائل: يوجَدُ وقائعُ الآنَ تقعُ ولا نرى لها ذِكْرًا في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ!

فالجوابُ: إنَّها مُبَيَّنةٌ بيانَ الجنسِ، فليس بلازِمٍ أنَّ يأتيَ القرآنُ بكُلِّ فردٍ، أو أنَّ السُّنَّةَ تأتي بكُلِّ فردٍ؛ لأنَّ أفرادَ القضايا لا حَصْرَ لها، ولو أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى ذَكَر في القرآنِ كلَّ قضيَّةٍ تأتي إلى يوم القيامةِ، فكم يكونُ القرآنُ من مجلَّدٍ؟! لَكِنَّا نقولُ: هذه الأفرادُ -أفرادُ هذه المسائلِ- موجودةٌ بأجناسِها وعِلَلِها وقَواعدِها؛ إمَّا أن تكونَ بالقياسِ، وإمَّا أنَّها مَسكوتٌ عنها، والسُّكوتُ في مَقامِ البيانِ بيانٌ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إيرادُ قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ليس إلَّا إرادةً للتَّنفيسِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنْ تكونَ مَسْلَاةً له، وسبيلَ تفريجٍ عليه بأنَّ أباهُ إبراهيمَ خَليلَ اللهِ كان قد مُنِيَ بنَحْوِ ما مُنِيَ به؛ من شِركِ قومِه، وعِبادتِهم الأوثانَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٤، ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بعِبادةِ اللهِ. وقد أُجْمِلَ الخبرُ في هذه الجُملةِ، وفُصِّلَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ الآيةَ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ بَيانٌ لبُطلانِ دِينِهم وشَرِّيَّتِه في نفْسِه، بعدَ بَيانِ شَرِّيَّتِه بالنِّسبةِ إلى الدِّينِ الحقِّ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦]. وقصْرُهم على عِبادةِ الأوثانِ يجوزُ أنْ يكونَ قصْرًا على عِبادتِهم الأوثانَ، أي: دونَ أنْ يَعبُدوا اللهَ، فهو قَصرٌ حقيقيٌّ؛ إذ كان قومُ إبراهيمَ لا يَعبُدون اللهَ؛ فالقصْرُ مُنصَبٌّ على قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: إنَّما تَعبُدون غيرَ اللهِ، وبذلك يكونُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حالًا مِن ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾، أي: حالَ كونِها مَعبودةً من دونِ اللهِ، وهذا مُقابِلُ قولِه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، دونَ أنْ يقولَ لهم: (لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ)، لكنَّ قومَ إبراهيمَ قد وُصِفُوا بالشِّرْكِ في قَولِه تعالى في سُورةِ (الأنعامِ): ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]؛ فهُم مِثْلُ مُشركي العربِ؛ فالقصرُ فيه مُنصَبٌّ على عِبادتِهم المَوصوفةِ بالوَثنيَّةِ، أي: ما تَعبُدون إلَّا صُوَرًا لا إدراكَ لها؛ فيكونُ قصْرَ قلْبٍ لإبطالِ اعتِقادِهم إلهيَّةَ تلك الصُّوَرِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٤، ٢٢٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ بيانٌ لشَرِّيَّةِ ما يَعبُدونَه مِن حيثُ إنَّه لا يَكادُ يُجْدِيهم نَفعًا[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ إنْ كان قومُ إبراهيمَ يَعترِفون للهِ تعالى بالإلهيَّةِ والخلْقِ والرِّزقِ، ولكنَّهم يَجعَلون له شُركاءَ في العِبادةِ لِيَكونوا لهم شُفعاءَ، كحالِ مُشرِكي العرَبِ؛ تكونُ الجُملةُ تَعليلًا لجُملةِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ [العنكبوت: ١٦]، أي: هو المُستحِقُّ للعِبادةِ التي هي شُكْرٌ على نِعَمِه. وإنْ كان قومُه لا يُثبِتون إلهيَّةً لغيرِ أصنامِهم، كانتْ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مُستأنَفةً ابتدائيَّةً؛ إبطالًا لاعتِقادِهم أنَّ آلهتَهم تَرزُقهم، ويُرجِّحُ هذا الاحتِمالَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ تَنكيرُ ﴿رِزۡقٗا﴾ في سِياقِ النَّفيِ يدُلُّ على عُمومِ نفْيِ قُدرةِ أصنامِهم على كلِّ رِزقٍ ولو قليلًا. وتَفريعُ الأمْرِ بابتِغاءِ الرِّزقِ مِن اللهِ إبطالٌ لِظَنِّهم الرِّزقَ مِن أصنامِهم، أو تَذكيرٌ بأنَّ الرَّازقَ هو اللهُ؛ فابتغاءُ الرِّزقِ منه يَقْتضي تَخصيصَه بالعِبادةِ كما دلَّ عليه عطْفُ ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾. ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ لامُ الجنسِ المفيدةُ للاستِغراقِ بمَعونةِ المقامِ، أي: فاطْلُبوا كلَّ رزقٍ قَلَّ أو كَثُرَ مِن اللهِ دونَ غيرِه. والمُعَرَّفُ بلامِ الجنسِ في قوَّةِ النَّكرةِ، فكأنَّه قِيل: فابْتَغوا عندَ اللهِ رِزقًا[3]. وخَصَّ الرِّزقَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٥، ٢٢٦).

لِمَكانتِه مِن الخَلْقِ، ونكَّره؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ منه[١].

- وأيضًا نكَّرَ الرِّزقَ في قَولِه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، ثمَّ عرَّفه في قَولِه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ لأنَّه أراد لا يَستطيعون أنْ يرزُقوكم شيئًا مِن الرِّزقِ، فابْتَغوا عندَ اللهِ الرِّزقَ كلَّه؛ فإنَّه هو الرَّزَّاقُ وحْدَه، لا يَرزقُ غيرُه؛ فنكَّر أوَّلًا للتَّعليلِ مُبالَغةً في النَّفيِ، ثمَّ عرَّفَ للاستِغراقِ؛ لِيَشْملَ كلَّ ما يُسمَّى رِزقًا[٢].

- وفي قَولِه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ عُدِّيَ الشُّكرُ باللَّامِ جرْيًا على أكثَرِ استعمالِه في كلامِ العربِ؛ لِقَصدِ إفادةِ ما في اللَّامِ مِن معنى الاختِصاصِ، أي: الاستِحقاقِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بعِبادتِه وشُكْرِه، أي: لأنَّه الَّذي يُجازي على ذلك ثَوابًا، وعلى ضِدِّه عِقابًا؛ إذ إلى اللهِ لا إلى غيرِه مَرجِعُكم بعدَ الموتِ. وفي هذا إدماجُ تَعليلِ العِبادةِ بإثباتِ البعثِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مِن بقيَّةِ مَقالةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ بأنْ يكونَ رأى منهم مَخايِلَ التَّكذيبِ، ففرَضَ وُقوعَه، أو يكونَ سبَقَ تَكذيبُهم إيَّاهُ مَقالتَه هذه؛ فيكونَ الغرَضُ مِن هذه الجُملةِ لازِمَ الخبَرِ، وهو أنَّ تَكذيبَهم إيَّاهُ ليس بعَجيبٍ، فلا يَضِيرُه، ولا يَحْسَبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّهم يَضِيرونه به ويَتَشَفَّون منه؛ فإنَّ ذلك قد انتابَ الرُّسلَ قبْلَه مِن أُمَمِهم. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً، والواوُ اعتراضيَّةً، واعترَضَ هذا الكلامُ بيْنَ كلامِ إبراهيمَ وجوابِ قومِه؛ فهو كلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى إلى المشركينَ، الْتفَتَ به مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ تَسجيلًا عليهم، والمقصودُ منه بَيانُ فائدةِ سَوقِ قصَّةِ نُوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ، وأنَّ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُسوةً برُسلِ الأُمَمِ الَّذين قبْلَه، وخاصَّةً إبراهيمَ جدَّ العربِ المقصودينَ بالخِطابِ على هذا الوجْهِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إعلامٌ للمُخاطَبينَ بأنَّ تكذيبَهم لا يَلحَقُه منه ما فيه تَشَفٍّ منه؛ فإنْ كان مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ فالمرادُ بالرَّسولِ إبراهيمُ، سلَكَ مَسلكَ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإيذانِ عُنوانِ الرَّسولِ بأنَّ واجِبَه إبلاغُ ما أُرسِلَ به بيِّنًا واضحًا، وإنْ كان مِن خِطابِ اللهِ مُشركي قُرَيشٍ فالمرادُ بالرَّسولِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد غلَبَ عليه هذا الوصْفُ في القُرآنِ، مع الإيذانِ بأنَّ عُنوانَ الرِّسالةِ لا يَقْتضي إلَّا التَّبليغَ الواضحَ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).

الآيات (١٩-٢٣)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُبْدِئُ﴾: أي: يُنشئُ ويَخترِعُ ويَستأنِفُ، وأصلُ (بدأ): مِن افتِتاحِ الشَّيءِ[(١)].

﴿تُقْلَبُونَ﴾: أي: تُرجَعونَ وتُرَدُّونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّه تعالى لا شيءَ يُعجِزُه، فيقولُ: أوَلَمْ يرَ أولئك المُشرِكونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتدِئُ اللهُ الخَلْقَ، ثمَّ يُعيدُه مِن بعدِ فنائِه؟ إنَّ ذلك على اللهِ تعالى أمرٌ سَهلٌ.

ويأمُرُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَلفِتَ أنظارَ قَومِه إلى النَّظرِ والتَّأمُّلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

قائلًا له: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: سيروا في الأرضِ، فانظُروا كيف بدَأ اللهُ الخَلْقَ مِن العَدَمِ، ثمَّ هو سُبحانَه يُنشِئُ الخَلقَ نَشأةً ثانيةً بعدَ فَنائِه، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ.

يُعذِّبُ سُبحانَه مَن يَشاءُ، ويَرحَمُ مَن يشاءُ، وإليه وَحْدَه تُرَدُّونَ يومَ القيامةِ، وما أنتم بمُفلِتينَ مِن عذابِ اللهِ، سواءٌ أكُنتُم في الأرضِ أم في السَّماءِ، وليس لكم مِن دونِ اللهِ وليٌّ ولا نصيرٌ.

ثمَّ يبيِّنُ مصيرَ الكافرينَ، فيقولُ: والَّذين كفَروا بآياتِ اللهِ وأنكَروا البَعثَ أولئك يَئِسوا مِن رحمتي، وأولئك لهم عذابٌ مؤلِمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأصلَ الأوَّلَ، وهو: التَّوحيدُ، وأشار إلى الأصلِ الثَّاني، وهو: الرِّسالةُ، بقَولِه: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ شرَع في بيانِ الأصلِ الثَّالثِ، وهو: الحَشرُ. وهذه الأصولُ الثَّلاثةُ لا يَكادُ يَنفَصِلُ بَعضُها عن بعضٍ في الذِّكرِ الإلهيِّ؛ فأينَما يَذكُرِ اللهُ تعالى منها اثنَينِ يَذكُرِ الثَّالثَ(١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ(٢) المُشرِكونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتَدِئُ اللهُ الخَلْقَ بعدَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الرُّؤيةُ يجوزُ أن تكونَ بَصَريَّةً، والاستدلالُ بما هو مُشاهَدٌ من تجدُّدِ المخلوقاتِ في كُلِّ حينٍ بالولادةِ وبُروزِ النَّباتِ دليلٌ واضِحٌ لكُلِّ ذي بصَرٍ... ويجوزُ أن تكونَ الرُّؤيةُ عِلميَّةً مُتعَدِّيةً إلى مفعولَينِ، أنكَر عليهم تركَهم النَّظرَ والاستدلالَ الموصِلَ إلى عِلمٍ =

العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه مِن بَعدِ فَنائِه وبَلائِه مرَّةً أُخرَى[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

= كيف يُبدئُ الله الخلْقَ ثم يُعيدُه؛ لأنَّ أدلَّةَ بَدءِ الخلقِ تُفضي بالنَّاظِرِ إلى العِلمِ بأنَّ الله يعيدُ الخلْقَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٨، ٢٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٨، ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤، ٤١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الخَلْقُ والبعثُ، أي: خَلْقُ الإنسانِ نُطْفةً ثمَّ عَلَقةً ثمَّ مُضْغةً حتَّى يَتكامَلَ خَلْقُه، ثُمَّ إعادتُه حيًّا في الآخرةِ عندَ البعثِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، ومكِّي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٠).

وقال القرطبي: (وقيل: المعنى: أوَلَمْ يَرَوْا كيف يُبْدِئُ اللهُ الثِّمارَ فتَحْيا، ثُمَّ تَفنى، ثمَّ يعيدُها أبدًا. وكذلك يَبدأُ خلْقَ الإنسانِ، ثُمَّ يُهْلِكُه بعدَ أنْ خَلَقَ منه وَلَدًا، وخَلَقَ مِنَ الولدِ وَلَدًا. وكذلك سائِرُ الحيوانِ. أي: فإذا رأيْتُم قُدرَتَه على الإبداءِ والإيجادِ، فهو القادِرُ على الإعادةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (فالحيوانُ والنَّباتُ في مَبدأٍ ومَعَادٍ، وزمانُ العالَمِ في مبدأٍ ومَعَادٍ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾). ((التبيان في أيمان القرآن)) (١/ ١٧٩).

تنبيه: قال الرَّسْعَنيُّ: (قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ ليس بمَعطوفٍ على ﴿يُبْدِئُ﴾، وليست الرُّؤيةُ واقعةً عليه، وإنَّما هو إخبارٌ مُستأنَفٌ بالإعادةِ بعدَ الموتِ، ونحوُه قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]؛ فإنَّ النَّظَرَ وقعَ على الابتِداءِ، دونَ الإنشاءِ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير العثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٨).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ذلك[١] أمرٌ سَهلٌ على اللهِ تعالى، والَّذي قَدَر على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، وهو إذا أراد شَيئًا قال له: كُنْ؛ فيَكونُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٢].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ساق الدَّليلَ المشاهَدَ في الأنفُسِ؛ أرشَد إلى الاعتِبارِ بما في الآفاقِ مِنَ الآياتِ المُشاهَدةِ، فقال[٣]:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾.

---

(١) قيل: المشارُ إليه هنا: الإبداءُ والإعادةُ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٩).
وقيل: المرادُ بها: الإعادةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: تفسير ((مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٢٧).

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ بعدَ الموتِ: سافِروا في الأرضِ؛ لِتَنظُروا كيف بدأ اللهُ الخَلْقَ مِنَ العَدَمِ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾.

أي: ثمَّ اللهُ الَّذي بَدأ الخَلقَ مِنَ العَدَمِ، يُنْشِئُه نَشْأةً ثانيةً بعدَ فَنائِه(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُعجِزُه فِعلُ شَيءٍ، ومِن ذلك بَعْثُ خَلقِه كما كانوا قبْلَ مَوتِهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠).

قال السعدي: (﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ فإنَّكم ستَجِدون أُمَمًا مِنَ الآدميِّينَ والحيواناتِ لا تَزالُ تُوجَدُ شيئًا فشيئًا، وتَجِدون النَّباتَ والأشجارَ كيف تَحدُثُ وَقتًا بعدَ وقتٍ، وتَجِدونَ السَّحابَ والرِّياحَ ونحوَها مُستمِرَّةً في تَجدُّدِها، بل الخَلْقَ دائمًا في بَدءٍ وإعادةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّشْأةَ الآخِرةَ؛ ذكَرَ ما يَكونُ فيها، وهو: تعذيبُ أهلِ التَّكذيبِ عَدلًا وحِكمةً، وإثابةُ أهلِ الإنابةِ فَضْلًا ورَحمةً[١]، فقال:

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾.

أي: يُعذِّبُ اللهُ مَن يَشاءُ تَعذيبَه على ذُنوبِه بعَدلِه، ويَرحَمُ مَن يشاءُ رَحمتَه مِنَ المؤمِنينَ بفَضلِه[٢].

﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُرَدُّونَ يومَ القيامةِ فيَبعثُكم بعدَ مَوتِكم للحِسابِ والجَزاءِ[٣].

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا لم يُبقِ اللهُ تعالى للقُدرةِ على إعادتِهم مانِعًا يُدَّعَى إلَّا مُمانعَتَهم منها؛ أبطَلَها على تقديرِ ادِّعائِهم لها، فقال[٤]:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٨).

أي: وما أنتم[١] بمُفلِتينَ مِن عذابِ اللهِ، سواءُ أكنتُم في الأرضِ أمْ في السَّماءِ؛ فالله قادِرٌ على أن يُعَذِّبَكم أينما كُنتُم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا آيَسَهم اللهُ تعالى مِن الانفِلاتِ بأنفُسِهم في جميعِ الأمكِنةِ؛ أعْقَبَه بتأييسِهم مِن الانفِلاتِ مِنَ الوعيدِ بسَعْيِ غَيرِهم لهم؛ مِنَ أولياءَ يَتَوسَّطونَ في دَفعِ العَذابِ عنهم بنَحوِ السِّعايةِ أو الشَّفاعةِ، أو مِن نُصَراءَ يُدافِعونَ عنهم بالمُغالَبةِ والقُوَّةِ[٣].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾.

أي: وليس لكم مِن دونِ اللهِ وليٌّ يَتَولَّاكم، ولا نصيرٌ يَنصُرُكم، ويدفَعُ عَذابَ اللهِ عنكم[٤].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

(١) قال ابن عثيمين: (الخِطابُ إمَّا أن يكونَ للكافرين، وإمَّا أن يكونَ لعُمومِ النَّاسِ، وكَوْنُه لعُمومِ النَّاسِ أَوْلى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٦، ٩٧).

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ[1] وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ: أولئك يَئِسوا من رحمةِ اللهِ، ولن يُدخِلَهم جنَّتَه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا

---

(١) قيل: المرادُ بها هنا: القرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧).

وقيل: المرادُ: عُمومُ الدَّلائِلِ والحُجَجِ؛ فتَشملُ الآياتِ الكَونيَّةَ والشَّرعيَّةَ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٩-١٠٢).

قيل: المرادُ أنَّ يأسَهم يَقَعُ في الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

وقيل: المرادُ يأسُهم في الدُّنيا، فهم لا يَطمَعونَ في رحمةِ اللهِ في الآخرةِ؛ ولذلك لم يَعمَلوا ما يُقَرِّبُهم إلى اللهِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩، ٤٢٠).

لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: وأولئك الكُفَّارُ لهم عَذابٌ[١] مُؤلِمٌ مُوجِعٌ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّه إذا كان المرجِعُ إلى اللهِ فاحذَرْ مِن مُخالَفتِه؛ فإنَّ هذا يُشبِهُ التَّهديدَ والوعيدَ مِن المخالَفةِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لا ينبغي للمُؤمِنِ أن يَيأسَ مِن رَوحِ اللهِ، ولا مِن رحمتِه، ولا أنْ يأمَنَ عذابَه وعِقابَه؛ فصِفةُ المؤمِنِ أن يكونَ راجيًا لله خائِفًا[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ فيه سُؤالٌ: علَّقَ تعالى الرُّؤيةَ بالكيفيَّةِ، لا بالخَلقِ، وما قال: (أولَمْ يَرَوا أنَّ الله خلَقَ)، (أو بَدأ

---

(١) قيل: المرادُ به: عذابُ جهنَّمَ في الآخرةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: يحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤).
وقيل: المرادُ به العذابُ في الدُّنيا وفي الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).
قال السعدي: (وكأنَّ هذه الآياتِ مُعترِضاتٌ بيْنَ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِقَومِه، وردِّهم عليه. واللهُ أعلَمُ بذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٣٣).

الخَلْق)، والكيفيَّةُ غيرُ مَعلومةٍ؟

الجوابُ: أنَّ هذا القَدْرَ مِن الكيفيَّةِ مَعلومٌ، وهو أنَّه خلَقَه ولم يكُنْ شَيئًا مَذكورًا، وأنَّه خلقَه مِن نُطفةٍ هي مِن غذاءٍ هو مِن ماءٍ وتُرابٍ، وهذا القَدْرُ كافٍ في حُصولِ العِلمِ بإمكانِ الإعادةِ؛ فإنَّ الإعادةَ مِثلُه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ هذه الآيةُ مع الَّتي قبْلَها رُبَّما يَظهَرُ فيهما إشكالٌ؛ لأنَّ الأُولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ تقريرٌ لهم بأنَّهم يَرونَ كيف يُبدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه، وهنا يقولُ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ فيقتضي أنَّهم حتَّى الآنَ لم يَعلَموا كيف بدَأَ اللهُ الخَلقَ؟!

والجوابُ على ذلك: أنَّهم وإنْ كانوا يَرَوْنَ كيف بَدأَ اللهُ الخَلْقَ، لكنَّهم قد يُنكِرونَه؛ فأمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يأمُرَهم بالسَّيرِ في الأرضِ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ امشُوا في الأرضِ، وانظُروا مَثَلًا إلى الوُحوشِ، وانظُروا إلى الحَشَراتِ، وانظُروا إلى مخلوقاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى كيف تَنْشَأُ هذه الأشياءُ بدونِ أنْ نرى لها خالقًا سِوى اللهِ سُبحانه وتعالى، فهذا مِن بابِ إلزامِهم، ولا سيَّما إذا قُلْنا: إنَّ الرُّؤيةَ الأُولى عِلْميَّةٌ، فهي مِن بابِ إلزامِهم بما يُشاهِدونَه في الأرضِ بعدَ أنْ يَسيروا فيها(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ فأمَرَ بالسَّيرِ في الأرضِ؛ لأنَّ السَّيرَ يُدْني إلى الرَّائي مُشاهَداتٍ جَمَّةً مِن مُختلِفِ الأَرَضينَ بجِبالِها وأنهارِها ومَحْويَّاتِها، ويمُرُّ به على مَنازلِ الأُمَمِ حاضِرِها وبائدِها، فيَرى كثيرًا مِن أشياءَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨١).

وأحوالٍ لم يَعْتَدْ رُؤيةَ أمثالِها، فإذا شاهَدَ ذلك جالَ نظَرُ فِكْرِه في تكوينِها بعْدَ العدَمِ جَوَلانًا لم يكُنْ يَخطُرُ له ببالٍ حينَما كان يُشاهِدُ أمثالَ تلك المخلوقاتِ في دِيارِ قَومِه؛ لأنَّه لَمَّا نشَأَ فيها مِن زمَنِ الطُّفولةِ فما بعْدَه قبْلَ حُدوثِ التَّفكيرِ في عقْلِه، اعتادَ أنْ يَمُرَّ ببَصرِه عليها دونَ استِنتاجٍ مِن دَلائلِها، حتَّى إذا شاهَدَ أمْثالَها ممَّا كان غائبًا عن بصَرِه، جالتْ في نفْسِه فِكرةُ الاستِدلالِ؛ فالسَّيرُ في الأرضِ وسيلةٌ جامعةٌ لمُختلِفِ الدَّلائلِ؛ فلذلك كان الأمرُ به لهذا الغرَضِ مِن جَوامِعِ الحِكمةِ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ الاستِدلالُ بالمَبدَأِ على المَعادِ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّها مِن تمامِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ كالمجيءِ، والنُّزولِ، والاستواءِ على العَرشِ، والضَّحِكِ، والعَجَبِ، وما أشْبَهَ ذلك[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ سؤالٌ: كيف نُسَمِّيها نشأةً وهي إعادةٌ؟

الجوابُ: أنَّ هذه الإعادةَ تختلِفُ عن سابقتِها اختِلافًا كثيرًا، فهي بالنِّسبةِ إليها نَشْأةٌ؛ لأنَّ حياةَ الآخِرةِ ليست مِثلَ حياةِ الدُّنيا؛ فحَياةُ الآخرةِ حياةٌ أبَديَّةٌ، وحَياةُ الدُّنيا حياةُ فَناءٍ؛ ولذلك تَجِدُها ناقِصةً، يُخلَقُ الإنسانُ مِن ضَعْفٍ إلى قوَّةٍ إلى ضَعفٍ، أمَّا في الإعادةِ فإنَّه يُخلَقُ للأبدِ؛ فلذلك سُمِّيَتْ نَشأةً وإنْ كانت هي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إعادةً؛ لاختلافِ الحالَينِ[(١)].

وأيضًا فالتَّعبيرُ عن الإعادةِ الَّتي هي مَحَلُّ النِّزاعِ بالنَّشأةِ الآخِرةِ المُشعِرةِ بكَونِ البَدْءِ نَشأةً أُولى؛ للتَّنبيهِ على أنَّهما شأْنٌ واحدٌ مِن شُؤونِ اللهِ تعالى حَقيقةً واسمًا، مِن حيثُ إنَّ كلًّا منهما اختراعٌ وإخراجٌ مِن العدمِ إلى الوجودِ، ولا فرْقَ بيْنَهما إلَّا بالأوَّليَّةِ والآخِريَّةِ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أنَّه ينبغي للمُستَدِلِّ أنْ يَستَدِلَّ بالمُشاهَدِ على الغائبِ؛ لِيَقتَنِعَ الخَصمُ بذلك[(٣)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أنَّ الرَّحمةَ لا تُطلَبُ إلَّا مِن اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا في مقامِ التَّقسيمِ يدُلُّ على الاختِصاصِ، ﴿يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَيَرْحَمُ﴾، فلا تُطلَبُ الرَّحمةُ إلَّا مِنَ اللهِ، حتَّى الَّذين يَرحمون مِن الخَلْقِ ينبغي عندَما تَطلُبُ رحمتَهم أنْ تَجعلَ ذلك مُتعلِّقًا باللهِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لو شاء ألَّا يَرحَموك لم يَرحَموك[(٤)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ دَليلٌ على المعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ -أي: في مذهبِهم في الوعدِ والوعيدِ بوُجوبِ إثابةِ المُطيعِ وتعذيبِ العاصي-؛ لأنَّه ذَكَر بَدْءَ الخَلْقِ وإنشاءَهم عامَّةً، ولم يَذْكُرْهم بعَمَلٍ صالحٍ ولا طالحٍ، بل ذَكَر مَشيئتَه في رحمةِ بعضِهم وعذابِ بعضِهم -كما ترى- فهل يكونُ الكافرُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٢).

هذا إلَّا مُرَادًا بالعَذابِ، والمؤمنُ إلَّا مُرَادًا بالرَّحمةِ[١]؟! أي: على سبيلِ الحكمةِ والفضلِ، وليس على سبيلِ الإيجابِ كما تزعمُ المعتزِلةُ!

١٠- الرَّحمةُ صِفةٌ من صِفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى الذَّاتيَّةِ الفِعليَّةِ؛ فهي باعتبارِ أصلِ ثُبوتِها للهِ صِفةٌ ذاتيَّةٌ، وباعتبارِ تَجَدُّدِ مَن يَرحَمُه اللهُ صِفةٌ فِعليَّةٌ؛ ولهذا علَّقَها اللهُ سبحانه وتعالى بالمشيئةِ في قولِه تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي ﴾ وُجوبُ الإيمانِ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عاقَبَ الَّذين لا يؤمنون بذلك باليأسِ من رحمتِه[٣].

١٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي ﴾ في قَولِه: ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ إثباتُ رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ استدَلُّوا بذلك على إثباتِ الرُّؤيةِ، لأنَّ المُلاقاةَ إذا لم يكُنْ مانعٌ فلا بُدَّ حينَئذٍ من الرُّؤيةِ؛ ولا مانعَ يَمنَعُ[٤].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ عندَ ذِكرِ الرَّحمةِ أضافها إلى نفْسِه، فقال: ﴿رَّحۡمَتِي﴾، وعندَ العذابِ لم يُضِفْه؛ لِسَبْقِ رحمتِه، وإعلامًا لعِبادِه بعُمومِها لهم، ولُزومِها له[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٣).

قال ابنُ القيِّم: (وأجمَع أهلُ اللِّسانِ على أنَّ اللِّقاءَ متى نُسِب إلى الحَيِّ السَّليم من العمَى والمانعِ، اقتضَى المُعايَنةَ والرُّؤيةَ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أنَّ الكُفَّارَ لا يَدخُلونَ الجَنَّةَ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ مِن جِهتِه تعالَى؛ للإنكارِ على تكذيبِهم بالبعثِ مع وُضوحِ دَليلِه، وسُنوحِ سَبيلِه(٢). وعلى وجْهِ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ...﴾ [العنكبوت: ١٨] خارجًا عن مَقالةِ إبراهيمَ؛ يكونُ ضميرُ الغائبِ في ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الْتِفاتًا. والالتِفاتُ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لنُكتةِ إبعادِهم عن شرَفِ الحضورِ بعدَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم مُكَذِّبون(٣).

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ عن عدَمِ الرُّؤيةِ، نُزِّلوا مَنزلةَ مَن لم يَرَ؛ فأُنكِرَ عليهم(٤). والاستِفهامُ بـ(كيف) مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ ولَفْتِ النَّظرِ، لا في طلَبِ الإخبارِ(٥).

- وجِيءَ ﴿يُبۡدِئُ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ لإفادةِ تَجدُّدِ بَدْءِ الخلْقِ كلَّما وجَّهَ النَّاظرُ بصَرَه في المخلوقاتِ(٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ مُبيِّنةٌ لِما تَضمَّنَه الاستِفهامُ مِن إنكارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٨).

عدَمِ الرُّؤيةِ المُؤدِّيةِ إلى العِلْمِ بوُقوعِ الإعادةِ؛ إذ أحالُوها مع أنَّ إعادةَ الخلْقِ إنْ لم تكُنْ أيسَرَ مِن الإعادةِ في العُرْفِ، فلا أقَلَّ مِن كَونِها مُساويةً لها. ووجْهُ توكيدِ الجُملةِ بـ (إنَّ) ردُّ دَعْواهم أنَّه مُستحيلٌ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾ اعتِراضٌ انتِقاليٌّ مِن الإنكارِ عليهم ترْكَ الاستِدلالِ بما هو بمَرْأًى منهم، إلى إرشادِهم للاستِدلالِ بما هو بعيدٌ عنهم مِن أحوالِ إيجادِ المخلوقاتِ، وتعاقُبِ الأُمَمِ؛ فإنَّ تَعَوُّدَ النَّاسِ بما بيْنَ أيديهم يَصرِفُ عُقولَهم عن التَّأمُّلِ فيما وراءَ ذلك مِن دَلائلِ دقائقِها على ما تدُلُّ عليه؛ فلذلك أمَرَ اللهُ رسولَه أنْ يَدْعُوَهم إلى السَّيرِ في الأرضِ؛ لِيُشاهِدوا آثارَ خلْقِ اللهِ الأشياءَ مِن عدَمٍ، فيُوقِنوا أنَّ إعادتَها بعدَ زَوالِها ليس بأعجَبَ مِن ابتداءِ صُنْعِها(٢).

- وجِيءَ في جانِبِ بَدْءِ الخلْقِ بالفِعلِ الماضي ﴿بَدَأَ الْخَلْقَ﴾؛ لأنَّ السَّائرَ ليس له مِن قَرارٍ في طَريقِه؛ فنَدَرَ أنْ يَشهَدَ حُدوثَ بَدْءِ مخلوقاتٍ، ولكنَّه يَشهَدُ مخلوقاتٍ مَبدوءةً مِن قبْلُ، فيَفْطِنُ إلى أنَّ الَّذي أوجَدَها إنَّما أوجَدَها بعدَ أنْ لم تكُنْ، وأنَّه قادرٌ على إيجادِ أمثالِها، فهو بالأحْرى قادرٌ على إعادتِها بعدَ عدَمِها، والاستِدلالُ بالأفعالِ الَّتي مَضَتْ أمكَنُ؛ لأنَّ للشَّيءِ المُتقرِّرِ تحقُّقًا مَحسوسًا. وأيضًا جِيءَ في هذا الاستِدلالِ بفِعلِ النَّظرِ ﴿فَانْظُرُوا﴾؛ لأنَّ إدراكَ ما خلَقَه اللهُ حاصلٌ بطريقِ البصَرِ، وهو بفِعلِ النَّظرِ أَولَى وأشهَرُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٠).

لِيَنتقِلَ منه إلى إدراكِ أنَّه يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخِرةَ[١].

- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في الآيةِ الأُولى بلفْظِ الرُّؤيةِ، وفي الثَّانيةِ بلفْظِ النَّظرِ؛ وذلك لأنَّ العِلْمَ الحَدسيَّ (الحاصل مِن غيرِ طلبٍ) أتَمُّ مِن العِلْمِ الفِكْريِّ، والرُّؤيةَ أتَمُّ مِن النَّظرِ؛ لأنَّ النَّظرَ يُفْضي إلى الرُّؤيةِ، يُقال: نظرْتُ فرأيتُ، والمُفْضي إلى الشَّيءِ دونَ ذلك الشَّيءِ؛ فقال في الأوَّلِ: أمَا حصَلَتْ لكم الرُّؤيةُ، فانْظُروا في الأرضِ؛ لِتَحصُلَ لكم الرُّؤيةُ[٢].

- وفي الآيةِ الأُولى صرَّحَ باسْمِه تعالى في قولِه: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾، ثمَّ أضمَرَ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وهنا عكَسَ؛ حيثُ أضمَرَ في ﴿بَدَأَ﴾، ثمَّ أبْرَزَه في قولِه: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ﴾؛ حتَّى لا تَخْلُوَ الجُملتانِ مِن صَريحِ اسْمِه تعالى[٣]. والإفصاحُ باسْمِه مع إيقاعِه مُبتدأً في قولِه: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعدَ إضْماره في قولِه: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ -وكان القِياسُ أنْ يُقالَ: كيف بدَأَ اللهُ الخلْقَ، ثمَّ يُنشِئُ النَّشأةَ الآخرةَ-؛ لأنَّ الكلامَ معهم كان واقعًا في الإعادةِ، فلمَّا قرَّرَهم في الإبداءِ بأنَّه مِن اللهِ، احتجَّ عليهم بأنَّ الإعادةَ إنشاءٌ مِثلُ الإبداءِ، فإذا كان اللهُ الَّذي لا يُعجِزُه شَيءٌ هو الَّذي لم يُعجِزْه الإبداءُ، فهو الَّذي وجَبَ ألَّا تُعجِزَه الإعادةُ؛ فكأنَّه قال: ثمَّ ذاك الَّذي أنشَأَ النَّشْأةَ الأُولى هو الَّذي يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخِرةَ؛ فلِلدَّلالةِ والتَّنبيهِ على هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩).

المعنى أبرَزَ اسْمَه وأوقَعَهُ مُبتدأً(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ النَّشْأةُ بوزْنِ (فَعْلَة): المرَّةُ مِن النَّشْءِ، وهو الإيجادُ، عبَّرَ عنها بصِيغةِ المَرَّةِ؛ لأنَّها نَشْأةٌ دَفعيَّةٌ تُخالِفُ النَّشْءَ الأوَّلَ(٢).

- وفي وصْفِها بـ ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ إيماءٌ بأنَّها مُساويةٌ للنَّشْأةِ الأُولى؛ فلا شُبْهةَ لهم في إحالةِ وُقوعِها. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢]، فذلك على سَبيلِ المُشاكَلةِ التَّقديريَّةِ؛ لأنَّ قولَه قبْلَه: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] يَتضمَّنُ النَّشْأةَ الآخرةَ، فعبَّرَ عن مُقابلتِها بالنَّشأةِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه بطريقِ التَّحقيقِ؛ فإنَّ مَن عَلِمَ قُدرتَه تعالى على جَميعِ الأشياءِ الَّتي مِن جُملتِها الإعادةُ، لا يُتَصوَّرُ أنْ يَتردَّدَ في قُدرتِه عليها ولا في وُقوعِها بعدَما أخبَرَ به(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تَذييلٌ، أي: قديرٌ على البعثِ، وعلى كلِّ شَيءٍ إذا أرادهُ. وإظهارُ اسمِ الجلالةِ؛ لِتَكونَ جُملةُ التَّذييلِ مُستقِلَّةً بنفْسِها، فتَجْري مَجرى الأمثالِ(٥).

٣- قولُه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ ابتُدِئَ بذِكْرِ العِقابِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

لأنَّ الخِطابَ جارٍ مع مُنْكري البعثِ الَّذين حظُّهم فيه هو التَّعذيبُ[(١)].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تقديمُ المجرورِ على عامِلِه للاهتِمامِ والتَّأكيدِ؛ إذ ليس المَقامُ للحصْرِ؛ إذ ليس ثمَّةَ اعتقادٌ مَردودٌ. وفي هذا إعادةُ إثباتِ وُقوعِ البعثِ، وتعريضٌ بالوعيدِ[(٢)].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لم يَقُل: (لا تُعجِزون) بصيغةِ الفِعلِ؛ وذلك لأنَّ نَفْيَ الفِعلِ لا يدُلُّ على نفْيِ الصَّلاحيَّةِ؛ فإنَّ مَن قال: (إنَّ فُلانًا لا يَخيطُ) لا يدُلُّ على ما يدُلُّ عليه قَولُه: (إنَّه ليس بخيَّاطٍ)[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، واقتصَرَ في (الشُّورى) على ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) قولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وهذا من أشَدِّ الوعيدِ؛ إذ حاصِلُه أنَّه لا يَفوتُه سُبحانه أحدٌ، ولا مَهرَبَ منه تعالى إلَّا إليه؛ ناسَبَ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، كما قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]، إلى ما ورَدَ من هذا، وذلك تناسُبٌ بيِّنٌ، ولَمَّا لم يَرِدْ في سُورةِ الشُّورى مِن أوَّلِها إلى الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

مِثلُ هذا الوعيدِ الشَّديدِ، ولا كان فيها ما يَسْتدعي هذا التَّعميمَ والاستيفاءَ الوعيديَّ، ورَدَتِ الآيةُ مُناسِبةً لذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١]، ولم يكُنِ التَّعميمُ هنا لِيُناسِبَ؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه حذْفُ مَفعولِ (مُعجِزين)؛ للعِلْمِ به، أي: بمُعجِزين اللهَ[٣].

- وقدَّم الأرضَ على السَّماءِ، والوليَّ على النَّصيرِ؛ لأنَّ هَرَبَهم المُمكِنَ: في الأرضِ، فإنْ كان يقَعُ منهم هَرَبٌ يكونُ في الأرضِ، ثمَّ إنْ فَرَضْنا لهم قُدرةً غيرَ ذلك، فيكونُ لهم صعودٌ في السَّماءِ، وأمَّا الدَّفعُ فإنَّ العاقِلَ ما أمْكَنَه الدَّفعُ بأجمَلِ الطُّرُقِ فلا يرتقي إلى غيرِه، والشَّفاعةُ أجمَلُ، ولأنَّ ما مِن أحدٍ في الشَّاهِدِ إلَّا ويكونُ له شَفيعٌ يتكَلَّمُ في حَقِّه عندَ مَلِكٍ، ولا يكونُ كُلُّ أحدٍ له ناصرٌ يُعادي المَلِكَ لأجْلِه[٤].

- وعطْفُ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ احتِراسٌ وتأْييسٌ مِن الطَّمعِ في النَّجاةِ، وإنْ كانوا لا مَطمَعَ لهم في الالتِحاقِ بالسَّماءِ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٠٥-١٠٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيانٌ لِمَا في قولِه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]؛ وإنَّما عُطِفَ لِمَا فيه مِن زِيادةِ الإخبارِ بأنَّهم لا يَنالُهم اللهُ برَحمةٍ، وأنَّه يُصِيبُهم بعذابٍ أليمٍ[١].

- والتَّعبيرُ بالاسمِ الظَّاهِرِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دونَ ضَميرِ التَّكلُّمِ؛ للتَّنويهِ بشأْنِ الآياتِ حيثُ أُضِيفَت إلى الاسمِ الجليلِ؛ لِمَا في الاسمِ الجَليلِ مِن التَّذكيرِ بأنَّه حقيقٌ بألَّا يُكفَرَ بآياتِه[٢].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُفيدُ أنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه نالَهم مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن أوصافٍ[٣].

- وأخبَرَ عن يأْسِهم مِن رَحمةِ اللهِ بالفِعلِ الماضي ﴿يَئِسُواْ﴾؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه، والمعنى: أولئك سيَيْئَسُون مِن رحمةِ اللهِ لا مَحالةَ[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والعُدولُ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿رَّحْمَتِي﴾ الْتِفاتٌ، عاد به أُسلوبُ الكلامِ إلى مُقْتَضى الظَّاهِرِ[٥].

- وإعادةُ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لتأْكيدِ التَّنبيهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

على استحقاقِهم ذلك(١). وأيضًا في تَكريرِ اسمِ الإشارةِ، وتَكريرِ الإسنادِ، وتَنكيرِ العذابِ، ووَصْفِه بالأليمِ: مِن الدَّلالةِ على كَمالِ فَظاعةِ حالِهم ما لا يَخْفَى(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦).

الآيات (٢٤-٢٧)

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يَقُصُّ اللهُ سبحانَه ما قاله قومُ إبراهيمَ له، وما ردَّ به عليهم، وما أنعَم به عليه، فيقولُ: فما كان جوابَ قَومِ إبراهيمَ حينَ دعاهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه إلَّا أن قالوا: اقتُلوا إبراهيمَ أو حرِّقوه بالنَّارِ، فأنجاه اللهُ مِنَ النَّارِ بقُدرته، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ للمُؤمنينَ على قُدرةِ اللهِ تعالى.

وقال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما اتَّخَذْتُم أَوْثانًا تَعبدونَها مِن دونِ اللهِ؛ لِمَحبَّتِكم ومَوَدَّتِكم الدُّنيويَّةِ، ففي يوم القيامةِ يَتبَرَّأُ كلٌّ منكم مِن الآخَرِ ويَلعَنُه، ويَنقَطِعُ ما كان بيْنَكم في الدُّنيا مِنَ المَوَدَّةِ، ومصيرُكم النَّارُ، وليس لكم أنصارٌ يَنصُرونكم مِن عذابِ اللهِ.

فصدَّق لُوطٌ إبراهيمَ فيما جاء به مِن الحَقِّ، وانقاد له. وقال إبراهيمُ: إنِّي مهاجرٌ إلى ربِّي، تاركًا أرضَ قَومي المشركينَ إلى أرضٍ أعبُدُ اللهَ فيها، إنَّ رَبِّي هو القَويُّ الغالِبُ الحَكيمُ.

ورزَقْنا إبراهيمَ بعدَ هجرتِه مِن أرضِ قَومِه ولدَه إسحاقَ، وولدَ ولدِه يعقوبَ،

وجعَلْنا الأنبياءَ مِن نسْلِ إبراهيمَ، وأنزَلْنا عليهم الكُتُبَ، وآتَيْنا إبراهيمَ جزاءَ عَمَلِه في الدُّنيا، وإنَّه في الدَّارِ الآخرةِ مِنَ الصَّالحينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ قَومَه بعبادةِ اللهِ، وبَيَّنَ سَفَهَهم في عبادةِ الأوثانِ، وظهَرَت حُجَّتُه عليهم؛ رجَعوا إلى الغَلَبةِ، فجعَلوا القائِمَ مَقامَ جَوابِه فيما أمَرَهم به قولَهم: ﴿ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾[1].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾.

أي: فما كان جوابَ قَومِ إبراهيمَ حينَ دعاهم إلى اللهِ وعبادتِه وَحْدَه إلَّا أنْ قالوا: اقتُلوا إبراهيمَ أو حرِّقوه بالنَّارِ؛ لِمُخالَفتِه دينكم[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

أي: فأَلْقَوا إبراهيمَ في النَّارِ، فسلَّمه اللهُ بقُدرتِه مِن أذاها[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في إنجائِنا لإبراهيمَ مِن النَّارِ بَعْدَما أُلقيَ فيها لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ على قُدرةِ اللهِ، وغيرِها، وذلك للمُؤمِنينَ باللهِ تعالى وبرُسُلِه[٢].

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وقال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما اتَّخَذْتُم أوثانًا تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ اتِّباعًا مِن بَعضِكم لِبَعضٍ، وحِفظًا لِمَحبَّتِكم ومَوَدَّتِكم الدُّنيويَّةِ، فتلك مَوَدَّةٌ كائِنةٌ في حياتِكم الدُّنيا فحَسْبُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

قال البقاعي: (﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالاجتِماعِ عندَها، والتَّواصُلِ في أمرِها بالتَّناصُرِ والتَّعاضُدِ، كما يتَّفِقُ ناسٌ على مذهَبٍ فيكونُ ذلك سبَبَ تَصادُقِهم). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٢٣). =

﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾.

أي: ثمَّ يومَ القيامةِ يَتبرَّأُ كلٌّ منكم مِن الآخَرِ، ويَجحَدُه ويلعَنُه، ويَنقطِعُ ما كان بيْنَكم في الدُّنيا مِنَ المَوَدَّة(١).

كما قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَصيرُكم النَّارُ جميعًا(٢).

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وليس لكم حينَ تَدخُلونَ النَّارَ أنصارٌ يُنقذونكم منها(٣).

كما قال تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ * وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ * مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٦].

= وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ مقالتُه هذه سابقةً على إلقائه في النَّار، وأن تكونَ بعدَ أن أنجاه اللهُ مِن النَّارِ، والأظهرُ مِن ترتيبِ الكلامِ أنَّها كانت بعدَ أن أنجاه اللهُ مِن النَّارِ، أراد به إعلانَ مُكابَرتِهم الحَقَّ، وإصرارِهم على عبادةِ الأوثانِ بعدَ وُضوحِ الحُجَّةِ عليهم بمعجزةِ سَلامتِه مِن حَرقِ النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾.

أي: فصدَّقَ لُوطٌ إبراهيمَ فيما جاء به مِن الحَقِّ، وانقادَ له[1].

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾.

أي: وقال إبراهيمُ[2]: إنِّي خارِجٌ ومُنتَقِلٌ مِن أرضِ قَومي المُشرِكينَ؛ لأعبُدَ اللهَ في أرضٍ غَيرِها[3].

كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٠-١٢٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ القائلَ هو إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والبقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ جُرَيْجٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤).

وقيل: يحتملُ عَودُ الضَّميرِ على لوطٍ عليه السَّلامُ، ويكونُ هو القائلَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

قال يحيى بنُ سلام: (هاجَر مِن أرضِ العراقِ إلى أرضِ الشَّام). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٦). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤).

أي: إنَّ رَبِّي هو القَويُّ الغالِبُ في أمرِه، الَّذي لا يَذِلُّ مَن نَصَره، بل يَمنَعُه ممَّن أرادَه بسوءٍ، الَّذي لا عِزَّةَ إلَّا به، وهو جديرٌ بإعزازِ مَن انقطَعَ وهاجَرَ إليه، الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه وشَرعِه وتَدبيرِ خَلْقِه، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[1].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

أي: ورَزَقْنا إبراهيمَ بعدَ هِجرتِه مِن أرضِ قَومِه وَلَدَه إسحاقَ، ووَلَدَ وَلَدِه يعقوبَ بنَ إسحاقَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٦-١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).
قال القرطبيُّ: (إنَّما وَهَب له إسحاقَ مِن بعدِ إسماعيلَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠).

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: وجعَلْنا الأنبياءَ مِن نَسْلِ إبراهيمَ، وعليهم تُنَزَّلُ الكُتُبُ الإلهيَّةُ؛ فلَمْ يَبعَثِ اللهُ نبيًّا بعدَ إبراهيمَ إلَّا مِن صُلبِه، ولا نَزَّلَ كتابًا إلَّا على ذُرِّيَّتِه(١).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وآتَيْنا إبراهيمَ جَزاءَ عَمَلِه في الدُّنيا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

وقال عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٨).
قال ابن عاشور: («الْكِتَابَ» مرادٌ به الجنسُ؛ فالتَّوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبورُ، والقرآنُ: كُتُبٌ نزلَتْ في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣١).
قال ابنُ كثير: (جمَع اللهُ له بيْنَ سعادةِ الدُّنيا المَوصولةِ بسعادةِ الآخرةِ؛ فكان له في الدُّنيا الرِّزقُ الواسِعُ الهنيُّ، والمنزِلُ الرَّحْبُ، والمَوردُ العَذبُ، والزَّوجةُ الحَسَنةُ الصَّالحةُ، والثَّناءُ الجميلُ، والذِّكرُ الحَسَنُ؛ فكُلُّ أحدٍ يُحِبُّه ويَتَولَّاه عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وإنَّه في الدَّارِ الآخرةِ في عِدادِ الصَّالحينَ، وله فيها جزاؤُه الَّذي لا يَنقُصُ شَيءٌ منه بما أُعطِيَ في الدُّنيا مِنَ الثَّوابِ العاجِلِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ما عَلَّقَ العبدُ رجاءَه وتوكُّلَه بغيرِ اللهِ إلَّا خاب مِن تلك الجهةِ، ولا استنصَرَ بغيرِه إلَّا خُذِلَ؛ قال تعالى عن إمامِ الحُنَفاءِ أنَّه قال للمُشرِكينَ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾[٢] [يس: ٧٤، ٧٥].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هذا شأنُ كلِّ مُشتركينَ في غَرَضٍ؛ يَتوادُّون ما داموا مُتساعِدينَ على حُصولِه، فإذا انقطعَ ذلك الغرضُ أعقَبَ ندامةً وحُزنًا وألَمًا، وانقلبَتْ تلك المَوَدَّةُ بُغضًا ولَعنةً وذمًّا مِن بَعضِهم لبَعضٍ لَمَّا انقلبَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).
قال ابن عثيمين: (المرادُ هنا أعلى أنواعِ الصَّالحينَ، وهم الأنبياءُ أو الرُّسلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٢). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٦١).

الغرضُ حُزنًا وعَذابًا، كما يُشاهَدُ في هذه الدَّارِ مِن أحوالِ المُشركينَ في خِزيِهم إذا أُخِذوا وعُوقِبوا؛ فكلُّ مُتساعِدَينِ على باطلٍ مُتوادَّينِ عليه: لا بُدَّ أن تَنقلِبَ مَوَدَّتُهما بُغضًا وعَداوةً(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يَدخُلُ فيه كُلُّ مَن وافَق أصحابَه مِن أهلِ المعاصي أو البَطالةِ على الرَّذائِلِ؛ لِيَعدُّوه حَسَنَ العِشرةِ، مُهَذَّبَ الأخلاقِ، لَطيفَ الذَّاتِ، أو خَوفًا مِن أن يَصِفوه بكثافةِ الطَّبعِ، وسُوءِ الصُّحبةِ، ولقد عَمَّ هذا -لَعَمْري- أهلَ الزَّمانِ؛ لِيُوصَفوا بمُوافاةِ الإخوانِ، ومُصافاةِ الخِلَّانِ، مُعرِضينَ عن رِضا المَلِكِ الدَّيَّانِ(٢)!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ لَمَّا كان في قولِه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ شائبةُ ثُبوتِ مَنفعةٍ لهم في عِبادةِ الأوثانِ؛ إذ يَكتسِبون بذلك مَوَدَّةً بيْنهم تَلَذُّ لنُفوسِهم- قَرَنَه بقولِه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾؛ تَنبيهًا لسُوءِ عاقبةِ هذه المَوَدَّةِ، وإزالةً للغُرورِ والغَفلةِ؛ لِيَعلَموا أنَّ اللَّذَّاتِ العاجلةَ لا عِبرةَ بها إنْ كانت تُعقِبُ نَدامةً آجِلةً(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

ٱلدُّنْيَا﴾ هذا دالٌّ على أنَّ جَمْعَ الفُسوقِ لأهلِ الدُّنيا هو العادةُ المستَمِرَّةُ، وأنَّ الحُبَّ في اللهِ والاجتِماعَ له عزيزٌ جدًّا؛ لِما فيه مِن قَطعِ علائِقِ الدُّنيا وشَهَواتِها الَّتي زُيِّنَت للنَّاسِ بما فيها مِن الإلباسِ، وعَظيمِ البأسِ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ﴾ فيه سؤالٌ: كيف سمَّى قَولَهم ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾ جَوابًا، مع أنَّه ليس بجوابٍ؟

الجوابُ مِن وَجهَين:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه خرَج منهم مخرجَ كلامِ المتكبِّرِ، كما يقولُ الملِكُ لرَسولِ خَصمِه: (جوابُكم السَّيفُ)، مع أنَّ السَّيفَ ليس بجوابٍ، وإنَّما معناه: لا أقابِلُه بالجوابِ، وإنَّما أقابِلُه بالسَّيفِ، فكذلك قالوا: لا تُجيبوا عن بَراهينِه، واقتُلوه أو حَرِّقوه.

الوجهُ الثاني: أنَّ الله أراد بيانَ ضَلالِهم، وهو أنَّهم ذَكَروا في مَعرِضِ الجوابِ هذا، مع أنَّه ليس بجوابٍ؛ فتبيَّنَ أنَّهم لم يكُنْ لهم جوابٌ أصلًا؛ وذلك لأنَّ مَن لا يُجيبُ غَيرَه ويَسكُتُ، لا يُعلَمُ أنَّه لا يَقدِرُ على الجوابِ؛ لجوازِ أن يكونَ سُكوتُه لِعَدَمِ الالتِفاتِ، أمَّا إذا أجاب بجوابٍ فاسدٍ عُلِمَ أنَّه قصَدَ الجوابَ وما قدَرَ عليه[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ حُجَّةٌ في جوازِ تَركِ الخَبرِ قبْلَ إتمامِه، والأخْذِ في غَيرِه ثُمَّ الرُّجوعِ إليه، ولا يكونُ ذلك عَيبًا على قائلِه، ولا حَطًّا من فصاحَتِه؛ ألَا ترى أنَّه جلَّ جلالُه ابتدأَ الخبرَ عن إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٤).

ﵟٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖﵞ [العنكبوت: ١٦]، ثُمَّ حالَ بيْنَ إتمامِه بقَولِه: ﵟأَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞﵞ [العنكبوت: ١٩]، وبقَولِه: ﵟقُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِﵞ [العنكبوت: ٢٠]، حتَّى رَجَعَ في تمامِ قِصَّةِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﵟفَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ ...ﵞ[1].

٤- قال الله تعالى: ﵟفَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُﵞ هكذا كلُّ إنسانٍ لا يستطيعُ رَدَّ الحقِّ، فإنَّه يُهَدِّدُ بالقُوَّةِ إذا كانت له قوَّةٌ على خَصْمِه[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﵟإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَﵞ أنَّ الآياتِ الكَونيَّةَ والشَّرعيَّةَ لا يَنتَفِعُ بها إلَّا المؤمِنُ، أمَّا غيرُ المؤمنِ فلا يَنتَفِعُ بآياتِ اللهِ؛ لأنَّها تَمُرُّ عليه وكأنَّها أمرٌ عاديٌّ أو بمُقتَضى الطَّبيعةِ، كالزَّلازلِ والبَراكينِ الَّتي تُصيبُ النَّاسَ فيقولُ عنها بَعضُهم: إنَّها ظواهِرُ طبيعيَّةٌ! وكأنَّها ليست عُقوبةً مِنَ اللهِ عزَّ وجَلَّ[3].

٦- قال الله تعالى: ﵟإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَﵞ هذا لا يُنافي ما جاء في عدَّةِ آياتٍ، كقولِه تعالى: ﵟإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَﵞ[النحل: ١٢]، وقولِه تعالى: ﵟإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَﵞ [الرعد: ٣] وما أشْبَهَ ذلك؛ لأنَّ العقلَ والتَّفَكُّرَ ونحوَهما مِن مُقتضَياتِ الإيمانِ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا كان أكثَرَ عقلًا وتَفَكُّرًا، والتَّفَكُّرُ أيضًا يدعو إلى الإيمانِ؛ فهُما مُتلازِمانِ[4].

٧- قَولُ الله تعالى: ﵟوَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓﵞ فيه سُؤالٌ: ما تَعلُّقُ قَولِه: ﵟوَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓﵞ بما تقدَّمَ؟

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٣).

الجوابُ: لَمَّا بالَغَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ في الإرشادِ، ولم يَهتَدِ قَومُه، وحَصَل اليأسُ الكُلِّيُّ حيثُ رأى القَومُ الآيَةَ الكُبرى ولم يُؤمِنوا؛ وَجَبَتِ المُهاجَرةُ؛ لأنَّ الهاديَ إذا هدى قَومَه ولم ينتَفِعوا فبَقاؤه فيهم مَفسَدةٌ؛ لأنَّه إنْ دام على الإرشادِ كان اشتِغالًا بما لا يُنتفَعُ به، مع عِلمِه، وإن سَكَت -والسُّكوتُ دَليلُ الرِّضا- فيُقالُ بأنَّه صار مِنَّا، ورَضِيَ بأفعالِنا! وإذا لم يَبقَ للإقامةِ وَجْهٌ وَجبت المُهاجَرةُ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أنَّ ابنَ الابنِ ابنٌ؛ لأنَّ يعقوبَ ابنُ ابنِ إبراهيمَ، وجَعَل اللهُ عزَّ وجلَّ إسحاقَ مَوهوبًا لإبراهيمَ، ويدُلُّ لذلك قولُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الحَسَنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ: ((إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ))(٢)، والعُلَماءُ أجمَعوا في بابِ الميراثِ أنَّ ابنَ الابنِ بمنزلةِ الابنِ عندَ فَقْدِه(٣)، وإذا كان ابنُ الابنِ ابنًا؛ لَزِمَ أنْ يكونَ أبو الأبِ أبًا(٤).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تَدُلُّ على أنَّ النُّبوَّةَ والكِتابَ في خُصوصِ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وقد ذُكِرَ في سورةِ (الحديد) ما يدُلُّ على اشتراكِ نوح معه في ذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

الجوابُ: أنَّ وجْهَ الاقتصارِ على إبراهيمَ: أنَّ جَميعَ الرُّسلِ بعْدَه مِن ذُرِّيَّته،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

(٣) قال ابنُ حزم: (وأجمَعوا على ابنِ الابنِ أنَّه يَرِثُ ميراثَ الابنِ إذا لم يكُنِ ابنٌ). ((المحلى بالآثار)) (٨/ ٣٢٨).

وقال ابنُ حَجَرٍ: (واتَّفَقوا على أنَّ ابنَ الابنِ بمَنزلةِ الابنِ في حَجبِ الزَّوجِ عن النِّصفِ، والمرأةِ عن الرُّبُعِ، والأمِّ عن الثُّلثِ؛ كالابنِ سواءً). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٢).

وذُكِرَ نوحٌ معه لأمْرَينِ؛ أحدُهما: أنَّ كُلَّ مَن كان مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فهو مِن ذُرِّيةِ نوحٍ. والثَّاني: أنَّ بعضَ الأنبياءِ مِن ذُرِّيَّةِ نوحٍ، ولم يكُنْ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ: كهُودٍ وصالحٍ ولُوطٍ، ويونُسَ -على خلافٍ فيه-، ولا ينافي ذلك الاقتِصارَ على إبراهيمَ؛ لأنَّ المرادَ مَن كان بعدَ إبراهيمَ، لا مَن كان قَبْلَه أو في عَصرِه، كلُوطٍ عليهما وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ[١]. وأيضًا فإنَّ الآيةَ جِيءَ بها لسِياقِ المدحِ والثَّناءِ على الخليلِ، وقد أخبَرَ أنَّ لوطًا اهتدَى على يديه، ومَن اهتدَى على يديه أكمَلُ ممَّن اهتدَى مِن ذُرِّيَّتِه بالنِّسبةِ إلى فضيلةِ الهادي[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ الإنسانَ قد يُعَجَّلُ له الجَزاءُ في الدُّنيا، وتَعجيلُ الجزاءِ للإنسانِ في الدُّنيا لا يُعَدُّ حِرمانًا له مِن أجرِ الآخِرةِ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ويَنْبَني على هذه الفائِدةِ أنَّ تَعجيلَ الثَّوابِ للإنسانِ في الدُّنيا هو مِن نِعمةِ اللهِ على العَبدِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَرى أثَرَ عَمَلِه فيَنشَطُ على العملِ، سَواءٌ كان هذا الأثرُ في الأشياءِ الخارجيَّةِ، أو كان في نَفْسِ الإنسانِ، أي: في باطِنِه[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّه يجوزُ الوَصفُ بالمعنى الأعَمِّ دونَ الأخَصِّ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ وَصْفَ الصَّلاحِ أعَمُّ مِن وَصْفِ النُّبوَّةِ، ويجوزُ أنْ يُوصَفَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأنبياءُ في لَيلةِ المِعراجِ كانوا يقولونَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَرحبًا بالأخِ الصَّالِحِ، والنَّبيِّ الصَّالحِ))[٤].

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٤). =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ كان ذلك قولَ بعضِهم، لكنْ لَمَّا قِيلَ فيهم، ورضِيَ به الباقونَ؛ أُسْنِدَ إلى كلِّهم(١).

- وجِيءَ بصيغةِ حَصْرِ الجوابِ في قولِهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لم يَتَرَدَّدوا في جَوابِه، وكانت كَلِمتُهم واحدةً في تكذيبِه وإتلافِه، وهذا مِن تصَلُّبِهم في كُفْرِهم(٢).

- وأيضًا في قولِه: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ جاء هنا التَّرديدُ بيْنَ قتْلِه وإحراقِه؛ فقد يكونُ ذلك مِن قائلينَ: ناسٌ أشاروا بالقتْلِ، وناسٌ أشاروا بالإحراقِ، وفي سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فاقتَصَروا على أحدِ الشَّيئينِ، وهو الَّذي فَعَلوه؛ رَمَوه في النَّارِ ولم يَقتُلوه(٣).

- قولُه: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، أي: فألقَوْهُ في النَّارِ، فأنجاهُ اللهُ تعالى منها(٤).

- قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ

= والحديث أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦).

حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ بالجمْعِ، وقال قَبْلُ في إنجاءِ نُوح وأصحابِ السَّفينةِ: (جَعَلْنَاهَا آيَةً) [العنكبوت: ١٥] بالمُفرَدِ؛ وذلك لأنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ شَيءٌ تتَّسِعُ له العقولُ؛ فلم يكُنْ فيه مِن الآيةِ إلَّا بسَبَبِ إعلامِ اللهِ إيَّاهُ بالاتِّخاذِ وقْتَ الحاجةِ؛ فإنَّه لولاهُ لَمَا اتَّخَذَه؛ لِعدَمِ حُصولِ عِلْمِه بما في الغَيبِ، وبسَبَبِ أنَّ اللهَ صانَ السَّفينةَ عن المُهلِكاتِ؛ كالرِّياحِ العاصفةِ، وأمَّا الإنجاءُ مِن النَّارِ فعَجيبٌ، فقال فيه: (آيات)[١]. وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه جمَعَ هنا لأنَّ الإنجاءَ مِن النَّارِ، وجَعْلَها برْدًا وسلامًا، وأنَّها في الحَبْلِ الَّذي كانوا أوْثَقوه به دونَ الجِسمِ: هو مَجموعُ آياتٍ؛ فناسَبَ ذلك الجَمْعُ، بخِلافِ الإنجاءِ مِن السَّفينةِ؛ فإنَّه آيةٌ واحدةٌ[٢]. وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّه جعَلَ الإنجاءَ آياتٍ، ولم يُجعَلْ آيةً واحدةً؛ لأنَّه آيةٌ لِكُلِّ مَن شَهِدَه مِن قَومِه، ولأنَّه يدُلُّ على قُدرةِ اللهِ، وكرامةِ رسولِه، وتَصديقِ وعْدِه، وإهانةِ عَدُوِّه، وأنَّ المخلوقاتِ كلَّها جليلَها وحَقيرَها مُسَخَّرةٌ لقُدْرةِ اللهِ تعالى[٣]. ومِن الآياتِ: إبطالُ كَيدِ هؤلاء. ومنها: صَبرُ إبراهيمَ وتحمُّلُه؛ لأنَّ حَقيقةَ الأمرِ أنَّ هذا شَيءٌ لا يَقوى عليه إلَّا أمثالُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فهو مِن أُولي العَزمِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. ومنها: انقلابُ هذه الحرارةِ إلى بُرودةٍ. ومنها: انقلابُ كَونِها سببًا للهَلاكِ إلى أن كانت سَلامًا عليه[٤].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ثمَّ قال بَعْدُ: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١١١).

﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، فجمَعَ الآياتِ الأُولى، ووحَّدَها في الثَّانيةِ؛ وذلك لأنَّ الأُولى إشارةٌ إلى إثباتِ النُّبوَّةِ، وفي النَّبيِّينَ -صلواتُ اللهِ عليهم- كَثرةٌ، والثَّانيَ إشارةٌ إلى التَّوحيدِ، وهو سُبحانه واحدٌ لا شريكَ له[١]. وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه جمَعَ هنا وأفرَدَ (آية) في الثَّانيةِ، مع أنَّ هذه الثَّانيةَ أعظَمُ؛ وذلك لأنَّ الإشارةَ في الآيةِ الأُولى بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ ليست لقِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وإنجائِه من النَّارِ فقط، بل الإشارةُ لمَجموعِ مُعتبَراتٍ؛ منها لُبْثُ نوحٍ عليه السَّلامُ في قومِه ألْفَ سَنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا يَدْعوهم إلى اللهِ ويُريهم الآياتِ، فما آمَنَ معه إلَّا قليلٌ، ومنها آيةُ أَخْذِهم بالطُّوفانِ، وتَعميمُ الغرَقِ لجَميعِ أهْلِ الأرضِ، ومنها إنجاءُ أهلِ السَّفينةِ، وجعْلُها آيةً للعالَمينَ، ومنها ما أُحيلوا عليه من الاعتبارِ بمَن قبْلَهم في قولِه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ومنها دعوةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وعظيمُ بيانِه، وما استجرَّ دُعاؤُه إيَّاهم من الآياتِ والبراهينِ على نُبوَّتِه، ومنها ما أُحيلوا عليه آخِرَ الآياتِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت: ١٩]، فلمَّا تقدَّمَ تفصيلُ الآياتِ، ورَدَ التَّنبيهُ بالإشارةِ إلى جَميعِها، فقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾. أمَّا قولُه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ فالإشارةُ إلى المصدرِ، وهو الخلْقُ المفهومُ مِن قولِه: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ فكلٌّ من الآيتينِ على ما يجِبُ[٢].

- ومن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قَبْلُ: ﴿آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]،

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٩٠).

وقال هاهنا: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ فخصَّ الآياتِ بالمؤمنينَ؛ وذلك لأنَّ السَّفينةَ بقِيَتْ أعوامًا حتَّى مرَّ عليها النَّاسُ ورَأَوْها، فحَصَلَ العِلْمُ بها لكلِّ أحدٍ، وأمَّا تبْريدُ النَّارِ فإنَّه لم يَبْقَ، فلمْ يَظهَرْ لِمَن بَعْدَه إلَّا بطريقِ الإيمانِ به والتَّصديقِ[1].

- وجِيءَ هنا بلفْظِ ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ إيمانَهم مُتمكِّنٌ منهم ومِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم. وفيه تَعريضٌ بأنَّ تلك الآياتِ لم يُصدِّقْ بها قومُ إبراهيمَ؛ لشِدَّةِ مُكابَرتِهم، وكَونِ الإيمانِ لا يُخالِطُ عُقولَهم[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ محَطُّ القصْرِ بـ (إنَّما) هو المفعولُ لأجْله ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾، أي: ما اتَّخذْتُم أوثانًا إلَّا لأجْلِ مَوَدَّةِ بعضِكم بعضًا. ووجْهُ الحَصْرِ أنَّه لم تَبْقَ لهم شُبهةٌ في عِبادةِ الأوثانِ بعدَ مُشاهَدةِ دَلالةِ صِدْقِ الرَّسولِ الَّذي جاء بإبطالِها؛ فتَمحَّضَ أنْ يكونَ سبَبُ بقائِهم على عِبادةِ الأوثانِ هو مَوَدَّةَ بعضِهم بعضًا الدَّاعيةَ لإبايةِ المُخالَفةِ[3].

- وهذا الخَبرُ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم ...﴾ مُستعمَلٌ في غيرِ إفادةِ الحُكْمِ، بلْ في التَّنبيهِ على الخطَأِ؛ بقَرينةِ قولِه عَقِبَه: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٦).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، على لفْظِ الجَمْعِ، وقال قبْلُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، على لفْظِ الواحِدِ، والحِكمةُ فيه: أنَّهم لَمَّا أرادوا إحراقَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، قالوا: نحنُ نَنصُرُ آلهتَنا، كما حَكَى اللهُ تعالى عنهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فقال: أنتم ادَّعَيْتُم أنَّ لهؤلاء ناصِرينَ، فما لكمْ ولهم -أي: للأوثانِ وعبَدتِها- مِن ناصرينَ. وأمَّا هناك فلَمْ يَسبِقْ منهم دَعوى النَّاصرينَ، فنَفى الجِنسَ بقولِه: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾[1]. وقيل: جمَعَ النَّاصرَ؛ لوُقوعِه في مُقابَلةِ الجمْعِ، أي: ما لأحدٍ منكُم مِن ناصرٍ أصلًا[2]. وقيل: إنَّه جِيءَ في نفْيِ (النَّاصِر) بصِيغةِ الجمْعِ هنا، خِلافًا لقولِه آنِفًا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]؛ لأنَّهم لَمَّا تألَّبوا على إبراهيمَ، وتجَمَّعوا لنُصرةِ أصنامِهم، كان جزاؤُهم حِرمانَهم مِنَ النُّصراءِ؛ مُطابَقةً بيْنَ الجزاءِ والحالةِ الَّتي جُوزوا عليها، على أنَّ المفردَ والجمْعَ في حَيِّزِ النفيِ سواءٌ في إفادةِ نفْيِ كلِّ فردٍ مِن الجنسِ[3].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قبْلُ: (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) [العنكبوت: ٢٢]، وما ذكَرَ الوليَّ هاهنا؛ وذلك أنَّه لَمَّا كان المرادُ بالوليِّ الشَّفيعَ، وهاهنا لَمَّا كان الخِطابُ دخَلَ فيه الأوثانُ، أي: ما لكمْ كلِّكم؛ لم يقُلْ: (شفيع)؛ لأنَّهم كانوا مُعترِفين أنَّ كلَّهم ليس لهم شافعٌ؛ لأنَّهم كانوا يَدَّعون أنَّ آلهتَهم شُفعاءُ، كما قال تعالى عنهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ [يونس: ١٨]، والشَّفيعُ لا يكونُ له شفيعٌ، فما نَفى عنهم الشَّفيعَ؛ لعَدمِ الحاجةِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

نفْيِه؛ لاعتِرافِهم به، وأمَّا هناك فكان الكلامُ معهم وهُم كانوا يدَّعون أنَّ لأنفُسِهم شُفعاءَ، فنفى[(١)].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قبْلُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، فذكَرَ على معنى الاستثناءِ؛ فيُفْهَمُ أنَّ لهم ناصرًا ووليًّا هو اللهُ، وليس لهم غيرُه وليٌّ وناصرٌ، وقال هاهنا: (مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) مِن غيرِ استِثناءٍ؛ لأنَّ قوله: (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) كان واردًا على أنَّهم في الدُّنيا، فقال لهم في الدُّنيا: لا تَظُنُّوا أنَّكم تُعجِزون اللهَ؛ فما لكم أحدٌ يَنصُرُكم، بل اللهُ تعالى يَنصُرُكم إنْ تُبْتُم، فهو ناصرٌ لكم، متى أردْتُم استَنْصَرْتُموهُ بالتَّوبةِ، أمَّا قولُه: (مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) فهذا يومَ القِيامةِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، وعدَمُ النَّاصرِ عامٌّ؛ لأنَّ التَّوبةَ في ذلك اليومِ لا تُقبَلُ، فسواءٌ تابوا أو لمْ يَتوبوا لا يَنصُرُهم اللهُ، ولا ناصرَ لهم غيرُه؛ فلا ناصرَ لهم مُطلقًا[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الإخبارِ عن إبراهيمَ اعتراضَ التَّفريعِ. وأفادتِ الفاءُ مُبادَرةَ لُوطٍ بتَصديقِ إبراهيمَ عليهما السَّلامُ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ المُفاعَلةُ للمُبالَغةِ، أو لأنَّ الَّذي يَهجُرُ قَومَه يكونونَ هم قد هَجَروه أيضًا[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٨).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ واقِعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لمَضمونِ ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ لأنَّ مَن كان عزيزًا يَعتَزُّ به جارُه ونَزيلُه. وإتْباعُ وصْفِ العزيزِ بـ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لإفادةِ أنَّ عِزَّتَه مُحْكَمةٌ، واقِعةٌ مَوقِعَها المحمودَ عندَ العقلاءِ؛ مِثلُ نصْرِ المظلومِ، ونصرِ الدَّاعي إلى الحقِّ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بمعنى الحاكِمِ، فيكونَ زِيادةَ تأكيدِ معنى العزيزِ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه ذِكْرُ إسحاقَ وعَقِبِه، وعدَمُ ذِكرِ إسماعيلَ عليهما السَّلامُ؛ لأنَّه قد دَلَّ على إسماعيلَ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، وكفى الدَّليلُ لشُهْرةِ أمْرِه، وعُلوِّ قدْرِه، ولا يَلتبِسُ على كلِّ ذي بَصيرةٍ أنَّ النُّبوَّةَ والكتابَ لم يَستقِرَّا في أحدٍ مِنَ الأنبياءِ استِقرارَه لِنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فكان في ذِكْرِه ذِكرُ جَدِّه إسماعيلَ صَلَواتُ الله عليهما[2]. وقيل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولدًا ونافلةً حينَ أيِسَ مِن الولادةِ مِن عجوزٍ عاقرٍ؛ ولذلك لم يَذكُرْ إسماعيلَ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ، وهي هنا إتيانُ الذُّكورِ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿نَادِيكُمُ﴾: أي: مَجلِسِكم، وأصلُ (ندي) هنا: يدُلُّ على تجمُّعٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ابتلاءَ لُوطٍ بقومِه وابتلاءَهم به: واذكُرْ -يا محمَّدُ- لوطًا حينَ قال لِقَومِه: إنَّكم لَتَفعَلونَ الفاحِشةَ الشَّنيعةَ ما سبَقَكم بها أحدٌ مِن العالَمينَ؛ أئِنَّكم لَتُجامِعونَ الرِّجالَ، وتَقطَعونَ الطَّريقَ على المسافِرينَ، وتأتونَ في مَجالِسِكم قَبيحَ الأقوالِ والأعمالِ! فما كان جوابَ قَومِ لوطٍ إلَّا أنْ قالوا له: ائْتِنا بعَذابِ اللهِ إنْ كُنتَ مِن الصَّادِقينَ، قال لوطٌ: رَبِّ انصُرْني على هؤلاءِ القَومِ المُفسِدينَ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٣٠٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الانتِقالُ مِن رِسالةِ إبراهيمَ إلى قَومِه، إلى رِسالةِ لوطٍ؛ لِمُناسَبةِ أنَّه شابَهَ إبراهيمَ في أن أنجاه اللهُ من عذابِ الرِّجزِ[١].

وأيضًا لَمَّا قصَّ اللهُ علينا قَصَصَ إبراهيمَ وما لاقاه مِن قومِه، ثمَّ نَصْرَه له نَصرًا مُؤَزَّرًا- أعقبَه بقَصَصِ لُوطٍ؛ إذ كان مُعاصِرًا له، وكان إبراهيمُ سَبَقَه إلى الدَّعوةِ إلى اللهِ[٢].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نَبيَّنا لُوطًا حينَ قال لِقَومه المُشرِكينَ: إنَّكم لَتَفعَلونَ ما تَجاوَزَ الحَدَّ في القُبحِ والشَّناعةِ، وذلك بإتيانِ الذُّكورِ في أدبارِهم[٣]!

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما سَبَقكم إلى فِعلِ هذه الفاحِشةِ أحَدٌ مِن الأُمَمِ قَبْلَكم، وإنَّما هو شَيءٌ ابتَدَعْتُموه أنتم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩)﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾.

أي: أئنَّكم لَتُجامِعونَ الرِّجالَ في أدبارِهم[(١)]؟!

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١].

﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾.

أي: وتَقطَعونَ الطَّريقَ على المارَّةِ والمُسافِرينَ[(٢)]؟!

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾.

أي: وتَفعَلونَ في مَجالِسِكم التي تجتَمِعونَ فيها ما قَبُحَ مِن الأقوالِ والأعمالِ[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشور: (قَطعُ السَّبيلِ: قَطعُ الطَّريقِ، أي: التَّصدِّي للمارِّينَ فيه بأخذِ أموالِهم، أو قَتلِ أنفُسِهم، أو إكراهِهم على الفاحِشةِ، وكان قومُ لوطٍ يَقعُدونَ بالطُّرقِ؛ ليأخُذوا مِن المارَّةِ مَن يَختارونَه؛ فقَطعُ السبيلِ فسادٌ في ذاتِه، وهو أفسَدُ في هذا المقصد). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

وقال الشوكاني: (الظَّاهِرُ أنَّهم كانوا يَفعَلونَ ما يكونُ سببًا لِقَطعِ الطريقِ، مِن غيرِ تقييدٍ بسبَبٍ خاصٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: فما كان جوابَ قَومِ لُوطٍ على دَعوتِه لهم، وإنكارِه عليهم إلَّا أنْ قالوا له: ائْتِنا بعذابِ اللهِ إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقينَ في زَعمِك أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ، وفيما تَتوعَّدُنا به مِنَ العذابِ على أعمالِنا[(١)]!

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ٣٠﴾.

أي: قال لوطٌ: رَبِّ انصُرْني بإهلاكِ هؤلاء القَومِ المُشرِكينَ العاصينَ بإتيانِ القبائِحِ، الَّذين يُفسِدونَ أنفُسَهم وغَيرَهم مِنَ النَّاسِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٧ - ١٦٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ الأمرُ بذِكْرِ هؤلاءِ الفُضَلاءِ مِن الأنبياءِ ليس لمجرَّدِ الثَّناءِ عليهم، وإعلاءِ رُتبَتِهم بيْنَ النَّاسِ، بل لهذا الغَرَضِ ولِغَرَضٍ آخَرَ، وهو الاقتداءُ بهم، واتِّباعُهم، والصَّبرُ كما صَبَروا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

قال ابن عطية: (أي: إنَّ ذلك لا يكونُ ولا تَقدِرُ عليه! وهم لم يَقولوا هذا إلَّا وهم مُصَمِّمون على اعتقادِ كَذِبِه، وليس يَصِحُّ في الفِطرةِ أن يكونَ مُعانِدٌ يقولُ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٥).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّه يَنبغي ذِكْرُ ما يُنَفِّرُ عن العَمَلِ السَّيِّءِ، ووجْهُ كونِه مُنفِّرًا أنَّهم ليس لهم قُدوةٌ حتَّى يُعذَرُوا بها، وكذلك آثامُ مَن بعْدَهم تكونُ عليهم[١]!

٣- قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا ينبغي للمُجتَمِعينَ أن يَتعاشَروا إلَّا على ما يُقَرِّبُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ولا ينبغي أن يجتَمِعوا على الهُزءِ واللَّعِبِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنَّ لوطًا حَذَّرَهم مِن عذابِ اللهِ؛ ففيه أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ أنْ يَدعوَ مُبَشِّرًا ومُنْذِرًا، ولا يقولَ: إذا أنذَرتُ نَفَّرْتُ؛ لأنَّ الإنذارَ قد يكونُ لا بُدَّ منه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذه القِصَّةُ كغَيرِها مِنَ القِصصِ تَرِدُ في القرآنِ الكريمِ على وُجوهٍ مُتنَوِّعةٍ، فكيف نجمَعُ بيْنَ هذه الوُجوهِ في قِصَّةٍ واحدةٍ؟

نقولُ في الجَمعِ: إن كان ممَّا يمكِنُ أن يَتكَرَّرَ فإنَّها تكونُ قد تكرَّرت على الوجهَينِ، وإن كان ممَّا لا يمكِنُ تكَرُّرُه فإنَّ اللهَ تعالى يحكيها بالمعنى هذا تارةً، وبالمعنى هذا تارةً.

مِثالُ ذلك: يقولُ اللهُ سُبحانَه وتعالى في هذه الآيةِ في قِصَّةِ لُوطٍ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي آيةٍ أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]؛ ففي هذه الآيةِ قال سُبحانَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٦).

وتعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، وفي الآيةِ الأولى قال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وهذا اختِلافٌ، والجَمعُ بيْنَهما هو تعدُّدُ القَولِ؛ فمَرَّةً قال لهم: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، ومرَّةً قال لهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وهذا لا إشكالَ فيه؛ فإذا أمكنَ التَّعَدُّدُ -سواءٌ مِن القائِلِ أو بالقَولِ- حُمِلَ عليه، فإذا لم يُمكِنِ التَّعدُّدُ يكونُ مِن بابِ نَقلِه بالمعنى، واللهُ سُبحانَه وتعالى يَتكلَّمُ به في كُلِّ موضِعٍ بما يُناسِبُه، وبما تقتضيه البلاغةُ[1].

٢- لم يأْتِ في قِصَّةِ لُوطٍ أنَّه دعَا قومَه إلى عِبادةِ اللهِ، كما جاء في قصَّةِ إبراهيمَ وقصَّةِ شُعَيبٍ؛ لأنَّ لُوطًا كان مِن قومِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وفي زَمانِه، وسبَقَه إبراهيمُ إلى الدُّعاءِ لعِبادةِ اللهِ وتَوحيدِه، واشتُهِرَ أمْرُه بذلك عندَ الخلْقِ؛ فذكَرَ لُوطٌ ما اختُصَّ به مِن المنْعِ مِن الفَحشاءِ وغيرِها، وأمَّا إبراهيمُ وشُعيبٌ فجاءَا بعدَ انقراضِ مَن كان يَعبُدُ اللهَ؛ فلذلك دَعوَا إلى عِبادةِ اللهِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّها كانت فاحِشةً عندَهم قبْلَ أن يَنهاهم، بخِلافِ قَولِ مَن يَقولُ: «ما كانت فاحِشةً ولا قَبيحةً ولا سيِّئةً حتَّى نهاهم عنها»! ولهذا قال لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، وهذا خِطابٌ لِمَن يَعرِفونَ قُبحَ ما يَفعَلونَ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ عَبَّرَ بالإتيانِ كنايةً عن الجِماعِ؛ لأنَّ القُرآنَ يُكَنِّي عمَّا يُستَقبَحُ ذِكرُه بما يدُلُّ عليه، وهذا كَثيرٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ، ومِثالٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣). ويُنظر ما تقدم في ((التفسير المحرر)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٠).

آخَرُ مِن القُرآنِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فكَنَّى عنِ الجِماعِ بالإتيانِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه تشديدٌ في الإنكارِ عليهم في أنَّهم الَّذين سَنُّوا هذه الفاحِشةَ السَّيِّئةَ للنَّاسِ، وكانت لا تخطُرُ لأحدٍ ببالٍ، وإنَّ كثيرًا مِن المفاسِدِ تكونُ النَّاسُ في غَفلةٍ عن ارتكابِها؛ لعَدَمِ الاعتيادِ بها، حتَّى إذا أقْدَمَ أحدٌ على فِعلِها وشُوهِدَ ذلك منه، تَنَبَّهَت الأذهانُ إليها، وتعَلَّقَت الشَّهَواتُ بها[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ عبَّروا باسمِ الجلالة (الله)؛ زيادةً في الجُرأةِ[٣]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ مُجَرَّدَ الإيمانِ باللهِ رَبًّا مُدَبِّرًا لا يُدخِلُ الإنسانَ في الإيمانِ؛ فإنَّ هؤلاءِ القَومَ كانوا مُقِرِّينَ باللهِ؛ لِقَولِهم: ﴿بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ فليس مُجَرَّدُ كَونِ الإنسانِ يُؤْمِنُ بأنَّ للخليقةِ رَبًّا مُدَبِّرًا يُدْخِلُه في الإيمانِ[٤].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ذَكَر حالَ المَدْعوِّ عليهم مِن بابِ التَّوسُّلِ؛ لأنَّ كلَّ وَصْفٍ يَستوجِبُ الإجابةَ فإنه يُعَدُّ وَسيلةً، فالتَّوسُّلُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنواعٌ، ومنها: التَّوسُّلُ بحالِ المدعوِّ عليهم[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٨).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أنَّ اللِّواطَ مِن الإفسادِ في الأرضِ[١]، وكذلك قَطْعُ السبيلِ، وإتيانُ المنكَرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- توكيدُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّام توكيدٌ لتَعلُّقِ النِّسبةِ بالمفعولِ لا تأكيدٌ للنِّسبةِ؛ فالمقصودُ تحقيقُ أنَّ الَّذي يَفعَلونه فاحشةٌ، أي: عمَلٌ قبيحٌ بالِغٌ الغايةَ في القُبْحِ؛ لأنَّ الفُحْشَ بُلوغُ الغايةِ في شَيءٍ قَبيحٍ؛ لأنَّهم كانوا غيرَ شاعِرينَ بشَناعةِ عمَلِهم وقُبْحِه، وهو إخبارٌ مُستعمَلٌ في التَّوبيخ[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه عَرَّفَ الفاحشةَ في اللِّواطِ، وذلك يفيدُ أنَّه جامِعٌ لمعاني اسمِ الفاحِشةِ، كما تقولُ: «زَيْدٌ الرَّجُلُ، ونِعْمَ الرَّجُلُ زَيدٌ»، أي: أتأتونَ الخَصلةَ الَّتي استقَرَّ فُحْشُها عندَ كلِّ أحدٍ؟! فهي لِظُهورِ فُحْشِها وكَمالِه غَنِيَّةٌ عن ذِكْرِها؛ بحيثُ لا يَنصرِفُ الاسمُ إلى غيرِها، ثُمَّ أَكَّدَ سبحانه بيانَ فُحْشِها بأنَّها لم يَعمَلْها أحدٌ مِنَ العالَمينَ قَبْلَهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]!

- قولُه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لفَحاشةِ تلك الفعلةِ، كأنَّ قائلًا قال: لِمَ كانت فاحشةً؟ فقِيلَ له:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

لأنَّ أحدًا قبْلَهم لم يُقدِمْ عليها اشمئزازًا منها في طِباعِهم؛ لإفراطِ قُبْحِها، حتَّى أقدَمَ عليها قومُ لوطٍ؛ لخبثِهم وقذَرِ طِباعِهم. وقيل: إنَّ جُملة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، كأنَّه قال: أتأتونَ الفاحشةَ مُبتدعينَ لها، غيرَ مَسبوقينَ بها[1]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

- جُملةُ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]، باعتبارِ ما عُطِفَ على جُملةِ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ مِن قولِه: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ...﴾؛ لأنَّ قطْعَ السَّبيلِ وإتيانَ المُنكَرِ في ناديهم ممَّا يَشتمِلُ عليه إتيانُ الفاحِشةِ. وأدخَلَ استِفهامَ الإنكارِ على جَميعِ التَّفصيلِ، وأُعِيدَ حَرْفُ التَّأكيدِ؛ لِتَتطابَقَ جُملةُ البَدلِ مع الجُملةِ المُبدَلِ منها؛ لأنَّ الجزءَ الأوَّلَ مِن هذه الجُملةِ المُبدَلةِ عندَ قَطْعِ النَّظرِ عمَّا عُطِفَ عليها تكونُ مِن الجُملةِ المُبدَلِ منها بمَنزلةِ البَدَلِ المُطابِقِ[2].

- واستَفهَمَ استِفهامَ إنكارٍ وتَوبيخٍ وتقريعٍ، وبيَّن ما تلك الفاحِشةُ المُبهمةُ في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، وإنْ كانت مُعَيَّنةً أنَّها إتيانُ الذُّكورِ في الأدبارِ بقولِه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ...﴾[3]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وقال في سُورة (النمل): ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]، والجمْعُ بيْنَهما: أنَّهم أوَّلًا قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ إنَّه لَمَّا كثُرَ منه الإنكارُ، وتكرَّر ذلك منه نَهيًا ووعْظًا ووَعِيدًا، قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾، وهي المرَّةُ الأخيرةُ مِن مرَّاتِ المُقاولاتِ الجاريةِ بيْنَهم وبيْنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- ومِن المُناسَبةِ كذلك: أنَّه لَمَّا كان إنَّما يأمُرُهم بترْكِ الفواحشِ وما كانوا يَصنَعونه مِن قَبيحِ المعاصي، ويَعِدُ على ذلك بالعذابِ، وكانوا يقولونَ: إنَّ اللهَ لم يُحرِّمْ هذا، ولا يُعذِّبُ عليه، وهو يقولُ: إنَّ اللهَ حرَّمَه ويُعذِّبُ عليه، قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ فكانوا ألطَفَ في الجوابِ مِن قومِ إبراهيمَ بقولِهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ لأنَّه كان يَذُمُّ آلهتَهم، وعَمَد إلى أصنامِهم فكسَرَها، فكان فِعلُه هذا معهم أعظَمَ مِن قولِ لوطٍ لقَومِه، فكان جوابُهم له أنْ قالوا: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[٢].

- والأمْرُ في ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ للتَّعجيزِ، وهو يَقْتضي أنَّه أنْذَرَهم العذابَ في أثناءِ دَعوتِه، ولم يَتقدَّمْ ذِكْرُ ذلك في قِصَّةِ لُوطٍ فيما مَضَى، لكنَّ الإنذارَ مِن شُؤونِ دَعوةِ الرُّسلِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

- وصَفَهم بقولِه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مُبالَغةً في استِنزالِ العَذابِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

عليهم، وإشعارًا بأنَّهم أحِقَّاءُ بأنْ يُعجَّلَ لهم العذابُ(١). وأيضًا وَصَفهم بـ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأنَّهم يُفسِدون أنفُسَهم بشَناعاتِ أعمالِهم، ويُفسِدون النَّاسَ بحَمْلِهم على الفَواحشِ وتَدريبِهم بها، وفي هذا الوَصفِ تَمهيدٌ للإجابةِ بالنَّصرِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسدينَ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

الآيات (٣١-٣٥)

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في عذابِ اللهِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُرادُ به الباقي والماضي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البقاءِ[١].

﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾: أي: ساءَه مُجيئُهم، والسُّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ[٢].

﴿ذَرۡعٗا﴾: أي: صدرًا أو طاقةً، وأصلُه: يدُلُّ على امتدادٍ، وتحرُّكٍ إلى قُدُمٍ[٣].

﴿رِجۡزٗا﴾: أي: عذابًا، وأصلُ المعنى: الاضْطِرابُ، والحركةُ العنيفةُ، والارتعاشُ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٣).

ويُطلَقُ على العذابِ؛ لإزعاجِه النَّاسَ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَمَّا جاءت رُسُلُنا مِن الملائكةِ إلى إبراهيمَ بالبِشارةِ بإسحاقَ ويعقوبَ، قالوا لإبراهيمَ: إنَّ اللهَ أرسَلَنا لِنُهلِكَ أهلَ قريةِ لُوطٍ؛ لأنَّهم كانوا ظالِمينَ. قال إبراهيمُ للمَلائكةِ: إنَّ في تلك القريةِ لُوطًا. قالت الملائكةُ: نحن أعلَمُ بمَن فيها، لَنُنَجِّيَنَّ لُوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه؛ فهي مِن الباقينَ في العذابِ.

ولَمَّا جاءت الملائكةُ إلى لوطٍ ساءَه مجيئُهم، واغتمَّ بقُدومِهم؛ خَوفًا عليهم مِن قَومِه، فقالت له الملائكةُ: لا تخَفْ ولا تحزَنْ، إنَّا سنُنَجِّيك وأهلَك مِن العذابِ إلَّا امرأتَك؛ فهي مِن الباقينَ مع قَومِها في العذابِ، إنَّا مُنزِلونَ على أهلِ هذه القريةِ حِجارةً من السَّماءِ؛ بسبَبِ فِسْقِهم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكْمتَه اقتضَتْ أن يجعَلَ آثارَهم باقيةً بعْدَهم، فيقولُ: ولقد أبقَيْنا مِن قريةِ قَومِ لُوطٍ عَلامةً ظاهِرةً لِقَومٍ يَعقِلونَ ويَتفكَّرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دعا لوطٌ على قَومِه بقَولِه: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾، استجابَ اللهُ دُعاءَه، وأمَرَ ملائكتَه بإهلاكِهم، وأرسَلَهم مُنذِرينَ ومُبَشِّرينَ بذُرِّيَّةٍ طَيِّبةٍ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٠).

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾.

أي: ولَمَّا جاءَتْ رُسلُنا مِنَ الملائِكةِ إلى إبراهيمَ بالبِشارةِ بإسحاقَ وَلَدًا له، وبيَعقوبَ وَلَدًا لإسحاقَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ۝٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّ اللهَ أرسَلَنا؛ لِنُهلِكَ أهلَ قَريةِ لُوطٍ[2].

﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

أي: لأنَّ أهلَها كانوا ظالِمينَ بالكُفرِ والمعاصي[3].

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٣٢﴾.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗا﴾.

أي: قال إبراهيمُ للمَلائكةِ: إنَّ في تلك القَريةِ لُوطًا، وليس مِنَ الظَّالِمينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

كقَومِه[(١)]!

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ: نحن أعلَمُ بمَن في تلك القَريةِ مِن المُؤمِنينَ والظَّالِمينَ[(٢)].

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

أي: لَنُنَجِّينَّ لوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه؛ فهي مِنَ الباقينَ في العَذابِ[(٣)].

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٨، ١٥٩).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ للغابِرينَ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، والنسفي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

قال الشنقيطيُّ: (﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: جمعُ الغابِر، والغابرُ اسمٌ مشتركٌ مِنَ الأضْدادِ؛ يُطلَقُ على الماضي وعلى الباقي، يُقالُ الغابرُ للماضي، والغابرُ للباقي. والمرادُ بها هنا: الباقين. ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: مِنَ الباقينَ في الهلاكِ. فعلى القولِ بأنَّه لم يَسْرِ بها فالكلامُ ظاهرٌ، وعلى القولِ بأنَّه أَسْرى بها: عندَما خرَج بها التفتَتْ فهلَكَتْ، فكأنَّها بَقِيَتْ معهم، فهي باقيةٌ معهم في الهلاكِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٦٦).

قال النحاسُ: (والأكْثَرُ في اللُّغةِ أن يكونَ الغابرُ الباقي). ((معاني القرآن)) (٣/ ٥١).

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

أي: ولَمَّا جاء رُسلُ اللهِ مِنَ الملائكةِ إلى لُوطٍ، ساءَه مجيئُهم إليه، واغتمَّ بقُدومِهم؛ لخَوفِه عليهم مِن قَومِه، وعَجزِه عن حِفظِهم منهم[1]!

﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾.

أي: وقالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: لا تخَفْ ولا تحزَنْ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

قيل: معنى ﴿لَا تَخَفْ﴾ أي: علينا أن يَصِلَ إلينا قَومُك ويَتمكَّنوا مِنَّا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعليمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

وقيل: معنى ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: ممَّا أخبَرْناك مِن أنَّا مُهلِكوهم، أو بإهلاكِنا إيَّاهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٦).

وقيل: المرادُ: ولا تَحزَنْ علينا بسببِ التَّفكُّرِ في أمْرِنا؛ فإنَّهم لا يَقدِرون علينا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الخازنُ، والنَّيسابوريُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

وقال الألوسي: (ولا تحزَنْ على قَصدِهم إيَّانا وعَدَمِ اكتراثِهم بك). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

أي: إنَّا سنُنَجِّيك -يا لُوطُ- وأهلَك مِنَ العذابِ النَّازِلِ بقَومِك إلَّا امرأتَك؛ فهي مِنَ الباقينَ معهم في العَذابِ[1].

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٣٤)﴾.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: إنَّا مُنزِلونَ على أهلِ هذه القَريةِ عَذابًا، وهو حِجارةٌ تَنزِلُ عليهم مِن السَّماءِ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

أي: وذلك العَذابُ واقِعٌ بهم؛ بسَبَبِ ما كانوا عليه مِنَ الكُفرِ، وفِعْلِ الفاحِشةِ والمُنكَرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

وكانت امرأةُ لوطٍ في الظاهرِ مسلمةً على دينِ زوجِها لوطٍ، وفي الباطنِ منافقةً على دينِ قومِها؛ ردءًا لهم على دينِهم، وعلى طريقتِهم في رضاها بأفعالِهم القبيحةِ، والمعاونةِ عليها، فكانت تدلُّهم على ضيفانِ لوطٍ، ليأتوا إليهم، لا أنَّها كانت تفعلُ الفواحشَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾.

أي: ولقد أبقَيْنا مِن قَريةِ قومِ لُوطٍ علامةً ظاهِرةً واضِحةً[١] لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ حُجَجَه، ويَتفكَّرونَ في مَواعِظِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ * وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أنَّ الاتِّصالَ بالصَّالحِ لا يَستلزِمُ أنْ يكونَ المتَّصِلُ صالحًا، وإنْ كان الاتِّصالُ بالصَّالحِ مِن أسبابِ الصَّلاحِ، لكنَّه ليس بلازمٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، فهلَكَتْ مع الهالكينَ، مع أنَّها امرأةُ رجُلٍ صالحٍ؛ نبيٍّ مِن الأنبياءِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ إزالةُ المؤذِي قبْلَ حُصولِ السَّارِّ؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، فبَدَؤوا بنَفْيِ الخَوفِ والحزنِ، ثُمَّ أعقَبوه

---

(١) قال القرطبي: (قال قتادةُ: هي الحِجارةُ الَّتي أُبقِيَت. وقاله أبو العاليةِ. وقيل: إنَّه يُرجَمُ بها قَومٌ مِن هذه الأمَّةِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: هي آثارُ مَنازِلِهم الخَرِبةِ. وقال مجاهدٌ: هو الماءُ الأسوَدُ على وجهِ الأرضِ. وكُلُّ ذلك باقٍ، فلا تَعارُضَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٧٦، ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٢).

بالبِشارةِ؛ ولهذا مِن الكَلِماتِ المشهورةِ عندَ أهلِ العلمِ يقولون: «التَّخليةُ قبْلَ التَّحليةِ»، يعني: جَرِّدِ الشَّيءَ ممَّا يَشوبُه مِن النَّقصِ، ثُمَّ بعدَ ذلك كَمِّلْه بالتَّحليةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، جعَلَهم اللهُ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، لكِنِ البِشارةُ أثَرُ الرَّحمةِ، والإنذارُ بالإهلاكِ أثَرُ الغَضَبِ، ورَحمتُه سبَقَتْ غضَبَه؛ فقدَّم البِشارةَ على الإنذارِ، وقال: ﴿جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾ إثباتُ أنَّ الملائكةَ أجسامٌ وليسوا أرواحًا أو عُقولًا -كما ادَّعاه بعضُهم- كيف نقولُ: إنَّهم أرواحٌ ومَعانٍ وعُقولٌ، وهم لهم أجنِحةٌ، ويأتون ويَذهَبون ويَتكَلَّمونَ؟! فجبريلُ عليه السَّلامُ رآه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وله سِتُّمئةِ جَناحٍ قد سَدَّ الأُفقَ[٣]! لكنَّ هذه الأجسامَ ليست كأجسامِ بني آدَمَ؛ فإنَّ فيها مِن الخِفَّةِ والقُوَّةِ ما ليس لبني آدمَ، واللهُ عزَّ وجلَّ قد يَجعلُهم على صورةٍ غيرِ الصُّورةِ الأصليَّةِ، مثلُ: مجيءِ جبريلَ بصورةِ دِحْيَةَ الكَلْبيِّ[٤]، وبصورةِ رجُلٍ شديدِ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدِ سوادِ الشَّعرِ[٥]... إلخ[٦].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ حينَ ذَكَروا البُشرى ما عَلَّلوا وقالوا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ما أخرجه البخاري (٤٨٥٦-٤٨٥٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر ما أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٥).

إنا نُبَشِّرُك؛ لأنَّك رسولٌ، أو لأنَّك مُؤمِنٌ، أو لأنَّك عادِلٌ، وحينَ ذكَروا الإهلاكَ عَلَّلوا وقالوا: إنَّ أهلَها كانوا ظالِمينَ؛ وذلك لأنَّ ذا الفَضلِ لا يكونُ فَضلُه بعِوَضٍ، والعادِلَ لا يكونُ عذابُه إلَّا على جُرمٍ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ أنَّ الفرحَ بالولدِ لا يُنافي كمالَ المرتبةِ؛ فإبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الكُمَّلِ مِن الرُّسُلِ، ومع ذلك استبشَرَ بالأولادِ، وفَرِحَ بهم، فلا يقالُ: الفَرَحُ بالأولادِ ينافي الكمالَ[(٢)]!

٥- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ مِن لُطْفِ اللهِ بإبراهيمَ أنْ قدَّمَ له البُشرى قبْلَ إعلامِه بإهلاكِ قومِ لُوطٍ؛ لعِلْمِه تعالى بحِلْمِ إبراهيمَ[(٣)].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾، لَمَّا كان المَقامُ للابتلاءِ والامتحانِ، أجمَلَ البُشْرَى، وفصَّل النُّذْرَى[(٤)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أنَّ الهلاكَ في الأصلِ إذا جاء يَشمَلُ الصَّالحَ وغيرَ الصَّالحِ؛ فلولا أنَّه يَشمَلُ الجَميعَ ما نبَّهَهُم على هذا، بل إنَّ اللهَ ذَكَر ما يدُلُّ على ذلك صريحًا؛ قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[(٥)] [المؤمنون: ٩٣، ٩٤]، وفي الحديثِ عن زينبَ بنتِ جحشٍ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالت: ((خرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وجْهُه، يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَيْلٌ للعرَبِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٦).

مِن شرٍّ قدِ اقترَبَ! فُتِح اليومَ مِن رَدمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثلُ هذِه، وحلَّقَ بإِصبَعِه الإبهامِ والَّتي تَليها. قالت: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟ قال: نعَمْ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ))[١].

٨- عن قَتادةَ رَضِيَ الله عنه في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ قال: (لا تلقَى المؤمِنَ إلَّا يرحَمُ المؤمِنَ، ويَحوطُه حيثُما كان)[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ إثباتُ القَولِ والعِلْم للمَلائكةِ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّهم ذَوو عُقولٍ، وذَوو نُطقٍ، خلافًا لِمَن قال: إنَّهم لا عُقولَ لهم! وهذا مِن أغرَبِ ما يكونُ؛ أن يكونَ هؤلاءِ الملائكةُ الَّذين يُسَبِّحون اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفتُرونَ، والَّذين وَصَفَهم الله تعالى بأنَّهم عِبادٌ مُكرَمونَ؛ أن يَكونوا لا عُقولَ لهم، فمَن له عقلٌ بعدَ ذلك[٣]؟!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ اعتبارُ القَسَمِ المُقَدَّرِ، بمعنى أنَّه لا يُشترَطُ في القَسَم أنْ تَنْطِقَ به، فلو قال قائلٌ: «لَأَفعَلَنَّ كذا» يكونُ مُقسِمًا؛ لأنَّ هذه الجملةَ تكونُ جوابًا لقَسَمٍ مُقدَّرٍ، ولو قال: «لَئِنْ آتانيَ اللهُ مِن فَضْلِه لَأَتَصَدَّقَنَّ» يكونُ نَذْرًا، قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦]، فجَعَلَ هذا نذرًا؛ لأنَّ النَّذْرَ ليس له صيغةٌ مُعَيَّنةٌ، بل كلُّ ما دلَّ على الالتزامِ فهو نَذْرٌ -بأيِّ صيغةٍ-، وقد يكونُ نذرًا مقرونًا بالقَسَم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٣/ ٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٣٠٥٦)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥٠/ ٣١٠)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٠).

فيُفيدُ التَّوكيدَ[(١)].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فيه سؤالٌ: القَومُ عُذِّبوا بسبَبِ ما صدَرَ منهم مِنَ الفاحِشةِ، وامرأتُه لم يَصدُرْ منها تلك، فكيف كانت مِنَ الغابِرينَ معهم؟

الجواب: أنَّ الدَّالَّ على الشَّرِّ له نصيبٌ، كفاعِلِ الشَّرِّ، كما أنَّ الدَّالَّ على الخيرِ كفاعِلِه، وهي كانت تدُلُّ القومَ على ضيوفِ لوطٍ، حتَّى كانوا يَقصِدونَهم؛ فبالدَّلالةِ صارت واحِدةً منهم[(٢)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أنَّ الزَّوجةَ داخِلةٌ في الأهلِ؛ لأنَّهم استَثْنَوا مِن ذلك امرأتَه، والأصلُ في الاستثناءِ الاتِّصالُ؛ لأنَّه لولا أنَّها مِن المُستثنَى ما احتِيجَ إلى إخراجِها، وينبني على هذه الفائدةِ أنَّ أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هم مِن أهلِ بيتِه ولا شكَّ، خلافًا للرَّافضةِ الَّذين يُخرِجونَ زَوجاتِه مِن أهلِ بَيتِه، وفي القرآنِ ما يَدُلُّ على ذلك صَريحًا؛ قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(٣)] [الأحزاب: ٣٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أنَّ الأنبياءَ كغيرِهم مِن البَشَرِ؛ تَلْحَقُهم المَساءةُ والأحزانُ والسُّرورُ؛ فالعوارِضُ البَشَريةُ لا تُنافي كمالَ الرِّسالاتِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم؛ أَنسَى كما تَنسَونَ))[(٤)]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وكذلك يَعتري الأنبياءَ البَردُ والحَرُّ، والجوعُ والعَطَشُ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ الاستِدلالُ على الأحوالِ بالملامِحِ؛ لأنَّهم رَأوْا مِن العلاماتِ الظَّاهرةِ على ملامحِه ما يدُلُّ على خَوفِه. وفيها أيضًا: العملُ بالقرائنِ، والعملُ بالقرائنِ ثابتٌ في القرآنِ، ودليلُه مِن قصَّةِ يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قَولِ اللهِ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]؛ فهذه قَرينةٌ[2].

١٥- قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ استِثناءُ امرأتِه مِن عُمومِ أهلِه استثناءٌ مِن التَّعليلِ لا مِنَ النَّهيِ؛ ففي ذلك مَعذِرةٌ له بما عسى أن يحصُلَ له مِن الحُزنِ على هلاكِ امرأتِه مع أنَّه كان يحسَبُها مُخلِصةً له[3].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى غَفلةِ المُخاطَبينَ بهذه القِصَّةِ مِنَ العَرَبِ وغَيرِهم، وأنَّه ليس بيْنَهم وبيْنَ الهُدى إلَّا تفكُّرُهم في أمْرِهم، مع الانخلاعِ مِن الهَوى، وإنَّما يكونُ ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: يَتدَبَّرونَ؛ فعَدَّ مَن لم يَستبصِرْ بذلك غيرَ عاقلٍ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٣٨).

هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾

- أُضيفَ الإهلاكُ والإنجاءُ إليهم، وإنَّما سُبحانَه هو المُهلِكُ والمُنَجِّي، ولكنْ لَمَّا كانوا هم الجائينَ به مِن عِندِه بهذا الإهلاكِ والإنجاءِ أُضيفَ إليهم[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ تَعليلٌ لِإهلاكِهم لهم بإصرارِهم وتَماديهم في ظُلْمِهم الَّذي هو الكفرُ وأنواعُ المعاصي[2]. وقُصِدَ به استِئْناسُ إبراهيمَ لقَبولِ هذا الخبرِ المُحزِنِ، وأيضًا لأنَّ العدْلَ يَقْتضي ألَّا يكونَ العِقابُ إلَّا على ذنْبٍ يَقْتضيه[3].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ بسُنَّةِ اللهِ مع رُسلِه مِن الإنجاءِ مِن العذابِ الَّذي يحُلُّ بأقوامِهم؛ فهو مِن التَّعريضِ للملائكةِ بتَخصيصِ لُوطٍ ممَّن شمِلَتْهم القريةُ في حُكْمِ الإهلاكِ، ولُوطٌ وإنْ لم يكُنْ مِن أهْلِ القريةِ بالأصالةِ فإنَّ كَوْنَه بيْنَهم يَقْتضي الخَشيةَ عليه مِن أنْ يَشمَلَه الإهلاكُ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ بحرْفِ الظَّرفيَّةِ (في)، ولم يقُلْ: إنَّ منها[4].

- قولُه: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾؛ فلذلك لم تُعطَفْ عليها وفُصِلَت[5].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ فِعْلُ (كانت) مُستعمَلٌ في

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٤).

معنى (تكونُ)، فعبَّرَ بصِيغةِ الماضي؛ تَشبيهًا للفِعلِ المُحقَّقِ وُقوعُه بالفِعلِ الَّذي مضَى، مِثْلُ قولِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]. ويجوزُ أنْ يكونَ مُرادًا به الكَوْنُ في عِلْمِ اللهِ وتقديرِه، كما في قولِه: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، فتكونَ صِيغةُ الماضي حقيقةً[١]. وقيل: (كان) هنا مَسلوبةُ الزَّمنِ، والمرادُ اتِّصافُ اسمِها بخبرِها، أي: اتَّصفَتْ بكَونِها مِن الغابِرينَ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ (أَنْ) صِلَةٌ أكَّدَتْ وُجودَ الفِعلَينِ ﴿جَآءَتْ﴾ و﴿سِيٓءَ﴾، مُترتِّبًا أحدُهما على الآخَرِ في وَقتينِ مُتجاوِرَينِ لا فاصِلَ بيْنَهما، كأنَّهما وُجِدَا في جُزءٍ واحدٍ مِن الزَّمانِ؛ كأنَّه قِيل: لَمَّا أحَسَّ بمَجِيئِهم فاجأَتْه المَساءةُ مِن غيرِ رَيثٍ؛ خِيفةً عليهم مِن قَومِه[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، وقال مِن قبْلُ في السُّورةِ نفْسِها: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [العنكبوت: ٣١]؛ وذلك لِحكمةٍ بالغةٍ، وهي أنَّ الواقعَ في وقْتِ المجيءِ هناك قولُ الملائكةِ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾، وهو لم يكُنْ مُتَّصِلًا بمَجيئِهم؛ لأنَّهم بشَّروا أوَّلًا ولَبِثوا، ثمَّ قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾، وأيضًا فالتَّأنِّي واللُّبْثُ بعدَ المَجيءِ، ثمَّ الإخبارُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٨، ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤).

بالإهلاكِ حَسَنٌ؛ فإنَّ مَن جاء ومعه خبرٌ هائلٌ يَحسُنُ منه ألَّا يُفاجِئَ به، والواقعُ هاهنا هو خَوفُ لُوطٍ عليهم، والمُؤمِنُ حينَما يَشعُرُ بمَضرَّةٍ تَصِلُ بريئًا مِن الجِنايةِ، يَنْبغي أنْ يَحزَنَ ويَخافَ عليه مِن غيرِ تأْخيرٍ، إذا عُلِمَ هذا فقولُه هاهنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾ يُفيدُ الاتِّصالَ، يعني: خاف حِينَ المَجيءِ[1].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّ قولَه: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾ وقَعَ في (هودٍ): ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ [هود: ٧٧] بغيرِ (أنْ)؛ وذلك لأنَّ (لَمَّا) يَقْتضي جوابًا، وإذا اتَّصلَ به (أنْ) دلَّ على أنَّ الجوابَ وقَعَ في الحالِ مِن غيرِ تَراخٍ، كما في هذه السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، وفي (هُودٍ) اتَّصلَ به كلامٌ بعدَ كلامٍ، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ٨١]، فلمَّا طال لم يَحسُنْ دُخولُ (أنْ)[2]. وقيل: لم تقَعْ (أنْ) المُؤكِّدةُ في آيةِ سُورةِ (هودٍ)؛ لأنَّ في تلك السُّورةِ تَفصيلًا لسَببِ إساءتِه، وضِيقِ ذَرْعِه؛ فكان ذلك مُغْنيًا عن التَّنبيهِ عليه في هذه الآيةِ، فكان التَّأكيدُ هنا ضَرْبًا مِن الإطنابِ[3].

- وبِناءُ فِعلِ ﴿سِيٓءَ﴾ للمَجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ المفعولِ دونَ فاعِلِه. وعُطِفَتْ عليه جُملةُ ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾؛ لأنَّها مِن جُملةِ ما وقَعَ عقِبَ مَجيءِ الرُّسلِ لُوطًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٩-١٠٣٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٥).

- وهاهنا إيجازٌ؛ فقد طُوِيَت جُمَلٌ دلَّ عليها قولُه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وهي الجُمَلُ الَّتي ذُكِرَت مَعانيها في قولِه تعالى: ﴿وَجَاءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ في سُورةِ (هُودٍ)(١) [٧٨ - ٨١].

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ قدَّموا تأْمينَه قبْلَ إعلامِه بأنَّهم مُنزِلون العذابَ على أهْلِ القريةِ؛ تعجيلًا بتَطْمينِه. وعطْفُ ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ على ﴿لَا تَخَفْ﴾ جمْعٌ بيْنَ تأْمينِه مِن ضُرِّ العذابِ وبيْن إعلامِه بأنَّ الَّذين سيُهْلَكون لَيسوا أهْلًا لِأنْ يَحزَنَ عليهم(٢)، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الأمْرينِ(٣).

- فإنْ قِيل: قولُهم: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ لا يُناسِبُه ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾؛ لأنَّ خَوْفَه ما كان على نفْسِه!

فالجوابُ: أنَّ بيْنَهما مُناسبةً في غايةِ الحُسنِ؛ وهي أنَّ لُوطًا عليه السَّلامُ لَمَّا خاف عليهم، وحَزِنَ لِأجْلِهم -على قولٍ في التفسيرِ-، قالوا له: لا تخَفْ علينا ولا تَحزَنْ لأجْلِنا؛ فإنَّا ملائكةٌ، ثمَّ قالوا له: يا لوطُ، خِفْتَ علينا، وحَزِنْتَ لأجْلِنا؛ ففي مُقابَلةِ خوفِك وقتَ الخوفِ نُزيلُ خوفَك ونُنجِّيك، وفي مُقابَلةِ حُزْنِك نُزيلُ حُزْنَك، ولا نَترُكُك تُفجَعُ في أهْلِك، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وقال لإبراهيمَ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] بصِيغةِ الفِعلِ؛ وذلك أنَّ هناك لَمَّا قال لهم إبراهيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، وعَدُوه بالتَّنجيةِ، ووعْدُ الكريم حتْمٌ، وهاهنا لَمَّا قالوا لِلُوطٍ -وكان ذلك بعدَ سبْقِ الوعْدِ مرَّةً أُخرى- قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، أي: ذلك واقعٌ مِنَّا، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ لِضَرورةِ وُقوعِه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ، وقعَتْ بَيانًا لِمَا في جُملةِ ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] من الإيذانِ بأنَّ ثمَّةَ حادِثًا يُخافُ منه، ويُحزَنُ له[٢]. وقيل: هي استئنافٌ مَسُوقٌ لبَيانِ ما أُشيرَ إليه بوَعدِ التَّنجيةِ مِن نُزولِ العذابِ عليهم[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ...﴾ [العنكبوت: ٢٨] عطْفَ آيةٍ على آيةٍ؛ لأنَّ قِصَّةَ لُوطٍ آيةٌ بما تضمَّنَتْه مِن الخبرِ، وآثارَ قَريةِ قومِه آيةٌ أُخرى بما يُمكِنُ مُشاهَدتُه لأهْلِ البصرِ. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً في آخرِ القصَّةِ. وعلى كِلَا الوجهَينِ فهو مِن كلامِ اللهِ تعالى[٤].

- ومَفعولُ ﴿تَّرَكْنَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ﴿ءَايَةً﴾، فيُجعَلُ (مِن) حرْفَ جرٍّ، وهو مَجرورٌ وصْفًا لـ﴿ءَايَةً﴾؛ قُدِّمَ على مَوصوفِه للاهتمامِ، فيُجعَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للابتداءِ، أي: تركْنا آيةً صادرةً مِن آثارِها، ومَعرفةِ خَبرِها. ويجوزُ جَعلُ (مِن) اسمًا بمعنى (بعضٍ)؛ فتكونُ (مِن) مفعولًا مُضافًا إلى ضَميرِ (قرية)[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في السَّفينةِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ولم يقُلْ: (بيِّنة)، وقال هاهنا: ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾؛ وذلك لأنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ أمْرٌ يتَّسِعُ له كلُّ عقْلٍ، وقد يقَعُ في وهْمِ جاهلٍ أنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ لا يَفتقِرُ إلى أمرٍ آخَرَ، وأمَّا الآيةُ هاهنا الخسْفُ، وجعْلُ دِيارٍ مَعمورةٍ عالِيَها سافلَها، وهو ليس بمُعتادٍ، وإنَّما ذلك بإرادةِ قادرٍ يُخصِّصُه بمكانٍ دونَ مكانٍ، وفي زمانٍ دونَ زمانٍ؛ فهي بيِّنةٌ لا يُمكِنُ لجاهلٍ أنْ يقولَ: هذا أمرٌ يكونُ كذلك، وكان له أنْ يقولَ في السَّفينةِ: النَّجاةُ بها أمْرٌ يكونُ كذلك، إلى أنْ يُقالَ له: فمِن أين عَلِمَ أنَّه يَحتاجُ إليها، ولو دام الماءُ حتَّى يَنفَدَ زادُهم كيف كان يَحصُلُ لهم النَّجاةُ؟ ولو سلَّطَ اللهُ عليهم الرِّيحَ العاصفةَ كيف يكونُ أحوالُهم[2]؟

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّها آيةٌ واضحةٌ دائمةٌ على طُولِ الزَّمانِ إلى الآنَ؛ ولذلك وُصِفَت بـ﴿بَيِّنَةً﴾، ولم تُوصَفْ آيةُ السَّفينةِ بـ(بيِّنة) في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ لأنَّ السَّفينةَ قد بَلِيَت ألْواحُها وحديدُها، أو بقِيَ منها ما لا يَظهَرُ إلَّا بعدَ تَفتيشٍ إنْ كان[3].

- ومن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هاهنا: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقال هناك:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣، ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ وذلك لأنَّ السَّفينةَ مَوجودةٌ في جميعِ أقطارِ العالَمِ، فعندَ كلِّ قومٍ مِثالٌ لسَفينةِ نُوحٍ يَتذكَّرون بها حالَه، وإذا رَكِبوها يَطلُبون مِن اللهِ النَّجاةَ، ولا يثِقُ أحدٌ بمُجرَّدِ السَّفينةِ، بلْ يكونُ دائمًا مُرتجفَ القلْبِ، مُتضَرِّعًا إلى اللهِ تعالى؛ طلَبًا للنَّجاةِ، وأمَّا أثَرُ الهلاكِ في بِلادِ لُوطٍ ففي مَوضعٍ مَخصوصٍ لا يطَّلِعُ عليه إلَّا مَن يمُرُّ بها ويصِلُ إليها، ويكونُ له عقْلٌ يَعلَمُ أنَّ ذلك مِن اللهِ المُريدِ؛ بسَببِ اختِصاصِه بمكانٍ دونَ مكانٍ، ووُجودِه في زمانٍ بعدَ زمانٍ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

الآيتان (٣٦-٣٧)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَعْثَوْا۟﴾: أي: تُفسِدوا، وتَسعَوا، وتَطغَوا، وأصلُ العيثِ: يدُلُّ على الفَسادِ[1].

﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: أي: الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضْطِرابٍ[2].

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: موتَى، لاصِقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم ووُجوهِهم، وقيل: مُلقًى بعضُهم فوقَ بعضٍ، والجُثومُ: البُروكُ على الرُّكَبِ، وأصلُ الجثومِ: هو أن يكونَ الإنسانُ مُنْكَبًّا على وجهِه، رُكْبَتاه في الأرضِ، وأصلُ (جثم): يدُلُّ على تَجمُّعِ الشَّيءِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأرسَلْنا إلى مَدْيَنَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال شُعَيبٌ لِقَومِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

يا قومِ، اعبُدوا اللهَ وَحْدَه وارجُوا ثوابَ الآخرةِ، ولا تُفسِدوا في الأرضِ بالكُفرِ والعِصيانِ والبَغْيِ على النَّاسِ. فكذَّبوا نبيَّهم شُعَيبًا، فأهلكَتْهم رَجْفةُ العذابِ؛ فأصبَحوا في ديارِهم أجسادًا هامِدةً لا أرواحَ فيها!

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى مَدْيَنَ[١] أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا[٢].

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾.

أي: فقال شُعَيبٌ لِقَومِه: يا قَومِ، اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، وذِلُّوا له بطاعتِه، وارجُوا اليومَ الآخِرَ خوفًا مِن العقابِ، وطمعًا في الثوابِ[٣].

---

(١) قال ابن عطية: (قيل في مَدْيَنَ: إنَّه اسمُ بلدٍ وقُطرٍ، وقيل: اسمُ قبيلةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦).

وقال ابن عاشور: (مَدْيَنُ: اسمُ أحدِ أبناءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، سكنَتْ ذُرِّيَّتُه في مَواطِنَ تُسمَّى الأَيْكةَ على شاطِئِ البحرِ الأحمرِ جنوبَ عَقَبةِ أَيْلةَ، وغلَبَ اسمُ القبيلةِ على الأرضِ، وصار عَلَمًا للمكانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

قال أبو حيان: (والأمرُ بالرِّجاءِ أمرٌ بفِعلِ ما يَترتَّبُ الرَّجاءُ عليه، أقام المُسَبَّبَ مقامَ السَّبَبِ. والمعنى: وافعَلوا ما تَرجُونَ به الثَّوابَ مِن الله، أو يكونُ أمرًا بالرَّجاءِ على تقديرِ تحصيلِ شَرطِه، وهو الإيمانُ بالله. وقال أبو عبيدةَ: وارجوا: خافُوا جزاءَ اليومِ الآخِرِ مِن انتِقامِ الله منكم إن لم تَعبُدوه). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦). =

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أي: ولا تُفْسِدُوا في الأرضِ في حالِ كَونِكم مُفْسِدينَ، ولا تَعمَلوا بمعصيةِ اللهِ، والبَغْيِ على النَّاسِ: ببَخْسِ المَكاييلِ والمَوازينِ، وقطعِ الطُّرُقِ، مع كُفرِكم باللهِ؛ فإنَّه أَصْلُ كلِّ فسادٍ، ولكنْ تُوبوا إلى اللهِ مِن ذلك، وأَنيبوا إليه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ

= ممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ على بابِه: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢٩٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال عامَّةُ المفسِّرينَ: الرَّجاءُ هاهنا بمعنى الخشيةِ، المعنى: اخْشَوُا اليَومَ الَّذي تُجازَوْن فيه بأعمالِكم). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٣).

وممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ هنا بمعنى الخَوفِ والخشيةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والبغويُّ، وذكر ابنُ الجوزي أنَّه قولُ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٧).

وقال ابن عثيمين: (يجوزُ أن نحملَه على المعنيَينِ جميعًا، أي: ارْجُوه خوفًا مِن العقابِ، وطمعًا في الثوابِ...، والرَّاجحُ عندي -وهو قولٌ لبعضِ العلماءِ- جوازُ استعمالِ المشتركِ في معنيَينِ إذا لم يكُنْ بيْنَهما تنافٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨١).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: تَوَقَّعوه وافعَلوا اليومَ مِن الأعمالِ ما يَدفَعُ عذابَه عنكم: أبو السعودِ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٧).

قال ابن عثيمين: (المرادُ: الإفسادُ الحِسِّيُّ... والإفسادُ المعنويُّ كلاهما؛ فالإفسادُ في الأرضِ يَشملُ الإفسادَ بالمعاصي، ويَشملُ الإفسادَ الحِسِّيَّ المادِّيَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٢) بتصرف.

وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۞ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾.

أي: فكذَّبوا نَبيَّهم شُعَيبًا، فأهلكَتْهم رَجْفةُ العذابِ(١).

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فأصبَح قَومُ شُعَيبٍ في بَلَدِهم مُنكَبِّينَ على وُجوهِهم مَوْتى، قد فارَقتْ أرواحُهم أبدانَهم، ليس منهم داعٍ ولا مجيبٌ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).
ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالرَّجفةِ هنا: زَلزلةُ الأرضِ: البيضاويُّ، وابن كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٤).
وقيل: المرادُ بها: الصَّيحةُ. أي: إنَّ الصَّيحةَ رَجَفتْ بقُلوبِهم. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤).
وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٥٩).
قال الشنقيطيُّ: (قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ لم يُبيِّنْ هنا سببَ رَجْفةِ الأرضِ بهم، ولكنَّه بيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ سببَ ذلك صيحةُ الملَكِ بهم، وهو قولُه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ الآيةَ [هود: ٦٧]، والظَّاهرُ أنَّ الملَكَ لَمَّا صاح بهم رَجَفَتْ بهم الأرضُ مِن شِدَّةِ الصَّيحةِ، وفارَقَتْ أرواحُهم أبدانَهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) =

كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ وُجوبُ الاستعدادِ لِلْيَومِ الآخِرِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تَسليةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إذا عُورِضوا في دَعوتِهم؛ وجهُ ذلك: أنَّ الرُّسلَ كُذِّبوا، فهُم مِن بابِ أَولى؛ ولهذا يُسَلِّي اللهُ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمِثلِ هذا، قال سُبحانَه وتعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤]؛ فالدَّاعي إلى اللهِ لا ينبغي أنْ يأنَفَ مِن أنْ يُكَذَّبَ؛ فإنَّ هذا هو طَريقُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأتْباعُهم سيَكونون مِثلَهم[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ﴾ فيه سؤالٌ: ما حُكِيَ عن شُعَيبٍ أمرٌ ونَهيٌ، والأمرُ لا يُصَدَّقُ ولا يُكَذَّبُ، فإنَّ مَن قال لغيرِه: قُمْ. لا يصِحُّ أن يقولَ له: كذَبْتَ؟

= (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

وقال ابن جرير: (﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ جُثُومًا بعضُهم على بعضٍ؛ موتَى). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٦).

الجواب: كان شُعَيبٌ يقولُ: اللهُ واحِدٌ فاعبُدوه، والحشرُ كائِنٌ فارجوه، والفَسادُ مُحرَّمٌ فلا تَقرَبوه. وهذه الأشياءُ فيها إخباراتٌ، فكذَّبوه فيما أخبَرَهم به[1].

أو: كَذَّبُوهُ فيما تضمَّنه كلامُه مِن أنَّهم إن لم يمتثِلوا أمرَه ونهيَه وقَع بهم العذابُ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، أمْرُه إيَّاهم بترَقُّبِ اليومِ الآخِرِ، يدُلُّ على أنَّهم كانوا لا يُؤمِنونَ بالبعثِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أنَّ الشَّرائعَ تَجمَعُ بيْنَ الأمْرَينِ: الإيجابيِّ، والسَّلبيِّ؛ الإيجابيُّ بالأوامِرِ، والسَّلبيُّ بالنَّواهي، يعني: أنَّ الشَّرائعَ أفعالٌ وتُروكٌ، ولا يُصلِحُ العِبادَ إلَّا هذا؛ لأنَّ الإنسانَ قد تُناسِبُه الأوامرُ ولا تُناسِبُه النَّواهي، وقد يكونُ العكسُ؛ فجَمَعَ اللهُ سبحانه وتعالى في شرائعِه بيْنَ الأمرِ والنَّهيِ[4].

٤- قَولُه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أخبَرَ تعالَى هاهنا أنَّهم أخذَتْهم الرَّجفةُ، كما أرْجَفوا شُعَيبًا وأصحابَه، وتوَعَّدوهم بالجلاءِ[5].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ في قولِه: (إلَى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦) ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).

مَدْيَنَ)؛ لِيتأتَّى الإيجازُ في وَصْفِ شُعَيبٍ بأنَّه أخوهم بالإضمارِ حيثُ أُريدَ وصفُ شُعيبٍ بأنَّه مِن إخوةِ مَدْيَنَ وَمِن صَميمِهم، مِن غيرِ احتياجٍ إلى إعادةِ لفظِ (مدينَ)، ومع تجنُّبِ عَودِ الضَّميرِ على مُتأخِّرٍ لفظًا ورُتْبةً، فقيلَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾[1].

- وفيه أيضًا مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾، وقال في نُوحٍ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾[العنكبوت: ١٤]، فقدَّم نُوحًا في الذِّكْرِ، وعرَّفَ القومَ بالإضافةِ إليه، وكذلك في إبراهيمَ ولُوطٍ، وهاهنا ذكَرَ القومَ أوَّلًا، وأضاف إليهم أخاهم شُعيبًا؛ وذلك لأنَّ الأصلَ في جميع المواضعِ أنْ يُذكَرَ القومُ، ثمَّ يُذكَرَ رَسولُهم؛ لأنَّ المُرسِلَ لا يَبعَثُ رسولًا إلى غيرِ مُعيَّنٍ، وإنَّما يَحصُلُ قومٌ أو شخصٌ يَحتاجون إلى إنباءٍ مِن المُرسِلِ، فيُرسِلُ إليهم مَن يَختارُه، غيرَ أنَّ قومَ نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ لم يكُنْ لهم اسمٌ خاصٌّ، ولا نِسبةٌ مَخصوصةٌ يُعرَفون بها، فعُرِفوا بالنَّبيِّ، فقِيل: قومُ نوحٍ وقومُ لُوطٍ. وأمَّا قومُ شُعيبٍ وهودٍ وصالحٍ، فكان لهم نسَبٌ معلومٌ اشتُهِرُوا به عندَ النَّاسِ؛ فجَرى الكلامُ على أصلِه، وقال اللهُ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ [الأعراف: ٦٥][2].

- قولُه: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي: افْعَلوا ما تَرْجُون به ثوابَه -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ فأُقِيمَ المُسبَّبُ مُقامَ السَّببِ، فيكونُ عطْفُ ﴿وَٱرۡجُواْ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧)، و(٨-ب/ ٢٠٠).
ووصفُ (شعيب) بأنَّه أخو مَدْيَنَ لأنَّه كان مِن نَسَبِهم، كما يُقالُ: يا أخا العربِ، أي: يا عربيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

على ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ للبيانِ والتَّفسيرِ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: «أصابَتْهم»؛ لأنَّ الأخذ دليلٌ على أنَّه لا هَوادةَ فيه، وأنه مُدَمِّرٌ[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، أي: الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، وقال في سُورةِ (هودٍ): ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤]، أي: صَيحةُ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّها المُوجِبةُ للرَّجفةِ[(٣)]. وقيل: سُمِّيَت بالصَّيحةِ في سورةِ (هود)؛ لأنَّ لتلك الرَّجفةِ صوتًا شديدًا كالصَّيحةِ[(٤)]. وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، والتَّحقيقُ أنَّ قومَ شُعَيبٍ -أهلَ مَدْيَنَ- اجتَمَعت لهم الصَّيحةُ والرَّجفةُ والظُّلَّةُ؛ لأنَّه صاح بهم المَلَكُ مِن فوق، فرجَفَت بهم الأرضُ مِنْ تحتِهم، ثمَّ إنَّ الله أرسَل عليهم ظُلَّةً فأحرَقَتْهم، وذلك على القَولِ بأنَّ أصحابَ الظُّلَّةِ هم أصحابُ الصَّيحةِ والرَّجفةِ[(٥)].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه حيثُ قال: (أَخَذَتهم... الصَّيْحَةُ) قال: ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ [هود: ٦٧، ٩٤]، وحيث قال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ قال: ﴿فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩، ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩).

دَارِهِمْ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّجفةَ هائلةٌ في نفْسِها؛ فلم يَحتَجْ إلى مُهوِّلٍ، وأمَّا الصَّيحةُ فغيرُ هائلةٍ في نفْسِها، لكنَّ تلك الصَّيحةَ لَمَّا كانت عظيمةً عندَ كلِّ أحدٍ، فلم يَحتَجْ إلى مُعظِّمٍ لأمْرِها[1]. وقيل: قولُه: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾، أي: في بَلَدِهم أو دُورِهم، ولم يُجمَعْ؛ لأمْنِ اللَّبْسِ[2].

وقيل: الدَّارُ هنا معناه: الدِّيارُ؛ لأنَّ الدارَ اسمُ جنسٍ، وهو إذا أُضيفَ إلى معرفةٍ فهو عَامٌّ. فمعنَى ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ و﴿دِيَـٰرِهِمْ﴾ واحدٌ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٥، ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣، ٤٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٢).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾: أي: ذَوي بصائِرَ تُمكِّنُهم مِن تمييزِ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[(١)].

﴿حَاصِبٗا﴾: أي: ريحًا شَديدةً ترميهم بالحَصى، والحَصباءُ: جِنسٌ مِن الحَصى، والحَصْبُ: الرَّميُ[(٢)].

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أي: الصَّوتُ الشَّديدُ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي[(٣)].

﴿خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: غَيَّبناه فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غابَ به فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ[(٤)].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((البسيط)) =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأهلَكْنا عادًا وثَمودَ، وقد ظهَرَ لكم هَلاكُهم مِن آثارِ مَساكِنِهم الخاليةِ مِنهم، وحسَّنَ الشَّيطانُ لهم سُوءَ أعمالِهم، فصَرَفَهم عن طريقِ الحَقِّ، وكانوا قَومًا عُقَلاءَ بُصَراءَ يَتمكَّنونَ مِنَ النَّظَرِ والفِكرِ!

وأهلَكْنا قارونَ وفِرعَونَ وهامانَ، ولقد جاءَهم موسى بالدَّلالاتِ الواضِحةِ، فاستكبَروا عن قَبولِها، وما كانوا فائِتينَ اللهَ ولا مُفلِتينَ مِن عذابِه، فكُلًّا منهم أهلَكْنا بسبَبِ ذَنْبِه؛ فمِنهم مَن أرسَلْنا عليهم ريحًا شَديدةً ترميهم بالحَصى حتَّى هلَكوا، وهم عادٌ، ومنهم مَن أرسَلَ اللهُ عليه الصَّيحةَ الشَّديدةَ، وهم ثَمودُ، ومِنهم مَن خَسَفَ اللهُ به الأرضَ، وهو قارونُ، ومِنهم مَن أغرَقَه اللهُ، وهما فِرعَونُ وهامانُ، وما كان اللهُ تعالى ظالِمًا لهم بعُقوبتِهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بشِركِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرَى ذِكرُ أهلِ مَدْيَنَ وقَومِ لُوطٍ؛ أُكمِلَت القِصصُ بالإشارةِ إلى عادٍ وثمودَ؛ إذ قد عُرِف في القُرآنِ اقترانُ هذه الأُمَمِ في نَسَقِ القَصَصِ[1].

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾.

= للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨).

أي: وأهلَكْنا[1] عادًا قومَ هُودٍ، وثمودَ قَومَ صالحٍ، وقد ظهَرَ لكم هلاكُهم مِن آثارِ مَساكِنِهم الخاويةِ منهم[2]!

ثُمَّ بَيَّن سببَ ما جرَى عليهم، فقال[3]:

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وحسَّن الشَّيطانُ لعادٍ وثمودَ أعمالَهم الشَّنيعةَ مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي، فردَّهم وصرَفَهم عن طَريقِ الحَقِّ[4].

﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

أي: صدَّهم الشَّيطانُ عن الحَقِّ، والحالُ أنَّهم كانوا عُقَلاءَ بُصَراءَ، مُتمَكِّنينَ مِنَ النَّظَرِ والفِكرِ، وقد عَرَفوا الحَقَّ مِنَ الباطِلِ بواسطةِ الرُّسُلِ والأدِلَّةِ؛ فلا عُذرَ لهم في مخالفةِ طَريقِ الحَقِّ[5]!

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٨).

قال الرازي: (قال تعالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ أي: وأهلَكْنا عادًا وثمودَ؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ دلَّ على الإهلاكِ). يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦).

وقيل: الفعلُ المحذوفُ تقديرُه: واذكروا. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾.

أي: وأهلَكْنا[1] قارونَ صاحِبَ الكُنوزِ الكثيرةِ، وأهلَكْنا فِرعَونَ مَلِكَ مِصرَ، وأهلَكْنا هامانَ[2].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾.

أي: ولقد جاء موسى كلًّا مِن قارونَ وفِرعَونَ وهامانَ بالمُعجِزاتِ والدَّلالاتِ الواضِحاتِ[3].

= (١٣/ ٣٤٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦، ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٢-١٩٤).

قال ابن جُزَي: (﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قيل: معناه: لهم بصيرةٌ في كفرهم، وإعجابٌ به. وقيل: لهم بصيرةٌ في الإيمانِ، ولكنَّهم كفَروا عنادًا. وقيل: معنى ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾: عقلاءَ متمكِّنينَ من النَّظرِ والاستدلالِ، ولكنَّهم لم يفعلوا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦).

وقال ابنُ جرير: (وكانوا مُستبصرينَ في ضلالتِهم، مُعجَبينَ بها، يَحسَبون أنَّهم على هُدًى وصوابٍ، وهم على الضَّلالِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٩).

وقال الزجاج: (أتَوْا ما أتَوْه وقدْ بَيَّن لهم أنَّ عاقبتَه عذابُهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٨).

وقيل: التَّقديرُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- قارونَ وفرعونَ وهامانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨).

قال ابنُ عطيةَ: (وهامانُ هو وزيرُ فرعونَ، وأكبرُ رجالِه...). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: فاستكبَروا عن الحَقِّ الَّذي جاءَهم به موسى[١].

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾.

أي: وما كان قارونُ وفِرعَونُ وهامانُ فائِتينَ اللهَ، ولا مُفلِتينَ مِن عَذابِه وحُكمِه فيهم[٢].

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾.

أي: فأهلَكْنا عادًا وثمودَ وقارونَ وفِرعَونَ وهامانَ؛ كُلًّا بسَبَبِ ذَنْبِه، وعلى قَدْرِه، وبِعُقوبةٍ تُناسِبُه[٣].

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾.

أي: فمِنهم مَن أرسَلْنا عليه ريحًا شَديدةً تَرميهم بالحَصى حتَّى هَلَكوا، وهم عادٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٠، ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَهم اللهُ بالصَّيحةِ الشَّديدةِ، وهم ثمودُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ *

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم قومُ عادٍ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وقيل: المرادُ بهم: قومُ لوطٍ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤).

قال ابن عثيمين: (هذا فيه نظرٌ؛ لأنَّ قومَ لوطٍ أرسَلَ الله عليهم حاصبًا مِن السَّماءِ، وهي حجارةٌ مِن سِجِّيلٍ تحصِبُهم، كالَّتي أُرسِلَت على أصحابِ الفيلِ، وليست هي الحَصباءَ الَّتي تَذريها الرِّياحُ، وليس في عِلْمِنا أنَّ الله تعالى أرسل الرياحَ على قَومِ لوطٍ، ولو كانت رياحًا تحملُ الحَصباءَ لَبَيَّنَها الله عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠١).

وقال ابن جُزَي: (الحاصِبُ: الحِجارةُ، والحاصِبُ أيضًا: الرِّيحُ الشَّديدةُ، ويحتَمِلُ عندي أنَّه أراد به المعنيَين؛ لأنَّ قومَ سيِّدِنا لوطٍ أُهلِكوا بالحِجارةِ، وعادٌ أُهلِكوا بالرِّيحِ... لأنَّ المقصودَ هنا ذِكرُ عموم أخْذِ أصنافِ الكُفَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم: ثمودُ: ابنُ كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بهم: ثمودُ ومَدْيَنُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥).

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣١].

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَه اللهُ بأنْ غيَّبَه في الأرضِ، وهو قارونُ(١).

كما قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَه اللهُ بالغَرَقِ، وهما فِرعَونُ وهامانُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

أي: وما يَنبغي لله سُبحانَه أن يُهلِكَهم ظُلمًا مِن غيرِ ذَنبٍ منهم، أو يُهلِكَهم بذُنوبِ غيرِهم، أو يُهلِكَهم مِن غيرِ إنذارِهم وإمهالِهم، وبعْثِ الرُّسلِ إليهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وممَّن قال بأنَّهم فِرعونُ ومَن معه: السمرقنديُّ، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بهم: قومُ نوح، وفِرعونُ وقَومُه. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥).

وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم؛ إذ تَسَبَّبوا في عذابِها بوُقوعِهم في الشِّركِ باللهِ، ومَعصيتِه، وتكذيبِ رُسُلِه؛ فاستحَقُّوا عِقابَه[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي الاعتِبارُ بأحوالِ مَن مضَى؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ يعني: فاعتَبِروا واتَّعِظوا[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التَّحذيرُ مِن تَزيينِ الأعمالِ، ويُفهَمُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ هذه الأعمالَ أصلُها قَبيحٌ لكِنَّها زُيِّنَتْ؛ فيَجِبُ الحَذَرُ مِن تَزيينِ الشَّيطانِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مَن عَرَفَ اللهَ بقَلْبِه ولم يُقِرَّ بلِسانِه لم يَكُنْ مُؤمِنًا، كما قال تعالى عن قَومِ عادٍ وقَومِ صالحٍ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾، وكما قال تعالى عن قَومِ فِرعَونَ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾[4] [النمل: ١٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّه أضاف التَّزيينَ

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

إلى الشَّيطانِ؛ وفي آيةٍ أُخرى أضاف التَّزيينَ إلى نفْسِه عزَّ وجلَّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، والجَمعُ بيْنَ الآيتَينِ: أنَّ الإضافةَ باعتِبارِ السَّبَبِ وباعتِبارِ الفاعلِ الحَقيقيِّ؛ فالفاعِلُ الحقيقيُّ هو اللهُ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ كلَّ شَيءٍ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، والسَّببُ هو الشَّيطانُ، وأُضيفَ التَّزيينُ إليه لأنَّه مُباشِرٌ له؛ فيُضافُ إلى اللهِ تعالى خَلْقًا وتَقديرًا، ويُضافُ إلى الشَّيطانِ على سَبيلِ المباشَرةِ(١).

وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ ليتميَّزَ المطيعُ منهم من العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، وهو من الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثَرَ القبيحَ واختاره وأحبَّه ورَضِيَه لنَفسِه، زيَّنه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعد أن رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يرُيَهَ اللهُ تعالى ظُلمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فربَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدَى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ من خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٢) [الأعراف: ٥٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

فقد نسَب الله تعالى الأعمالَ إلى الخَلْقِ؛ فإذا نُسِبَ العملُ إليهم فمعنى ذلك أنَّهم فاعِلونَ حَقيقةً[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ بَشاعةُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ مع البَصيرةِ؛ فإنَّ الجُملةَ هنا حاليَّةٌ على تقديرِ «قد»، يعني: فصَدَّهم وقد كانوا مُستبصِرينَ! والمُستبصِرُ كان بصَدَدِ ألَّا يُصَدَّ، لكنَّ قوَّةَ السَّببِ وضَعْفَ المانعِ هو الَّذي أوجَبَ لهم ذلك، والعياذُ باللهِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قَولُه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى ما يُوضِّحُ قِلَّةَ عَقلِهم في استكبارِهم؛ وذلك لأنَّ مَن في الأرضِ أضعَفُ أقسامِ المكَلَّفينَ، ومَن في السَّماءِ أقواهم، ثم إنَّ مَن في السَّماءِ لا يَستكبِرُ على اللهِ وعن عبادتِه، فكيف يَستكبِرُ مَن في الأرضِ[٣]؟!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وكلُّ ما جاء في القرآنِ مِن «لام» للتَّعليلِ أو «باءٍ» للسَّببيَّةِ فإنَّها تدُلُّ على إثباتِ الأسبابِ والحِكَمِ، وفي هذا ردٌّ على الجبريَّةِ ومَن وافَقَهم مِن الأشعريَّةِ الَّذين يُنْكِرون الأسبابَ، وأمَّا نحنُ -أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ- فنؤمنُ بالأسبابِ؛ لكنَّنا لا نقولُ: إنَّ هذه أسبابٌ مؤثِّرةٌ بنَفْسِها، لكنْ بخَلْقِ اللهِ سبحانه وتعالى فيها التَّأثيرَ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ أنَّ العقوباتِ لا تأتي مِن نوعٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥)، ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

واحدٍ، بل تأتي مِن أنواعٍ متعددةٍ بحسَبِ حالِ المعاقَبِ، فهذه الأنواعُ الأربعةُ ذِكْرُها له حكمةٌ؛ لأنَّ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هذا إهلاكٌ مِن فوقٍ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ هذا إهلاكٌ مِن تحتٍ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هذا إهلاكٌ بالقولِ والصَّوتِ، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ هذا إهلاكٌ بالماءِ(١).

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيه كَمالُ عَدلِه سُبحانه وتعالى، وهذه الصِّفةُ مِن الصِّفاتِ السَّلبيةِ، والصِّفاتُ السَّلبيةُ لا تكونُ مَدحًا إلَّا إذا تضَمَّنتْ ثُبوتًا؛ فمُجَرَّدُ النَّفيِ ليس بمَدحٍ إلَّا إذا تَضَمَّنَ ثُبوتًا؛ إذا نفى اللهُ الظُّلمَ عن نفْسِه فليس معناه أنَّه لا يَظْلِمُ فقط، بل لِكَمالِ عَدْلِه لا يَظلِمُ، وليس المعنى أنَّه غيرُ قادرٍ على الظُّلمِ، بل هو قادرٌ سُبحانه وتعالى على أنْ يَظلِمَ، لكِنَّه لِكَمالِ عَدْلِه لا يَظلِمُ، بل لا يُريدُ الظُّلمَ، ولو كان غيرَ قادرٍ على الظُّلمِ لم يكُنْ نَفْيُ الظُّلمِ عن نفْسِه مَدْحًا(٢)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ الاستِبصارُ: البَصارةُ بالأُمورِ، والسِّينُ والتَّاءُ للتَّأكيدِ(٣).

٢- قولُه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩).

فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوفٌ على ﴿وَعَادًا﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وتَقديمُ قارُونَ؛ لشَرفِ نَسَبِه[١]، وقُدِّمَ فرعونُ على هامانَ؛ لعُلُوِّ مرتبتِه، وليس هذا التَّرتيبُ مِن بابِ البُداءةِ بالأدنى؛ لأنَّه لو كان كذلك لقال: «قارونُ وهامانُ وفرعونُ»[٢].

- وتَعليقُ قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بـ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ استِكبارَ كلٍّ منهم كان في جَميعِ البِلادِ الَّتي هو منها، فيُومِئُ ذلك أنَّ كلَّ واحدٍ مِن هؤلاء كان سيِّدًا مُطاعًا في الأرضِ؛ فالتَّعريفُ في (الأرض) للعهْدِ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المعهودُ هو أرضَ كلٍّ منهم، أو أنْ يكونَ المعهودُ الكُرَةَ الأرضيَّةَ؛ مُبالَغةً في انتشارِ استكبارِ كلٍّ منهم في البلادِ، حتَّى كأنَّه يعُمُّ الدُّنيا كلَّها[٣].

- وذِكرُ فِعلِ الكَونِ بعدَ النَّفيِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾؛ لأنَّ المَنْفيَّ هو ما حَسِبوه نَتيجةَ استِكبارِهم، أي: أنَّهم لا يَنالُهم أحدٌ لِعَظمَتِهم[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ تَفسيرٌ لِمَا يُنبِئُ عنه عدَمُ سبْقِهم بطريقِ الإبهامِ،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: فكلَّ واحدٍ مِنَ المذكورينَ[(١)]، وأفادتِ الفاءُ التَّفريعَ على الكلامِ السَّابقِ؛ لِمَا اشتمَلَ عليه مِن أنَّ الشَّيطانَ زيَّنَ لهم أعمالَهم، ومِن استِكبارِ الآخَرينَ، أي: فكان مِن عاقبةِ ذلك أنْ أخَذَهم اللهُ بذُنوبِهم العظيمةِ النَّاشئةِ عن تَزيينِ الشَّيطانِ لهم أعمالَهم، وعن استِكبارِهم في الأرضِ، وليس المُفرَّعُ هو أخْذَ اللهِ إيَّاهم بذُنوبِهم؛ لأنَّ ذلك قد أشعَرَ به ما قبْلَ التَّفريعِ، ولكنَّه ذُكِرَ لِيُفْضَى بذِكْرِه إلى تفصيلِ أنواعِ أخْذِهم، وهو قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ إلى آخِرِه؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ ...﴾ لِتَفريعِ ذلك التَّفصيلِ على الإجمالِ الَّذي تَقدَّمَه، فتَحصُلُ خُصوصيَّةُ الإجمالِ ثُمَّ التَّفصيلِ، وللدَّلالةِ على عَظيمِ تصرُّفِ اللهِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ فأمَّا الَّذينَ أُرسِل عليهم حاصِبٌ فهم عادٌ، والَّذينَ أخذَتْهم الصَّيحةُ هم ثمودُ، والَّذينَ خَسَفَتْ بهم الأرضُ هو قارونُ وأهلُه، والَّذين أغرَقَهم: فرعونُ وهامانُ ومَن معَهما مِن قَومِهما؛ جاء هذا على طَريقةِ النَّشرِ على تَرتيبِ اللَّفِّ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ؛ إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: =

- والاستِدراكُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ناشئٌ عن نفْيِ الظُّلمِ عن اللهِ في عِقابِهم؛ لأنَّه يُتوهَّمُ منه انتِفاءُ مُوجِبِ العِقابِ؛ فالاستِدراكُ لرفْعِ هذا التَّوهُّمِ(١).



= ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَين؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْق ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ
بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْهَنَ﴾: أي: أَوْهَى وأضْعَفَ، وأصلُ (وهن): ضَعْفٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَضرِبُ الله تعالَى مثَلًا لِمَن يتَّخِذُ مِن دونِه آلهةً، ويَتوعَّدُ مَن يفعلُ ذلك بأشدِّ أنواعِ العذابِ، فيقولُ تعالى: مَثَلُ الَّذين اتَّخذوا من دونِ اللهِ أولياءَ مِن مَعبوداتٍ وغَيرِها؛ طَلبًا لِنَفعِها ونَصرِها، كمَثَلِ العَنكبوتِ اتَّخذَتْ لِنَفسِها بيتًا هو أوهَنُ البُيوتِ؛ فكذلك هؤلاءِ الأولياءُ الَّذين اتَّخذوهم مِن دونِ اللهِ لن يَنفَعوهم بشَيءٍ، لو كانوا يَعلمونَ أنَّ ذلك مَثَلُهم!

إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يَدْعُونَ مِن دُونِه مِن معبوداتٍ، ويَعلَمُ حالَها وضَعْفَها، وهو مُجازيهم على كُفرِهم، وهو القَويُّ القاهِرُ الحَكيمُ في شَرعِه.

وتلك الأمثالُ المذكورةُ في القُرآنِ نَضرِبُها للنَّاسِ، وما يَفهَمُها إلَّا العالِمونَ باللهِ وآياتِه.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما يدُلُّ على عظيمِ قُدرتِه، فيقولُ: خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

بالحَقِّ، ولم يَخلُقْهما لَعِبًا ولا عَبثًا، إنَّ في ذلك لَعلامةً للمُؤمِنينَ على وحدانيَّةِ اللهِ، وتفَرُّدِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه أهلَكَ مَن أشرَكَ عاجِلًا، وعذَّبَ مَن كذَّبَ آجِلًا، ولم يَنفَعْه في الدَّارَينِ مَعبودُه، ولم يَدفَعْ ذلك عنه رُكوعُه وسُجودُه- مثَّلَ اتِّخاذَه ذلك مَعبودًا باتِّخاذِ العَنكَبوتِ بَيتًا لا يُجيرُ آويًا، ولا يُريحُ ثاويًا[1]!

وأيضًا لما بُيِّنتْ لهم الأشباهُ والأمثالُ مِن الأمم التي اتَّخذَتِ الأصنامَ مِن دونِ الله فما أغنَتْ عنهم أصنامُهم لما جاءهم عذابُ اللهِ؛ أعْقَب ذلك بضربِ المثلِ لحالِ جميعِ أولئكَ، وحالِ مَن ماثَلهم مِن مشركي قريشٍ في اتخاذِهم ما يحسبونَه دافعًا عنهم، وهو أضعفُ مِن أنْ يدفعَ عن نفسِه، بحالِ العنكبوتِ تتَّخذُ لنفسِها بيتًا تحسَبُ أنَّها تعتصِمُ به مِن المعتدي عليها، فإذا هو لا يصمدُ ولا يثبتُ لأضعفِ تحريكٍ، فيسقطُ ويتمزَّقُ[2].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾.

أي: مَثَلُ الَّذين اتَّخذوا من دونِ اللهِ أولياءَ مِن مَعبوداتٍ وغَيرِها، فيَطلُبونَ نَفعَها، ويَرجُونَ نَصْرَها؛ كمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَت لنفْسِها بيتًا تأْوي إليه، لا يَدفَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

عنها حَرًّا ولا بردًا، ولا مطرًا ولا ضَرًّا، وكذلك ما اتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ لا يَملِكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا بوجْهٍ مِن الوُجوهِ[١].

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾.

أي: وإنَّ أضْعَفَ البُيوتِ هو بَيتُ العَنكَبوتِ[٢].

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: لو كانوا يَعلَمونَ أنَّ ذلك مَثَلُهم، وأنَّ اتِّخاذَهم الأولياءَ مِن دونِ اللهِ كاتِّخاذِ العَنكَبوتِ بيتًا؛ لَمَا اتَّخذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ، لكنَّهم يجهَلون ذلك، فيَحسَبونَ أنَّهم يَنفعونَهم ويُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفَى[٣]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عنهم العِلمَ بما تضَمَّنَه التَّمثيلُ مِن حَقارةِ أصنامِهم الَّتي يَعبُدونَها وقِلَّةِ جَدواها بقَولِه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ المُفيدِ أنَّهم لا يَعلَمونَ؛ أعقَبَه بإعلامِهم بعِلمِه بدقائِقِ أحوالِ تلك الأصنامِ على اختِلافِها واختِلافِ مُعتَقَداتِ القبائِلِ الَّتي عَبَدَتْها، وأنَّ مِن آثارِ عِلمِه بها ضَرْبَ ذلك المَثَلِ لحالِ مَن عَبَدوها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

وحالِها أيضًا[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى نهايةَ ضَعفِ آلهةِ المُشرِكينَ؛ ارتقَى مِن هذا إلى ما هو أبلَغُ منه، وأنَّها ليست بشَيءٍ، بل هي مجَرَّدُ أسماءٍ سَمَّوها، وظُنونٍ اعتَقَدوها، وعندَ التَّحقيقِ يتبيَّنُ للعاقِلِ بُطلانُها وعَدَمُها[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما[٣] يَدْعُونَ مِن دُونِه -دُعاءَ مَسألةٍ أو عِبادةٍ- مِن أيِّ مَعبودٍ كان، ويَعلَمُ حالَها ووَهْنَها، وأنَّها مَعبوداتٌ باطِلةٌ كالعَدَمِ لا تَنفَعُ صاحِبَها بشَيءٍ، وهو مُجازيهم على كُفرِهم وشِرْكِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣١).

(٣) قيل: «ما» هنا موصولةٌ بمعنى الَّذي. وممَّن قال بذلك: القرطبي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٦).

وقيل: «ما» نافيةٌ، بمعنى: أنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّهم لا يَدْعُونَ في الحقيقةِ شيئًا موجودًا ولا إلهًا له حقيقةٌ، ولكِنَّهم يَدْعونَ أمورًا عَدَميَّةً. وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي، وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣، ٢٥٤).

وقيل: هي للاستِفهامِ. وممَّن ذهب إليه أبو عليٍّ الفارسيُّ. يُنظر: ((المسائل البصريات)) لأبي علي الفارسي (١/ ٥٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥، ٤٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٦، ٢١٧).

يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس: ٦٦].

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: واللهُ هو القَويُّ القاهِرُ الَّذي لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ أرادَه، الغالبُ، المنتقِمُ ممَّن أشرَكَ معه في عبادتِه غيرَه، الحَكيمُ في شَرعِه وقَدَرِه، وفي تدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ومِن ذلك إهلاكُه مَن أراد إهلاكَه في الحالِ، وتأخيرُ مَن أراد تأخيرَ هَلاكِه[1].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن بَيَّنَ اللهُ لهم فَسادَ مُعتَقَدِهم في الأصنامِ، وأعقَبَه بتوقيفِهم على جَهلِهم بذلك؛ نعَى عليهم هنا أنَّهم ليسوا بأهلٍ لتَفَهُّمِ تلك الدَّلائِلِ الَّتي قُرِّبَت إليهم بطَريقةِ التَّمثيلِ[2].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾.

أي: وتلك الأمثالُ المذكورةُ في القُرآنِ نَجعَلُها للنَّاسِ؛ لنُبيِّنَ لهم المعانيَ والحُجَجَ، ونُقَرِّبَها إلى أفهامِهم؛ لِيَنتَفِعوا بها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٧-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

أي: وما يَفهَمُ أمثالَ القُرآنِ ويَتبيَّنُ له مَغْزاها إلَّا ذَوو العِلمِ باللهِ وآياتِه[١].

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَدَّم أنَّه لا مُعجِزَ له سُبحانَه، ولا ناصِرَ لِمَن أخَذَ، وصَحَّح ذلك بالمُشاهَدةِ في القُرونِ البائِدةِ، وقَرَّبَه إلى الأذهانِ بالمَثَلِ المُستولي على غايةِ البيانِ، وختَم ذلك أنَّه حَجَب فَهْمَه عن أكثَرِ خَلْقِه- دَلَّ على ذلك كُلِّه بقَولِه مُظهِرًا لِقُوَّتِه وسائِرِ صِفاتِ كَمالِه، بعدَما حَقَّق أنَّ أولياءَهم في أنزَلِ مراتِبِ الضَّعفِ[٢]:

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ[٣]، ولم يَخلُقْهما باطِلًا لغيرِ شَيءٍ على وَجْهِ العبثِ واللَّعِبِ، إنَّما خلَقَهما لأمرٍ هو كائنٌ، ولِيَكونا دلائِلَ على قدرتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٥).

(٣) قال أبو السعود: (﴿... بِالْحَقِّ﴾ أي: مُحقًّا مُراعيًا للحِكَمِ والمَصالحِ على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿خَلَقَ﴾، أو ملتبسةً بالحقِّ الَّذي لا مَحيدَ عنه، مُستتبعةً للمَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ على أنَّه حالٌ مِن مفعولِه؛ فإنَّها مع اشتمالِها على جميعِ ما يتعلَّقُ به معايشُهم شواهدُ دالَّةٌ على شؤونِه تعالى المتعلِّقةِ بذاتِه وصِفاتِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

وعَظَمتِه وحِكمتِه، ولِيَقومَ أمرُه وشرعُه، ولِتَتِمَّ نعمتُه على عبادِه، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحصَى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ اللهِ السَّمواتِ والأرضَ لَعَلامةً للمُؤمِنينَ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفَرُّدِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وكَمالِ قُدرتِه، وعلى غيرِ ذلك مِنَ المطالِبِ الإيمانيَّةِ[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مَن اتَّخذَ مِن دونِ اللهِ وليًّا يَتعزَّزُ به، ويَتكبَّرُ به، ويَستنصِرُ به؛ لم يَحصُلْ له به إلَّا ضِدُّ مَقصودِه[(٣)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ هذا مَدحٌ للأمثالِ الَّتي يَضرِبُها اللهُ تعالى، وحَثٌّ على تدَبُّرِها وتَعقُّلِها، ومَدحٌ لِمَن يَعقِلُها، وأنَّه عُنوانٌ على أنَّه مِن أهلِ العِلمِ؛ فعُلِمَ أنَّ مَن لم يَعقِلْها ليس مِنَ العالِمينَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ فائدةُ ضَربِ الأمثالِ، وأنَّه نوعٌ مِن التَّعليمِ والتَّوجيهِ[١]؛ فينبغي لمُعَلِّمِ النَّاسِ أن يَضربَ لهم الأمثالَ؛ لِيُقَرِّبَ لهم المعقولَ بصورةِ المحسوسِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ فضيلةُ العلمِ[٣]، وأنَّه يَنبغي التَّأمُّلُ في الأمثالِ؛ فالعالِمُ هو الَّذي يَتأمَّلُ ويَنظُرُ حتَّى يَعقِلَ[٤].

٥- اطمِئنانُ المؤمنِ بما يُحدِثُه اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ؛ وجْهُ ذلك قولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾، فإذا عَرَفَ المؤمنُ أنَّ ما حَدَثَ مِن جوعٍ ومَرَضٍ وزلازلَ وفَيضاناتٍ أنَّه بالحقِّ، اطمأنَّ ورَضِيَ وسَلَّمَ، ولا راحةَ في الحقيقةِ للإنسانِ إلَّا بهذا، أي: بالإيمانِ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وأنَّه حَقٌّ، وإلَّا فإنَّه سيَتكَدَّرُ؛ لأنَّه ما مِن ساعةٍ تَمُرُّ إلَّا يَجِدُ الإنسانُ فيها ما يَسوؤُه؛ إمَّا في نفْسِه، أو أهلِه، أو صَحْبِه، أو بلدِه، أو البلادِ الإسلاميَّةِ عامَّةً[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ قال: ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾ ولم يَقُلْ: (آلهةً)؛ إشارةً إلى إبطالِ الشِّركِ الخَفيِّ أيضًا؛ فإنَّ مَن عبَدَ اللهَ رِياءً لِغَيرِه، فقد اتَّخذ وليًّا غَيرَه[٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٨).

﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ تقبيحُ هؤلاء المُشركينَ، وتَنزيلُ مَرتبتِهم؛ حيثُ شُبِّهوا بالعناكِبِ، لأنَّ تَشبيهَ الإنسانِ بالحيوانِ إذلالٌ له، وتَنزيلٌ لِمَرتبتِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[١] [الإسراء: ٧٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ جوازُ ضَرْبِ الأمثالِ بالدُّونِ حسَبَ ما تقتضيه الحالُ؛ فإنَّ العنكبوتَ مِن أدنى ما يكونُ مِن المخلوقاتِ، وقد قال تعالى في سورةِ البقرةِ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا**﴾ [البقرة: ٢٦]، وقد ضَرَبَ اللهُ مثلًا بالذُّبابِ، وبالحِمارِ، وبالكلبِ، وبالبَعوضةِ، وبالعَنكبوتِ؛ كلُّ هذا حسَبَ ما يقتضيه المقامُ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ سؤالٌ؛ أنَّ العَنكبوتَ قد تَنتفِعُ مِن بيتِها، أمَّا عُبَّادُ الأصنامِ فلا يَنتفعون قطعًا؛ فلا مُشابَهةَ بيْنَهما! فما وجْهُ الشَّبَهِ بيْنَهما؟

الجوابُ: عُبَّادُ الأصنامِ أيضًا قد يَنتفِعون بما يَحصُلُ لهم مِن منفعةٍ مادِّيَّةٍ مِن الوافدينَ لعبادتِها والتَّبرُّكِ بها، لكنَّ هذه المنافعَ مادِّيَّةٌ، أمَّا النَّفعُ الحقيقيُّ الَّذي هم يَرجون -وهو دَفْعُ الضُّرِّ عنهم، وجَلْبُ النفعِ لهم- فليس بحاصلٍ، فلا تَنفَعُهم آلهتُهم ولا تَمنَعُهم، كما أنَّ بيتَ العَنكبوتِ لا يَنْفَعُها ولا يَمْنَعُها؛ فيأتيها الهواءُ والبَردُ والمطرُ، ويَعْلَقُ بها التُّرابُ؛ فلا تَنتفِعُ به الانتفاعَ الكاملَ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فذَكَر سُبحانَه أنَّهم ضُعفاءُ، وأنَّ الَّذين اتَّخذوهم أولياءَ أضعَفُ منهم؛ فهم في ضَعفِهم وما قَصَدوه مِن اتِّخاذِ الأولياءِ كالعَنكبوتِ اتَّخذت بيتًا، وهو أوهَنُ البُيوتِ وأضعَفُها! وتحتَ هذا المَثَلِ أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ أضعَفُ ما كانوا؛ حيثُ اتَّخذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ، فلمْ يَستَفيدوا بمَنِ اتَّخذوهم أولياءَ إلَّا ضَعفًا[1]!

٦- لا يجوزُ تَعدِّي أمثلةِ القُرآنِ؛ لهذا لا يُقالُ عن بيتٍ: إنَّه أوهَى مِن بيتِ العنكبوتِ، فأيُّ معنًى أبلَغُ مِن معنًى أكَّده اللهُ من سِتَّةِ أوجُهٍ؛ حيث قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، فأدخَلَ (إنَّ)، وبنى أفعَلَ التَّفضيلِ، وبناه من الوَهْنِ، وأضافه إلى الجَمعِ، وعَرَّفَ الجمعَ باللامِ، وأتى في خبرِ إنَّ باللَّامِ[2]. لكن يجوزُ أن نقولَ: «حُجَّةُ هذا الرَّجُلِ أوهَى مِن بيتِ العنكبوتِ»؛ لأنَّ الحُجَّةَ ليست بيتًا، فهذا لا بأسَ به؛ لأنَّه ليس فيه مُعارَضةٌ للقرآنِ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ إثباتُ العلمِ للهِ سُبحانَه وتعالى فيما يَتعلَّقُ بالخَلْقِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا ما حَكَمَ على هؤلاء المشركين بمشابهتِهم للعَنكبوتِ إلَّا عن عِلْمٍ بأنَّ هذه الأصنامَ لا تَنفَعُ ولا فائدةَ منها، فالآيةُ كالتَّعليلِ لِمَا قَبْلَها. وفيه أيضًا الرَّدُّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ الأشياءَ المتعلِّقةَ بالخَلْقِ إلَّا بعدَ وُقوعِها[4]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سؤالٌ: أنَّه لو قال قائلٌ: إنَّ المناسِبَ أن يُقالَ: «وهو السَّميعُ العليمُ»؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يَعْلَمُ﴾، فمُقتضى الظَّاهِرِ أن تُختمَ الآيةُ بالعِلمِ!

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

الجوابُ: هذا حَقٌّ بالنِّسبةِ لظاهرِ الكلامِ، لكنْ عندَ التأمُّلِ نَجدُ أنَّ خِتامَه بالعِزَّةِ والحِكمةِ أبلَغُ؛ فإنَّهم يُريدونَ الاستِنصارَ بهذه الأصنامِ، والغَلَبةَ والظُّهورَ، وأكبرُ شاهدٍ لذلك قَولُ أبي سُفيانَ يومَ أُحُد: «اُعْلُ هُبَلُ»[1]! فاعتِزازُهم بهذه الأصنامِ مُقابَلٌ بعِزَّةِ مَن لا يُغْلَبُ، وهو اللهُ جلَّ وعلا؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِبُ لهذه الأصنامِ ولعابِديها[2].

٩- يَقرِنُ اللهُ عزَّ وجلَّ العِزَّةَ بالحِكمةِ كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ بعضَ أهلِ العِزَّةِ مِن الخَلقِ تَحمِلُهم العِزَّةُ على التَّهوُّرِ، وعدَمِ التَّثبُّتِ، وعَدَمِ تنزيلِ الأشياءِ منازلَها. ودليلُ ذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وكَوْنُ العِزَّةِ تأخُذُه بالإثمِ خِلافُ الحِكمةِ؛ فلهذا يَقْرِنُ اللهُ سبحانه وتعالى «العزيزَ» بـ«الحكيم»؛ إشارةً إلى أنَّ عِزَّتَه تبارك وتعالى مَقرونةٌ بالحِكمةِ، فهو وإنْ كان عزيزًا غالبًا قاهرًا له السُّلطانُ الكاملُ، فإنَّه عزَّ وجلَّ لا يُدَبِّرُ الأمرَ إلَّا على وجهِ الحِكمةِ البالغةِ. ثُمَّ إنَّه على تفسيرِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بأنَّه ذو الحُكْمِ والحِكمةِ؛ فإنَّ عِزَّتَه عزَّ وجلَّ مَقرونةٌ بحُكْمِه، وأنَّ له الحُكمَ المُطلَقَ في عبادِه سُبحانَه وتعالى[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه لا يَنتفِعُ بالآياتِ إلَّا المؤمِنونَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه كُلَّما كَمَلَ إيمانُ العَبدِ ازدادَ انتِفاعًا بالآياتِ؛ وجْهُه: أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ ازدادَ قوَّةً بقوَّتِه، وضَعفًا بضَعْفِه؛ فكُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا ظَهَرَ له مِن آياتِ اللهِ في هذه المَخلوقاتِ ما لم

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٨).

يَظهَرْ لِمَن هو دونَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾ فيه تَمثيلٌ وتَشبيهٌ مُركَّبٌ، والمعنى: مَثَلُ الَّذين اتَّخذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ، فيما اتَّخذوه مُعتَمدًا ومُتَّكَلًا في دِينِهم، وتَوَلَّوه مِن دُونِ اللهِ تعالى؛ كمثَلِ العَنكبوتِ فيما نَسجَتْه واتَّخذَتْه بَيتًا، والغرَضُ تقريرُ وَهْنِ أمْرِ دِينِهم، وأنَّه بلَغَ الغايةَ الَّتي لا غايةَ بعْدَها، ومَدارُ قُطْبِ التَّشبيهِ أنَّ أولياءَهم بمَنزلةِ مَنسوجِ العنكبوتِ؛ ضَعْفِ حالٍ، وعدَمِ صُلوحِ اعتمادٍ عليه، وعلى هذا يكونُ قولُه تعالى: (إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ...) تَذييلًا يُقرِّرُ الغرَضَ مِن التَّشبيهِ[٢].

أو هو مَثَلُ المُشرِكِ الذي يَعبُدُ الوثَنَ بالقِياسِ إلى المؤمنِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ، مثَلُ عَنكبوتٍ يتَّخِذُ بيتًا، بالإضافةِ إلى رجُلٍ يَبْني بيتًا بآجُرٍّ وجَصٍّ، أو يَنحِتُه مِن صَخْرٍ، وكما أنَّ أوهَنَ البيوتِ إذا استَقْرَيْتَها بيتًا بيتًا بيتُ العنكبوتِ، كذلك أضعَفُ الأديانِ -إذا استَقرَيْتَها دِينًا دِينًا- عِبادةُ الأوثانِ لو كانوا يَعلَمون[٣].

أو شَبَّه اللهُ تعالى الكفَّارَ في عِبادتِهم الأصنامَ، وبِنائِهم أُمورَهم عليها بالعَنكبوتِ الَّتي تَبْني وتَجتهِدُ، وأمْرُها كلُّه ضَعيفٌ؛ فكذلك أمْرُ أولئك، وسَعْيُهم مُضمحِلٌّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢٠/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٣٧).

لا قوَّةَ له ولا مُعتمَدَ[١].

- وقولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عَبَّرَ بـ «الدُّونِ»؛ لِدُنُوِّ مَرتبتِه بالنِّسبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

- وقَولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، عبَّر عنها بالتَّأنيثِ -وإن كانت تُقالُ بالتَّذكيرِ- تعظيمًا لِضَعفِها؛ لأنَّ المقامَ لِضَعفِ ما تَبنيه[٣].

- وجُملةُ ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، وهي قَيدٌ في التَّشبيهِ. وهذه الهيئةُ المُشبَّهُ بها مع الهَيئةِ المُشبَّهةِ قابلةٌ لِتَفريقِ التَّشبيهِ على أجزائِها؛ فالمُشرِكون أشْبَهوا العنكبوتَ في الغُرورِ بما أعَدُّوه، وأولياؤهم أشْبَهوا بيتَ العنكبوتِ في عدَمِ الغَناءِ عمَّن اتَّخذوها وقْتَ الحاجةِ إليها وتَزولُ بأقلِّ تَحريكٍ، وأقْصى ما يَنتفِعون به منها نفْعٌ ضَعيفٌ، وهو السُّكنى فيها، وتَوهُّمُ أنْ تَدفَعَ عنهم، كما يَنتفِعُ المُشرِكون بأوهامِهم في أصنامِهم. وهو تَمثيلٌ بَديعٌ مِن مُبتكَراتِ القرآنِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ مُعترِضةٌ مُبيِّنةٌ وجْهَ الشَّبهِ. وهذه الجُملةُ تَجْري مَجْرى المثَلِ، فيُضرَبُ لِقِلَّةِ جَدوى شَيءٍ؛ فاقْتَضى ذلك أنَّ الأديانَ الَّتي يَعبُدُ أهْلُها غيرَ اللهِ هي أحقَرُ الدِّياناتِ وأبعَدُها عن الخيرِ والرُّشدِ، وإنْ كانت مُتفاوِتةً فيما يَعرِضُ لتلك العِباداتِ مِن الضَّلالاتِ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٢).

قال أبو السعود: (والعنكبوتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ، والغالبُ في الاستعمالِ التَّأنيثُ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

تَتفاوَتُ بُيوتُ العنكبوتِ في غِلَظِها بحسَبِ تفاوُتِ الدُّوَيْباتِ الَّتي تَنسُجُها في القوَّةِ والضَّعفِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ على إضمارِ القولِ، أي: قُلْ للكَفَرةِ:...[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ تَوكيدٌ للمَثلِ وزِيادةٌ عليه، حيثُ لم يَجعَلْ ما يَدْعونه شيئًا -هذا على تقديرِ كونِ (ما) نافيةً-. وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه تَجهيلٌ لهم؛ حيثُ عَبَدوا ما ليس بشَيءٍ؛ لأنَّه جَمادٌ ليس معه مُصحِّحُ العِلْمِ والقُدرةِ أصلًا، وتَركوا عِبادةَ القادرِ القاهرِ على كلِّ شَيءٍ، الحَكيمِ الَّذي لا يَفعَلُ شيئًا إلَّا بحِكمةٍ وتَدبيرٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تَعليلٌ؛ فإنَّ إشراكَ ما لا يُعَدُّ شيئًا بمَن هذا شأنُه من فرطِ الغباوةِ، وإنَّ الجَمادَ بالنِّسبةِ إلى القادرِ القاهرِ على كُلِّ شَيءٍ، البالِغِ في العِلْمِ وإتقانِ الفِعلِ الغايةَ القاصيةَ: كالمعدومِ البَحْتِ، وأنَّ مَن هذه صِفاتُه قادرٌ على مُجازاتِهم[٤]. أو: تَذييلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّ الجُملةَ على كِلَا المعنيينِ في مَعاني ﴿مَا﴾ تدُلُّ على أنَّ الَّذي بيَّن حَقارةَ حالِ الأصنامِ واختِلالَ عُقولِ عابِديها، فلم يَعبأْ بفَضْحِها وكَشْفِها بما يَسُوؤُها، مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٣٦).

وَفْرةِ أتْباعِها، ومع أوهامِ أنَّها لا يَمَسُّها أحدٌ بسُوءٍ إلَّا كانتْ مجتَمِعةً عليه بالعداوةِ؛ فلو كان للأصنام حَظٌّ في الإلهيَّةِ لَما سَلِمَ مِن ضَرِّها مَن يُحَقِّرُها، كقولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وأنَّه لَمَّا فضَحَ عُقولَ عُبَّادِها، لم يَخْشَهم على أوليائه، بَلْهَ ذاتَه؛ فهو عَزيزٌ لا يُغلَبُ، وحَكيمٌ لا تَنْطلي عليه الأوهامُ والسَّفاسطُ، بخِلافِ حالِ هاتيكَ وأولئكَ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ (تِلك) للتَّنويهِ بالأمثالِ المَضروبةِ في القُرآنِ الَّتي منها هذا المثَلُ بالعَنكبوتِ. وجُملةُ ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ خبرٌ عن اسم الإشارةِ، وهذه الجُملةُ الخبَريَّةُ مُستعمَلةٌ في الامتِنانِ والطَّوْلِ؛ لأنَّ في ضرْبِ الأمثالِ تقريبًا لِفَهمِ الأمورِ الدَّقيقةِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الذين لم يَنتفِعوا بها جُهلاءُ العقولِ؛ فما بالُك بالَّذين اعْتاضُوا عن التَّدبُّرِ في دَلالتِها باتِّخاذِها هُزءًا وسُخريَّةً[3]؟!

٤- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تعالى عدَمَ انتفاعِ المُشركينَ بالحُجَّةِ ومُقدِّماتِها ونتائجِها المُوصِلةِ إلى بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنام، مُستوفاةً مُغْنيةً لِمَن يُريدُ التَّأمُّلَ والتَّدبُّرَ في صِحَّةِ مُقدِّماتِها بإنصافٍ؛ نقَلَ الكلامَ إلى مُخاطَبةِ المؤمنينَ؛ لإفادةِ التَّنويهِ بشأْنِ المؤمنينَ؛ إذِ انْتَفعوا بما هو أدَقُّ مِن ذلك، وهو حالةُ النَّظرِ والفِكرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في دَلالةِ الكائناتِ على أنَّ خالقَها هو اللهُ، وأنَّه ليس شَيءٌ غيرُه حَقيقًا بمُشارَكتِه في إلهيَّتِه، فأفاد أنَّ المؤمنينَ قدِ اهتَدَوا إلى العِلْمِ ببُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ، خِلافًا للمُشركينَ الَّذين لم يَهْتَدُوا بذلك، فأفهَمَ ذلك أنَّ مَن لم يَعقِلوها لَيسوا بعالِمينَ؛ أخْذًا مِن مَفهومِ الصِّفةِ في قولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا اعتُبِرَ المعنى الوَصْفيُّ مِن قولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أو أخْذًا مِنَ الاقتصارِ على ذِكْرِ المؤمنينَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا اعتُبِرَ عُنوانُ المؤمنينَ لَقبًا. والاقتصارُ عندَ ذِكرِ دَليلِ الوَحدانيَّةِ على انتفاعِ المؤمنينَ بتلك الدَّلالةِ المُفيدِ بأنَّ المشركينَ لم يَنتفِعوا بذلك يُشْبِهُ الاحتباكَ بيْنَ الآيتَينِ[1].

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيه تَنبيهٌ على صِغَرِ قَدْرِ الأوثانِ الَّتي عَبَدوها[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَخصيصُ المؤمنينَ بالذِّكْرِ مع عُمومِ الهِدايةِ والإرشادِ في خَلْقِهما للكلِّ؛ لأنَّهم المُنتفِعون بذلك[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٦، ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن هذا القُرآنِ واتَّبِعْه واعمَلْ به، وأقِمِ الصَّلاةَ؛ إنَّ الصَّلاةَ تُبعِدُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وما في الصَّلاةِ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ مِن كَونِها تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، واللهُ يعلَمُ ما تصنَعونَ.

ولا تُجادِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- اليهودَ والنَّصارى إلَّا بأحسَنِ طريقةٍ -وذلك بالرِّفقِ واللِّينِ- إلَّا المعانِدينَ المُعتَدينَ منهم. وقُولوا لهم: آمَنَّا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ إلينا، وبما أنزَلَه اللهُ إليكم مِن التَّوراةِ والإنجيلِ غيرِ المحرَّفَينِ، ومَعبودُنا ومَعبودُكم واحِدٌ، وهو اللهُ سُبحانَه، ونحن له تعالى خاضِعونَ مُنقادونَ بالطَّاعةِ والعبادة.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه موقفَ النَّاسِ مِن الكتابِ الَّذي أنزلَه على رسولِه، فيقولُ: وكما أنزَلْنا على الرُّسُلِ السَّابِقينَ كُتُبًا أنزَلْنا إليك -يا محمَّدُ- كِتابًا، وهو القُرآنُ، فعُلَماءُ أهلِ الكتابِ مِن اليَهودِ والنَّصارى يُؤمِنونَ بالقُرآنِ، ومِن هؤلاءِ الَّذين هم بيْنَ ظَهرانَيْك مَن يُؤمِنُ بالقُرآنِ، وما يَجحَدُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا إلَّا الكافِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن ضَرَب اللهُ للنَّاسِ المَثَلَ بالأُمَمِ السَّالِفةِ، وجاء بالحُجَّةِ المُبيِّنةِ فَسادَ مُعتَقَدِ المُشرِكينَ، ونَوَّهَ بصِحَّةِ عَقائِدِ المؤمِنينَ بمُنتهَى البيانِ الَّذي ليس وراءَه مَطلَبٌ- أقبَل على رَسولِه بالخِطابِ الَّذي يَزيدُ تثبيتَه على نَشرِ الدَّعوةِ، ومُلازَمةِ الشَّرائِعِ، وإعلانِ كَلِمةِ اللهِ بذلك، وما فيه زيادةُ صلاح المؤمِنينَ الَّذين انتَفَعوا بدَلائِلِ الوحدانيَّةِ؛ وما الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا قُدوةٌ للمُؤمِنينَ وسَيِّدُهم، فأمْرُه أمْرٌ لهم[(١)].

﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

أي: اقرَأْ -يا مُحمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن هذا القُرآنِ بتدَبُّرٍ، واتَّبِعْه واعمَلْ به، وأبلِغْه للنَّاسِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٧، ٢٥٨).

قال ابن القيم: (حقيقةُ التِّلاوَةِ ... هي التِّلاوةُ المُطْلَقةُ التَّامَّةُ، وهي تلاوةُ اللَّفظِ والمعنَى، فتلاوةُ اللَّفْظِ جُزْءُ مُسَمَّى التِّلاوةِ المُطْلقةِ، وحقيقةُ اللَّفظِ إنَّما هي الاتِّباعُ ... وسُمِّيَ تالي الكلامِ تاليًا؛ لأنَّه يُتبِعُ بعضَ الحروفِ بعضًا، لا يُخرِجُها جُملةً واحدةً، بل يُتبِعُ بعضَها بعضًا مُرَتَّبةً، كلَّما انقضَى حرفٌ أو كلمةٌ أتْبَعَه بحرفٍ آخَرَ وكلمةٍ أخرَى، وهذه التِّلاوةُ وسيلةٌ وطريقةٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تِلاوةُ المعْنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخَبَره، وائْتمارًا بأمْرِه، وانتهاءً بنَهْيِه، وائْتمامًا به، حيثُ ما قادك انقَدْتَ معه؛ فتِلاوةُ القرآنِ تَتناوَلُ تِلاوةَ لَفظِه ومعناه، وتِلاوةُ المعْنى أشرَفُ مِن مُجَرَّدِ تِلاوةِ اللَّفظِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٤٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ ...﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأَدِّ -يا مُحمَّدُ- الصَّلَواتِ تامَّةً بشُروطِها وأركانِها وواجباتِها[١].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: إنَّ الصَّلاةَ المُقامةَ بحُدودِها وخُشوعِها مِن شأنِها أن تَدعُوَ صاحِبَها إلى اجتِنابِ الوُقوعِ في الفَحشاءِ والمُنكَرِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٧، ٢٣٨).

قال ابن جرير: (فإنْ قال قائل: وكيف تَنهى الصَّلاةُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ إن لم يكُنْ مَعْنيًّا بها ما يُتْلَى فيها؟

قيل: تَنهى مَن كان فيها، فتَحولُ بيْنَه وبيْنَ إتيانِ الفَواحشِ؛ لأنَّ شُغلَه بها يَقطَعُه عن الشُّغلِ بالمُنكَرِ؛ ولذلك قال ابنُ مسعودٍ: «مَن لم يُطِعْ صلاتَه، لم يَزْدَدْ مِنَ الله إلَّا بُعدًا»؛ وذلك أنَّ طاعتَه لها إقامتُه إيَّاها بحدودِها، وفي طاعتِه لها مُزْدَجَرٌ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٠).

وقال ابن عطية: (وعندي أنَّ المعنى ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ على الإطلاقِ أي هو الذي ينهَى عن الفحشاءِ والمنكر، فالجزءُ الذي منه في الصلاةِ يفعلُ ذلك، وكذلك يفعلُ في غيرِ الصلاةِ؛ لأنَّ الانتهاءَ لا يكونُ إلَّا من ذاكرٍ مراقب). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٠).

وقد ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ الفحشاءَ هي ما ظهَر قُبحُه لكلِّ أحدٍ، واستَفحَشَه كلُّ ذي عقلٍ سليمٍ، =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إنَّ فُلانًا يُصَلِّي باللَّيلِ، فإذا أصبَحَ سَرَق! قال: إنَّه سيَنْهاهُ ما تَقولُ))(١).

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان النَّاهي في الحَقيقةِ إنَّما هو ذِكرُ اللهِ؛ أتْبَع ذلك الحثَّ على رُوحِ الصَّلاةِ والمَقصدِ الأعظَمِ منها، وهو المُراقَبةُ لِمَن يُصَلِّي له، حتَّى كأنَّه يراه؛ لِيَكونَ بذلك في أعظَمِ الذِّكْرِ، فقال(٢):

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾.

أي: وما في الصَّلاةِ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ مِن كَونِها تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ(٣).

= وأنَّ المُنكَرَ هو الَّذي تَستنكِرُه العُقولُ والفِطَرُ. فما استقَرَّ قُبحُه في الفِطَرِ والعقولِ واشتدَّ الإنكارُ له فهو فاحشةٌ، وما لم يُعرَفْ حُسْنُه ولم يُؤْلَفْ فهو المُنكَرُ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وقال الواحدي: (الفَحشاءُ: ما قَبُح مِن العَمَلِ، والمنكَرُ: ما لا يُعرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ). ((الوسيط)) (٣/ ٤٢١).

(١) أخرجه أحمد (٩٧٧٨)، والبزار (٩٢١٧)، وابن حبان (٢٥٦٠).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٦١): رجالُه رجالُ الصحيح. وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١١٩٣)، والأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩٧٧٨)، وصَحَّح الحديثَ الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١٣٩٣) وقال: رجاله رجالُ الصَّحيحِ.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٤) و (٢٠/ ١٩٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وممَّن ذهب إلى القَولِ بأنَّ ذِكرَ الله -الَّذي في الصَّلاةِ- أكبَرُ وأعظَمُ مقصودًا مِن كَونِها تَنهى عن الفَحشاءِ والمنكَرِ؛ فتحصيلُ المحبوبِ أكبَرُ وأهَمُّ مِن دَفعِ المكروهِ: ابنُ تيميَّةَ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أمرينِ، وهما تلاوةُ الكتابِ، وإقامةُ الصَّلاةِ؛ بَيَّن ما يُوجِبُ أنْ يكونَ الإتيانُ بهما على أبلغِ وُجوهِ التَّعظيمِ فقال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ فيَنْبَغي أنْ يكونَ على أبلغِ وُجوهِ التَّعظيمِ، وأمَّا الصَّلاةُ فكذلك؛ لأنَّ اللَّهَ يعلمُ ما تَصنعونَ[1].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ ما تَصنَعونَه -أيُّها النَّاسُ- وسيُجازيكم عليه[2].

= وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عون. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٦).

وقيل: المعنى: ولَذِكرُ اللهِ إيَّاكم أفضَلُ من ذِكرِكم إيَّاه. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والراغب الأصفهانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وسَلْمانُ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ، ومُجاهدٌ، وأبو قُرَّةَ، وشُعْبةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

قال الرَّسْعَنيُّ: (وإلى هذا المعنى ذهَب ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وعطيَّةُ وجمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٩).

وقيل: المعنى: ولَذِكرُ اللهِ أكبَرُ وأفضَلُ مِن كُلِّ شَيءٍ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: أبو الدَّرْداءِ، وسَلْمانُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦١).

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى طريقةَ إرشادِ المُشرِكينَ؛ بيَّن طَريقةَ إرشادِ أهلِ الكِتابِ، فقال[1]:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

أي: ولا تُجادِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- اليَهودَ والنَّصارى إلَّا بأحسَنِ طَريقةٍ، وذلك بدُعائِهم إلى الحَقِّ بالرِّفقِ واللِّينِ، والقَولِ الحَسَنِ، وبأقرَبِ الحُجَجِ وأقْواها المُوصِلةِ للمَقصودِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: إلَّا المُعانِدينَ للحَقِّ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، المُعتَدينَ الَّذين لم يَقبَلوا النُّصحَ، ولم يَنفَعْ فيهم الرِّفقُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٥-٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٧)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٠، ٢٥١).

قال الماوَرْدي: (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّهم أهلُ الحربِ، قاله مجاهدٌ. الثَّاني: مَن منَعَ الجِزيةَ منهم، رواه خُصَيْفٌ. الثَّالثُ: ظَلَموا بالإقامةِ على كُفرِهم =

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: وقولوا لهم: آمَنَّا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ إلينا، وآمَنَّا بما أنزَلَه إليكم مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ، ممَّا لم يُحَرَّفْ ويُبَدَّلْ(١).

= بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، قاله ابنُ زَيدٍ. الرَّابعُ: ظلَموا في جِدالِهم فأغلَظوا لهم، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الَّذين منَعوا الجِزيةَ، ونصَبوا الحربَ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٣).

قال الرَّسْعَني: (وقال أكثرُ المفسِّرينَ: معناه: إلَّا الذين ظلَموا بالإقامةِ على الكفرِ، ونَصْبِ رايةِ الحربِ، فقاتِلوهم حتَّى يُسْلِموا أو يُعطُوا الجزيةَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الَّذين ظلَموا في جِدالِهم بالفُحشِ في المقالِ أو العِنادِ وعدَمِ قَبولِ النُّصحِ، أو جادَلوا على وجهِ المُشاغَبةِ والمُغالَبةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وقال ابن عثيمين: (وهل الآيةُ تدُلُّ على أنَّهم يُترَكون، أم أنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّهم يُجادَلونَ بالَّتي هي أَسْوَأُ؟

اختلَف كلامُ المفَسِّرينَ في هذه المسألةِ؛ فمنهم مَن قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فاترُكوهم ولا تُجادِلوهم؛ لأنَّه لا فائدةَ مِن جِدالِهم ما دام قد ظهَرَ عِنادُهم وظُلمُهم. ومنهم مَن قال... فجادِلوهم بالسَّيفِ حتَّى يُسلِموا أو يُعطُوا الجِزيةَ. وعندي أنَّ الآيةَ تحتَمِلُ المعنيينِ جميعًا، وأنَّه ينبغي أن تُنَزَّلَ على الحالينِ، وتُستعمَلَ كلُّ حالٍ بما يليقُ ويُناسِبُ؛ فإذا كان المقامُ يقتضي أن نجادِلَهم بالسَّيفِ، وذلك بأن يكونَ لدينا مِنَ القُوَّةِ والقُدرةِ ما نَتمكَّنُ به مِن ذلك، وإذا لم يكُنْ لنا قدرةٌ وكانت المصلحةُ تقتضي تَرْكَهم فإنَّنا نَترُكُهم، وهذا -واللهُ أعلم- هو السِّرُّ في أنَّ الله عزَّ وجَلَّ لم يذكُرْ حُكمَ هذا المُستثنى صريحًا، فلم يَقُلْ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فجادِلوهم بالَّتي هي أسوأُ، ولم يَقُل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فلا تُجادِلوهم. بل جعَلَه صالحًا للأمْرَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٠، ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢). =

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾.

أي: ومَعبودُنا ومَعبودُكم واحِدٌ، وهو اللهُ سُبحانَه[(١)].

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: ونحن -مَعشَرَ المُسلِمينَ- خاضِعونَ لله مُنقادونَ، ومُتذَلِّلونَ له بالطَّاعةِ، لا نُشرِكُ به شَيئًا[(٢)].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: وكما أنزَلْنا على الرُّسُلِ السَّابِقينَ كُتُبًا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- كِتابًا، وهو القُرآنُ[(٣)].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: فعُلَماءُ أهلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى يُؤمِنونَ بالقُرآنِ[(٤)].

= قال البقاعي: (يعني في أنَّ أصلَه حَقٌّ، وإن كان قد نُسِخَ منه ما نُسِخَ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٥٠).
وقال الشوكاني: (لا يَدخُلُ في ذلك ما حرَّفوه وبدَّلوه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣].

﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾.

أي: ومِن هؤلاء الَّذين هم بينَ ظَهرانَيْكَ[١] -يا محمَّدُ- مَن يؤمِنُ بالقُرآنِ[٢].

= قيل: المعنى: الَّذين آتَيْناهم الكِتابَ مِن قَبْلِك مِن بني إسرائيلَ كانوا يؤمِنونَ بك وبالقُرآنِ؛ لِما في كتُبِهم مِن صِفتِك. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١).

وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ اليهودُ والنَّصارى: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٧٠).

وقيل: المرادُ: فالَّذين آتَيْناهم الكِتابَ؛ كعبدِ اللهِ بنِ سَلام وأمثالِه ممَّن أسلَمَ مِن اليهودِ والنَّصارى. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٢).

(١) قيل: المرادُ: مَن أسلَمَ مِن أهلِ الكتابِ؛ كعبدِ اللهِ بنِ سلامٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١).

وقيل: العَرَبُ مِن قُرَيشٍ وغيرِهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٩).

وقيل: المرادُ: أهلُ مكَّةَ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والنسفي، والعليمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

أي: وما يَجحَدُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا مع ظُهورِها إلَّا الرَّاسِخونَ في الكُفرِ، فيَستُرونَ الحقَّ ويُنكِرونَه بعدَ مَعرِفتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فيه أنَّ الصَّلاةَ مِن شَأنِها أنَّها إذا أُدِّيَت على ما يجِبُ مِن فُروضِها وسُنَنِها والخُشوعِ فيها، والتدَبُّرِ لِما يتلو فيها، وتقديرِ المُثولِ بيْنَ يَدَي اللهِ تعالى- أن تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ(٢)، ووجهُ كَونِ الصَّلاةِ تَنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ: أنَّ العَبدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

قال ابن عاشور: (وعَبَّر عن الكتابِ بـ «الآيات»؛ لأنَّه آياتٌ دالَّةٌ على أنَّه مِن عندِ اللهِ بسببِ إعجازِه وتَحَدِّيه وعجزِ المعاندينَ عن الإتيانِ بسورةٍ مِثْله). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

وقال ابن عثيمين: (وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: الشَّرعيةِ والكَونيَّةِ؛ فإنَّ مِن النَّاسِ مَن جَحَد الآياتِ الكونيَّةَ؛ جَحَد أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُحيي الموتى، بل مِنَ النَّاسِ مَن جَحَد أن تكونَ هذه الخليقةُ بخَلقٍ! وأمَّا جَحدُ الآياتِ الشَّرعيَّةِ فكثيرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩).

المُقيمَ لها، المتمِّمَ لأركانِها وشُروطِها وخُشوعِها: يَستنيرُ قَلبُه، ويتطَهَّرُ فؤادُه، ويَزدادُ إيمانُه، وتَقوى رغبتُه في الخيرِ، وتَقِلُّ أو تَعدَمُ رَغبتُه في الشَّرِّ؛ فبالضَّرورةِ مُداومتُها والمحافظةُ عليها على هذا الوَجهِ تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، فهذا مِن أعظَمِ مَقاصِدِها وثَمَراتِها[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الظَّالمَ لم يُؤمَرْ بجِدالِه بالَّتي هي أحسَنُ؛ فمَن كان ظالِمًا مُستَحِقًّا للقتالِ غيرَ طالبٍ للعِلمِ والدِّينِ، فهو مِن هؤلاء الظَّالِمينَ الَّذين لا يُجادَلون بالَّتي هي أحسَنُ، بخِلافِ مَن طلَبَ العِلمَ والدِّينَ، ولم يَظهَرْ منه ظُلمٌ، سواءٌ كان قَصْدُه الاسترشادَ، أو كان يَظُنُّ أنَّه على حقٍّ يَقصِدُ نَصْرَ ما يَظُنُّه حَقًّا. ومَن كان قَصْدُه العِنادَ، ويَعلَمُ أنَّه على باطلٍ ويُجادِلُ عليه؛ فهذا لم يُؤمَرْ بمُجادَلتِه بالَّتي هي أحسَنُ، لكنْ قد نُجادِلُه بطُرُقٍ أخرى نُبَيِّنُ فيها عِنادَه وظُلمَه وجَهلَه؛ جزاءً له بموجَبِ عمَلِه[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فيه النَّهيُ عن مُجادَلةِ أهلِ الكتابِ إذا كانت مِن غيرِ بَصيرةٍ مِن المجادِلِ، أو بغيرِ قاعدةٍ مَرْضيَّةٍ، وألَّا يُجادَلوا إلَّا بالَّتي هي أحسَنُ؛ بحُسنِ خُلُقٍ، ولُطفٍ ولِينِ كَلامٍ، ودَعوةٍ إلى الحَقِّ وتَحسينِه، ورَدٍّ عن الباطِلِ وتهجينِه، بأقرَبِ طريقٍ مُوصِلٍ لذلك، وألَّا يكونَ القَصدُ منها مُجرَّدَ المجادَلةِ والمغالَبةِ وحُبِّ العُلُوِّ، بل يكونُ القَصدُ بيانَ الحَقِّ، وهِدايةَ الخَلقِ، إلَّا مَن ظلَمَ مِن أهلِ الكِتابِ، بأن ظهَرَ مِن قَصدِه وحالِه أنَّه لا إرادةَ له في الحَقِّ، وإنَّما يُجادِلُ على وَجهِ المُشاغَبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢١٩).

والمُغالَبةِ، فهذا لا فائِدةَ في جِدالِه؛ لأنَّ المقصودَ منها ضائِعٌ[(١)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: ولْتكُنْ مُجادَلتُكم لأهلِ الكِتابِ مَبنيَّةً على الإيمانِ بما أُنزِلَ إليكم وأُنزِلَ إليهم، وعلى الإيمانِ برَسولِكم ورَسولِهم، وعلى أنَّ الإلهَ واحِدٌ، ولا تكُنْ مُناظَرتُكم إيَّاهم على وَجهٍ يَحصُلُ به القَدحُ في شَيءٍ مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، أو بأحدٍ مِنَ الرُّسُلِ، كما يفعَلُه الجاهِلُ عند مُناظَرةِ الخُصومِ؛ يَقدَحُ في جَميعِ ما معهم مِن حَقٍّ وباطِلٍ! فهذا ظُلمٌ وخروجٌ عن الواجِبِ وآدابِ النَّظَرِ؛ فإنَّ الواجِبَ أن يَرُدَّ ما مع الخَصمِ مِن الباطِلِ، ويَقبَلَ ما معه مِن الحَقِّ، ولا يَرُدَّ الحَقَّ لأجْلِ قَولِه، ولو كان كافِرًا[(٢)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَحۡسَنُ﴾ اسمُ تفضيلٍ مُطلَقٌ، يَعُمُّ الحُسنَ في سياقِ الأدِلَّةِ، ويَعُمُّ الحُسنَ في كيفيَّةِ المجادَلةِ؛ فلا بُدَّ مِن الأمْرَينِ: مِن حُسْنِ الطَّرِيقِ -بمعنى: أنْ تأتيَ بأقرَبِ الطُّرُقِ لإقناعِ الخصمِ- ومِن كيفيَّةِ عَرْضِ هذه الطَّريقةِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وُجوبُ تلاوةِ القرآنِ على الوُجوهِ الثَّلاثةِ: تِلاوةِ اللَّفظِ، والمعنى، والاتِّباعِ[(٤)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ إن قيلَ: كم مِن مُصَلٍّ يَرتكِبُ الفَحشاءَ والمُنكَرَ ولا تَنْهاه صلاتُه؟

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٢).

فالجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الصَّلاةَ الَّتي تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكرِ هي الصَّلاةُ المُقامةُ الَّتي أقامَها الإنسانُ على الوجهِ الَّذي ينبغي[1].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ مَن كان مُراعيًا للصَّلاةِ جَرَّه ذلك إلى أن يَنتهيَ عن السَّيِّئاتِ يومًا ما، وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ المُراعيَ للصَّلاةِ لا بدَّ أن يكونَ أبعَدَ مِنَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ مِمَّن لا يُراعيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه كم مِن مُصَلِّينَ تَنهاهم الصَّلاةُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، واللَّفظُ لا يَقتضي ألَّا يَخرُجَ واحِدٌ مِنَ المصَلِّينَ عن قَضيَّتِها، كما تقولُ: (إنَّ زَيدًا ينهَى عن المنكَرِ)، فليس غَرَضُك أنَّه يَنهى عن جميعِ المناكيرِ، وإنَّما تُريدُ أنَّ هذه الخَصلةَ مَوجودةٌ فيه، وحاصِلةٌ منه، مِن غيرِ اقتضاءٍ للعُمومِ[2].

الوجهُ الرابعُ: أنَّ المقصودَ أنَّ الصَّلاةَ تُيَسِّرُ للمُصلِّي تَرْكَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وليس المعنى أنَّ الصَّلاةَ صارِفةٌ المُصَلِّيَ عن أن يَرتكِبَ الفَحشاءَ والمُنكَرَ؛ فإنَّ المُشاهَدَ يُخالِفُه؛ إذ كم مِن مُصَلٍّ يُقيمُ صَلاتَه، ويقتَرِفُ بَعضَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ.

الوجهُ الخامِسُ: أنَّ الصَّلاةَ تَشتَمِلُ على مُذكِّراتٍ باللهِ مِن أقوالٍ وأفعالٍ مِن شأنِها أن تَكونَ للمُصَلِّي كالواعِظِ المُذَكِّرِ باللهِ تعالى؛ إذ يَنهى سامِعَه عن ارتكابِ ما لا يُرضي اللهَ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه معلومٌ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقيمُ الصَّلاةَ، وأنَّه أقوَمُ المصلِّينَ صَلاةً، فكيف وُجِّهَ إليه الخِطابُ

(١) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨، ٢٥٩).

بإقامةِ الصَّلاةِ؟!

الجوابُ: توجيهُ الخِطابِ لِمَن يَتَّصِفُ به: المرادُ به الاستِمرارُ عليه، لا تَجديدُه؛ لأنَّه موجودٌ؛ مِثلُ قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، فالخِطابُ ليس عَبثًا حتَّى نقولَ: إنَّ هذا أمرٌ بالإيمانِ! لأنَّ الأمرَ بالإيمانِ تحصيلُ الحاصلِ؛ لأنهم مُؤمِنونَ، فالخِطابُ المرادُ منه الاستِمرارُ على الإيمانِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ التَّعبيرُ بالنَّهيِ، وهو أبلغُ مِن التَّعبيرِ بالمنعِ؛ فإنَّ المانعَ قد لا يكونُ مُحَذِّرًا، لكنْ في النَّهيِ تحذيرٌ، وهو أشدُّ مِن المنعِ؛ لأنَّها تُوجِبُ في القَلبِ كراهةً لهذا الشَّيءِ ونفورًا منه، ومجرَّدُ المنعِ لا يقتَضي ذلك؛ فكأنَّ الصَّلاةَ فيها سِرٌّ يقتَضي أنْ يَبعُدَ الإنسانُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، كأنَّها تُؤَنِّبُ ضميرَه: لماذا تَفعَلُ هذا؟! فالصَّلاةُ توجِبُ المنعَ مِن المعاصي[2].

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إنَّ الصَّلاةَ فيها دَفعُ مَكروهٍ وهو الفَحشاءُ والمُنكَرُ، وفيها تحصيلُ محبوبٍ وهو ذِكرُ اللهِ، وحُصولُ هذا المحبوبِ أكبَرُ مِن دَفعِ ذلك المكروهِ؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ عِبادةٌ لله، وعِبادةُ القَلبِ لله مقصودةٌ لِذاتِها، وأمَّا اندفاعُ الشَّرِّ عنه فهو مقصودٌ لِغَيرِه على سَبيلِ التَّبَعِ[3]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وقَولِه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أنَّ الأمورَ الإيجابيَّةَ أكمَلُ مِن الأمورِ السَّلبيةِ؛ لأنَّ ذِكْرَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٠).

أمرٌ إيجابيٌّ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، والنَّهْيَ عنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ أمرٌ سَلبيٌّ؛ ولهذا قال العُلَماءُ: إنَّ الصَّبرَ على طاعةِ اللهِ أكملُ مِن الصبرِ عن مَعصيةِ اللهِ؛ لأنَّه صبْرٌ على فِعلِ مُعاناةٍ ومَشقَّةٍ؛ فالإنسانُ يجاهِدُ نفْسَه بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ مِن وَجهَينِ: مِن جهةِ إلزامِها بها، ومِن جهةِ الصَّبرِ والتَّحمُّلِ لهذه الأفعالِ والأقوالِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ عبَّرَ بلَفظِ (الصَّنعةِ) الدَّالِّ على مُلازَمةِ العَمَلِ؛ تَنبيهًا على أنَّ إقامةَ ما ذُكِرَ تحتاجُ إلى تمرُّنٍ عليه وتدرُّبٍ؛ حتَّى يَصيرَ طبعًا صَحيحًا، ومَقصودًا صَريحًا(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعُمومِ علمِه بقَولِه (ما)، وتَعَلُّقِه بفِعلِ العِبادِ بقَولِه: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، وفيه رَدٌّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ؛ لأنَّهم كانوا قديمًا يُنكِرون تَعَلُّقَ عِلمِ اللهِ بفِعلِ العبدِ، ويقولون: إنَّ الأمرَ أُنُفٌ، أي: مُستأنَفٌ، وأنَّ اللهَ لا يَعلَمُ بأفعالِ العِبادِ إلَّا إذا عَمِلوها! ولا شكَّ أنَّ هذا كُفرٌ، كما قال الشافعيُّ وغيرُه: «جادِلوهم بالعلمِ، فإنْ أقَرُّوا به خُصِمُوا، وإنْ أنكَروه كَفَروا»(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للعبدِ، ونِسبتُها إليه، وفيها أيضًا رَدٌّ على الجَبريَّةِ(٤).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ هو أصلٌ في آدابِ المُناظَرةِ والجَدَلِ(١).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ جيءَ في النَّهيِ بصيغةِ الجَمعِ؛ لِيَعُمَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ؛ إذ قد تَعرِضُ للمُسلِمينَ مُجادَلاتٌ مع أهلِ الكِتابِ في غيرِ حَضرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو قبْلَ قُدومِه المدينةَ(٢).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وَجهُ الوِصايةِ بالحُسنى في مُجادَلةِ أهلِ الكِتابِ: أنَّ أهلَ الكتابِ مُتأهِّلونَ لِقَبولِ الحُجَّةِ، غيرُ مَظنونٍ بهم المُكابَرةُ، ولأنَّ آدابَ دينِهم وكِتابِهم أكسَبَتْهم مَعرفةَ طَريقِ المُجادَلةِ؛ فينبغي الاقتصارُ في مُجادَلتِهم على بيانِ الحُجَّةِ دونَ إغلاظٍ؛ حذَرًا من تَنفيرِهم، بخِلافِ المُشرِكينَ؛ فقد ظهَرَ من تَصَلُّبِهم وصَلَفِهم وجَلافتِهم ما أَيْأَسَ من إقناعِهم بالحُجَّةِ النَّظَريَّةِ، وعيَّنَ أنْ يُعامَلوا بالغِلظةِ، وأن يُبالَغَ في تَهجينِ دينِهم، وتَفظيعِ طَريقتِهم؛ لأنَّ ذلك أقرَبُ نُجوعًا لهم(٣).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مع أنَّ جميعَ أهلِ الكِتابِ ظالِمونَ؛ لأنَّهم كافِرونَ، قال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ بالظُّلمِ هنا: الامتِناعُ عن قَبولِ عَقدِ الذِّمَّةِ، أو نَقضُ العَهدِ بعدَ قَبولِه(٤). وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٩).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ سُلوكُ ما يقتضي اطمِئنانَ الخَصمِ في المُناظرةِ، وسُلوكُ ما يقتضي إلزامَه، فنقولُ لهؤلاءِ المجادِلينَ مِن أهلِ الكِتابِ: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو القرآنُ، ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ وهو التَّوراةُ إذا كانوا مِن اليَهودِ، والإنجيلُ إذا كانوا مِن النَّصارى، فنحنُ لا نُنكِرُ ما أُنزِلَ إليكم، بل نقولُ: إنَه حَقٌّ، لكِنْ نُؤمِنُ بما أُنزِلَ إلينا ونقولُ: إنَّه حَقٌّ، وإذا آمَنَّا بهذا فبأيِّهما يكونُ الحُكمُ؟

الجواب: بما نَزَل أخيرًا وهو القُرآنُ؛ لأنَّه ناسِخٌ، وحينَئذٍ يكونُ في قَولِنا هذا تهدِئةٌ لِنُفوسِهم، وإلزامٌ لهم بالإيمانِ بما أُنزِلَ إلينا؛ لأنَّ الإنسانَ بَشَرٌ، فإذا قيلَ له: أنا آمَنتُ بما أُنزِلَ إليك فآمِنْ بما أُنزِلَ إليَّ، فسيَقولُ في نَفْسِه: كيف يؤمِنُ هذا الرَّجُلُ بما أُنزِلَ إلَيَّ وما أُنزِلَ إليه، وأنا أُكَذِّبُ ما أُنزِلَ إليه[1]؟!

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ تعليمٌ لمُقدِّمةِ المُجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وهذا ممَّا يُسمَّى (تحريرَ مَحلِّ النِّزاعِ)، و(تقريبَ شُقَّةِ الخلافِ)، وذلك تأصيلُ طُرقِ الإلزامِ في المُناظَرةِ؛ وهو أنْ يُقالَ: قدِ اتَّفَقْنا على كذا وكذا، فلْنحتجَّ على ما عَدا ذلك، فإنَّ ما أُمِروا بقولِه هنا ممَّا اتَّفقَ عليه الفريقانِ، فيَنْبغي أنْ يكونَ هو السَّبيلَ إلى الوِفاقِ، وليس هو بداخِلٍ في حيِّزِ المُجادَلةِ؛ لأنَّ المُجادَلةَ تقعُ في مَوضعِ الاختلافِ، ولأنَّ ما أُمِروا بقولِه هنا هو إخبارٌ عمَّا يَعتقِدُه المسلمون، وإنَّما تكونُ المُجادلةُ فيما يَعتقِدُه أهلُ الكتابِ ممَّا يُخالِفُ عقائدَ المسلمينَ، مِثلُ قولِه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٧).

قولِه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] [آل عمران: ٦٥- ٦٧].

١٦- قولُه تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من بَلاغةِ القرآنِ؛ حيثُ لم يقُلْ: (وما قُلْتم)، أو: (ما جِئتُم به)، بل قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ وذلك لأنَّ لدَيهم مِن التَّحريفِ والتَّبديلِ ما لا يُمكِنُ معه أنْ نقبَلَ كلَّ ما جاؤوا به، لكنْ نُؤمِنُ بالمُنزَّلِ إليهم؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ: ((لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾))[2]، فنحن مُؤمِنون بالمُنزَّلِ لا المُبدَّلِ، وصِفةُ الإيمانِ بما أُنزِلَ إلينا ليس كصِفةِ الإيمانِ بما أُنزِلَ إليهم؛ لأنَّ إيمانَنا بما أُنزِلَ إلينا مُلزِمٌ بالاتِّباعِ، وإيمانَنا بما أُنزِلَ إليهم ليس مُلْزِمًا، فإذا وُجِدَ في شَرْعِنا ما يُخالِفُ شرْعَهم؛ فالمُتَّبَعُ شَرعُنا[3].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ أنَّ أهلَ الكتابِ يُقِرُّون بألوهيَّةِ اللهِ[4].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ؛ وأنَّه كلامُه -حروفُه ومعانيه- لقولِه: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والَّذي يُكْتَبُ هو الحروفُ[5].

١٩- الاستِشهادُ بالغيرِ على صِحَّةِ المُدَّعَى به، يعني أنَّ الإنسانَ يَستشهِدُ بغَيرِه مِن خُصومِه، كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وهذه الآيةُ أيضًا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).

يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، فيُقالُ: ممَّن أُوتيَ الكِتابَ منكم -أيُّها اليهودُ أو النَّصارى- مَن آمَنَ بهذا القُرآنِ، وهذه الحُجَّةُ مُفيدةٌ جدًّا عندَ المناظَرةِ: أنْ تَحتجَّ على الطَّائفةِ بقَولِ بعضِ عُلَمائِها(١).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يُؤمنْ بهذا القرآنِ أو بشَيءٍ منه؛ فهو كافرٌ(٢)، وهذا يَشْملُ جَحْدَ الآياتِ عمومًا، وجَحْدَ أفرادِها، فمَن جَحَدَ بعضَ القرآنِ وأقَرَّ ببعضِه حُكِمَ بكُفْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾(٣) [النساء: ١٥٠، ١٥١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾

- قوله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ حُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿ٱتۡلُ﴾؛ لِيَعُمَّ التِّلاوةَ على المسلمينَ وعلى المشركينَ(٤)، أي: أُمِر بأن يَتلوَهُ على هؤلاء وعلى هؤلاء.

- قولُه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ فيه تَعليلُ الأمرِ بإقامةِ الصَّلاةِ بالإشارةِ إلى ما فيها مِن الصَّلاحِ النَّفسانيِّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨).

فمَوقعُ (إنَّ) هنا مَوقعُ فاءِ التَّعليلِ، فاقتصَرَ على تَعليلِ الأمْرِ بإقامةِ الصَّلاةِ دونَ تَعليلِ الأمْرِ بتِلاوةِ القُرآنِ؛ لِمَا في هذا الصَّلاحِ الَّذي جَعَله اللهُ في الصَّلاةِ مِن سِرٍّ إلهيٍّ لا يَهْتدي إليه النَّاسُ إلَّا بإرشادٍ منه تعالى، فأخبَرَ أنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ(١).

- قولُه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولَلصَّلاةُ أكبَرُ مِن غَيرِها مِن الطَّاعاتِ -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-. وسمَّاها بذِكْرِ اللهِ كما قال: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وإنَّما عبَّر عنها به؛ للتَّعليلِ بأنَّ اشتِمالَها على ذِكْرِه هو العُمدةُ في كَونِها مُفضَّلةً على الحسناتِ، ناهيةً عن السَّيِّئاتِ؛ فهو مِن وضْعِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لَفظِه السَّابقِ؛ للإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، ولو جِيءَ بظاهرٍ لم يُفِدْ هذا المعنى؛ فيجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ عطفًا على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ فيكونَ عطْفَ عِلَّةٍ على عِلَّةٍ، ويكونَ المُرادُ بذِكْرِ اللهِ هو الصَّلاةَ، ويكونَ العُدولُ عن لَفظِ الصَّلاةِ -الَّذي هو كالاسمِ لها- إلى التَّعبيرِ عنها بطَريقِ الإضافةِ؛ للإيماءِ إلى تَعليلِ أنَّ الصَّلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ، أي: إنَّما كانت ناهيةً عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ لأنَّها ذِكْرُ اللهِ، وذِكْرُ اللهِ أمْرٌ كبيرٌ، فاسمُ التَّفضيلِ مَسلوبُ المُفاضَلةِ، مَقصودٌ به قوَّةُ الوصْفِ، كما في قولِنا: اللهُ أكبَرُ، لا تُريد أنَّه أكبَرُ مِن كبيرٍ آخَرَ. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والمعنى: واذْكُرِ اللهَ؛ فإنَّ ذِكْرَ اللهِ أمْرٌ عظيمٌ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المُرادُ مِن الذِّكْرِ: تَذكُّرَ عَظَمةِ اللهِ تعالى. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: ذِكْرَ اللهِ باللِّسانِ؛ لِيَعُمَّ ذِكْرَ اللهِ في الصَّلاةِ وغيرِها، واسمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨).

التَّفضيلِ أيضًا مَسلوبُ المُفاضَلةِ، ويكون في مَعنى قولِ مُعاذِ بنِ جَبلٍ رضيَ اللهُ عنه: (ما عَمِلَ آدميٌّ عملًا أنْجَى له مِن عذابِ اللهِ مِن ذِكْرِ اللهِ)[١]. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالذِّكرِ: تَذكُّرَ ما أمَرَ اللهُ به ونَهى عنه، أي: مُراقبةَ اللهِ تعالى، وحذَرَ غضَبِه، فالتَّفضيلُ على بابِه، أي: ولَذِكْرُ اللهِ أكبَرُ في النَّهيِ عن الفحشاءِ والمُنكَرِ مِن الصَّلاةِ في ذلك النَّهيِ؛ وذلك لإمكانِ تكرارِ هذا الذِّكرِ أكثَرَ مِن تَكرُّرِ الصَّلاةِ. ولك أنْ تقولَ: ذِكْرُ اللهِ هو الإيمانُ بوُجودِه وبأنَّه واحدٌ، فلمَّا أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأراد أمْرَ المُؤمنينَ بعمَلينِ عَظيمينِ مِن البرِّ؛ أرْدَفَه بأنَّ الإيمانَ باللهِ هو أعظَمُ مِن ذلك؛ إذ هو الأصْلُ، وذلك مِن رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ، عاد به إلى تَعظيمِ أمْرِ التَّوحيدِ وتفظيعِ الشِّركِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [العنكبوت: ٤٢] إلى هنا[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا قبْلَه، وهو وعْدٌ ووعيدٌ، باعتبارِ ما اشتمَلَ عليه قولُه: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقولُه: ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[٣].

٢- قولُه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] الآيةَ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه بعد حديث (٣٧٩٠)، ومالك في ((الموطأ)) (١/ ٢١١)، والحاكم بعد حديث (١٨٢٥).

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((مشكاة المصابيح)) (٢٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦١).

باعتبارِ ما تَستلزِمُه تلك مِن مُتارَكةِ المشركينَ، والكَفِّ عن مُجادلتِهم بعدَ قولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وهذه توطِئةٌ لِمَا سيَحدُثُ مِن الدَّعوةِ في المدينةِ بعدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ مُجادَلةَ أهلِ الكتابِ لا تَعرِضُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولا للمُؤمنينَ في مكَّةَ، ولكنْ لَمَّا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في إبَّانِ نُزولِ أواخرِ هذه السُّورةِ على وَشْكِ الهِجرةِ إلى المدينةِ، وكانت الآياتُ السَّابقةُ مُجادِلةً للمشركين، غليظةً عليهم مِن تَمثيلِ حالِهم بحالِ العَنكبوتِ، وقولِه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ هيَّأَ اللهُ لرسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ طريقةَ مُجادَلةِ أهْلِ الكتابِ. وهي مُعترِضةٌ بيْن مُحاجَّةِ المشركينَ والعَودِ إليها في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] الآياتِ(١).

- قولُه: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ التفضيلُ ﴿أَحْسَنُ﴾ على بابِه؛ فيُقدَّرُ المُفضَّلُ عليه ممَّا دلَّتْ عليه القرينةُ، أي: بأحسَنَ مِن مُجادَلتِكم المشركينَ، أو بأحسَنَ مِن مُجادَلتِهم إيَّاكم، كما تدُلُّ عليه صِيغةُ المُفاعَلةِ. ويجوزُ كونُ اسْمِ التَّفضيلِ مَسلوبَ المُفاضَلةِ؛ لِقَصْدِ المُبالغةِ في الحُسْنِ، أي: إلَّا بالمُجادَلةِ الحُسْنى، كقولِه تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٢) [النَّحل: ١٢٥].

- ولأجْلِ أنَّ مضمونَ هذه الآيةِ ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ...﴾ لا يَدخُلُ في حَيِّزِ المُجادَلةِ عُطِفَتْ على ما قبْلَها، ولو كانتْ ممَّا شمِلَتْه المُجادَلةُ لَكان ذلك مُقتضيًا فصْلَها -أي: عدَمَ عَطفِها على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها مِثْلُ بدَلِ الاشتمالِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧).

=

- والمرادُ بـ (الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْنَا) القرآنُ، والتَّعبيرُ عنه بهذه الصِّلةِ؛ للتَّنبيهِ على خطَأِ أهْلِ الكتابِ؛ إذ جَحَدوا أنْ يُنزِّلَ اللهُ كِتابًا على غيرِ أنْبيائِهم؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. وقولُه: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ عطْفُ صِلَةِ اسمٍ مَوصولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: والَّذي أُنزِلَ إليكم[١].

- قولُه: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ على عامِلِه في قولِه: ﴿لَهُ مُسْلِمُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ الَّذين لم يُفْرِدوا اللهَ بالإلهيَّةِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا﴾ تَجْريدٌ للخِطابِ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، و(ذلك) إشارةٌ إلى مَصدرِ الفِعلِ الَّذي بعْدَه، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه في الفضْلِ[٣].

- وإنَّما قال: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (فأهْلُ الكتابِ)؛ لأنَّ في ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ تذكيرًا لهم بأنَّهم أُمَناءُ عليه، كما قال

= قال البيضاوي: (﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هو من المجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٠).

وقال الرَّسْعَني: (هذا مِن المجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ لِما فيه مِن مُلايَنتِهم، واستِمالتِهم إلى المُناصَفةِ، وترْكِ المُشاغَبةِ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧، ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢).

تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1] [المائدة: ٤٤].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ جيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه سيَقَعُ في المُستقبَلِ، أو للدَّلالةِ على تَجدُّدِ إيمانِ هذا الفريقِ به، أي: إيمانُ مَن آمَنَ منهم مُستمِرٌّ، يَزْدادُ عددُ المؤمنينَ يومًا فيومًا[2].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أُريدَ بهم عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ وأضرابُه مِن أهلِ الكتابَينِ خاصَّةً، كأنَّ مَن عَداهُم لم يُؤتَوُا الكِتابَ؛ حيثُ لم يَعمَلوا بما فيه. أو مَنْ تقدَّمَ عهدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منهم؛ حيثُ كانُوا مُصدِّقينَ بنُزولِه حسَبما شاهَدُوا في كتابَيهما، وتَخصيصُهم بإيتاءِ الكتابِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَن بعْدَهم مِن مُعاصري رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد نُزِعَ عنهم الكتابُ بالنَّسخِ فلم يُؤْتَوه، والفاءُ لِتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ فإنَّ إيمانَهم به مُترتِّبٌ على إنزالِه[3].

- والإشارةُ بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى أهْلِ مكَّةَ -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ- بتَنزيلِهم مَنزلةَ الحاضرينَ عندَ نُزولِ الآيةِ؛ لأنَّهم حاضِرون في الذِّهْنِ بكَثرةِ مُمارَسةِ أحوالِهم وجِدالِهم[4].

- قولُه: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فيه أُضِيفتْ الآياتُ إلى نُونِ العظَمةِ؛ لِمَزيدِ تَفخيمِها، وغايةِ تَشنيعِ مَن يَجحَدُ بها[5].

- وقد أشار قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلى أنَّ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢، ٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٣).

هؤلاء الَّذين يُؤمِنون بالقُرآنِ مِن أهلِ الكِتابِ وأهلِ مَكَّةَ مَن يَكتُمُ إيمانَه؛ جُحودًا منهم لأجْلِ تَصَلُّبِهم في الكُفْرِ، فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على معنى الكمالِ في الوصْفِ المُعرَّفِ، أي: إلَّا المُتوغِّلون في الكُفْرِ، الرَّاسِخون فيه؛ لِيَظهَرَ وجْهُ الاختلافِ بيْنَ (مَا يَجْحَدُ) وبيْنَ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ إذ لولا الدَّلالةُ على معنَى الكَمالِ لصار معنى الكَلامِ: وما يَجحَدُ إلَّا الجاحِدون[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وأولئك ظالِمون كما أنَّ هؤلاء كافِرونَ، واختِصاصُ الأُولى بتلك الصِّفةِ والثَّانيةِ بهذه الصِّفةِ؛ لأنَّ مَن جحَدَ آياتِ اللهِ فقد كفَرَ نِعَمَه، وهذا أوَّلُ ما يَفعلُه؛ لأنَّ ذلك مُتعلِّقٌ بما قبْلَه ممَّن تولَّى خلْقَه وأنعَمَ عليه بما استَوجَبَ به شُكْرَه؛ فأوَّلُ فِعلِه كُفْرُ نِعَمِ اللهِ، ثمَّ إنَّه مُسيءٌ إلى نفْسِه، ظالمٌ لها بأنْ أبدَلَها من النِّعمِ عذابًا لا يُطيقُه، فكُفْرُه أوَّلُ في الذِّكرِ، وظُلْمُه ثانٍ؛ لأنَّه فَوَّتَ نفْسَه عِظَمَ الأَجرِ، فهو آخِرٌ في العمَلِ، فقدَّمَ (الكافرين) على (الظَّالمين) لذلك[٢].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّ الظُّلمَ وإنْ كان يُطلَقُ على الكُفْرِ وعلى ما دُونَه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ فإنَّه إذا ذُكِرَ بعدَ الكفرِ، ووُصِفَ به مَن قد وُصِفَ بالكفرِ؛ أفْهَمَ زيادةَ مُرتكَبٍ على الكُفْرِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وعلى هذا ورَدَ في القُرآنِ؛ فوضَحَ ما ورَدَتْ عليه آيتا (العنكبوتِ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠١٢، ١٠١٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩١).

وقيل: إنَّ الجحودَ الأوَّلَ مُعلَّقٌ بالواحْدنيَّةِ، والثَّاني مُعلَّقٌ بالنُّبوَّةِ، وخُتِمَت تلك بالكافرِ؛ لأنَّه قسيمُ المؤمنينَ في قولِه: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، وهذه بالظَّالمين؛ لأنَّه جحْدٌ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ على كونِ الرَّسولِ صدَرَ منه القرآنُ مُنزَّلًا عليه، وهو أُمِّيٌّ لا يَقرَأُ ولا يَكتُبُ، فهم الظَّالمون بعدَ ظُهورِ المعجزةِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٤).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨
بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ
٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَّٱرۡتَابَ﴾: أي: لَشَكَّ، والرِّيبةُ: قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ، وكَوْنُ الأمرِ مشكوكًا فيه ممَّا تَقلَقُ له النَّفْسُ ولا تَستقِرُّ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى الأدِلَّةَ الواضحةَ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه تعالى، فيقولُ: وما كنتَ تقرأُ -يا محمَّدُ- كِتابًا مِن قَبْلِ هذا القُرآنِ، ولا تَكتُبُه بيَمينِك؛ فلو كنتَ تَقرأُ أو تكتُبُ قبْلَ نُبُوَّتِك لَشَكَّ في صِدقِك هؤلاء الكافِرونَ، بل هذا القُرآنُ آياتٌ واضِحاتٌ محفوظةٌ في صَدرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمِنينَ، وما يَجحَدُ بآياتنا إلَّا الظَّالِمونَ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى طرَفًا مِن أقوالِ المشركينَ الفاسدةِ، فيقولُ: وقال مُشرِكو

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩١).

قُرَيشٍ: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزاتٌ مِن رَبِّه.

ثمَّ يُرشِدُ اللهُ تعالى نبيَّه إلى الرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: إنَّما المُعجِزاتُ عندَ اللهِ، وإنَّما أنا نذيرٌ مُبينٌ، ليس مِن شأني إلَّا إنذارُكم.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى مُنكِرًا عليهم: أوَلم يَكفِهم أنَّا أنزَلْنا عليك القُرآنَ يُتلى عليهم؟! إنَّ في ذلك لَرَحمةً وذِكرى للمُؤمِنينَ.

ثمَّ يرشِدُ اللهُ تعالى النَّبيَّ إلى جوابٍ آخَرَ يرُدُّ به عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: حَسْبيَ اللهُ شاهِدًا بيْنَنا، يَعلَمُ جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وسيُجازي كلًّا بما يَستحِقُّ، والَّذين آمَنوا بالباطِلِ وكفَروا باللهِ -وهو الحقُّ سُبحانَه- أولئك هم الخاسِرونَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أشار إلى أنَّ المنكِرَ لأصلِ الوَحيِ مُتوغِّلٌ في الكُفرِ، دلَّ على ذلك بحالِ المُنزَلِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال مُسَلِّيًا له(١):

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾.

أي: وما كنتَ -يا محمَّدُ- تقرأُ كتابًا مِن قبْلِ هذا القرآنِ(٢).

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

أي: وما كنتَ -يا محمَّدُ- تُحسِنُ الكتابةَ[(١)].

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أي: لو كنتَ -يا محمَّدُ- تقرأُ أو تكتُبُ قبْلَ نبُوَّتِك، لَشَكَّ في صِدقِك الكافِرونَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

قيل: المرادُ بالمُبطِلينَ هنا: أهلُ الكتابِ. أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لَقالوا: الَّذي نجِدُه في كُتُبِنا أنَّه رَسولٌ أمِّيٌّ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ. وممَّن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥١).

وممَّن فسَّر المُبطِلينَ بأنَّهم اليهودُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٥).

وقيل: المرادُ بهم: كُفَّارُ قُرَيشٍ. أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لارتاب هؤلاء وقالوا: إنَّما أخَذ القُرآنَ وتَعلَّمَه مِن كِتابٍ سابقٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والخازنُ، والألوسيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٦).

وممَّن قال بأنَّهم: أهلُ الكتابِ والعَرَب: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣، ٤٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨).

وقيل: يعمُّ لفظُه كلَّ مكذبٍ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولكنْ عظَّم الإشارةَ به إلى قريشٍ؛ لأنَّهم الأهمُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾.

أي: بل(١) القُرآنُ آياتٌ واضِحاتُ الدَّلالةِ على الحَقِّ، وهو محفوظٌ في صَدرِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والمُؤمِنينَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: وما يَجحَدُ بآياتِنا مع ظُهورِها، ودَلالتِها الواضِحةِ على الحَقِّ، ويُنكِرُها

---

(١) قال ابنُ عثيمين: («بل» هنا للإضراب، والإضرابُ نَوعان: انتِقاليٌّ وإبطاليٌّ، وهنا يحتَمِلُ أنَّ الإضرابَ للإبطالِ...؛ لأنَّه أبطلَ قولَهم: إنَّه جاء به مِن عنده. ويحتَمِلُ أن يكونَ الإضرابُ انتِقاليًّا؛ لأنَّه لَمَّا نفى ما يكونُ به مُتقَوِّلًا على الله، أثبَتَ أنَّه آياتٌ مِن الله؛ فيكون انتِقالًا مِنَ النَّفْيِ إلى الإيجابِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١، ١٢).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿هُوَ﴾ أي: القرآنُ-: يحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿هُوَ﴾: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. وعلى هذا ففي المرادِ بالآيةِ قَولانِ:

(أحدهما: أنَّ المعنى: بل وِجدانُ أهلِ الكتابِ في كُتُبِهم أنَّ مُحمَّدًا صَلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ، وأنَّه أُمِّيٌّ: آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِهم، وهذا مذهَبُ ابنِ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكِ، وابنِ جُرَيجٍ.

والثَّاني: أنَّ المعنى: بل محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذو آياتٍ بيِّناتٍ في صدورِ الَّذين أُوتوا العِلْمَ مِن أهلِ الكِتابِ؛ لأنَّهم يَجِدونَه بنَعتِه وصِفتِه. قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٠).

وقيل: يحتملُ أن يعودَ على أمرِ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم في أنَّه لم يتلُ ولا خطَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

بعدَ مَعرِفتِها إلَّا المتَّصِفونَ بظُلمِ أنفُسِهم بالكُفرِ والمُكابَرةِ والعِنادِ[١].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ الدَّليلَ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ، وليس بمُفترًى مِن عندِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أردَفَ هذا شُبهةً أُخرى لهم[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَر الجاحِدينَ لآيةِ القرآنِ ثلاثَ مرَّاتٍ، ووصَفَهم بالكافِرينَ والمُبطلينَ والظَّالِمينَ؛ انتَقَل الكلامُ إلى مَقالَتِهم النَّاشئةِ عن جُحودِهم[٣].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُريشٍ: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزاتٌ مِن رَبِّه -كمُعجِزاتِ صالحٍ وموسى وعيسى- تكونُ حُجَّةً له علينا؛ فنُصَدِّقَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا * أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا * أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٩-٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وقال تعالى حاكيًا عن الكفَّارِ قولَهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنَّما المُعجِزاتُ عندَ اللهِ، وليست عندي، فلا يأتي بها إلَّا هو إن شاءَ(١).

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وإنَّما أنا نذيرٌ مُبينٌ(٢) ليس مِن شأني إلَّا إنذارُكم عذابَ اللهِ، وليست لي قُدرةٌ على الإتيانِ بمُعجِزاتٍ(٣).

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

وقيل: الضميرُ في ﴿وَقَالُوا۟﴾ لقريشٍ ولبعضِ اليهودِ؛ لأنَّهم كانوا يعلِّمون قريشًا مثلَ هذه الحجةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

(٢) قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مبينٌ لإنذارِه مِن (أبان)، أو نذيرٌ بَيِّنُ الإنذارِ مِن (بان). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّه مِن أبانَ إبانةً، أي: أبانَ لكم إنذارَه وما أُوتيَه مِنَ الآياتِ بالدَّلائلِ الواضحةِ: ابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٦١).

واختار ابنُ كثيرٍ أنَّ المعنى: بَيِّنُ النِّذارةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ردٌّ على الَّذينَ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[١].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: أوَلم يَكْفِ هؤلاء المُشركينَ المُقترِحينَ نُزولَ الآياتِ عليك -يا محمَّدُ- أنَّا أنزَلْنا عليك القُرآنَ الَّذي تتتابَعُ قراءتُه عليهم؟! فهو كافٍ في إثباتِ صِدقِك، وهدايتِهم إلى الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك القُرآنِ لَرَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ للمُؤمِنينَ، وذِكرى لهم؛ يَتذكَّرونَ بما فيه مِن عِبرةٍ وعِظةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ باسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾: القرآنُ-: ابنُ جرير، والقرطبي، والبيضاوي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى: إنزالِ الكِتابِ. وممَّن اختاره: الماتُريديُّ، والواحدي، والبغوي، وابن عادل، والبِقاعي. وجعله ابنُ عثيمين احتمالًا. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٣٧)، = = ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

قال ابن عثيمين: (فالقرآنُ في الحقيقةِ ذِكْرى مِن الوجهَينِ: مِن جهةِ أنَّه نزَل مِن عندِ الله، =

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: حَسْبيَ اللهُ شاهِدًا يَعلَمُ المحِقَّ مِنَّا من المُبطِلِ، فيَحكُمُ بَيْني وبيْنكم[1].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا يخفَى عليه المحِقُّ من المُبطِلِ، وسيُجازي كلًّا بما يَستَحِقُّ[2].

= ومجرَّدُ شعورِ الإنسانِ بأنَّه نزَل مِن عندِ الله لا شكَّ أنَّه يَتذكَّرُ به ويُعَظِّمُه؛ لأنَّه كلامُ ربِّه، وكذلك أيضًا ما فيه مِن المعاني العظيمةِ والآثارِ الحميدةِ هي أيضًا آيةٌ مِن آياتِ الله... فاللهُ عزَّ وجلَّ أنزَلَ القرآنَ رحمةً للنَّاسِ، وأيضًا ذِكْرى، يعني: عِظةً يَتذكَّرُ به النَّاسُ، فبه يَتراحمونَ ويَرحَمون؛ فهو ذِكْرى ولكنْ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠١).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، وكَفَروا باللهِ -وهو الحَقُّ وَحْدَه-: أولئك هم المتَّصِفونَ بالخَسارةِ أبدًا في الدُّنيا والآخِرةِ[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ فمَدَحَ سُبحانَه أهلَ العِلمِ وأثنى عليهم وشَرَّفَهم بأن جَعَلَ كتابَه آياتٍ بيِّناتٍ في صُدورِهم، وهذه خاصَّةٌ ومَنقَبَةٌ لهم دونَ غيرِهم[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فالكِتابُ كافٍ عن كلِّ آيةٍ لِمَن تدَبَّرَه وتعَقَّلَه، وعَرَف معانيَه، وانتَفَع بأخبارِه، واتَّعَظ بقَصَصِه؛ فإنَّه يُغْني عن كلِّ شَيءٍ مِن الآياتِ، لكِنَّ الَّذي يجعَلُنا لا نُحِسُّ بهذه الآياتِ العظيمةِ أنَّنا لا نَقرأُ القرآنَ على وجهٍ نَتدَبَّرُه ونتَّعِظُ بما فيه، كثيرٌ من المُسلِمينَ -إن لم يكُنْ أكثَرُ المُسلِمينَ- يَتلُونَ الكتابَ للتَّبَرُّكِ والأجرِ فقط[3]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا كان أكثَرَ انتِفاعًا بالقرآنِ، وكلَّما كان أضعَفَ إيمانًا أو أكثَرَ مَعصيةً كان أبعَدَ عن فَهمِ القُرآنِ والانتِفاعِ به، بل إنَّ المعاصيَ تَحولُ بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠٢- ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) للعثيمين (٢/ ١٤٢).

الإنسانِ وبيْنَ فَهمِ القُرآنِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قد أشار قولُه: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ وما بعْدَه إلى خمْسِ مزايَا للقرآنِ على غيرِه مِن المعجزاتِ:

المَزِيَّةُ الأولى: ما أشار إليه قولُه: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ مِن انتشارِ إعجازِه وعُمومِه في المجامعِ والآفاقِ والأزمانِ المختلِفةِ، بحيث لا يَختَصُّ بإدراكِ إعجازِه فريقٌ خاصٌّ في زمَنٍ خاصٍّ شأْنَ المُعجزاتِ المَشهودةِ، مِثلُ عصَا مُوسى، وناقةِ صالحٍ، فهو يُتْلى، ومِن ضِمْنِ تِلاوتِه الآياتُ الَّتي تحدَّتِ النَّاسَ بمُعارَضتِه، وسجَّلتْ عليهم عجْزَهم عن المعارَضةِ مِن قبْلِ مُحاوَلتِهم إيَّاها، فكان كما قال؛ فهو مُعجِزةٌ باقيةٌ، والمُعجزاتُ الأخرى مُعجزاتٌ زائلةٌ.

المَزِيَّةُ الثَّانيةُ: كَوْنُه ممَّا يُتْلَى؛ فإنَّ ذلك أرفَعُ مِن كَونِ المعجزاتِ الأُخرَى أحوالًا مَرئيَّةً؛ لأنَّ إدراكَ المَتلُوِّ إدراكٌ عقْليٌّ فِكريٌّ، وهو أعلى مِن المُدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ، فكانت مُعجزةُ القرآنِ ألْيَقَ بما يَستقبِلُ مِن عصورِ العِلْمِ الَّتي تهيَّأَت إليها الإنسانيَّةُ.

المَزِيَّةُ الثَّالثةُ: ما أشار إليه قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً﴾، فالكِتابُ المَتلُوُّ مُشتمِلٌ على ما هو رحمةٌ لهم اشتِمالَ الظَّرفِ على المظروفِ؛ لأنَّه يَشتمِلُ على إقامةِ الشَّريعةِ، وهي رحمةٌ وصلاحٌ للنَّاسِ في دُنياهم، فالقرآنُ مع كَونِه مُعجِزةً دالَّةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُرشِدةً إلى تَصديقِه -مِثلَ غيرِه مِن المُعجزاتِ-؛ هو أيضًا وسيلةُ عِلْمٍ وتشريعٍ وآدابٍ للمَتلوِّ عليهم، وبذلك فضَلَ غيرَه مِن المُعجزاتِ الَّتي لا تُفيدُ إلَّا تَصديقَ الرَّسولِ الآتي بها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

المَزِيَّةُ الرَّابعةُ: ما أشار إليه قولُه: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾؛ فإنَّ القرآنَ مُشتمِلٌ على مواعظَ ونُذُرٍ، وتعريفٍ بعواقبِ الأعمالِ، وإعدادٍ إلى الحياةِ الثَّانيةِ، ونحوِ ذلك ممَّا هو تَذكيرٌ بما في تذكُّرِه خيرُ الدَّارينِ، وبذلك فضَلَ غيرَه مِن المعجزاتِ الصَّامتةِ الَّتي لا تُفيدُ أزْيَدَ مِن كَونِ الآتيةِ على يَدَيه صادقًا.

المَزِيَّةُ الخامسةُ: أنَّ كَوْنَ القرآنِ كتابًا مَتْلوًّا مُستطاعًا إدراكُ خَصائصِه لكلِّ عربيٍّ، ولكلِّ مَن حذَقَ العربيَّةَ مِن غيرِ العرَبِ، مِثلُ أئمَّةِ العربيَّةِ؛ يُبعِدُه عن مُشابَهةِ نَفَثاتِ السَّحَرةِ والطَّلاسمِ، فلا يستطيعُ طاعنٌ أنْ يَزعُمَ أنَّه تخيُّلاتٌ، كما قال قومُ فِرعونَ لمُوسى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وقال تعالى حِكايةً عن المشركينَ حينَ رأَوْا مُعجِزةَ انشِقاقِ القمَرِ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ٢]، فأشار قولُه: ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ إلى أنَّ ذلك القولَ صدَرَ عنهم في مُعجزةٍ مرئيَّةٍ. وعُلِّقَ بالرَّحمةِ والذِّكرى قولُه: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ تلك مَنافِعُ مِن القرآنِ زائدةٌ على ما في المُعجزاتِ الأُخرى مِن المنفعةِ الَّتي هي مَنفعةُ الإيمانِ بما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فهذه مَزايَا عظيمةٌ لمُعجزةِ القرآنِ، حاصِلةٌ في حضْرةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وغَيْبتِه، ومُستقِلَّةٌ عن الحاجةِ إلى بيانِه وتَكميلِه بالدَّعوةِ وبتَكريرِها[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ فيه أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أُمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتُبُ، وفيه ردٌّ على مَن زعَمَ أنَّه كَتَبَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥، ١٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥). ويُنظر أيضًا: ((كتاب مناهل العرفان للزرقاني- دراسة وتقويم)) للسبت (ص: ٤٥٥ - ٤٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ سمَّاهم مُبطِلينَ؛ لأنَّ ارتيابَهم على تقديرِ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ ويَكتُبُ: ظُلْمٌ منهم؛ لِظُهورِ نَزاهتِه، ووُضوحِ مُعجزاتِه[1]؛ لذا لَمْ يَقُلْ: «لارتابَ النَّاسُ»؛ لأنَّه لو فُرِضَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتْلُو كتابًا مِن قَبْلِ ذلك، ويَخُطُّه بيمينِه، وأتى بهذا القرآنِ مع وُجودِ الآياتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِه؛ فإنه لا يَحصُلُ ارتيابٌ، لكنَّ المُبْطِلَ قد يَحتجُّ بالشُّبهةِ ويَراها بيِّنةً[2].

وأيضًا فوَصفُ المكَذِّبينَ بالمُبطِلينَ منظورٌ فيه لحالِهم في الواقِع؛ لأنَّهم كَذَّبوا مع انتِفاءِ شُبهةِ الكَذِبِ، فكان تكذيبُهم الآنَ باطِلًا، فهم مُبطِلونَ مُتَوَغِّلونَ في الباطِلِ؛ فالقَولُ في وَصفِهم بالمُبطِلينَ كالقَولِ في وَصفِهم بالكافِرينَ[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، الرَّيْبُ شكٌّ بقلَقٍ، فالمُبطِلُ شَكُّهُ مُقترِنٌ بالقلَقِ؛ لأنَّه ليس شَكًّا مَبْنيًّا على أصلٍ، فهو قَلِقٌ منه: هل يَكونُ ذلك الشَّكُّ حقيقةً أو مُجرَّدَ شبهةٍ واشتِباهٍ! بخِلافِ الشَّكِّ الَّذي له أصلٌ حقيقيٌّ؛ فنَجِدُ صاحبَه ليس بقَلِقٍ منه؛ كما لو شكَّ في عددِ ركَعاتِ الصَّلاةِ[4].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، ووجْهُ التَّلازُمِ بيْنَ التِّلاوةِ والكِتابةِ المُتقدِّمَينِ على نُزولِ القُرآنِ، وبيْنَ حُصولِ الشَّكِّ في نُفوسِ المشركين: أنَّه لو كان ذلك واقعًا لاحتمَلَ عندَهم أنْ يكونَ القرآنُ مِن جِنسِ ما كان يَتْلوه مِن قبلُ مِن كُتبٍ سالِفةٍ، وأنْ يكونَ ممَّا خطَّه من

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٢، ٢٧٧).

قبْلُ مِن كلام تلَقَّاهُ، فقام اليومَ يَنشُرُه ويَدْعو إليه. وإنَّما جعَلَ ذلك مُوجِبَ رَيبٍ دونَ أنْ يكونَ مُوجِبَ جزْمٍ بالتَّكذيبِ؛ لأنَّ نظْمَ القرآنِ وبلاغتَه وما احْتَوى عليه مِن المعاني يُبطِلُ أنْ يكونَ مِن نوعِ ما سبَقَ مِن الكتُبِ والقَصصِ والخُطَبِ والشِّعرِ، ولكنْ ذلك لَمَّا كان مُستدعِيًا تأمُّلًا لم يَمنَعْ مِن خُطورِ خاطِرِ الارتيابِ على الإجمالِ قبْلَ إتمامِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ بحيث يكونُ دوامُ الارتيابِ بُهتانًا ومُكابَرةً[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أنَّ مَحَلَّ العقلِ والوعي القلبُ -والقلوبُ في الصُّدورِ-، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**﴾[٢] [الحج: ٤٦].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الثَّناءُ على حَفَظةِ القرآنِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إقرارُ المشركين بعُلُوِّ اللهِ جلَّ وعلا، فيكونُ اعتقادُ المشركين في اللهِ مِن حيثُ العُلُوُّ أكملَ مِن اعتقادِ المعتزلةِ والجهميَّةِ والأشاعرةِ؛ لأنَّ هؤلاء يُنْكِرون عُلُوَّ اللهِ الذَّاتيَّ، ويقولون: إنَّ اللهَ لا داخلَ العالَمِ ولا خارجَه، ولا مُتَّصِلًا ولا مُبايِنًا[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ مِن بلاغةِ الكلامِ أنْ يكونَ الخِطابُ موافِقًا لمقتَضى الحالِ؛ وجْهُ ذلك: الحَصرُ في ذِكْرِ الإنذارِ فقط؛ فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَشيرٌ ونذيرٌ، لكنَّ المقامَ مقامُ مُحاجَّةِ الكافِرينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٨).

فكان مقتضى الحالِ ذِكْرَ صِفةِ الإنذارِ فقط، وعدَمَ ذِكرِ كَونِه بَشيرًا(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّه بمُجرَّدِ تِلاوةِ القرآنِ على شخصٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ، ويكونُ ذلك مُلزِمًا له بالاتِّباعِ؛ لأنَّ اللهَ لم يَذْكُرْ أكثرَ مِن التِّلاوةِ، ولهذا فإنَّ الجنَّ وَلَّوْا إلى قومِهم مُنذِرينَ بمُجرَّدِ سماعِهم القرآنَ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، لكنْ إذا كان الشَّخصُ لا يَفْهَمُ لُغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلْزِمةً، لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصلُ البيانُ وهو لا يدري لغةَ القرآنِ(٢).

١١- القرآنُ هو الآيةُ الكبرَى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ المشركين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنكَر سُبحانَه وتعالى على مَن لم يَكْتَفِ بالوحي عن غيرِه(٤).

١٣- قولُه تعالى: ﴿أَنزَلْنَا﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾، أدخَل الجارَّ فقال ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ المرادَ نفْيُ التِّلاوةِ عن كثيرِ الزَّمنِ الماضي وقليلِه، وأكَّد استِغراقَ الكُتبِ فقال: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ أصلًا[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فيه إطنابٌ لا بُدَّ منه؛ فذِكْرُ اليمينِ -وهي الجارحةُ الَّتي يُزاوَلُ بها الخطُّ-: زيادةُ تَصويرٍ لِمَا نفى عنه مِن كَونِه كاتبًا؛ ألَا ترى أنَّك إذا قلْتَ في الإثباتِ: رأيتُ الأميرَ يخُطُّ هذا الكتابَ بيَمينِه، كان أشدَّ لإثباتِك أنَّه تَولَّى كِتابتَه؟ فكذلك النَّفيُ[٢].

- قولُه: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (إذًا) جوابٌ وجزاءٌ لشرْطٍ مُقدَّرٍ بـ(لو)، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾، والتَّقديرُ: لو كنتَ تتْلو قبْلَه كتابًا أو تخُطُّه لَارتابَ المُبطِلون[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ إبطالٌ لِمَا اقتضاهُ الفرْضُ مِن قولِه: ﴿إِذًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، أي: بلِ القرآنُ لا ريْبَ يَتطرَّقُه في أنَّه مِن عندِ اللهِ؛ فهو كلُّه آياتٌ دالَّةٌ على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه مِن عندِ اللهِ[١].

- قولُه: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ على القولِ بأنَّ المُرادَ مِن: (صُدورِ الذين أُوتوا العِلْمَ) صدْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عُبِّرَ عنه بالجمْعِ تعظيمًا له؛ فالمنفيُّ هو أنْ يكونَ مَتْلُوًّا قبْلَ نُزولِه. وهذا الَّذي يَقتضيه سِياقُ الإضرابِ عن أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتْلو كِتابًا قبْلَ هذا القرآنِ بحيث يُظَنُّ أنَّ ما جاء به مِن القرآنِ ممَّا كان يَتْلوه مِن قبْلُ، فلمَّا انْتَفى ذلك ناسَبَ أنْ يُكشَفَ عن حالِ تلقِّي القرآنِ؛ فذلك هو مَوقِعُ قولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾، كما قال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وأمَّا الإخبارُ بأنَّه آياتٌ بيِّناتٌ فذلك تَمهيدٌ للغرَضِ، وإكمالٌ لِمُقتضاهُ؛ فالجارُّ والمجرورُ في قولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ خبرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ، والتَّقديرُ: وما كنتَ تَتْلو مِن قبْلِه مِن كتابٍ ولا تخُطُّه بيَمينِك، بلْ هو أُلْقِيَ في صَدْرِك، وهو آياتٌ بيِّناتٌ. وعلى أنَّ المُرادَ بـ﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ صُدورُ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحُفَّاظِ المسلمينَ؛ فهذا يَقْتضي أنْ يكونَ قولُه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ تَتميمًا للثَّناءِ على القُرآنِ، وأنَّ الغرَضَ هو الإخبارُ عن القرآنِ بأنَّه آياتٌ بيِّناتٌ، فيكون المجرورُ صِفةً لـ﴿ءَايَٰتُۢ﴾، والإبطالُ مُقتصِرٌ على قولِه: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١، ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢).

- قولُه: ﴿ يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ تذييلٌ يُؤْذِنُ بأنَّ المشركينَ جَحَدوا آياتِ القرآنِ على ما هي عليه مِن وُضوحِ الدَّلالةِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّهم ظالِمون لا إنصافَ لهم، وشأْنُ الظَّالِمينَ جحْدُ الحقِّ، يَحمِلُهم على جَحْدِه هوَى نُفوسِهم للظُّلم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، فهم مُتَوَغِّلون في الظُّلمِ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أفادتْ (إنَّما) قصْرَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على صِفةِ النِّذارةِ، أي: الرِّسالةِ، لا يَتجاوَزُها إلى خلْقِ الآياتِ أو اقتراحِها على ربِّه، فهو قصْرُ إفرادٍ(٢)؛ ردًّا على زعْمِهم أنَّ مِن حقِّ المَوصوفِ بالرِّسالةِ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحييُّ المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

يأتِيَ بالخَوارقِ المُشاهَدةِ. وخصَّ بالذِّكْرِ مِن أحوالِ الرِّسالةِ وصْفَ النَّذيرِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ بأنَّ حالَهم يَقْتضي الإنذارَ، وهو توقُّعُ الشَّرِّ[(١)].

٤- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ واردٌ مِن جِهَتِه تعالى ردًّا على اقتراحِهم، وبَيانًا لِبُطلانِه. والهمزةُ للإنكارِ والنَّفيِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أقَصُرَ ولم يَكْفِهم آيةٌ مُغْنيةٌ عن سائرِ الآياتِ أنَّا أنزَلْنا...[(٢)]؟! أو: هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، وهو ارتقاءٌ في المُجادَلةِ. والاستِفهامُ تَعجبيٌّ إنكاريٌّ، والمعنى: وهلْ لا يَكْفيهم مِن الآياتِ آياتُ القرآنِ[(٣)]؟!

- و(الكِتاب): القرآنُ، وعُدِلَ عن لفظِ (القرآنِ) الَّذي هو كالعَلَمِ عليه إلى لَفْظِ (الكتابِ) المعهودِ؛ لإيمائِه إلى معنى تَعظيمِه بأنَّه المُشتهِرُ مِن بيْنِ كُتبِ الأنبياءِ، واللَّامُ في (الكتاب) للجنْسِ؛ فدلَّ على الكَمالِ، أو للعهْدِ؛ فدلَّ على ما عُرِفَ واشتُهِرَ في البَلاغةِ[(٤)]، وهو القرآنُ الكريمُ العظيمُ.

- قولُه: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ أو حالٌ؛ لأنَّ الكتابَ مَعلومٌ غيرُ مُحتاجٍ للوصْفِ؛ لِمَا تُشعِرُ به مادَّةُ التِّلاوةِ مِنَ الانتِشارِ والشُّيوعِ. واختِيرَ المُضارعُ دونَ الوصْفِ بأنْ يُقالَ: مَتْلُوًّا عليهم؛ لِمَا يُؤْذِنُ به المُضارِعُ مِن الاستمرارِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).

فحصَلَ مِن مادَّةِ (يُتْلى) ومِن صِيغةِ المُضارِعِ دَلالةٌ على عُمومِ الأمكنةِ والأزْمنةِ[1]. وقال: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لَمْ يَقُلْ: «تتلوه عليهم»؛ لأنَّه أَعَمُّ، لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتلوه على النَّاسِ، ثُمَّ يُعَلِّمُ بعضُهم بعضًا[2].

- جملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ واردةٌ مَوردَ التَّعليلِ؛ للتَّعجيبِ مِن عدَمِ اكتِفائِهم بالكتابِ، وفي التَّعليلِ تَتميمٌ لِمَا اقتضاهُ التَّعبيرُ بـ﴿الْكِتَابَ﴾ وبـ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فالإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الكتابِ؛ لِيُسْتَحضَرَ بصِفاتِه كلِّها، وللتَّنويهِ به بما تَقْتضيهِ الإشارةُ مِن التَّعظيمِ. وتَنْكيرُ (رحمة)؛ للتَّعظيمِ، أي: لا يُقادَرُ قَدْرُها[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه استِحضارُ المُؤمنينَ بعُنوانِ: (قَومٍ يُؤمِنونَ) دونَ أنْ يُقالَ: (للمؤمنينَ)؛ لِمَا في لفظِ (قوم) مِن الإيماءِ إلى أنَّ الإيمانَ مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهم، أي: لِقَومٍ شِعارُهم أنْ يُؤمِنوا، يعني: لقومٍ شِعارُهم النَّظرُ والإنصافُ، فإذا قامَتْ لهم دَلائلُ الإيمانِ آمَنوا، ولم يُكابِروا ظُلْمًا وعُلوًّا؛ فالفِعلُ مُرادٌ به الحالُ القريبةُ مِن الاستقبالِ. وفيه تَعريضٌ بالَّذين لم يَكْتَفوا بمُعجِزتِه، واقترَحوا آياتٍ أُخرى لا نِسبةَ بيْنَه وبيْنَها[4].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هذا الكلامُ ورَدَ مَورِدَ الإنصافِ، أي: على أُسلوبِ الاستِدراجِ والكلامِ المُنصِفِ؛

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦).

وذلك أنَّ قولَه: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ...﴾ الآيَة، كلامٌ فيه وعيدٌ شديدٌ، وتَهديدٌ عظيمٌ، لكنْ لم يُكافِحْ به مَن خُوطِبَ بأنْ لم يَقُلْ: والَّذين آمَنوا بالباطِلِ منكم، بلْ جِيءَ به عامًّا على الغَيبةِ، ولم يُصرِّحْ بما كان منهم مِن الجَحدِ والتَّكذيبِ؛ ليَتفكَّروا فيه، ويَنظُروا: هلْ هم مِن الجاحدينَ للحقِّ أو مِن المُنْصفينَ، أو مِن الَّذين آمَنوا باللهِ وكَفَروا بالطَّاغوتِ أو خِلافِه، أو كانوا مُحقِّينَ أو مُبطِلين؟ فحينَئذٍ يُنصِفون مِن أنفُسِهم، ويُذْعِنون للحقِّ[١].

- والباءُ في قولِه: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ مَزيدةٌ؛ للتَّوكيدِ[٢].

-وقال: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا﴾ فذكَرَ سُبحانَه أنَّه «شهيدٌ بيْنَه وبيْنَهم»، ولم يَقُلْ: «شاهِدٌ علينا»، ولا «شاهِدٌ لي»؛ لأنَّه ضَمَّنَ الشَّهادةَ الحُكمَ، فهو شَهيدٌ يَحكُمُ بشَهادتِه بيْني وبيْنَكم، والحُكمُ قَدْرٌ زائدٌ على مُجرَّدِ الشَّهادةِ؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يؤدِّي الشَّهادةَ، وأمَّا الحاكِمُ فإنَّه يَحكُمُ بالحَقِّ للمُحِقِّ على المُبطِلِ، ويأخُذُ حقَّه منه، ويُعامِلُ المُحِقَّ بما يَستَحِقُّه، والمُبطِلَ بما يَستحِقُّه[٣].

- وجُملةُ ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُقرِّرةٌ لمعنى الاكتِفاءِ به شهيدًا؛ فهي تَتنزَّلُ منها مَنزِلةَ التَّوكيدِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ الإيمانُ بما سِوى اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (٢١/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧).

كُفرٌ به، فيكونُ كُلُّ مَن آمَنَ بالباطِلِ فقد كفَرَ باللهِ، وفي هذا العَطفِ فائدةٌ غيرُ التَّأكيدِ، وهي أنَّه ذكَر الثَّانيَ لِبيانِ قُبحِ الأوَّلِ، كقَولِ القائلِ: أتَقولُ بالباطِلِ وتَترُكُ الحَقَّ؟! لِبيانِ أنَّ القَولَ باطِلٌ قَبيحٌ[1].

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ يُفيدُ التَّنبيهَ على أنَّ المُشارَ إليهم أحرِياءُ بالحُكْمِ الواردِ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ الأوصافِ الَّتي ذُكِرَت لهم قبْلَ اسمِ الإشارةِ[2].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ جُزْأَيْ جُملةِ ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[3]؛ للمُبالَغةِ في اتِّصافِهم بالخُسرانِ العظيمِ، بحيث إنَّ كلَّ خُسرانٍ في جانبِ خُسرانِهم كالعدَمِ، فكأنَّهم انفَرَدوا بالخُسرانِ، فأُطلِقَ عليهم المُركَّبُ المفيدُ قصْرَ الخُسرانِ عليهم؛ وذلك لأنَّهم حقَّت عليهم الشَّقاوةُ العُظْمى الأبَديَّةُ[4].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧).

(٣) القَصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧، ١٨).

الآيات (٥٣-٥٥)

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغْشَاهُمُ﴾: أي: يُصيبُهم، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا سَفاهةَ المشركينَ وجهْلَهم: ويَستعجِلُك مُشرِكو قَومِك -يا محمَّدُ- بوُقوعِ عذابِ اللهِ عليهم، ولولا قَضاءُ اللهِ بنُزولِ العذابِ عليهم في وقتٍ محدَّدٍ لجاءَهم وقتَ استِعجالِهم به! ولَيأتيَنَّهم عذابُ اللهِ فَجأةً وهم لا يَشعرونَ بوَقتِ مَجيئِه.

يَستعجِلُك مُشرِكو قَومِك بالعذابِ، وإنَّ جهنَّمَ لَمُحيطةٌ بهم وبكُلِّ كافرٍ، يومَ يَغْشاهم عذابُ النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلِهم، ويقولُ اللهُ للكافرينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عطفٌ على جملةِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [العنكبوت:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٧).

٥٠]؛ استِقصاءً في الرَّدِّ على شُبُهاتِهم، وإبطالًا لتَعِلَّاتِ إعراضِهم النَّاشئِ عن المُكابَرةِ[(١)].

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾.

أي: ويَطلُبُ منك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- أن تُعجِّلَ وُقوعَ عَذابِ اللهِ عليهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

أي: ولولا تَقديرُ اللهِ لِعذابِ المُشرِكينَ بأن يَنزِلَ عليهم في وَقتٍ محدَّدٍ لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّرُ، لجاءهم في وَقتِ استِعجالِهم إيَّاه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١١، ٣١٢).

قال البِقاعي: (يجعلون تأخُّرَه عنهم شُبهةً لهم فيما يَزعُمونَ مِن التَّكذيبِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٦٢).

وقال ابن عثيمين: (هؤلاء يَستَعجِلونَ بالعذابِ لا أنَّهم يُريدونَ العذابَ، بل يَستعجِلونَه تَحدِّيًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١١).

وقال الماوردي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنَّ استعجالَهم له شدةُ عنادِهم لنبيِّه. الثاني: أنَّه استهزاؤُهم بقولِهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ولَيأتيَنَّهم عذابُ اللهِ فجأةً دونَ أن يَشعُروا بوَقتِ مَجيئِه[1].

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤)﴾.

أي: ويَستعجِلُك كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- بوُقوعِ عذابِ اللهِ عليهم، وإنَّ جهنَّمَ لَمُحيطةٌ بهم وبكُلِّ كافرٍ، فلا بدَّ لهم مِن دُخولِها يومَ القيامةِ[2].

ثُمَّ ذَكَر سبحانَه كيفِيَّةَ إحاطةِ العذابِ بهم، فقال[3]:

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

أي: إنَّ جَهنَّمَ مُحيطةٌ بالكافِرينَ يومَ يَغشاهم عَذابُها مِن فَوقِهم، ويَغشاهم مِن

= (٦/ ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

قال ابن عثيمين: (ظاهِرُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ هذا في الدُّنيا، ولا فَرقَ بيْنَ أن يكونَ هذا العذابُ على يدِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأصحابِه، أو مِنَ الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١٤).

وقال ابن عاشور: (وقد حلَّ بهم عذابُ يوم بدرٍ بَغْتةً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فاستأصَل صَناديدَهم يومَئذٍ، وسُقِطَ في أيديهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

وقال ابن عطية: (هو الذي ظهَر يومَ بدرٍ، وفي السنينَ السبعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠).

تحتِ أرجُلِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ويَقولُ اللهُ للكافِرينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن كُفرانٍ وعِصيانٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانَه وتعالى مُقَدَّرةٌ مُنظَّمةٌ، لا تأتي مُصادَفةً بغيرِ عِلْمٍ ولا بغيرِ رُشْدٍ، بل هو سُبحانَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).
قال الشوكانيُّ: (القائلُ: هو الله سُبحانَه، أو بَعضُ ملائكتِه بأمرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠).

وتعالى كامِلُ العِلمِ والحِكمةِ[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أراد الله تأخيرَه لحِكَمٍ عَلِمها؛ منها: إمهالُهم ليؤمِنَ منهم مَنْ آمَنَ بعدَ الوعيدِ، وليَعلموا أنَّ الله لا يَستفِزُّه استِعجالُهم العذابَ؛ لأنَّه حكيمٌ لا يُخالفُ ما قدَّره بحكمتِه، حليمٌ يُمهِلُ عِبادَه[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ واضحةٌ؛ لأنَّ العذابَ في هذا الموضعِ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ هلاكَ موتٍ أو غيرَه مِن أنواعِ العذابِ، وأيُّهما كان فلا يَتقدَّمُ الأجَلَ المضروبَ! وهم يَزعمون أنَّ الإنسانَ قد يموتُ بغيرِ أجَلِه، ويُنْكِرون أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه ضرَب أجلًا لأحدٍ في هلاكٍ؛ مَخافةَ ما يَلْزَمُهم في الكتابِ السَّابقِ بشَيءٍ مِن الأشياءِ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ عِظَمُ هذا العذابِ؛ حيثُ إنه يَغلُظُ عليهم مِن ناحيتَينِ: مِن العُلُوِّ، ومن السُّفْلِ؛ لأنَّه يكونُ كالغِطاءِ والوِطاءِ، كأنَّهم يُطبَقُ عليهم بنارٍ، ومُوقَدٌ مِن تحتِهم نارٌ، هذا عَدَا ما يأتيهم مِن كلِّ جانبٍ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ تعذيبَ الكفارِ جِسْميٌّ ونَفْسيٌّ: الجِسْميُّ ما يَذوقونه من أنواعِ العذابِ، والنَّفْسيُّ ما يحصُلُ لهؤلاء المعذَّبينَ مِن التَّقريعِ والتَّوبيخِ الَّذي فيه الألَمُ النَّفْسيُّ؛ لقولِه: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والألَمُ النَّفسيُّ قد يكونُ أشدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٦).

مِن الألَمِ الجِسميِّ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إثباتُ العَدلِ؛ حيث كان الجزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ[2].

٧- قولُه تعالى: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه الرَّدُّ على الجبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ لا يُضافُ إليه العَمَلُ إلَّا على سبيلِ المَجازِ فقط! فعَمَلُ الإنسانِ عندَهم كإحراقِ النَّارِ لِمَا تُحرِقُه؛ فهو شيءٌ مُجبَرٌ عليه بدونِ اختيارِه[3]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ حُكِيَ استِعجالُهم العذابَ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ حالِ استِعجالِهم؛ لإفادةِ التَّعجيبِ منها[4].

- قولُه: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُبيِّنةٌ لِمَا أُشِيرَ إليه في الجُملةِ السَّابقةِ، مِن مَجيءِ العذابِ عندَ مَحلِّ الأجلِ[5].

٢- قوله تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أعقبَ إنذارَهم بعذابِ يومِ بَدرٍ -على قولٍ- بإنذارِهم بالعذابِ الأعظَمِ؛ لأنَّه سُبحانَه قد أعدَّ لهم عذابًا أعظَمَ مِن عذابِ يومِ بَدرٍ، وهو عذابُ جهنَّمَ الَّذي يعُمُّ جميعَهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤).

وأُعِيدَ لأجْلِه ذِكْرُ استِعجالِهم بالعذابِ مُعترِضًا بيْنَ المُتعاطِفَين؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك جوابُ استِعجالِهم؛ فإنَّهم استَعجَلوا العذابَ فأُنذِروا بعذابَين، أحدُهما أعجَلُ مِن الآخَرِ. وفي إعادةِ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ تَهديدٌ وإنذارٌ بأخْذِهم؛ فجُملةُ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾؛ فهُما عذابانِ كما هو مُقْتضى ظاهرِ العَطْفِ[(١)].

- قولُه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِغايةِ تَجْهيلِهم، ورَكاكةِ رأْيِهم، وفيه دَلالةٌ على أنَّ ما اسْتَعْجلوه عذابُ الآخرةِ، أي: يَستعجلونك بالعذابِ، والحالُ أنَّ مَحلَّ العذابِ الَّذي لا عذابَ فوقَه مُحيطٌ بهم، كأنَّه قِيل: يَستعجِلونك بالعذابِ، وإنَّ العذابَ لَمُحيطٌ بهم، أي: سيُحِيطُ بهم، وإنَّما جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ دَلالةً على تحقُّقِ الإحاطةِ واستِمرارِها، أو تَنزيلًا لحالِ السَّببِ مَنزلةَ حالِ المُسبَّبِ؛ فإنَّ الكُفْرَ والمعاصيَ المُوجِبةَ لدُخولِ جهنَّمَ مُحِيطةٌ بهم[(٢)].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اللَّامُ في (الكافرين) للعهْدِ على وَضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، أو للجِنْسِ؛ فيكونُ استِدلالًا بحُكْمِ الجنْسِ على حُكْمِهم[(٣)].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الإحاطةُ كِنايةٌ عن عدَمِ إفلاتِهم منها، والمرادُ بالكافرينَ المُستعجِلون، واستُحْضِروا بوصْفِ الكافرينَ؛ للدَّلالةِ على أنَّه مُوجِبُ إحاطةِ العذابِ بهم. واستُعْمِلَ اسمُ الفاعلِ (محيط)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧، ١٩٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

في الإحاطةِ المُستقبَلةِ، مع أنَّ شأْنَ اسم الفاعلِ أنْ يُفِيدَ الاتِّصافَ في زمَنِ الحالِ؛ تَنزيلًا للمُستقبَلِ مَنزِلَةَ زمانِ الحالِ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لِصُدورِه عمَّن لا خِلافَ في إخبارِه(١).

٣- قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ ظرفٌ لِمُضْمرٍ قد طُوِيَ ذِكْرُه؛ إيذانًا بغايةِ كَثرتِه وفَظاعتِه، كأنَّه قِيلَ: يومَ يَغشاهُم العذابُ -الذي أُشيرَ إليه بإحاطةِ جهنَّمَ بهم- يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يَفِي به المَقالُ. وقِيل: ظرفٌ للإحاطةِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ تَصويرٌ للإحاطةِ، وقولُه: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ بيانٌ للغِشْيانِ؛ لتَصويرِه تفظيعًا لحالِه -كقولِه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]- وتأْكيدًا لِمعنى الغِشْيانِ؛ فهو في مَوضعِ الحالِ مِن العذابِ، وهي حالٌ مُؤكِّدةٌ. وقولُه: ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ احتِراسٌ عمَّا قد يُوهِمُه الغِشْيانُ مِن الفوقيَّةِ خاصَّةً، أي: تُصيبُهم نارٌ مِن تحتِهم تَتوهَّجُ إليهم وهم فوقَها، والمقصودُ من هذه الكِنايةِ أنَّ العذابَ مُحيطٌ بهم؛ فلذلك لم يُذكَرِ الجانبانِ الأيمَنُ والأيسَرُ؛ لأنَّ الغرَضَ من الكِنايةِ قد حصَلَ، والمقامُ مَقامُ إيجازٍ؛ لأنَّه مَقامُ غضبٍ وتَهديدٍ(٣).

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ التَّقديرُ: ويقولُ اللهُ، وعدَلَ عن ضَميرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩، ٢٠).

التَّكلُّمِ -على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهِرِ- على طَريقةِ الالتِفاتِ، أو يُقدَّرُ: ويقولُ الملَكُ المُوكَّلُ بجهنَّمَ[1].

- وقولُه: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جَعَل ذلك عيْنَ ما كانوا يعملونَ؛ لِلمُبالَغةِ بطريقِ إطلاقِ اسمِ المسَبَّبِ على السَّبَبِ، فإنَّ عمَلَهم كان سَبَبًا لعذابِهم[2]، فهم في الحقيقةِ لا يَذوقون ما كانوا يعملون، إنَّما يَذوقون جزاءَه، لكنَّه مِن بابِ التَّعبيرِ بالسَّببِ عن المسبَّبِ. وأيضًا هو أشدُّ في التَّقريعِ؛ لأنَّ هذا العملَ اختاروه بأنفُسِهم، والجزاءُ لَمْ يختاروه بأنفُسِهم؛ فكأنَّه يقولُ: هذا هو الَّذي اختَرْتُم تمامًا[3]. وأيضًا لأنَّ الجزاءَ لما كان بقدرِ المجزيِّ أُطلِق عليه اسمُه[4].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).

الآيات (٥٦-٥٩)

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: أي: لَنُنزِلَنَّهم، ولَنُسْكِنَنَّهم، يُقالُ: بوَّأتُه منزلًا، إذا أنزلتَه ومكَّنْتَ له فيه، وأصل (بوأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ[1].

﴿غُرَفٗا﴾: أي: مَنازِلَ عاليةً في الجنَّةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى عِبادَه المؤمنينَ بالهجرةِ مِن البلدِ الَّذي لا يَقدِرونَ فيه على إقامةِ الدِّينِ، فيقولُ تعالى: يا عِباديَ الَّذين آمَنوا، إنْ ضُيِّقَ عليكم في عبادتِكم في بلدٍ، فهاجِروا إلى مَوضِعٍ تَتمَكَّنونَ فيه مِنَ العبادةِ؛ فإنَّ أرضي واسِعةٌ، فأخلِصوا العبادةَ لي وحْدي.

ويُبَيِّنُ تعالى لهم أنَّ الموتَ سيُدرِكُهم في كلِّ مكانٍ؛ وذلك ترغيبًا لهم في الهجرةِ، فيقولُ: كلُّ نفسٍ مُفارِقةٌ للحياةِ، ثمَّ تُرجَعونَ إلينا؛ لِنُجازيَكم على أعمالِكم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢).

ويخبِرُ سُبحانَه عمَّا أعَدَّه للمؤمنينَ الصادِقينَ مِن حُسنِ الجزاءِ، فيقولُ: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لَنُسْكِنَنَّهم في مَنازِلَ عاليةٍ مِن الجنَّةِ، تَجري مِن تحتِ تلك المنازِلِ أنهارُ الجنَّةِ، خالِدينَ فيها أبدًا، نِعْمَ جزاءُ العامِلينَ تلك المنازِلُ العاليةُ، وهم الَّذين صَبَروا على طاعةِ اللهِ والأذى في سبيلِه، وعلى رَبِّهم وَحْدَه يَعتَمِدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ المُشرِكينَ على حِدةٍ، وحالَ أهلِ الكتابِ على حِدةٍ، وجمَعَهما في الإنذارِ، وجعَلَهما مِن أهلِ النَّارِ؛ اشتَدَّ عِنادُهم، وزاد فَسادُهم، وسَعَوا في إيذاءِ المُؤمِنينَ، ومَنَعوهم مِن العبادةِ؛ فقال مُخاطِبًا للمُؤمِنينَ(١):

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾.

أي: يا عباديَ الَّذين آمَنوا، إن لم تَتمَكَّنوا مِن طاعتي وعِبادتي في بلدٍ، فإنَّ أرضي واسِعةٌ؛ فهاجِروا إلى مَوضِعٍ تتمَكَّنونَ فيه مِن ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧].

﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٣، ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦١).

أي: فلِي وَحْدي أخلِصوا العبادةَ، وأَظهِروا طاعتي حيثُما يُمكِنُكم مِنَ الأرضِ، ولا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تُطيعوا في مَعصيتِه أحدًا[(١)].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ بالمُهاجَرةِ، صعُبَ عليهم تَركُ الأوطانِ ومُفارَقةُ الإخوانِ، فقال لهم: إنَّ ما تَكرَهونَ لا بُدَّ مِن وُقوعِه؛ فإنَّ كُلَّ نفْسٍ ذائِقةُ الموتِ، والموتَ مُفَرِّقُ الأحبابَ، فالأَولى أن يكونَ ذلك في سَبيلِ اللهِ، فيُجازيكم عليه؛ فإنَّ إلى اللهِ مَرجِعَكم[(٢)].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه بالحِرصِ على العبادةِ وصِدقِ الاهتِمامِ بها، حتَّى يتطَلَّبوا لها أوفَقَ البلادِ وإنْ بَعُدَت، وشَقَّ عليهم تَركُ الأوطانِ ومُفارَقةُ الإخوانِ- خوَّفَهم بالموتِ؛ لِتَهونَ عليهم الهِجرةُ[(٣)].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧﴾.

كُلُّ نفْسٍ مخلوقةٍ واجِدَةٌ مَرارةَ الموتِ وكربَه لا مَحالةَ، والموتُ لا بدَّ نازلٌ بكم، وأيْنَما كنتُم يُدرِكُكم، ثمَّ تُرَدُّون بعْدَه إلى اللهِ، فيُجازيكم على أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها؛ فكُونوا في طاعةِ اللهِ وحيثُ أمرَكم؛ فهو خيرٌ لكم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى بيَّنَ ما يكونُ للمُؤمِنينَ وقتَ الرُّجوعِ إليه، كما بيَّنَ مِن قبلُ ما يكونُ للكافِرينَ، بقَولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1] [العنكبوت: ٥٤].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لَنُسكِنَنَّهم في الجنَّةِ مَنازِلَ عاليةً[2].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

= الرسعني)) (٥/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

قال الواحدي: (المعنى: لا بُدَّ مِن الموتِ، وكُلُّ أحدٍ مَيِّتٌ أيْنَما كان؛ فلا تُقيموا بدارِ الشِّركِ خَوفًا مِن الموتِ). ((البسيط)) (١٧/ ٥٤٨).

وقال ابنُ عثيمين: (عبَّرَ عن حقيقةِ الموتِ بالذَّوقِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَذوقُ مرارةَ الموتِ وألَمَ فِراقِ الحياةِ، إلَّا إذا كان مُؤمِنًا؛ فإنَّه يَذوقُه من وجهٍ، لكنْ يَهونُ عليه الأمرُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجَنَّةِ يَتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما يَتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ في الأُفُقِ[١]، مِنَ المَشرقِ أو المَغربِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم! قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غيرُهم؟ قال: بلى، والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا بالله، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرْفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها! فقال أبو موسى الأَشْعَريُّ: لِمَن هي يا رسولَ الله؟ قال: لِمَن ألانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات لله قائِمًا والنَّاسُ نِيامٌ))[٣].

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: تجري مِن تحتِ تلك المنازِلِ العاليةِ أنهارُ الجنَّةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ

---

(١) الدُّرِّيَّ: أي: الشَّديدَ الإضاءةِ. الغابرَ في الأُفُقِ: أي: الذَّاهِبَ الماشيَ الَّذي تدلَّى للغُروب وبَعُدَ عن العُيونِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٦٩)، ((شرح القَسْطَلَّاني)) (٥/ ٢٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) أخرجه أحمد (٦٦١٥)، والحاكم (١٢٠٠).

صحَّحه الحاكِمُ على شرط مُسلم، وحسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ١١١)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٦١٧): حسَنٌ صحيحٌ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٧).

قال البِقاعي: (ومِن المعلوم أنَّه لا يكونُ في موضِعِ أنهارٌ إلَّا كان به بساتينُ كِبارٌ، وزُروعٌ ورياضٌ وأزهارٌ، فيُشرِفونَ عليها مِن تلك العلالي). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٦٧).

لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

أي: ماكِثينَ في غُرَفِ الجنَّةِ أبدًا، فلا يُخرَجونَ منها ولا يَموتونَ[١].

﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

أي: نِعْمَ جزاءُ العامِلينَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ؛ تلك المنازِلُ العاليةُ الَّتي يُسكِنُهم اللهُ إيَّاها في جنَّتِه، وتَجري مِن تحتِها الأنهارُ خالِدينَ فيها[٢].

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾.

أي: الَّذين صَبَروا على طاعةِ اللهِ وإقامةِ دينِه، وتحمَّلوا أذَى المُشرِكينَ، وصَبَروا على مُفارَقةِ أوطانِهم؛ فِرارًا مِنَ الفِتَنِ، وعلى رَبِّهم وَحْدَه يَعتَمِدونَ في أمورِ دينِهم ودُنياهم، فلا يَستعينونَ بغيرِ اللهِ في جهادِ أعدائِهم، وطَلَبِ أرزاقِهم، وغيرِ ذلك مِن أمورِهم[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّة:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ يجبُ على كُلِّ مَن كان في بلدٍ يُعمَلُ فيها بالمعاصي، ولا يُمكِنُه تغييرُ ذلك: أن يُهاجِرَ إلى حيثُ تتهيَّأُ له العِبادةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تحقيرٌ لأمرِ الدُّنيا ومخاوفِها، كأنَّ بعضَ المُؤمِنينَ نَظَر في عاقبةٍ تلحَقُه في خروجِه مِن وطنِه أنَّه يموتُ أو يجوعُ أو نحوُ هذا، فحَقَّر اللهُ تعالى شأنَ الدُّنيا، أي: أنتم لا محالةَ مَيِّتونَ ومَحشورونَ إلينا؛ فالبِدارُ إلى طاعةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، والهجرةُ إليه أَوْلى ما يُمتثَلُ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يُنَبِّهُ على أنَّ الإنسانَ لا ينفَكُّ عن أمرٍ شاقٍّ يَنبغي الصَّبرُ عليه(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أنَّه ينبغي للصَّابرِ أنْ يَعتمِدَ على ربِّه في صَبرِه، وفائدةُ اعتمادِه في صَبرِه على ربِّه: أوَّلًا: الثَّباتُ على ذلك؛ فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يقولُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ثانيًا: أنَّ صَبرَه يكونُ عبادةً؛ لأنَّ بعضَ الناسِ يَصْبِرُ ويَتَجَلَّدُ على حَدِّ قولِ الشَّاعرِ:

وتَجلُّدِي للشَّامِتينَ أُرِيهِمُ ... أنِّي لِرَيْبِ الدَّهرِ لا أَتَضَعْضَعُ(٣)

فهذا الصَّبرُ لا شكَّ أنَّه خُلُقٌ جميلٌ، لكنَّه لا يُثابُ عليه، وإنَّما يُثابُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٨).

(٣) البيتُ لأبي ذؤيب خويلدِ بنِ خالدٍ الهُذَليِّ، وهو شاعرٌ مخضرمٌ، أدرَك الجاهليَّةَ والاسلامَ. يُنظر: ((معجم الأدباء)) للحموي (٣/ ١٢٧٥، ١٢٧٧).

ريبُ الدهرِ: أي: حَوادثُه وصُروفُه. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٤٤٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢/ ٥٤٧).

لا أَتَضَعْضَعُ: أي: لا أخضَعُ أو أذِلُّ، ولا أتكَسَّرُ للمصيبةِ، فتَشَمتَ بي الأعداءُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٥٠)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢١/ ٤١٥).

الصَّبرِ المقرونِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ سُبحانَه وتعالى، فهو الَّذي يكونُ فيه الثَّوابُ والأجرُ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ يُفهَمُ منه كَونُهم عابدينَ، فما الفائِدةُ في الأمرِ بالعبادةِ بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؟

الجواب: أنَّ فيه فائدتينِ:

الفائدة الأولى: المُداوَمةُ، أي: يا مَن عَبَدْتُموني في الماضي، اعبُدوني في المُستقبَلِ.

الفائدة الثَّانية: الإخلاصُ، أي: يا مَن تَعبُدُني، أخلِصِ العمَلَ لي، ولا تعبُدْ غيري(٢).

فالأمرُ الموَجَّهُ لِمَن يَتَّصِفُ به يُرادُ به أمْرانِ؛ هما: تحقيقُه، والاستِمرارُ فيه وتكميلُه، كما لو قلتَ: يا رجُلُ كُنْ رجُلًا؛ أي: اثْبُتْ على هذا، وحَقِّقِ الرُّجولةَ وكَمِّلْها(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ يُشعِرُ بأنَّ عِلَّةَ الأمرِ لهم بالهِجرةِ هي تمكينُهم مِن إظهارِ التَّوحيدِ، وإقامةِ الدِّينِ، وهذا هو المعيارُ في وجوبِ الهِجرةِ مِنَ البلَدِ الَّذي يُفتَنُ فيه المُسلِمُ في دينِه، وتَجري عليه فيه أحكامٌ غيرُ إسلاميَّةٍ(٤)،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

فالحكمةُ مِن الهجرةِ القيامُ بعبادةِ اللهِ، وعليه إذا تَمَكَّنَ الإنسانُ مِن عبادةِ اللهِ فلا تجبُ عليه الهجرةُ؛ لكنَّ الأفضلَ الهجرةُ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ دليلٌ على جوازِ اختيارِ الأرضِ، والنُّقلَةِ مِن مَوضعٍ إلى موضعٍ؛ فرارًا مِن المعصيةِ، وصيانةً للدِّينِ، وخَلاصًا ممَّن لا يُساعِدُ على الآخرةِ، ويدعو إلى الدُّنيا(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مُقتضى العُبوديَّةِ والإيمانِ أنْ يقومَ الإنسانُ بحقيقةِ ما تقتضيه هذه العبوديَّةُ، بحيثُ لا يَرى لنَفْسِه حقًّا بجانبِ حقِّ اللهِ، بمعنى ألَّا يُقَدِّمَ حُظوظَ نفْسِه على حقوقِ ربِّه، وليس المعنى ألَّا يقومَ بالأمْرَينِ؛ فإنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يقومَ بالأمْرَينِ، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لعبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ الله عنهما: ((إنَّ لِرَبِّك عليك حَقًّا، ولنفْسِك عليك حَقًّا))(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ أنَّ دارَ الإسلامِ تُضافُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّها مكانُ عبادتِه، وهذه الإضافةُ ليست إضافةَ خَلْقٍ وتكوينٍ؛ لأنَّ كلَّ الأراضي للهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ إضافةُ تشريفٍ، وأخَصُّ مِن ذلك إضافةُ المكانِ المُعَيَّنِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، مِثْلُ المساجدِ؛ فهي بيوتُ اللهِ عزَّ وجلَّ(٤).

٦- في قولِه تعالى: ﴿أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ إشعارٌ بالوعْدِ من الضِّيقِ إلى السَّعةِ، وقد أنجَزَ اللهُ وعْدَه في المدينةِ(٥)؛ ففيه أنَّ المهاجِرَ سيَجِدُ سَعَةً في أرضِ اللهِ، ويَشْهَدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٦).

لهذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، فهؤلاء تَرَكوا بلادَهم الَّتي ضُيِّقَ عليهم فيها؛ فعَوَّضَهم اللهُ بلادًا لا يَجدون فيها الضِّيقَ، بل يَجِدونها ذاتَ سَعةٍ، ومَن تَرَكَ شيئًا للهِ عَوَّضَه اللهُ خيرًا منه[(١)].

٧- في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ[(٢)].

٨- مُفارَقةُ الجسدِ للرُّوحِ لا تَقَعُ إلَّا بعدَ ألَمٍ عظيمٍ تَذوقُه الرُّوحُ والجسدُ جميعًا؛ فإنَّ الرُّوحَ قد تَعلَّقَتْ بهذا الجسدِ، وألِفَتْه، واشتدَّتْ إلْفَتُها له، وامتِزاجُها به، ودُخولُها فيه حتَّى صارا كالشَّيءِ الواحدِ؛ فلا يَتفارَقانِ إلَّا بجُهدٍ شديدٍ، وألَمٍ عظيمٍ، ولم يَذُقِ ابنُ آدمَ في حياتِه ألَمًا مِثْلَه، وإلى ذلك الإشارةُ بقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[(٣)]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ إذا قُرِنَ بالعَمَلِ الصَّالحِ فالمرادُ به ما في القَلبِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ العَطفَ يَقتضي المُغايَرةَ، أمَّا إذا ذُكِرَ الإيمانُ وحْدَه فإنَّه يَدخُلُ فيه العَمَلُ الصالحُ[(٤)].

١٠- من اللَّطائفِ: مُقابَلةُ غِشيانِ العذابِ للكفَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلِهم، في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، بغِشْيانِ النَّعيمِ للمؤمنينَ مِن فوقِهم بالغُرفِ ومن تحتِهم بالأنهارِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

١١- قال الله تعالى: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ لا بصيغةِ الأمرِ؛ لتَفريحِ قُلوبِ المؤمِنينَ، وقال في حَقِّ الكافِرينَ: ﴿ذُوقُواْ﴾ [العنكبوت:٥٥] بصيغة الأمرِ؛ لإيلامِ قُلوبِهم بلَفظِ الأمرِ؛ وذلك لأنَّ لَفظَ الأمرِ يدُلُّ على انقطاعِ التَّعَلُّقِ بعْدَه؛ فإنَّ مَن قال لأجيرِه: (خُذْ أُجرَتَك) يُفهَمُ منه أنَّه بذلك يَنقَطِعُ تعلُّقُه عنه، وأمَّا إذا قال: (ما أتَمَّ أُجرَتَك عندي!) أو (نِعْمَ ما لَك مِن الأجرِ!) فيُفهَمُ منه أنَّ ذلك عِندَه، ولم يَقُلْ هاهنا: خُذوا أُجرَتَكم أيُّها العامِلونَ، وقال هناك: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1] [العنكبوت:٥٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ سَمَّى اللهُ تعالى الثَّوابَ أجرًا؛ مِن بابِ إظهارِ كَرَمِه على عبادِه، كأنَّهم أُجَراءُ، فيَكونُ هذا الثَّوابُ واجبًا وُجوبَ الأُجرةِ للأجيرِ، وهذا لا شكَّ أنَّه مِن نعمةِ اللهِ سُبحانه وتعالى وفَضْلِه، وإلَّا فهو المُتفضِّلُ أوَّلًا وآخِرًا[2].

١٣- في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ حيثُ أضاف العملَ إليهم، فدلَّ هذا على أنَّهم يَعملون باختيارِهم، وإلَّا لَمَا استحَقُّوا الثَّناءَ، فلولا أنَّ الإنسانَ يَعمَلُ باختيارِه ما استحَقَّ أنْ يُثْنَى عليه بالعملِ الصَّالحِ، ولا أنْ يُذَمَّ بالعملِ السَّيِّئِ! ومِن ثَمَّ قالتِ الجبريَّةُ: إنَّ أفعالَ اللهِ غيرُ مُعَلَّلَةٍ! فاللهُ عندَهم يَظْلِمُ مَن شاءَ؛ وإنْ كان هو الَّذي أَجْبَرَه على العملِ! ويُثِيْبُ مَن شاءَ؛ وإنْ كان هو الَّذي أَجْبَرَه على العملِ، ولا حكمةَ في ذلك! فهُم لا يُعَلِّلُون أفعالَ اللهِ؛ بل أفعالُ اللهِ عندَهم لِمُجَرَّدِ المشيئةِ[3]!

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نصَّ على التَّوكُّلِ وإن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٢).

كان داخِلًا في الصَّبرِ؛ لأنَّه يُحتاجُ إليه في كُلِّ فِعلٍ وتَركٍ مأمورٍ به، ولا يَتِمُّ إلَّا به[(١)].

١٥- ذِكرُ الصَّبرِ والتَّوكُّلِ هنا مناسِبٌ؛ فإنَّ قَولَه تعالى في الآياتِ السَّابِقةِ: ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ كان لبيانِ أنَّه لا مانِعَ مِن العبادةِ، ومَن يُؤذَى في بُقعةٍ فَلْيَخرُجْ منها، فحَصَل النَّاسُ على قِسْمَينِ: قادِرٌ على الخروجِ، وهو مُتوكِّلٌ على رَبِّه، يَترُكُ الأوطانَ، ويُفارِقُ الإخوانَ. وعاجِزٌ وهو صابِرٌ على تحمُّلِ الأذى، ومُواظِبٌ على عبادةِ اللهِ تعالى[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾

- قولُه: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ وقَعَ اعتراضًا بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ: جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وجُملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾[(٣)] [العنكبوت: ٥٨].

- قولُه: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ النِّداءُ بعُنوانِ التَّعريفِ بالإضافةِ؛ لتَشريفِ المُضافِ، ومُصطلحُ القرآنِ: أنَّ (عِباد) إذا أُضيف إلى ضَميرِ الجلالةِ، فالمرادُ بهم المؤمنونَ غالبًا إلَّا إذا قامَتْ قرينةٌ، كقولِه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: ١٧]؛ وعليه فالوصفُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لِما في المَوصولِ مِن الدَّلالةِ على أنَّهم آمَنوا باللهِ حقًّا[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢).

- قولُه: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِيَّٰىَ﴾ فاءُ التَّفريعِ، والفاءُ ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ جوابُ شَرطٍ مَحذوفٍ؛ إذِ المعنى: إنَّ أرْضي واسعةٌ إنْ لم تُخْلِصوا العِبادةَ لي في أرضٍ فأخْلِصُوها في غَيرِها، ثمَّ حُذِفَ الشَّرطُ وعُوِّضَ عنه تَقديمُ المفعولِ، مع إفادةِ تَقديمِه معنَى الاختِصاصِ والإخلاصِ. وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ إمَّا مُؤكِّدةٌ للْفاءِ الأُولى؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ التَّفريعِ في الفِعلِ وفي مَعمولِه، أي: فلا تَعبُدوا غيري، فاعْبُدونِ، وإمَّا مُؤْذِنةٌ بمَحذوفٍ هو ناصبُ ضَميرِ المُتكلِّمِ تأكيدًا للعِبادةِ، والتَّقديرُ: وإيَّايَ اعْبُدوا فاعبُدونِ، وهو أنسَبُ بدَلالةِ التَّقديمِ على الاختصاصِ؛ لأنَّه لَمَّا أفاد الأمرُ بتَخصيصِه بالعِبادةِ، كان ذِكْرُ الفاءِ علامةَ تَقديرٍ على تَقديرِ فِعلٍ مَحذوفٍ قُصِدَ مِن تَقديره التَّأكيدُ[1].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّمِ بعدَ نُونِ الوِقايةِ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ تخفيفًا، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ جِيءَ بها حثًّا على المُسارَعةِ في الامتثالِ بالأمرِ[3]. وقيل: قولُه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ اعتِراضٌ ثانٍ بيْن الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ؛ قُصِدَ منها تأكيدُ الوعيدِ الَّذي تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ ...﴾ [العنكبوت: ٥٢] إلى آخِرِها، وتأكيدُ الوعْدِ الَّذي تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، أي: الموتُ مُدرِكٌ جميعَ الأنفُسِ، ثمَّ يُرجَعون

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

إلى اللهِ. وقُصِدَ منها أيضًا تَهوينُ ما يُلاقِيه المؤمنونَ مِن الأذى في اللهِ، ولو بلَغَ إلى الموتِ بالنِّسبةِ لِمَا يَترقَّبُهم مِن فضْلِ اللهِ وثوابِه الخالدِ، وفيه إيذانٌ بأنَّهم يَترقَّبُهم جِهادٌ في سبيلِ اللهِ(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ جِيءَ بـ (ثمَّ)؛ لأنَّ بيْنَ الموتِ والمُثولِ بيْنَ يَدَيِ الملِكِ الجبَّارِ في دارِ الجزاءِ تراخيًا، كأنَّه قيل: ثمَّ إنَّكم ميِّتون فتُقبَرون، ثمَّ تُنشَرونَ، فواصِلون عَقِيبَه إلى الجزاءِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وجِيءَ بالموصولِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخبرِ، أي: نُبوِّئنَّهم غُرفًا لأجْلِ إيمانِهم وعمَلِهم الصَّالحِ(٣).

- قولُه: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ إنشاءُ ثَناءٍ وتَعجُّبٍ على الأجرِ الَّذي أُعْطُوه؛ فلذلك قُطِعَت عن العطْفِ(٤).

- قولُه: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوصُ بالمدْحِ مَحذوفٌ؛ ثِقَةً بدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: الجنَّةُ(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢، ٢٣).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

وقال في سُورةِ (آلِ عمرانَ): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[آل عمران: ١٣٦]؛ فاختصَّ ما في سُورةِ (آلِ عمرانَ) بالواوِ في قولِه: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، وخلَّى ما في سُورةِ (العنكبوتِ) منها؛ وذلك لأنَّ الآيةَ في سُورةِ (آلِ عِمرانَ) مَبنيَّةٌ على تَداخُلِ الأخبارِ؛ لأنَّ أوَّلَها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مُبتدأٌ، و﴿جَزَآؤُهُم﴾ مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ خبرُ المُبتدأِ الثَّاني، وهو مع خبَرِه خبرُ المُبتدأِ الأوَّلِ، والجزاءُ هو الأجْرُ؛ فكأنَّه قال: أولئك أجْرُهم على أعمالِهم مَحْوُ ذُنوبِهم، وإدامةُ نَعيمِهم، أي: هو ترْكُ المُؤاخَذةِ بالذَّنْبِ، والتَّنعيمُ في جنَّةِ الخُلْدِ؛ فهذا الأجرُ مُفضَّلٌ على كلِّ أجرٍ يُعْطاه عاملٌ على عمَلِه؛ فنُسِقَت الأخبارُ بعضُها على بعضٍ؛ للتَّنبيهِ على النِّعمِ الَّتي هُيِّئَتْ لِرَجاءِ الرَّاجينَ. والخبرُ إذا جاء بعدَ خبَرٍ في مِثلِ هذا التَّفصيلِ، فحقُّه أنْ يُعطَفَ على ما قبْلَه بالواوِ، وكقولِك: هذا الجزاءُ كذا وكذا.

وأمَّا الآيةُ في سُورةِ (العنكبوتِ): فإنَّ ما قبْلَها مَبْنيٌّ على أنْ يُدرَجَ الكلامُ فيه على جُملةٍ واحدةٍ، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾؛ فقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُبتدأٌ، وقولُه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ في مَوضعِ خَبرِه، وهذا الخبرُ يتَّصِلُ به مَفعولانِ؛ الأوَّلُ: قولُه: (هُمْ)، والثَّاني: قولُه: ﴿غُرَفٗا﴾، وقولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مِن التَّبوئةِ؛ فلمَّا جُعِلَت هذه الأشياءُ كلُّها في درَجِ كلامٍ واحدٍ، وهو جُملةُ ابتداءٍ وخبَرٍ، واحتمَلَ قولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أنْ يَرِدَ بالواوِ وأنْ يَجيءَ مِن دُونِها؛ اختيرَ مَجيئُها بغيرِ (واوٍ)؛ لِيُشْبِهَ ما تقدَّمَ من عَقدٍ بخبَرٍ، لا على سَبيلِ عطْفٍ ونسَقٍ، فجاء بغيرِ (واوٍ). ويَحتمِلُ أنْ يكونَ في مَوضعِ خبرِ مُبتدأٍ، فكأنَّه قال: ذلك نِعمَ أجْرُ العاملينَ، ويكون قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾

إشارةً إلى ما ذكَرَ اللهُ تعالى مِن إسكانِهم الجنَّةَ؛ فجَرى بلا (واوٍ) مَجرَى ما هو مِن تَمامِ الكلامِ الأوَّلِ؛ فقولُه: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي: ذلك نِعمَ أجْرُ العامِلينَ، مُشارٌ إليه بالتَّفضيلِ على أُجورِ العامِلينَ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه مِن قولِه: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ للاهتمامِ[2]، وإفادةِ الحصرِ[3].

- وحذفُ مُتعلَّقِ التَّوكُّلِ يُفيدُ أنَّهم مُفوِّضونَ الأمرَ كلَّه إليه[4].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص:١٠١٤-١٠١٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٨٥).

الآيات (٦٠-٦٤)

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ
﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ
ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَكَأَيِّن﴾: بمعنى كَمْ، ويُرادُ بها التَّكثيرُ، وهي لَفْظةٌ مركَّبةٌ مِن كافِ التَّشبيهِ، و(أيٍّ)، والنُّونُ هي التَّنوينُ، أُثْبِتَتْ في الخطِّ على غيرِ القياسِ[1].

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ ويَحيدون، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[2].

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[3].

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[4].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب =

﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾: أي: الحياةُ الدَّائِمةُ الَّتي لا زوالَ لها، ولفظُ الحيوانِ مصدرٌ كالحياةِ، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ هجرةَ مَن هاجرَ لن تُضيِّعَ شيئًا مِن رزقِه الَّذي كتَبه الله له؛ وذلك ترغيبًا لهم في الهجرةِ، فيقولُ: كم مِن دابَّةٍ لا تدَّخِرُ غِذاءَها لِغَدٍ، ولا تَحمِلُ رِزقَها؛ اللهُ يَرزُقُها مِن حيثُ لا تعلَمُ، ويَرزُقُكم أيُّها المهاجِرونَ وإن لم يكُنْ معكم زادٌ ولا نَفقةٌ؛ فلا تَخافوا عَيْلةً ولا إقْتارًا، وهو السَّميعُ لكُلِّ قَولٍ، العَليمُ بكُلِّ فِعلٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما عليه المشركونَ مِن تناقضٍ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَهم -يا محمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وذلَّل الشَّمسَ والقَمَرَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه خالِقُ هذه الأشياءِ. فكيف يُصرَفونَ عن التَّوحيدِ بعدَ قيامِ الدَّليلِ؟!

ويخبِرُ سبحانَه أنَّ الأرزاقَ جميعَها بيَدِه، فيقولُ تعالى: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم؛ إنَّ اللهِ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

ولَئِنْ سألْتَهم: مَنِ الَّذي نزَّل مِنَ السَّحابِ مَطَرًا فأحْيا بسَبَبِه الأرضَ مِن بعدِ جَدْبِها؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي فعَلَ ذلك. فقُلْ -يا محمَّدُ: الحمدُ لله على إنزالِه للحُجَجِ، وتَيسيرِه للنِّعَمِ، بل أكثَرُ المُشرِكين لا يَعقِلون!

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حقيقةَ هذه الحياةِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للدَّارِ الآخرةِ، فيقولُ: وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلَّا لهوٌ ولَعِبٌ، لا بقاءَ لها، وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لَهِيَ دارُ الحياةِ الدَّائمةِ الَّتي لا زوالَ لها ولا انقِطاعَ. لو كان المُشرِكون يَعلَمونَ ذلك لآمَنوا باللهِ وَحْدَه، ولم يُؤْثِروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الَّذين صَبَروا وعلى ربِّهم يتوكَّلون؛ ذكَرَ ما يُعِينُ على التَّوكُّلِ، وهو بيانُ حالِ الدَّوابِّ الَّتي لا تدَّخِرُ شَيئًا لغدٍ، ويأتيها كُلَّ يومٍ برِزقٍ رَغَدٍ[1].

وأيضًا لَمَّا أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن أسْلَم بمكَّةَ بالهجرةِ، خافُوا الفقرَ فقالوا: غُربةٌ في بلادٍ لا دارَ لنا فيها ولا عَقَارٌ، ولا مَن يُطْعِمُ. فمَثَّلَ لهم بأكثرِ الدَّوابِّ الَّتي تَتَقَوَّتُ ولا تَدَّخِرُ، ولا تَرَوَّى في رِزْقِها[2].

وهذه الآيةُ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ [العنكبوت: ٥٧]؛ فإنَّ اللهَ لَمَّا هوَّنَ بها أمْرَ الموتِ في مَرْضاةِ اللهِ، وكانوا ممَّن لا يَعبَأُ بالموتِ؛ عَلِمَ أنَّهم يقولونَ في أنفُسِهم: إنَّا لا نخافُ الموتَ، ولكِنَّا نخافُ الفَقرَ والضَّيعةَ، واستِخفافُ العَرَبِ بالموتِ سَجِيَّةٌ فيهم، كما أنَّ خَشيةَ المَعَرَّةِ مِن سجاياهم؛ فأعقَبَ ذلك بأنْ ذكَّرَهم بأنَّ رِزقَهم على اللهِ، وأنَّه لا يُضَيِّعُهم، ولِلمُناسَبةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٥).
و(رَوَّى) في الأمرِ: نَظَر فيه وفَكَّر. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٣٢).

قَوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦] مِن توقُّع الَّذين يُهاجِرونَ من مكَّةَ ألَّا يَجِدوا رِزقًا في البلادِ الَّتي يهاجِرونَ إليها، وهو أيضًا مناسِبٌ لِوُقوعِه عَقِبَ ذِكرِ التَّوكُّلِ في قَولِه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] [العنكبوت: ٥٩].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾.

أي: هاجِروا وجاهِدوا في اللهِ -أيُّها المُؤمنونَ- ولا تَخافوا عَيْلةً أو إقتارًا؛ فكثيرٌ مِن الدَّوابِّ ذاتُ حاجةٍ إلى غذاءٍ وطعامٍ وشرابٍ، ولا تُطيقُ جَمْعَه وتحصيلَه، ولا تؤخِّرُ شَيئًا منه لغَدٍ، فيُقَيِّضُ لها اللهُ رِزْقَها على ضَعفِها، ويُيَسِّرُه لها؛ فكذلك يُيَسِّرُ اللهُ لكم أرزاقَكم أيُّها النَّاسُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا...﴾ [هود: ٦].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لأقوالِ عبادِه ودُعائِهم، العليمُ بأعمالِهم ونيَّاتِهم، ومِن ذلك أنَّه يَعلَمُ تَوكُّلَكم ورَجاءَكم منه الرِّزقَ، كما أنَّه لا تَهلِكُ دابَّةٌ مِن عدَمِ الرِّزقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٨).

ذكر ابن عاشور أنَّه يجوزُ أن يكونَ معنى قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أي: تَسيرُ غيرَ حاملةٍ رزقَها. وأنَّه يجوزُ أن يكونَ المرادُ بحملِ الرِّزقِ: التَّكَلُّفَ له، أي: لا تتكَلَّفُ لرزقِها، وهذا حالُ مُعظَمِ الدَّوابِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٥).

وقال ابن عثيمين: (ليس بصَوابٍ أن نقولَ: لا تَحمِلُ رزقَها؛ لِضَعفِها؛ لأنَّ هذا التَّعليلَ معناه أنَّها لا تحملُ رزقَها لأنَّها ضعيفةٌ؛ إمَّا ضعيفةٌ في الإرادة، أو ضعيفةٌ في البَدنِ، فليس هذا معنى الآيةِ، بل معناها: لا تَستطيعُ أن تكتَسِبَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦١، ٣٦٢).

لخفائِها عليه؛ إذ لا يخفَى عليه شيءٌ سُبحانَه[١].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّن سُبحانَه أمرَ الرِّزقِ بخِطابِه مع المؤمنينَ بعدَ أن كان قد أبلَغَ في تَنبيهِ الكافِرينَ بإيضاحِ المقالِ، وضَرْبِ الأمثالِ، ولِينِ المحاورةِ في الجِدالِ، ولَمَّا كان المَلِكُ لا يَتمَكَّنُ غايةَ التَّمكُّنِ مِن ترزيقِ مَن في غيرِ مَملكتِه؛ قال[٢]:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَهم[٣] -يا محمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وذلَّل لكم الشَّمسَ والقَمَرَ يَجْريانِ لِمَنافِعِكم ومَصالِحِكم؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو مَن خلَقَ وسخَّرَ ذلك دونَ مَن سِواه[٤].

﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

أي: فكيف يُصرَفونَ إذَن عمَّن خلَقَ وسخَّرَ ذلك، فيَعدِلونَ عن التَّوكُّلِ عليه، أو يَترُكونَ إخلاصَ العبادةِ له[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٩).

(٣) قيل: المرادُ بهم: المُشرِكون. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد يُشكِلُ على التَّفاوُتِ المذكورِ في الرِّزقِ عندَ كُلِّ مَن لم يَتأمَّلْ حَقَّ التأمُّلِ، فيُقالُ: يَكِلُ الخَلْقَ والرِّزقَ له، فما بالُهم مُتفاوِتينَ في الرِّزقِ؟ قال[1]:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ منهم وَفْقًا لِما فيه مَصلحةٌ ونَفعٌ لهم، بحَسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه؛ فلا يَصُدَّنَّكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن الهِجرةِ وجِهادِ عَدوِّكم خَوفٌ مِنَ الافتِقارِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بمصالحِ عبادِه، فيَعلَمُ ما يُصلِحُهم ويُفسِدُهم مِن الغِنى والفَقرِ، ولا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أحوالِهم[3].

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١).

أي: ولَئِنْ سألْتَهم -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي نزَّل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأحيا بسبَبِه الأرضَ اليابِسةَ بالنَّباتِ مِن بعدِ جُدوبِها وقُحوطِها؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي فعَلَ ذلك دونَ غيرِه[١].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

أي: وإذا قالوا ذلك فقُلْ -يا محمَّدُ-: الحَمدُ للهِ[٢] على إنزالِه الحُجَجَ، وتَبيينِه الحقَّ مِن الباطِلِ، وتيسيرِه النِّعَمَ[٣].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: بل[٤] أكثَرُ المُشرِكينَ باللهِ لا يَعقِلونَ الآياتِ، فلا يَعرِفونَ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ولا يتَّبِعونَه[٥]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٢) قال ابن القيم: (الحمدُ إخبارٌ عن مَحاسِنِ المحمودِ، مع حُبِّه وإجلالِه وتعظيمِه). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٤).

(٤) قال ابن عثيمين: (﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ الانتِقاليِّ، يعني: بعدَ أن ثبَت الأمرُ، وقامَتِ الحُجَّةُ، واستحقَّ الباري الحمدَ؛ حينَئذٍ يصِحُّ أن يُسجَّلَ عليهم الجهلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢).

وقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأنَّ العُقَلاءَ منهم آمَنوا، لما وضَحَت لهم تلك الحُجَجُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠).

وقيل: المرادُ بالأكثرِ: الجميعُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣).

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكافِرينَ يَعترِفونَ بكَونِ اللهِ هو الخالِقَ، وكَونِه هو الرَّزاقَ، وهم يَترُكونَ عِبادتَه، ولا يَترُكونَها إلَّا لِزينةِ الحياةِ الدُّنيا؛ بيَّنَ أنَّ ما يَميلونَ إليه ليس بشَيءٍ، بقَولِه[1]:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾.

أي: وما هذه الحياةُ الدُّنيا الَّتي يتمَتَّعُ بها النَّاسُ إلَّا شَيءٌ يُتلَهَّى به ويُلعَبُ، لا حَقيقةَ لها ولا ثباتَ، وهي مُنقَطِعةٌ وزائِلةٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠].

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾.

أي: وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ هي دارُ الحياةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ، الَّتي لا زَوالَ لها ولا انقِطاعَ، ولا موتَ فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠، ٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٣)، =

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فلو كان المُشرِكونَ يَعلَمونَ ذلك لآمَنوا باللهِ وَحْدَه، ولم يُؤْثِروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ[1].

= ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٥، ٤٧٦).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ يحتملُ أن يكونَ المعنى: وإنَّ حياةَ الدَّارِ الآخرةِ هي الحياةُ؛ لأنَّه لا نقْصَ فيها، ولا نَفادَ لها، أي: فتلك الحياةُ هي الحياةُ، لا الَّتي يَشوبُها ما يَشوبُ الحياةَ في هذه الدَّارِ، فيكونَ ﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾ مَصْدرًا على هذا. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾ الَّذي هو خِلافُ المَوَتانِ، وقيل للدَّارِ الآخرةِ: الحيوانُ؛ لأنَّها لا تَزولُ ولا تَبيدُ كما تَبيدُ هذه الدَّارُ وتَزولُ، فتَكونَ الدَّارُ وُصِفَتْ بالحياةِ لهذا المعنى، والمرادُ أهلُها.

ويجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ في قولِه: ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ هي ذات الحيوانِ، أي: دارُ الآخرةِ هي دارُ الحياةِ، كأنَّه لم يَعتَدَّ بحياةِ هذه الدَّارِ حياةً). ((البسيط)) (١٧/ ٥٥٨).

وقال ابن جرير: (﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ يقولُ: وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لَفيها الحياةُ الدَّائمةُ الَّتي لا زوالَ لها، ولا انقطاعَ، ولا موتَ معها). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠).

وقال ابنُ القيم: (قال تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ والمرادُ: الجنَّةُ عندَ أهلِ التَّفسيرِ، قالوا: وإنَّ الآخرةَ يعني: الجَنَّةَ ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ لَهِيَ دارُ الحياةِ الَّتي لا موتَ فيها). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٩٨).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالدَّارِ الآخرةِ: الجنَّةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والواحديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣).

قال السعدي: (وأمَّا الدَّارُ الآخرةُ فإنَّها دارُ الحَيَوان، أي: الحياة الكاملة، الَّتي مِن لَوازِمها أن تكونَ أبدانُ أهلِها في غايةِ القوَّة، وقُواهم في غايةِ الشِّدَّة؛ لأنَّها أبدانٌ وقُوًى خُلقَتْ للحياة، وأن يكونَ موجودًا فيها كلُّ ما تَكمُلُ به الحياةُ، وتَتِمُّ به اللَّذَّاتُ؛ من مُفرِحاتِ القلوبِ، وشَهَواتِ الأبدانِ؛ مِنَ المآكِلِ، والمَشارِبِ، والمَناكِحِ، وغيرِ ذلك، ممَّا لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ فيه الإرشادُ إلى النَّظَرِ في مخلوقاتِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أخبَرنا بذلك لأجْلِ أنْ نَتفكَّرَ في هذه الدَّوابِّ الَّتي لا تَحمِلُ رِزقَها[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الَّذين يَعلَمونَ لا بُدَّ أن يُؤْثِروا الآخِرةَ على الدُّنيا؛ لِما يَعلَمونَه مِن حالةِ الدَّارَينِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تحديدُ النَّسلِ خوفًا مِن ضيقِ الرِّزقِ سوءُ ظَنٍّ باللهِ تعالى؛ فاللهُ سُبحانَه وتعالى إذا خلَقَ خَلْقًا فلا بُدَّ أنْ يَرزُقَه؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فيه إقرارُ المشركين برُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي هذا أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ لا يكفي في التَّوحيدِ، وبهذا نَعرِفُ بُطْلانَ تفسيرِ مَن فَسَّرَ الإلهَ بالقادرِ على الاختراعِ! فإنَّ المتكلِّمينَ يُفَسِّرُون الإلهَ بالقادرِ على الاختراعِ، وإذا فَسَّرُوا الإلهَ بهذا التَّفسيرِ لم يكن هناك فَرْقٌ بيْنَ توحيدِهم وبينَ توحيدِ المشركين! وأهلُ السُّنَّةِ يقولون: الإلهُ هو المعبودُ حقًّا، وإنْ كان المعبودُ

= (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((الزواج)) لابن عثيمين (ص: ٣٤).

بالباطلِ يُسمَّى إلهًا؛ لأنه يُعبَدُ، لكنَّ أُلوهيَّته باطلةٌ[(١)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا استدلالٌ على المُشرِكينَ المكَذِّبينَ بتوحيدِ الإلهيَّةِ والعبادةِ، وإلزامٌ لهم بما أثبَتوه مِن توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، فهل تجِدُ أضعفَ عقلًا وأقلَّ بصيرةً ممَّن أتَى إلى حجرٍ، أو قبرٍ ونحوِه، وهو يَدري أنَّه لا ينفعُ ولا يضُرُّ، ولا يَخلُقُ ولا يرزُقُ، ثمَّ صرَف له خالصَ الإخلاصِ، وصافيَ العُبوديَّةِ، وأشرَكه مع الرَّبِّ الخالقِ الرَّازقِ، النَّافعِ الضَّارِّ[(٢)]؟!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ حُسنُ مُناظَرةِ القُرآنِ ومُجادَلتِه، وأنَّ مُناظَراتِه ومُجادلاتِه تكونُ مُلزِمةً؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إقرارَهم بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ مُلزِمٌ لهم أن يُقِرُّوا بتوحيدِ الألوهيَّةِ، وكمالِ صفاتِه جلَّ وعلا[(٣)].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فيه سؤالٌ: ما الفَرقُ بيْنَ اللَّهوِ واللَّعِبِ حتَّى يَصِحَّ عطفُ أحدِهما على الآخَرِ؟

الجوابُ: الفرقُ مِن عدَّةِ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللَّهوَ للقلبِ، واللَّعِبَ للجوارحِ؛ ولهذا يُجمَعُ بيْنَهما[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٥٤).

الوجهُ الثَّاني: أنَّ كلَّ شغلٍ يَعرِضُ فإنَّ المُكلَّفَ إذا أقبَلَ عليه، لَزِمه الإعراضُ عن غيرِه، ومَن لا يَشغلُه شأنٌ عن شأنٍ هو الله تعالى، فالَّذي يُقْبِلُ على الباطلِ لِلَذَّةٍ يسيرةٍ زائلةٍ فيه، يَلزَمُه الإعراضُ عن الحقِّ، فالإقبالُ على الباطلِ لَعِبٌ، والإعراضُ عن الحقِّ لَهْوٌ، فالدُّنيا (لَعِبٌ) أي: إقبالٌ على الباطلِ، و(لَهْوٌ) أي: إعراضٌ عن الحقِّ.

الوجهُ الثَّالثُ: هو أنَّ المُشتَغِلَ بشَيءٍ يُرجِّحُ ذلك الشَّيءَ على غيرِه -لا مَحالةَ- حتَّى يَشتَغِلَ به؛ فإمَّا أن يكونَ ذلك التَّرجيحُ على وَجهِ التَّقديمِ بأنْ يقولَ: أُقَدِّمُ هذا، وذلك الآخَرُ آتي به بَعْدَه، أو يكونَ على وَجهِ الاستِغراقِ فيه والإعراضِ عن غَيرِه بالكُلِّيَّةِ؛ فالأوَّلُ لَعِبٌ، والثَّاني لهوٌ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ فيه بيانُ حَقارةِ الدنيا؛ فظاهِرُ الآيةِ أنَّ الدُّنيا لهوٌ ولَعِبٌ على سَبيلِ الإطلاقِ، أو أنَّ ذلك على سبيلِ المُقارَنةِ بالآخِرةِ؛ لِقَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ غيرُ مَقصودٍ منه إفادةُ الحُكْمِ، بلْ هو مُستعمَلٌ في لازمِ مَعناهُ، وهو الاستِدلالُ على ضَمانِ رِزقِ المُتوكِّلينَ مِنَ المؤمنينَ. وتَمثيلُه للتَّقريبِ بضَمانِ رِزقِ الدَّوابِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٤).

الكثيرةِ الَّتي تَسِيرُ في الأرضِ لا تَحملُ رزقَها، والقرينةُ على هذا الاستِعمالِ هو قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ الَّذي هو استِئْنافٌ بيانيٌّ لبَيانِ وجْهِ سَوقِ قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ على ضَميرِ دابَّةٍ، والمقصودُ: التَّمثيلُ في التَّيسيرِ والإلهامِ للأسبابِ المُوصِلةِ، وإنْ كانت وسائلُ الرِّزقِ مُختلِفةً[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ هذا الكلامُ عائدٌ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]؛ تَعجُّبًا مِن نقائضِ كُفْرِهم[٢].

- وقولُه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فيه تَخصيصُ تَسخيرِ الشَّمسِ والقمَرِ بالذِّكْرِ مِن بيْنِ مَظاهرِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِمَا في حَرَكتِهما مِن دَلالةٍ على عَظيمِ القُدرةِ، مع ما في ذلك مِن المِنَّةِ على النَّاسِ؛ إذ ناطَ بحَركتِهما أوقاتَ اللَّيلِ والنَّهارِ، وضبْطَ الشُّهورِ والفُصولِ[٣]؛ فالنُّجومُ والكواكبُ ليس فيها مَصالحُ ظاهِرةٌ لنا، وإلَّا فقد سَخَّرَ اللهُ الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ، فكلُّها مُسَخَّرةٌ، لكنَّ المصالحَ في الشَّمسِ والقَمَرِ أظهَرُ وأبيَنُ[٤].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ واستبعادٌ مِن جِهَتِه تعالى لتَرْكِهم العَمَلَ بمُوجبِه، أي: فكيفَ يُصْرَفون عن الإقرارِ بتفرُّدِه تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٣).

في الإلهيَّةِ، مع إقرارِهم بتفرُّدِه تعالى فيما ذكَرَ مِن الخلْقِ والتَّسخيرِ[(١)]؟!

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ ﴾ تكميلٌ لمَعنى قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ٦٠]؛ لأنَّ الأوَّلَ الكلامُ في المَرزوقِ وعُمومِه، وهذا في الرِّزقِ وبَسْطِه وقَتْرِه. وقولُه: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ [العنكبوت: ٦١] مُعترِضٌ لتَوكيدِ مَعنى الآيتَينِ، وتعرُّضٌ بأنَّ الَّذين اعتَمَدْتُم عليهم في الرِّزقِ مُقِرُّون بقُدرتِنا؛ كقولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾[(٢)] [الذاريات: ٥٨].

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ هذا إلزامٌ آخَرُ لهم بإبطالِ شِرْكِهم، وافتِضاحِ تَناقضِهم؛ فإنَّهم كانوا مُعترفينَ بأنَّ الرَّازقَ هو اللهُ تعالى، كما قال سُبحانَه: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾، إلى قولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وإنَّما جاء أُسلوبُ هذا الاستِدلالِ مُخالِفًا لأُسلوبِ الَّذي قبْلَه والَّذي بعْدَه، حيثُ عُدِلَ عن تَركيبِ (ولئنْ سألْتَهم)؛ تفنُّنًا في الأساليبِ؛ لِتَجديدِ نَشاطِ السَّامعِ. وأُدمِجَ في الاستِدلالِ على انفرادِه تعالى بالرِّزقِ التَّذكيرُ بأنَّه تعالى يَرزُقُ عِبادَه على حسَبِ مَشيئتِه؛ دَليلًا على أنَّه المُختارُ في تَصرُّفِه، وليس ذلك على مَقاديرِ حاجاتِهم، ولا على ما يَبْدو مِن الانتفاعِ بما يُرْزَقونَه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧).

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَبْسُطُ﴾ (يَقْدِرُ)؛ لإفادةِ تجدُّدِ البَسْطِ والقَدْرِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ لإفادةِ أنَّ ذلك كلَّه جارٍ على حِكمةٍ لا يطَّلِعُ عليها النَّاسُ، وأنَّ اللهَ يَعلَمُ صبْرَ الصَّابرينَ، وجزَعَ الجازِعينَ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أُعِيدَ هنا أسلوبُ السُّؤالِ والجوابِ؛ لِيتَّصِلَ ربْطُ الأدِلَّةِ بعضِها ببعضٍ على قرْبٍ؛ فقد كان المُشركون لا يَدَّعون أنَّ الأصنامَ تُنزِلُ المطَرَ، كما صرَّحتْ به الآيةُ، فقامَتِ الحُجَّةُ عليهم، ولم يُنكِروها وهي تَقرَعُ أسماعَهم، وأُدمِجَ في الاستِدلالِ عليهم بانفرادِه تعالى بإنزالِ المطَرِ: أنَّ اللهَ أحْيَا به الأرضَ بعدَ مَوتِها، وإنْ كان أكثَرُ المشركينَ يَنسُبون المُسبَّباتِ إلى أسبابِها العاديَّة، وقد اعترَفوا بأنَّ سببَ الإنباتِ -وهو المطَرُ- مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، فيَلزَمُهم أنَّ الإنباتَ مِن اللهِ على كلِّ تَقديرٍ. وفي هذا الإدماجِ استِدلالٌ تَقريبيٌّ لإثباتِ البعثِ، كما قال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[٣] [الروم: ١٩].

- وقد أشار قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ إلى موتِ الأرضِ، أي: موتُ نَباتِها يكونُ بإمساكِ المطَرِ عنها في فُصولِ الجَفافِ، أو في سِنينِ الجدْبِ؛ لأنَّه قابلَه بكونِ إنزالِ المطَرِ لإرادتِه إحياءَ الأرضِ بقولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فلا جرَمَ أنْ يكونَ موتُها بتَقديرِ اللهِ؛ للعِلْمِ بأنَّ موتَ الأرضِ كان بعدَ حياةٍ سبقَت مِن نوعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨، ٢٩).

هذه الحياةِ؛ فصارتِ الآيةُ دالَّةً على أنَّه المُتصرِّفُ بإحياءِ الأرضِ وإماتتِها، ويُعلَمُ منه أنَّه مُحْيِي الحيوانِ ومُميتُه بطريقةِ لَحْنِ الخِطابِ[1]. فانتظَمَ مِن هذه الآياتِ المُفتتَحةِ بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٦١] إلى هنا، أُصولُ صِفاتِ أفعالِ اللهِ تعالى، وهي: الخلْقُ، والرزقُ، والإحياءُ، والإماتةُ؛ مِن أجْلِ ذلك عُقِّبَت بأمْرِ اللهِ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَحمَدَه بكلامٍ يَدُلُّ على تَخصيصِه بالحمْدِ[2].

- قولُه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إضرابُ انتقالٍ مِن حَمْدِ اللهِ على وُضوحِ الحُجَجِ، إلى ذَمِّ المشركينَ بأنَّ أكثَرَهم لا يَتفطَّنون لنُهوضِ تلك الحُجَجِ الواضحةِ، فكأنَّهم لا عقْلَ لهم؛ لأنَّ وُضوحَ الحُجَجِ يَقْتضي أنْ يَفطُنَ لِنتائجِها كلُّ ذي مُسْكةٍ مِن عقْلٍ؛ فنُزِّلوا مَنزلةَ مَن لا عُقولَ لهم. وإنَّما أُسنِدَ عدَمُ العقْلِ إلى أكثَرِهم دونَ جَميعِهم؛ لأنَّ مِن عُقلائهم وأهلِ الفِطَنِ منهم مَن وضَحَت له تلك الحُجَجُ، فمِنهم مَن آمَنوا، ومِنهم مَن أصَرُّوا على الكفْرِ عِنادًا[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثيةِ): ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، وقال

(١) لحنُ الخطاب: هو أن يكونَ المسكوتُ عنه موافقًا للمنطوقِ في الحُكم، ويُسمَّى أيضًا: فحوى الخطاب. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المخالَفة. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ أي: دلالةُ اللفظِ التزامًا على ما لا يستقِلُّ الحكمُ إلَّا به، وإن كان اللفظُ لا يقتضيه وضعًا. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٠).

في سُورةِ (البقرةِ): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ فخُصَّت سُورةُ (العنكبوتِ) بـ (مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾، وأُخليَ الموضعانِ الآخرانِ منها؛ لأنَّه لَمَّا كان سِياقُ الكلامِ هنا في مَساقِ التَّقريرِ، كان المَقامُ مُقْتضيًا للتَّأكيدِ بزيادةِ (مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾؛ إلْجاءً لهم إلى الإقرارِ بأنَّ فاعلَ ذلك هو اللهُ دونَ أصنامِهم؛ فلذلك لم يكُنْ مُقْتضًى لزيادةِ (مِن) في آيةِ (البَقرة) وفي آيةِ (الجاثية): ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] [البقرة: ١٦٤، الجاثية: ٥].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا أنَّه قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]؛ فاختُصَّت الأُولى بقولِه: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، والثَّانيةُ بقولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الأوَّلَ في التَّنبيهِ على البَعثِ والإحياءِ بعدَ الموتِ، فاستُعْمِلَ فيه ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: لا يَفهَمون عن هذا الفِعلِ مِثْلَه، وفي مِثلِ هذا يُقال: عقَلْتُ كلامَه؛ إذا استَدْركْتَ وفهِمْتَ، ومَن تنبَّهَ على الشَّيءِ وعلِمَه بعدَ أنْ لم يكُنْ مُتنبِّهًا عليه، يُستعمَلُ فيه مِثلُ: فطِنَ له، وعقَلَه، وأدْرَكَه، وشعَرَ به، وإنْ صحِبَ كلَّ ذلك العِلْمُ، إلَّا أنَّه عِلْمٌ على وصْفٍ. وليس كذلك الآيةُ في سُورةِ (لُقمانَ)؛ لأنَّ الكفَّارَ فيها مُقِرُّون بأنَّ اللهَ وحْدَه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، وهم يَعلَمون ذلك، ويُثبِتون معه آلهةً، فكأنَّهم لا يَعلَمون؛ فلذلك قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فإذا عَبَدوا الأصنامَ العِبادةَ الَّتي تَحِقُّ لِمَن خلَقَ السَّمواتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩).
ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٤، ١٠٢٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٩، ٤٤٠).

والأرضَ بإقرارِهم، فكأنَّهم لم يَعلَموا ما أقَرُّوا به، وثبَتَ معلومًا لهم(١).

- وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه وصَفَ أكثَرَهم هنا بعدَمِ العقْلِ للتَّعريفِ بإفراطِ قُصورِهم حتَّى استحَقُّوا الوصْفَ بصِفاتِ البهائمِ ومَن لا يصِحُّ خِطابُه؛ وذلك أنَّ العقْلَ فُضِّلَ به الإنسانُ، وبه امتيازُه عن البَهيمةِ، ولا يُمكِنُ العِلْمُ بشَيءٍ إلَّا بعدَ حُصولِه والاتِّصافِ به، وهو مَناطُ التَّكليفِ، فإذا فُقِدَ لَحِقَ فاقِدُه بالبهائمِ؛ فإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ وهو ماءٌ واحدٌ يكونُ عنه مُختلِفُ النَّباتِ، وضروبُ الأشجارِ، وأنواعُ الثَّمرِ المختلِفِ الحالاتِ مع وَحدةِ المادَّةِ؛ فمَن عقَلَ هذا عقَلَ وُجودَ الإنسانِ مِن نُطفةٍ واحدةٍ، كوحدةِ الماءِ النَّازلِ مِن السَّماءِ، ثمَّ يكونُ عن تلك النُّطفةِ شكْلُ الإنسانِ، وما يَنْطوي عليه خلْقُه، وتَشتمِلُ عليه جُملتُه، والمادَّةُ واحدةٌ؛ فالتَّلاقي والشَّبهُ بيْنَ الماءَينِ وما يُوجِدُه سُبحانه عنهما أوضَحُ شَيءٍ لِمَن عقَلَ، فكيف يَستبعِدُ العَودةَ مَن يُشاهِدُ ذلك أو يَعتبِرُ به(٢)؟!

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ إشارةُ تَحقيرٍ وقلَّةِ اكتراثٍ، وكيف لا وهي لا تَزِنُ عندَ اللهِ جَناحَ بعوضةٍ(٣)؟!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فقد زادَتْ هذه الآيةُ بتَوجيهِ اسمِ الإشارةِ إلى الحَياةِ، ولم تُوَجِّهِ الإشارةُ إلى الحياةِ في سُورةِ (الأنعامِ): ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٦-١٠٢٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ هذه الآيَةَ لم يَتقدَّمْ فيها ما يَقْتضي تَحقيرَ الحياةِ؛ فجِيءَ باسم الإشارةِ لإفادةِ تَحقيرِها، وأمَّا آيةُ سُورةِ (الأنعام) فتقدَّمَ قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، فذكَرَ لهم في تلك الآيةِ ما سيَظهَرُ لهم إذا جاءتْهُمُ السَّاعةُ مِن ذَهابِ حَياتِهم الدُّنيا سُدًى[١].

- وأمَّا تقديمُ ذِكْرِ اللَّهوِ هنا في قولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ وذِكْرِ اللَّعِبِ في سُورةِ (الأنعام)؛ فلأنَّ آيةَ سُورةِ (الأنعام) لم تَشتمِلْ على اسم إشارةٍ يُقصَدُ منه تَحقيرُ الحياةِ الدُّنيا، فكان الابتداءُ بأنَّها لعِبٌ مُشيرًا إلى تَحقيرِها؛ لأنَّ اللَّعِبَ أعرَقُ في قِلَّةِ الجَدْوى مِن اللَّهوِ[٢].

- والحَصرُ في قولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ حَصْرٌ ادِّعائيٌّ، يُقصَدُ به المُبالَغةُ؛ لأنَّ الأعمالَ الحاصلةَ في الحياةِ كثيرةٌ؛ منها اللَّهوُ واللَّعِبُ، ومنها غيرُهما، والمقصودُ مِن ذِكرِ الحياةِ هنا ما يَحصُلُ فيها ممَّا يُحِبُّها النَّاسُ لأجلِه، وهو المُلائِماتِ. ووجهُ حَصرِ الحياةِ الدُّنيا في اللَّهوِ واللَّعِبِ -مع كَونِ المُلائماتِ كثيرةً، ومنها ما ليس بلَعِبٍ ولَهْوٍ-: أنَّه لَمَّا كان مُعظمُ المُلائماتِ يَستدعي صرْفَ هِمَّةٍ وعَمَلٍ كانت مُشتمِلةً على شَيءٍ مِن التَّعبِ، وهو منافِرٌ؛ فكان مُعظَمُ ما يُحِبُّ الناسُ الحياةَ لأجْلِه هو اللَّهوَ واللَّعِبَ؛ لأنَّه الأغلبُ على أعمالِ النَّاسِ في أوَّلِ العُمُرِ، والغالبُ عليهم فيما بعدَ ذلك، إلَّا مَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا؛ فلذلك وقَعَ القصرُ الادِّعائيُّ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٤) و(٢١/ ٣١).

وقد تقدم تعريف القصر الادعائي (ص: ٦٠٨).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لَهِيَ دارُ الحياةِ الحقيقيَّةِ؛ لامتِناعِ طرَيانِ الموتِ عليها، أو هي في ذاتِها حَياةٌ؛ للمُبالَغةِ، و(الحيوانُ) مَصدرُ (حَيي) سُمِّيَ به ذو الحياةِ، وهو أبلَغُ مِن الحياةِ؛ لِمَا في بناءِ (فَعَلان) مِن الحركةِ والاضْطِرابِ اللَّازمِ للحياةِ، وهو أمَارةٌ على قوَّةِ الحَيويَّةِ في الشَّيءِ مِثْلَ الغَليانِ، والمقامُ يَقْتضي المُبالَغةَ؛ لأنَّه واقعٌ في مُقابلِ حياةِ الدُّنيا؛ فكما بُولِغَ في قلَّةِ ثَباتِها وسُرعةِ تَقَضِّيها -حيثُ جُعِلَت لهوًا ولعبًا تشبيهًا بلَعِبِ الصِّبيانِ، يَلْعَبون ساعةً ثمَّ يتفرَّقون- بُولِغَ في دوامِها وثباتِها[1].

- ولَمَّا أُشِيرَ في هذه الآيةِ إلى الحياةِ الآخرةِ في قولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣]، زادَهُ تَصريحًا بأنَّ الحياةَ الآخرةَ هي الحياةُ الحقُّ، وهمْ قد جَهِلوا الحياةَ الآخرةَ مِن أصْلِها؛ فلذلك قال: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال في (الأنعام): ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال هاهنا: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان الحالُ هناك حالَ إظهارِ الحسْرةِ، ما كان المُكلَّفُ يَحتاجُ إلى رادعٍ قَويٍّ، فقال: ﴿ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، ولمَّا كان هاهنا الحالُ حالَ الاشتغالِ بالدُّنيا، احتاجَ إلى رادعٍ قَويٍّ، فقال: لا حياةَ إلَّا حياةُ الآخرةِ، وهذا كما أنَّ العاقلَ إذا عُرِضَ عليه شَيئانِ، فقال في أحدِهما: هذا خيرٌ مِن ذلك، يكونُ هذا تَرجيحًا فحسْبُ، ولو قال: هذا جيِّدٌ، وهذا الآخرُ ليس بشَيءٍ؛ يكونُ تَرجيحًا مع

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

المُبالَغةِ، فكذلك هاهنا بالَغَ؛ لِكَونِ المُكلَّفِ مُتوغِّلًا فيها[١].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال في (الأنعام): ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ولم يقُلْ هاهنا إلَّا: ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾؛ وذلك لأنَّ الآخرةَ خيرٌ للمُتَّقي فحسْبُ، أي: المُتَّقي عن الشِّركِ، وأمَّا الكافرُ: فالدُّنيا جنَّتُه، فهي خيرٌ له مِن الآخرةِ، وأمَّا كَوْنُ الآخرةِ باقيةً، فيها الحياةُ الدَّائمةُ، فلا يَختَصُّ بقَومٍ دونَ قومٍ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦).

الآيات (٦٥-٦٩)

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: السُّفنِ، وواحِدُه وجَمْعُه بلَفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلك: الاستِدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[1].

﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾: أي: يُقتَلُ، ويُسلَبُ، ويُنهَبُ، ويُسْبَى، والخطفُ: الأخذُ بسُرعةٍ، وأصلُه: استِلابٌ في خِفَّةٍ[2].

﴿مَثْوًى﴾: أي: مَنزِلٌ، وأصْلُ الثَّوَاءِ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ؛ يُقالُ: ثَوَى يَثْوي ثَواءً[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ المشركينَ عندَما يَنزِلُ بهم البلاءُ، ويُحيطُ بهم، فيقولُ:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

فإذا رَكِبَ المُشرِكون في السَّفينةِ وخافوا الغَرَقَ، أخلَصوا الدُّعاءَ لله وأفرَدوه بالطَّاعةِ؛ ليُخَلِّصَهم مِنَ الهلاكِ، فلمَّا نجَّاهم اللهُ مِن الهلاكِ وأَمِنوا إلى البَرِّ، أشرَكوا باللهِ غيرَه! ليَجحَدوا نِعمةَ الله عليهم، ولِيَتمتَّعوا حتَّى حينٍ، فسوف يَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِهم!

ثمَّ يُذَكِّرُهم الله تعالى بنِعمةِ الحرَمِ الآمِنِ الَّذي يَعيشونَ في جِوارِه، فيقولُ: أوَلم يرَ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ أنَّا جعَلْنا مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا سالِمًا أهلُه من كُلِّ سوءٍ، وغَيرُهم مِنَ العَرَبِ حوْلَهم خائِفونَ في بلادِهم مِنَ القَتلِ والنَّهبِ والسَّبْيِ؟! أفبِالباطِلِ يُؤمِنونَ، وبنِعمةِ الله الَّتي أنعَمَ بها عليهم يَجحَدونَ، فيُشرِكونَ بعِبادةِ اللهِ غيرَه؟!

ثمَّ يُخبِرُ أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلَقَ على اللهِ كَذِبًا، أو كذَّب بالنَّبيِّ وبالقُرآنِ حينَ جاءَه، أليس في جهنَّمَ مأْوًى للكافرينَ؟!

ثمَّ يَختِمُ الله تعالى السُّورةَ ببيانِ عاقبةِ المُجاهِدينَ، فيقولُ: والَّذين جاهَدوا في اللهِ بعَمَلِ مَراضِيه وترْكِ مَساخِطِه لَنُوفِّقنَّهم إلى الطُّرُقِ الموصِلةِ إلى الرِّضوانِ، وإنَّ الله لَمَعَ المُحسِنينَ بالنَّصرِ والهِدايةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَتَم الآيةَ السَّابِقةَ بما أفهَمَ أنَّ المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ، والَّتي قَبْلَها بأنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلونَ؛ سَبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فصَحَّ أنَّهم لا يَعلَمونَ؛ لأنَّهم لا يَعقِلونَ؛ حيثُ يُقِرُّونَ بعَجزِ آلهتِهم ويُشرِكونَها معه! ففي ذلك أعظَمُ التهكُّمِ بهم(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ مُقِرُّونَ باللهِ إذا سُئِلوا: مَن خَلَق العالَمَ، ومَن نزَّل مِنَ السَّماءِ ماءً؛ ذكَرَ أيضًا حالةً أخرى يَرجِعونَ فيها إلى اللهِ، ويُقِرُّونَ بأنَّه هو الفاعِلُ لِما يُريدُ، وذلك حينَ رُكوبِ البَحرِ، واضْطِرابِ أمواجِه، واختلافِ رياحِه(٢).

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

أي: فإذا رَكِبَ المُشرِكونَ في السَّفينةِ، وخافوا الغَرَقَ والهلاكَ، أخلَصوا للهِ الدُّعاءَ، وأفرَدوا له الطاعةَ؛ لِيُخَلِّصَهم مِن تلك الشِّدَّةِ، وتَرَكوا اللُّجوءَ إلى آلهتِهم وقد عَلِموا أنَّها لا تَنفَعُهم(٣)!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ بالدِّينِ هنا: الدُّعاءُ: الثَّعلبيُّ، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وابن عاشور: يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٤/ ١٩٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

قال أبو السعودِ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ يونسَ الآية (٢٢): (﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير أنْ يُشركوا به شيئًا مِن آلهتِهم، لا مخصِّصينَ للدُّعاءِ به تعالى فقط، بل للعبادةِ أيضًا؛ فإنَّهم بمُجَرَّدِ تخصيصِ الدُّعاءِ به تعالى لا يَكونون مُخلِصينَ له الدِّينَ). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٤).

وقال ابن جرير: (﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يقولُ: أخلَصوا الله عندَ الشِّدَّةِ الَّتي نزلَتْ بهم التَّوحيدَ، وأفرَدوا له الطَّاعةَ، وأذعَنوا له بالعُبودة، ولم يَستغيثوا بآلهتِهم وأندادِهم، ولكنْ بالله الَّذي خلَقَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١).

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: فلمَّا نجَّى اللهُ المُشرِكينَ مِنَ الهلاكِ في البَحرِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ آمِنينَ؛ انقَلَبوا مُشرِكينَ باللهِ غَيرَه، وتركوا دُعاءَه وعبادتَه وَحْدَه[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بإسكانِ اللامِ، وهي لامُ وعيدٍ وتهديدٍ في لفظِ الأمرِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[2] [فصلت: ٤٠].

٢- قِراءةُ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ بكَسرِ اللَّامِ. قيل: اللامُ هنا للتَّعليلِ، وقيل: هي للأمرِ في معنى الوعيدِ والتَّهديدِ، فتكونُ بمعنى القِراءةِ الأولى[3].

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٥).

أي: يُشرِكُ أولئك الكُفَّارُ بعدَ إنجائِهم؛ لِيَجحَدوا نِعمةَ اللهِ عليهم، ولِيَتَمتَّعوا بدُنياهم القَصيرةِ الفانيةِ بَقيَّةَ أعمارِهم، ثمَّ لا يكونُ لهم نصيبٌ في الآخِرةِ الدَّائمةِ الباقيةِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

ممَّن اختار أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ وقولِه: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ للتَّعليلِ، أي: (لام كَيْ): الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

وقيل: اللَّامُ في ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ للأمرِ على معنى الوعيدِ. والمعنى: لِيَجحَدوا نعمةَ الله، ولِيَتمتَّعوا بباقي عُمُرِهم؛ فسوف يَعلَمونَ عاقبةَ كُفرِهم. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) (٣/ ٤٢٦).

وقال ابنُ جرير: (لام قولِه ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ صلَحَتْ أن تَكونَ بمعنَى كَيْ؛ لأنَّها شرطٌ لقَولِه: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ باللهِ، كيْ يَكْفُروا بما آتَيْناهم مِن النِّعَم، وليس ذلك كذلك في قولِه: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾؛ لأنَّ إشراكَهم باللهِ كان كفرًا بنعمتِه، وليس إشراكُهم به تَمَتُّعًا بالدُّنيا، وإنْ كان الإشراكُ به يُسَهِّلُ لهم سبيلَ التَّمَتُّعِ بها، فإذْ كان ذلك كذلك، فتوجيهُه إلى معنَى الوعيدِ أَوْلَى وأحَقُّ مِن توجيهِه إلى معنَى: وكَيْ يتَمَتَّعوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢).

وممَّن اختار أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ لامُ الأمر: البَغَويُّ، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٦٤).

وقيل: اللَّامُ في كِلا الفِعلَين: لامُ العاقبةِ. والمعنى: ولكِنْ شِرْكُهم هذا بعْدَ نِعمتِنا عليهم بالنَّجاةِ مِن البَحرِ؛ لِيَكونَ عاقبتُه كُفرَ ما آتَيْناهم، ومُقابَلةَ النِّعمةِ بالإساءةِ، ولِيُكمِلوا تمتُّعَهم في الدُّنيا الَّذي هو كتمَتُّعِ الأنعامِ، ليس لهم همٌّ إلَّا بُطونُهم وفُروجُهم. وممَّن قال بهذا: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

وقيل: اللَّامُ هنا للعاقبةِ في حَقِّ هؤلاء المشركين، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى تقديرِ الله عليهم ذلك فهي لامُ التَّعليلِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥). =

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوف يَعلَمُ الكُفَّارُ عاقِبةَ كُفرِهم حين يَرَونَ ما يَلقَونَ مِن عذابِ اللهِ[١]!

ثُمَّ ذكَّرهم الله تعالَى بنِعَمِه[٢]، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى المُشرِكينَ حالَهم عندَ الخَوفِ الشَّديدِ، ورأَوا أنفُسَهم في تلك الحالةِ راجِعةً إلى اللهِ تعالى؛ ذكَّرهم حالَهم عندَ الأمنِ العَظيمِ؛ فإنَّهم في أخوَفِ ما كانوا دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ ومُعترِفينَ بأنَّ هذه النِّعمةَ لا تكونُ إلَّا مِنَ اللهِ، وفي آمَنِ ما حَصَلوا عليه كَفَروا باللهِ، وهذا مُتناقِضٌ[٣]!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ أنَّا جعَلْنا بلَدَهم مكَّةَ حَرَمًا مَصونًا

= قال ابن كثير: (هذه اللَّامُ يُسَمِّيها كثيرٌ من أهلِ العربيَّةِ والتَّفسيرِ وعُلماءِ الأصولِ: لامَ العاقبةِ؛ لأنَّهم لا يَقصِدون ذلك، ولا شَكَّ أنَّها كذلك بالنِّسبةِ إليهم، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى تقديرِ الله عليهم ذلك وتقييضِه إيَّاهم لذلك فهي لامُ التَّعليلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥).

قال ابنُ عاشور: (الكفرُ هنا ليس هو الشِّركَ، ولكنَّه كُفرانُ النِّعمةِ؛ بقرينةِ قَولِه: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ فإنَّ الإيتاءَ بمعنى الإنعامِ، وبقرينةِ تفريعِه على ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ فالعِلَّةُ مُغايِرةٌ للمَعلولِ، وكُفرانُ النِّعمةِ مُسَبَّبٌ عن الإشراكِ؛ لأنَّهم لَمَّا بادَروا إلى شؤونِ الإشراكِ فقد أخَذوا يَكفُرونَ النِّعمةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦، ٧٧).

مِنَ النَّهبِ والتَّعدِّي، سالِمًا أهلُه مِن كُلِّ سوءٍ، والحالُ أنَّ غيرَهم مِنَ العَرَبِ حوْلَهم يَنْهَبُ بعضُهم بعضًا، ويَقتُلُ بعضُهم بعضًا، ويَسْبي بعضُهم بعضًا(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ * إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ * فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ١ - ٤].

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تبيَّنَ أنَّه لا وجْهَ لِشرْكِهم ولا لِكُفرِهم هذه النِّعمةَ الظَّاهِرةَ المكشوفةَ، تَسبَّب الإنكارُ في قَولِه(٢):

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾.

أي: أفبِالشِّركِ يُؤمِنُ أولئك القَومُ، وبالنِّعمةِ الَّتي أنعَمَ بها عليهم(٣) يَجحَدونَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٣).

قال القرطبي: (فأذكَرَهم اللهُ عزَّ وجلَّ هذه النِّعمةَ؛ لِيُذْعِنوا له بالطَّاعةِ، أي: جعلْتُ لهم حرَمًا آمنًا أَمِنوا فيه مِنَ السَّبْيِ والغارةِ والقَتلِ، وخلَّصْتُهم في البَرِّ كما خلَّصْتُهم في البحرِ، فصاروا يُشركون في البَرِّ، ولا يُشركونَ في البحرِ! فهذا تعجُّبٌ مِن تناقُضِ أحوالِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩).

(٣) قيل: المرادُ بهذه النِّعمةِ: خُصوصُ نعمةِ الأمنِ في مكَّةَ الَّتي اختَصَّهم اللهُ تعالى بها. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥).

=

فَيَجعَلونَ مَوضِعَ شُكرِهم له شِرْكَهم بعبادةِ غَيرِه[(١)]!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أوفَى اللهُ تعالى المشركينَ ما يَستأهِلونَه مِن تَشنيعِ أحوالِهم، وسُوءِ انتظامِ شُؤونِهم، جاء في عَقِبه بتَذييلٍ يَجمَعُها في أنَّها افتِراءٌ على اللهِ، وتكذيبٌ بالحقِّ، ثمَّ جَزاهم الجزاءَ الأوفى اللَّائقَ بحالِهم؛ وهو أنَّ النَّارَ مَثواهُم[(٢)].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾

أي: ولا أحدَ أظلَمُ مِمَّن اختلَقَ على اللهِ كَذِبًا، فادَّعى عليه ما لم يَقُلْه وما لا يَرضاه؛ كمَن زعَم أنَّ له شريكًا، أو كذَّب بمُحَمَّدٍ وبالقرآنِ حينَ جاءَه، مِن غيرِ أن يُمهِلَ نَفْسَه للنَّظَرِ والتَّأمُّلِ[(٣)].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: أليس في جهنَّمَ مأوًى ومقامٌ دائِمٌ للكافِرينَ[(٤)]؟!

= وقيل: المرادُ: جنسُ النِّعَمِ الَّتي أُوتوها؛ كإنجائِهم مِن الغرَقِ وغيرِ ذلك. ومِمَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٧، ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ المشركينَ الجاحِدينَ للتَّوحيدِ، الكافِرينَ بنِعَمِ اللهِ؛ أرْدَفه بحالِ عبادِه الصَّالحينَ، فقال[1]:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾.

أي: والَّذين بَذَلوا جُهْدَهم للعَمَلِ بما يُرضي اللهَ، وتَرْكِ ما يُسخِطُه[2] لَنَدُلَّنَّهم

= للبقاعي (١٤/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١١، ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٥).

(٢) ممَّن اختار العمومَ في معنى الجهادِ: الزمخشريُّ، وأبو حيان، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٦٥).

قال أبو حيان: (﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾: أطْلَق المجاهَدةَ، ولم يُقيِّدْها بمُتعلَّقٍ؛ ليتَناوَلَ المُجاهَدةَ في النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، والشَّيطانِ، وأعداءِ الدِّينِ. وما وَرَد مِن أقوالِ العلماءِ فالمقصودُ بها المثالُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧).

وقال ابن عطيَّة: (هي قبْلَ الجهادِ العُرفيِّ، وإنَّما هو جهادٌ عامٌّ في دينِ الله، وطلَبِ مَرْضاتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٦).

وقيل: المرادُ: بقولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ أي: مُجاهَدةُ الكفَّارِ والمشركين، وقتالُ أعداءِ الله. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابن زيد، وأبو سورة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٠).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ يعني: جِهادَ النَّفْسِ؛ مِنَ الصَّبرِ على إذايةِ الكفَّارِ، =

ونُوَفِّقَنَّهم إلى الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلينا وإلى رِضْوانِنا في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: وإنَّ الله لَمَعَ المُحسِنينَ بالحِفظِ والنَّصرِ، والإعانةِ والهدايةِ[٢].

= واحتمالِ الخروجِ عن الأوطانِ، وغيرِ ذلك. وقيل: يعني: القتالَ، وذلك ضعيفٌ؛ لأنَّ القتالَ لم يكن مأمورًا به حينَ نُزولِ الآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

وقال الألوسي: (﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ في شأنِنا ومِن أجْلِنا ولوجهِنا خالصًا؛ ففيه مُضافٌ مُقدَّرٌ). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٥).

وقال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وقال ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ ... وهذا يُفهَمُ منه معنيان؛ أحدُهما: أنَّ ذلك في مَرْضاتِه وطاعتِه وسَبيلِه، وهذا فيما يفعَلُه الإنسانُ باختياره ... والثَّاني: أنَّه بسبَبِه وبجِهتِه حَصَل ذلك، وهذا فيما يُصيبُه بغيرِ اختياره، وغالبُ ما يأتي قَولُهم: «ذلك في اللهِ» في هذا المعنى، فتأمَّلْ قولَه...: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾؛ فإنَّه يترتَّبُ عليه الأذى فيه سُبحانَه، وليست «في» هاهنا للظرفيَّةِ، ولا لمجرَّدِ السَّببيَّةِ، وإن كانت السَّببيةُ هي أصْلَها). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٣).

قال ابن عاشور: (سُبُلُ الله: الأعمالُ الموصِلةُ إلى رِضاهُ وثَوابِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦، ٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٦).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَومًا بارِزًا للنَّاسِ، إذْ أتاه رجُلٌ يمشي... قال: يا رَسولَ اللهِ، ما الإحسانُ؟ قال: الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ))(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فلا ينبغي للمؤمنِ أنْ يَستَنَّ بالكافرِ، فلا يَفزَعَ إلى الدُّعاءِ إلَّا عندَ الشَّدائدِ(٢)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ سَفَهُ مَن يَجعَلُ النِّعَمَ سببًا للأشَرِ والبَطَرِ؛ فإنَّ مَن فَعَل ذلك فيه شَبَهٌ من هؤلاء المشركينَ؛ لأنَّ الواجبَ على مَن أنعَمَ اللهُ عليه بنِعمةٍ أنْ يَزدادَ عِبادةً للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ العبادةَ مِن الشُّكرِ، فإذا أنعَمَ عليك ربُّك بنِعمةٍ فازدَدْ له شُكرًا(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ دَليلٌ على أنَّ معرِفةَ الرَّبِّ في فِطرةِ كُلِّ إنسانٍ، وأنَّهم إنْ غفَلوا في السَّرَّاءِ فلا شَكَّ أنَّهم يَلُوذونَ إليه في حالِ الضَّرَّاءِ؛ فعُلِمَ أنَّ الاشتِغالَ بالدُّنيا هو الصَّادُّ عن كلِّ خيرٍ، وأنَّ الانقِطاعَ عنها مُعينٌ للفِطرةِ الأولى المُستَقيمةِ؛ ولهذا نَجِدُ الفُقَراءَ أقرَبَ إلى كلِّ خيرٍ(٤).

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧) واللفظ له، ومسلم (٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحَذَرُ الشَّديدُ ممَّا عليه بعضُ المُسلِمينَ اليومَ، الَّذين ليس لهم هَمٌّ إلَّا التَّمتُّعَ بالدُّنيا فقط؛ فهؤلاء لا يَتحدَّثون إلَّا عن الرَّفاهيةِ والتَّرفيه، لكنْ أمراضُ القلوبِ وعِلَلُ وانحرافاتُ القلوبِ قَلَّ أن يَتكلَّموا عنها، مع أنَّها هي الأصلُ، فإذا مَرِضَتِ القُلوبُ، فما الفائدةُ مِن ترفيهِ الأبدانِ؟! ثُمَّ إنْ نَزَلَتْ نِقمةٌ مِن اللهِ ازدادوا حَسرةً -والعياذُ باللهِ، فترفيهُ القلوبِ بطاعةِ اللهِ سبحانه وتعالى هو الَّذي فيه الفائدةُ الحقيقيَّةُ للبدنِ وللقَلبِ ولكُلِّ شَيءٍ؛ قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[(١)] [النحل: ٩٧].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ أحرَى النَّاسِ بموافَقةِ الصَّوابِ أهلُ الجِهادِ[(٢)].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ مَن أحسَنَ فيما أُمِرَ به أعانه اللهُ، ويسَّرَ له أسبابَ الهدايةِ[(٣)].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ مَن جَدَّ واجتهد في طَلَبِ العِلمِ الشَّرعيِّ، فإنَّه يَحصُلُ له مِن الهدايةِ والمَعونةِ على تحصيلِ مَطلوبِه أمورٌ إلهيَّةٌ خارجةٌ عن مَدرَكِ اجتهادِه، وتيسَّر له أمرُ العِلمِ؛ فإنَّ طلَبَ العِلمِ الشَّرعيِّ مِن الجهادِ في سبيلِ الله، بل هو أحَدُ نَوْعَيِ الجهادِ الَّذي لا يقومُ به إلَّا خواصُّ الخَلقِ، وهو الجِهادُ بالقَولِ واللِّسانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والجِهادُ على تعليمِ أمورِ الدِّينِ، وعلى ردِّ نزاعِ المخالِفينَ للحَقِّ، ولو كانوا مِن المُسلِمينَ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ عَلَّقَ سُبحانَه الهِدايةَ بالجِهادِ، فأكمَلُ النَّاسِ هدايةً أعظَمُهم جِهادًا، وأفرَضُ الجِهادِ: جِهادُ النَّفْسِ، وجِهادُ الهوى، وجِهادُ الشَّيطانِ، وجِهادُ الدُّنيا؛ فمَن جاهَدَ هذه الأربعةَ في اللهِ هَداه اللهُ سُبُلَ رِضاهُ الموصِلةَ إلى جنَّتِه، ومَن تَرَكَ الجِهادَ فاتَه مِن الهُدَى بحسَبِ ما عَطَّلَ مِن الجِهادِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المانِعَ مِن التَّوحيدِ هو الحياةُ الدُّنيا، وبيانُ ذلك هو أنَّهم إذا انقطَع رجاؤُهم عن الدُّنيا رجَعوا إلى الفِطرةِ الشَّاهِدةِ بالتوحيدِ، ووَحَّدوا وأخلَصوا، فإذا أنجاهم وأرجأَهم عادوا إلى ما كانوا عليه مِن حُبِّ الدنيا، وأشرَكوا[٣]!

٢- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أنَّ اللُّجوءَ إلى اللهِ في حالِ الشِّدَّةِ أمرٌ فِطْريٌّ؛ بدليلِ أنَّ هؤلاء غَلَبَتْهم فِطْرَتُهم حتَّى دَعَوُا اللهَ وحْدَه مُخلِصينَ له الدِّينَ[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).
(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٩).

إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّه سبحانَه يَستجيبُ للمُضْطَرِّ، ولو كان كافرًا؛ لِمَوضِعِ اضْطِرارِه وإخلاصِه، وللإخلاصِ عندَه سُبحانَه مَوقِعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّ الكافرَ كان يُوَحِّدُ اللهَ في الشِّدَّةِ والبلاءِ، دونَ النِّعمةِ والرَّخاءِ[٢]؛ وعليه فإنَّ إشراكَ السَّابقينَ أهْوَنُ مِن إشراكِ مَن أشرَكَ مِن المتأخِّرينَ مِن هذه الأمَّةِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ المتأخِّرينَ يُشرِكون في الرَّخاءِ وفي الشِّدَّةِ، وأيضًا لا يَدْعونَ اللهَ سبحانه وتعالى، لكنْ يَدْعُون أولياءَهم[٣]!

٥- في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ سؤالٌ: أنَّه يُشكِلُ على هذا أنَّ مِثلَ هذه الصِّيغةِ تأتي في سياقاتٍ أخرَى، وقد جَمَعهم اللهُ تعالى في آيةٍ واحدةٍ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وأيضًا قولُه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٤]، ووردَ في الحديثِ: ((ومَن أظْلَمُ ممَّن ذَهَب يَخْلُقُ كخَلْقي))[٤]!

والجوابُ مِن أحدِ وجهَينِ:

الأوَّل: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا مِن الظُّلم؛ فكلُّها في مقامِ الأظْلَميَّةِ، فـ(أفعلُ التَّفضيلِ) لا تمنعُ التَّساويَ، ولكنَّها تمنعُ الزِّيادةَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٣٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

وعلى ذلك فلا مُعارَضةَ ألبَتَّةَ بينَ الآياتِ؛ فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم مُتساوونَ في مرتبةِ الظُّلْمِ.

الثَّاني: أنَّ هذه المواضعَ تتخصَّصُ بصِلاتِها، ومعنَى (تتخصَّصُ بصِلاتِها): أنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صِلةُ مَوصُولِه، أي: أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها؛ فيكونُ المعنَى: لا أحدَ مِنَ المُفْتَرِينَ أظلَمُ مِمَّن افترَى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ، ولا أحدَ مِنَ المُعْرِضِينَ أظلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعرَضَ عنها... إلخ[1].

٦- ذَكَر اللهُ تعالى لفظةَ «السَّبيلِ» في القرآنِ بصيغةِ الإفرادِ، كقولِه سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وذَكَر في مواطنَ أُخرَى في القرآنِ الكريمِ لفظةَ «السَّبيلِ» بصيغةِ الجَمْعِ، كقولِه سبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وقولِه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، ووجْهُ ذلك: أنَّ السَّبيلَ المضافَ إلى اللهِ تعالى تارةً يكونُ مفردًا، وتارةً يكونُ جمعًا؛ لكنْ إذا كان جمعًا غيرَ مضافٍ إلى اللهِ فهو سُبُلُ الضَّلالِ، يُفْرَدُ السَّبيلُ المضافُ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه سبيلٌ واحدٌ يُوصِلُ إلى اللهِ -وهو الإسلامُ-، وتُجْمَعُ سُبُلُ الضَّلالِ؛ لأنَّها متفرِّقةٌ: هذا نصرانيٌّ، وهذا يهوديٌّ، وهذا شيوعيٌّ، وهذا بعثيٌّ، وهذا مُلْحِدُ، إلى آخِرِه، فهي سُبُلٌ متفرِّقةٌ، وكلُّها ضلالٌ، وما جَمَعَه اللهُ تعالى من السَّبيلِ المضافِ إليه؛ فإنَّما يَجْمَعُه لِتَنَوُّعِ العباداتِ الَّتي هي سبيلُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٠).
والوجهُ الأوَّلُ مخرَّجٌ على قاعدةِ: (نفْيُ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

هذه صلاةٌ، وهذه زكاةٌ، وهذا صيامٌ، وهذا حجٌّ، وهذا جهادٌ، وهذا أمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ عن منكرٍ، وهذه دعوةٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فصار جمْعُه له وجهٌ، وإفرادُه له وجهٌ آخرُ، أمَّا سُبُلُ الضَّلالِ فإنَّها مُتفرِّقةٌ؛ فلا تكونُ إلَّا مجموعةً[١].

٧- المؤمِنُ يُثابُ على الحَسَنةِ بحسنةٍ أُخرَى، فإذا عَمِلَ بعِلمِه ورَّثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعلَمْ، وإذا عَمِل بحَسَنةٍ دَعَتْه إلى حَسَنةٍ أخرى؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[٢] [محمد: ١٧].

٨- الجِهادُ مُوجِبٌ للهدايةِ الَّتي هي مُحيطةٌ بأبوابِ العلمِ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، فجَعَل سُبحانَه لِمَن جاهَدَ فيه هِدايةَ جميعِ سُبُلِه تعالى، ولهذا قال الإمامانِ عبدُ اللهِ بنُ المُبارَكِ وأحمدُ بنُ حَنْبَلٍ وغيرُهما: (إذا اختلَفَ النَّاسُ في شَيءٍ فانظُروا ماذا عليه أهلُ الثَّغْرِ؛ فإنَّ الحقَّ معهم؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾)[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ لم يَقُلْ: «لَنَهْدِيَنَّهم إلى»، بل قال: ﴿سُبُلَنَا﴾، فعَدَّى الهدايةَ بنَفْسِها إلى المفعولِ الثَّاني؛ فيَشْمَلُ ذلك هِدايةَ الدَّلالةِ وهدايةَ التَّوفيقِ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ في سورةِ الفاتحةِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] لم يَقُلْ: «اهدِنا إلى الصِّراطِ المستقيم»، بل قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ فيَشملُ الهِدايةَ إليه، ويَشملُ الهدايةَ فيه؛ فالهدايةُ إليه: الدَّلالةُ إليه، أي: يَدُلُّك على الصِّراطِ المستقيمِ، والهدايةُ فيه: أن يُوَفِّقَك للعَمَلِ في إطارِ هذا الصِّراطِ؛

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٢).

فقولُه تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يَشملُ الأمْرَينِ: هِدايةَ الدَّلالةِ والعِلمِ، وهدايةَ التَّوفيقِ والإرشادِ(١).

١٠- مَن تأمَّل فاتحةَ هذه السُّورةِ ووسَطَها وخاتمَها وجَد في ضِمْنِها أنَّ أوَّلَ الأمرِ ابتلاءٌ وامتحانٌ، ووسَطَه صبرٌ وتَوكُّلٌ، وآخِرَه هدايةٌ ونصرٌ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ هذا انتقالٌ إلى إلزامِهم بما يَقْتضيه دُعاؤهم حينَ لا يُشرِكون فيه إلهًا آخَرَ مع اللهِ، بعدَ إلْزامِهم بمُوجباتِ اعترافاتِهم؛ فإنَّهم يَدْعون أصنامَهم في شُؤونٍ مِن أحوالِهم ويَستنصِرونهم، ولكنَّهم إذا أصابهم هَوْلٌ توجَّهوا بتضَرُّعِهم إلى اللهِ. وإنَّما خصَّ بالذِّكرِ حالَ خَوفِهم مِن هَولِ البحرِ في هذه الآيةِ وفي آياتٍ كثيرةٍ -مِثْلُ ما في سُورةِ (يُونسَ)، وما في سُورةِ (الإسراءِ)-؛ لأنَّ أسفارَهم في البَرِّ كانوا لا يَعْتَريهم فيها خَوفٌ يعُمُّ جميعَ السَّفرِ؛ لأنَّهم كانوا يُسافِرون قوافِلَ، معهم سلاحُهم، ويَمُرُّون بسُبُلٍ يأْلَفونها، فلا يَعترِضُهم خَوفٌ عامٌّ، فأمَّا سَفَرُهم في البحرِ فإنَّهم يَفْرَقون مِن هَولِه، ولا يَدفَعُه عنهم وَفْرةُ عدَدٍ، ولا قوَّةُ عُدَدٍ، فهم يَضَّرَّعون إلى اللهِ بطَلَبِ النَّجاةِ، ولعلَّهم لا يَدْعُون أصنامَهم حينَئذٍ، فأمَّا تَسخيرُ المخلوقاتِ فما كانوا يطْمَعون به إلَّا مِن اللهِ تعالى، وأيضًا كان يُخامِرُهم الخَوفُ عندَ رُكوبِهم في البحرِ؛ لقِلَّةِ إلْفِهم برُكوبِه؛ إذ كان مُعظَمُ أسفارِهم في البَراري(٣).

- وأفادتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ تَفريعَ ما بعْدَها على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

ما قبْلَها، والمُفرَّعُ عليه مَحذوفٌ، ليس هو واحدًا مِن الأخبارِ المُتقدِّمةِ بخُصوصِه، ولكنَّه مجموعُ ما تدُلُّ عليه قوَّةُ الحديثِ عنهم وما تَقْتضيهِ الفاءُ، والتَّقديرُ: همْ -أي: المُشرِكون- على ما وُصِفوا به مِن الغفلةِ عن دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، وإلْغائِهم ما في أحوالِهم مِن دَلائلِ الاعترافِ للهِ بها؛ لا يَضَّرَّعون إلَّا إلى اللهِ، فإذا رَكِبوا في الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ؛ فضمائرُ جمْعِ الغائبينَ عائدةٌ إلى المشركينَ[١].

- والرُّكوبُ هو الاستعلاءُ على الشَّيءِ المُتحرِّك، وهُو مُتعَدٍّ بنفْسِه كما في قولِه تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا ﴾ [النحل: ٨]، واستعمالُه هاهنا وفي أمثالِه بكلمةِ (في)؛ للإيذانِ بأنَّ المركوبَ في نفْسِه مِن قَبيلِ الأمكنةِ، وحَركتَه قَسْريةٌ غيرُ إراديَّةٍ[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ جِيءَ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ابتَدَروا إلى الإشراكِ في حِينِ حُصولِهم في البَرِّ، أي: أَسْرَعوا إلى ما اعْتادوهُ مِن زِيارةِ أصنامِهم والذَّبحِ لها[٣]!

- وفي تَسميتِهم مُخلِصينَ: ضرْبٌ مِن التَّهكُّمِ[٤]؛ فأمَّا على أنَّ المرادَ بالدِّينِ المِلَّةُ فظاهرٌ، وأمَّا على أنَّ المرادَ الطَّاعةُ؛ فلأنَّهم لا يَستمِرُّونَ على هذه الحالِ، فهي قبيحةٌ باعتبارِ المآلِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

٢- قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

- الأمرُ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُواْ .. وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ على سَبيلِ التَّهديدِ، كقولِه: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠](١)، وذلك على القولِ بأنَّ اللَّامَ فيهما لامُ الأمرِ.

٣- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ هذا تَذكيرٌ خاصٌّ لأهلِ مكَّةَ، وإنَّما خُصُّوا مِن بيْنِ المشركينَ مِن العربِ؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ قُدوةٌ لجميعِ القبائلِ، وأكثَرُ قبائلِ العربِ كانوا يَنتظِرون ماذا يكونُ مِن أهْلِ مكَّةَ، فلمَّا أسلَمَ أهْلُ مكَّةَ يومَ الفتْحِ، أقبَلَتْ وُفودُ القبائلِ مُعلِنةً إسلامَهم. والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، باعتبارِ ما اشتمَلَت عليه تلك الجُملةُ مِن تَقريعِهم على كُفرانِ نِعَمِ اللهِ تعالى؛ ولذلك عُقِّبَت هذه الجُملةُ بقولِه: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾(٢).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، جُعِلَت نِعمةُ أمْنِ بلَدِهم كالشَّيءِ المُشاهَدِ، فأنكَرَ عليهم عدَمَ رُؤيتِه(٣).

- قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: آمِنًا أهْلُه عمَّا يَسوؤُهم مِن السَّبْيِ والقتلِ، على أنَّ أمْنَه كِنايةٌ عن أمْنِ أهلِه، أو على أنَّ في الكلامِ مضافًا مقدَّرًا(٤). وقيل: لَمَّا أمِنَ كُلُّ مَن دخَله، كان كأنَّه هو نفْسَه الآمِنُ(٥). وقيل: بل الصَّوابُ أنَّ الحرَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣، ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٨).

نفْسَه آمِنٌ؛ ولهذا عصَمه الله سبحانه وتعالى مِن كلِّ أحدٍ[(١)].

- والمُضارِعُ في المواضعِ الثَّلاثةِ -﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَكْفُرُونَ﴾-: دالٌّ على تجدُّدِ الفِعلِ[(٢)].

- قولُه: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ فيه تَقديمُ الصِّلَتَينِ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، أو الاختِصاصِ على طَريقِ المُبالَغةِ[(٣)]، أو لإظهارِ كَمالِ شَناعةِ ما فعَلوا[(٤)].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

- افتتَحَ تَشخيصَ حالِهم بالاستِفهامِ عن وُجودِ فريقٍ هم أظلَمُ مِن هؤلاء الَّذين افترَوا على اللهِ، وكذَّبوا بالحقِّ؛ تَوجيهًا لأذهانِ السَّامعينَ نحْوَ البحثِ هلْ يَجِدون أظلَمَ منهم؟ حتَّى إذا أجادوا التَّأمُّلَ، واستَقْرَوْا مَظانَّ الظَّلَمةِ، واستَعْرَضوا أصنافَهم؛ تَيقَّنوا أنْ ليس ثَمَّةَ ظُلْمٌ أشَدُّ مِن ظُلْمِ هؤلاء[(٥)].

- وتَقْييدُ الافتِراءِ بالحالِ المُؤكِّدةِ في قولِه: ﴿كَذِبًا﴾؛ لِزيادةِ تَفظيعِ الافتِراءِ؛ لأنَّ اسمَ الكَذِبِ مُشتهَرُ القُبْحِ في عُرْفِ النَّاسِ، وإنَّما اختيرَ الافتِراءُ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يَتعمَّدونَ الاختلاقَ تعمُّدًا لا تُخالِطُه شُبْهةٌ[(٦)].

- وتَقْييدُ تَكذيبِهم بالحقِّ بقولِه: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾؛ لإدماجِ ذَمِّ المُكذِّبين بنُكرانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٥).

نِعمةِ إرسالِ الحقِّ إليهم الَّتي لم يَقْدُروها قَدْرَها، وكان شأْنُ العُقلاءِ أنْ يَتطلَّبوا الحقَّ، ويَرحَلوا في طَلبِه، وهؤلاءِ جاءهم الحقُّ بيْنَ أيدِيهم فكذَّبوا به! وأيضًا فإنَّ (لَمَّا) التَّوقيتيَّةَ تُؤْذِنُ بأنَّ تَكذيبَهم حصَلَ بِدارًا عندَ مَجِيءِ الحقِّ، أي: دونَ أنْ يَترُكوا لأنفُسِهم مُهلةَ النَّظرِ[١].

- وجُملةُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وتَقريرٌ لها؛ لأنَّ في جُملةِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ إلى آخرِها، إيذانًا إجماليًّا بجزاءٍ فَظيعٍ يَترقَّبُهم، فكان بَيانُه بمَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، وهو بألفاظِه ونظْمِه يُفيدُ تمكُّنَهم من عذابِ جهنَّمَ؛ إذ جُعِلَت مَثْواهم؛ فالمَثْوى: مكانُ الثَّواءِ، والثَّواءُ: الإقامةُ الطَّويلةُ والسُّكْنى. وعُلِّق ذلك بعُنوانِ الكافرينَ؛ للتَّنبيهِ على استِحقاقِهم ذلك لأجْلِ كُفْرِهم[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ تَقريرٌ لِثَوائِهم في جهنَّمَ، أي: أَلَا يَستوجبونَ الثَّواءَ فيها، وقد فعَلوا ما فعَلوا مِنَ الافتراءِ على اللهِ تعالى، والتَّكذيبِ بالحقِّ الصَّريحِ؟! أو إنكارٌ واستِبعادٌ لاجترائِهم على ما ذُكِرَ من الافتراءِ والتَّكذيبِ مع عِلْمِهم بحالِ الكَفَرةِ، أي: ألَمْ يَعْلَموا أنَّ في جهنَّمَ مَثْوًى للكافرينَ حتَّى اجْتَرؤوا هذه الجَراءةَ[٣]؟! فالهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ، وأصْلُها: إمَّا الإنكارُ بتنزيلِ المُقِرِّ مَنزِلةَ المُنكِرِ؛ لِيَكونَ إقرارُه أشَدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨).

لُزومًا له، وإمَّا أنْ تكونَ للاستفهامِ، فلمَّا دخَلَت على النَّفيِ أفادَتِ التَّقريرَ؛ لأنَّ إنكارَ النَّفْيِ إثباتٌ للمَنْفيِّ، وهو إثباتٌ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ على وجْهِ الكِنايةِ. وهذا تَقريرٌ لمَنْ يَسمَعُ هذا الكلامَ، وجُعِلَ كَوْنُ جهنَّمَ مَثْواهم أمْرًا مُسَلَّمًا معروفًا -بحيث يُقِرُّ به كلُّ مَن يُسْألُ عنه- كِنايةً عن تَحقُّقِ المَغْبَّةِ على طَريقةِ إيماءِ الكِنايةِ(١).

- والتَّعريفُ في (الكافرين) تعريفُ العهْدِ، أي: لهؤلاء الكافرينَ، وهم الَّذين ذُكِروا مِن قبْلُ بأنَّهم افترَوا على اللهِ كذِبًا، وكذَّبوا بالحقِّ، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ الإتيانَ بضَميرِهم، فعُدِلَ عنه إلى الاسمِ الظاهرِ؛ لإحضارِهم بوصْفِ الكُفْرِ(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ختَمَ تَوبيخَ المشركينَ وذَمَّهم بالتَّنويهِ بالمؤمنينَ؛ إظهارًا لمَزيدِ العِنايةِ بهم، فلا يَخْلو مَقامُ ذَمِّ أعدائِهم عن الثَّناءِ عليهم؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ الأعداءَ غيظًا وتَحقيرًا. والَّذين جاهَدوا في اللهِ هم المؤمنونَ الأوَّلونَ؛ فالمَوصولُ بمَنزلةِ المُعرَّفِ بلامِ العهْدِ. وجِيءَ بالمَوصولِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ سببُ الخَبرِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ؛ فقد أطلَقَ المُجاهَدةَ ولم يُقيِّدْها بمَفعولٍ؛ لِيَتناوَلَ كلَّ ما يجِبُ مُجاهَدتُه؛ مِن النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، والشَّيطانِ، وأعداءِ الدِّينِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢١/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٦١).

- وفي قولِه: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ إيماءٌ إلى تَيسيرِ طَريقِ الهجرةِ الَّتي كانوا يتأَهَّبون لها أيَّامَ نُزولِ هذه السُّورةِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَذييلٌ للآيةِ، مُؤكَّدٌ بكَلِمتَيِ التَّوكيدِ (إنَّ) واللَّامِ[2]. وإنَّما جِيءَ بها مَعطوفةً؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُهِمَّ مِن سَوقِها هو ما تَضمَّنَتْه مِن أحوالِ المؤمنينَ، فعُطِفَت على حالتِهم الأُخرى، وأفادَتِ التَّذييلَ بعُمومِ حُكْمِها[3].

- والمُرادُ بـ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جميعُ الَّذين كانوا مُحسنينَ، أي: كان عمَلُ الحَسناتِ شِعارَهم، وهو عامٌّ. وفيه تَنويهٌ بالمؤمنينَ بأنَّهم في عِدادِ مَن مَضى مِن الأنبياءِ والصَّالحينَ، وهذا أوقَعُ في إثباتِ الفوزِ لهم ممَّا لو قِيل: فأولئك المُحسِنون؛ لأنَّ في التَّمثيلِ بالأُمورِ المُقرَّرةِ المشهورةِ تَقريرًا للمَعاني[4].

- وهذه خاتمةٌ شريفةٌ للسُّورةِ؛ لأنَّها مُجاوِبةٌ لِمُفْتَتَحِها، ناظرةٌ إلى فَريدةِ قِلادتِها ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، لامِحةٌ إلى واسطةِ عِقْدِها ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وهي في نفْسِها جامعةٌ فاذَّةٌ[5].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠٦).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّالثُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الرَّابعُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الرُّومِ

الفهرس







الفهرس

سورةُ القَصَصِ

سورةُ العَنكَبوتِ

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠